

مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية

يونيو 2011 - 20 درهما

المغرب زمن الحماية

مصطفى الشابي
وداد بوغفالة
محمد دحمان
علي بولربح
رشيد يشوتي
محمد العبوتي

عز المغرب معنينو
جان دوتري
عبد اللطيف عوام
صالح شكاك
المصطفي الريس
حسن الصادقي

البضاوية بلكامل
جليل بناني
إبراهيم الخطيب
سلوى الزاهري
المهدي بن محمد السعيدي
محمد حبيدة

منشورات

وزارة الثقافة

90-89



مجلة فصلية تصدرها وزارة الثقافة المغربية

تصفيف وسحب : **مطبعة دار المناهل.**
الإيداع القانوني : 1974/6
ردمك : 025-0851

المراسلة :
مجلة المناهل : وزارة الثقافة
1، زنقة غاندي ـ الرباط
الهاتف : 90 40 27 -91 40 27 37 05 212+
الفاكس : 93 2740 37 05 212+
البريد الإلكتروني:
revuemanahil@minculture.gov.ma

المغرب زمن الحماية

- مرحلة تحدي الاستعمار الفرنسي
- ابعاد الحماية الإسبانية بين شمال المغرب وجنوبه
- مدن مغربية في خط المواجهة
- صورة الاستعمار
- رحلة الطب والتحليل النفسي الى المغرب
- اضاءات



تقديـــم

في السنوات الأخيرة لوحظ اهتمام كبير بفترة الحماية في المغرب، وقد تجلى ذلك في مستويات ثلاثة:

الأول :في عدد الأطروحات والرسائل الجامعية التي تناولت هذه المرحلة من تاريخ المغرب بعدما كانت إلى منتصف الثمانينات من القرن الماضي "القريب الفقير" في مجال البحث الجامعي.وقد تعرضت هذه الأطروحات لمواضيع مختلفة تراوحت بين الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

الثاني :في المذكرات التي نشرت حول هذه المرحلة لفاعلين سياسيين تعرضوا بالأساس لمواقع المقاومة المغربية ضد الاحتلال الفرنسي.وقد ساهمت هذه المذكرات في إماطة اللثام عن مجالات ظليلة في تاريخ الحماية ودفعت عددا من الباحثين إلى استغلالها محللين محتوياتها ومقارعين أياها بما توافر في الأرشيفات الأجنبية.

الثالث :في عدد المناظرات والندوات التي خصصت لهذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب وتكفي الإشارة إلى ندوتين دوليتين نظمتهما كلية الآداب بالرباط وسلسلة اللقاءات التي نظمتها المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير.

وسواء في معظم الأطروحات الجامعية ومذكرات الوطنيين وبعض قادة المقاومة بل وحتى في كثير من الندوات والملتقيات، يستشف وضع مرحلة الحماية في تاريخ المغرب بين قوسين، بل و التركيز على الجوانب السلبية. واليوم ونحن نشارف على مضي قرن من توقيع عهد الحماية نقترح إعادة زيارة هذه المرحلة ودراستها بعيدا عن التشنج بغية تقييم التجربة والوقوف عند سلبياتها وإيجابيتها، لأننا نعتقد أن استقلال المغرب أسس على ما تراكم خلال هذه الحقبة.

وهذا العدد من مجلة المناهل يسعى إلى الوقوف على بعض معالم تاريخ الحماية في المغرب من خلال خمسة محاور خصص الأول منها لدراسة أشكال تحدي الاستعمار الفرنسي حيث تم الوقوف عند دلالة سنة 1930 في المغرب، فهذه السنة تعتبر علامة مميزة لأنها عرفت إصدار الظهير البربري في 16 ماي 1930. وكان لهذا الحدث تداعيات من قمة المغرب إلى قاعدته مرورا بنخبه التي لعبت دورا كبيرا في تأطير الجماهير من أجل رفع تحد من تحديات الاستعمار .على أن رفع التحديات لم يكن شأنا مغربيا فحسب بل تقاسمته شعوب المغرب العربي وبدا ذلك واضحا في خطابات النخبة المغاربية منذ بداية القرن التاسع عشر.

أما المحور الثاني فقد تم تخصيصه للحماية الإسبانية في المغرب، وتنبع أهمية هذا المحور في كونه يعالج مواضيع طريفة ونادرا ما تم التطرق إليها .فالكتابة التاريخية الإسبانية حول منطقة الصحراء على عكس ما تم تخصيصه من كتابات فرنسية قليلة جدا .ورغبة في التعريف بهذا التراث تم التركيز على ما تم تأليفه من سنة 1885 إلى 1975 من قبل مجموعة من الرحالة والأكاديميين والضباط العسكريين، ومن ثم رصد جانب من جوانب

المعرفة الاستعمارية الإسبانية بالمغرب في أفق إعادة كتابة تاريخ الظاهرة الاستعمارية على أسس علمية رصينة تتجاوز وضع المعرفة الاستعمارية واجهة للتصارع فقط.

وتقتضي كتابة التاريخ على أسس علمية رصينة الاعتماد المكثف للأرشيف والمستندات الوثائقية وهو ما نلمسه في المقال المخصص للعلاقات المغربية الإسبانية عشية التوقيع على عقد الحماية حيث تم استعراض هذه العلاقات من خلال وثائق الأرشيف الإسباني والوثائق المخزنية سلطت الضوء على عدد من جوانب مقاربة المخزن المغربي لعلاقاته الدبلوماسية. وفي إطار إلقاء مزيد من الأضواء على الحماية الإسبانية في المغرب تم الكشف عن خفايا احتلال إسبانيا لمدينة طنجة التي كان لها وضع دولي خاص، ما بين يونيو 1940 وأكتوبر 1945 وهو الاحتلال الذي كان له صدى كبير في العواصم العالمية وأثر إلى حد كبير على الوضع الإسباني في المغرب وورط إسبانيا في أزمة صعب عليها تجاوزها.

أما المحور الثالث فقد خصص لدراسة المجال المغربي في علاقته بالاستعمار، فمن جهة تم رصد أسس ومقاصد السياسة الجهوية في المغرب وحصيلة وإكراهات هذه السياسة، فبالرغم من الجهود التي قامت بها إدارة الحماية الفرنسية في تنظيم المجال الترابي إلا أن التنظيم الجهوي ظل غير مستقر خلال هذه المرحلة، وهو ما دعا الإدارة إلى تكريس مزيد من الجهود من أجل سن سياسة جهوية واضحة تتمثل في زيادة الطلب على إنجاز مونوغرافية ودراسات تركيبية للمجال المغربي. ومن جهة ثانية تم استعراض مختلف أشكال مواجهة الحواضر لواقع الحماية. وتنبع أهمية هذا المحور من كونه تناول بالدراسة والبحث مدينتين مغربيتين متوسطيتين، وكسر تلك

القاعدة المعروفة والتي تجعل دائما مراكش وفاس في واجهة الحدث، كما تنبع أهمية المحور أيضا في كونه قدم لنا نظريتين متقابلتين، الأولى لفرنسي معاصر لمرحلة الحماية كتب عن مدينة أزمور وخصص الفصل الأخير من كتابه عن المدينة لمرحلة ما بين 1908 و 1927 حيث تتبع بكثير من الدقة الإنزال العسكري الفرنسي بالمدينة، والثاني لمغربي يتتبع كيفية مواجهة مدينة سلا للحماية والاستيطان معتمدا وثائق أسرية غاية في الأهمية تكشف جوانب مهمة من تاريخ مدينة سلا في القرن العشرين.

أما المحور الرابع فقد خصص لصورة الاستعمار وانتظم في قراءتين، الأولى لصحيفة الوداد التي كانت تصدر منذ سنة 1927 وقد تم تتبع علاقة شيوخ الزاوية بالسلطات الاستعمارية الفرنسية، وقد كانت هذه القراءة فرصة لإعادة النظر في أحكام القيمة التي جعلت دائما من شيوخ الزوايا عملاء للسلطات الاستعمارية وتواطؤهم معها ضد الحركة الوطنية حيث استخلص أن هذه الأحكام كانت مجرد أداة لإقصاء الزوايا وتهميش أدوارها .أما القراءة الثانية فجاءت للخطاب الذي ألقاه المقيم العام الفرنسي"نوجس" أمام القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة، هذا الخطاب الذي خصصه للحديث عن سبل مقاومة البؤس والتهميش والفقر في نهاية الثلاثينات من القرن العشرين وللأوضاع السكنية والفلاحية في البلاد كما خصصه أيضا للقطاعات الحيوية كالتعليم بشقيه الفرنسي والإسلامي.

ويسعى المحور الخامس إلى الكشف عن الوضع الطبي في مغرب الحماية من خلال إثارة الانتباه إلى وضعية المؤسسات الصحية في المغرب و تتبع سير الأطباء المغاربة الذين أوردهم الفقيه الكانوني في كتابه "تاريخ الطب العربي في المغرب"، وهو كتاب يندرج ضمن روح العصر عند مثقفي

المرحلة حيث السعي إلى استنهاض الهمم من أجل الإقبال على العلوم والمعارف العصرية. ويروم بحث آخر في هذا المحور إلى استعراض رحلة التحليل النفسي إلى المغرب عن طريق أحد رواد حركة التحليل النفسي روني لافورك الذي انتقل ليعيش بالمغرب منذ سنة 1948.

وبالإضافة إلى الدراسات االمصنفة في المحاور أعلاه يتضمن العدد تعريفا وقراءة نقدية لبعض الكتب الأول منها لمؤرخ التجارة المغربية المشهور ماس لاطري الذي استفاد من مختلف أرشيفات البلدان المتوسطية التي ارتبطت بعلاقات مع المغرب خلال المرحلة الوسيطية و نفض الغبار عن الاتفاقيات التجارية المبرمة بين المغرب والقوى المتوسطية الوسيطية. والثاني عبارة عن قرا ءة في أهم ما قدمه المؤرخون المغاربة في مجال البحث الاجتماعي في العقدين الأخيرين وذلك من خلال كتاب "من الزطاط إلى قاطع الطريق" لعبد الأحد السبتي الذي يعتبر بشهادة العديد من المتخصصين علامة مميزة في الكتابة التاريخية المعاصرة. أما الثالث فهو كتاب للأمريكي واتسون كينتنير يوثق فيه للتراث الثقافي المغربي في عهد الحماية.

المناهـل

مرحلة تحدي الاستعمار الفرنسي



سنة 1930 في المغرب
أو المغاربة واستعادة الثقة في النفس

مصطفى الشابي*

تمهيد

إن وِفْقَ الحماية الذي أبرم في 30 مارس 1912 ، قد جاء تتويجاً لمسلسل طويل وعنيد، كان قد دُشِّنَ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بهدف تجريد المغرب من سيادته والسطو على خيراته واستغلالها. فقد نجحت فرنسا في الانفراد بحرية التصرف في المغرب، بعد أن عقدت معاهدات واتفاقات مع الدول الأوربية الأخرى التي كانت تُنازعها حق التصرف في البلاد لوحدها، مقابل حصول بعضها على جزء من التراب المغربي، والبعض الآخر على امتيازات وفوائد اقتصادية-وسياسية، في ظل النظام الجديد. وهكذا، وتطبيقاً لمقتضيات اتفاق سري تَمّ عقده سنة 1904 بينها وبين إسبانيا، تسلمت هذه الأخيرة منطقة شاسعة في شمال المغرب، حُدِّدت حدودها بمُقتضى معاهدة 27 نونبر 1912، فضلاً عما كانت استولت عليه من أراض ومناطق جنوبي البلاد وفي صحرائها. وأمّا الدول الموقعة على عقد الجزيرة الخضراء في 7 أبريل 1907، فقد احتفظت بالحقوق والامتيازات التي انتزعتها من المغرب في الفترات السابقة، وأضافت لها أخرى في مجال

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

التبادل التجاري، والضرائب والقضاء، حيث ظل قناصل هذه الدول ينظرون في القضايا والنّزاعات التي يكون رعاياهم أو محمييهم متورطين فيها، حتى لو كانت جُنحية .هذا، ولم تتخل بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية عن هذه الامتيازات إلاّ سنة 1927.[1]

ويهمنا، في دراستنا هذه، أن نتعرض إلى اللحظات الحرجة التي عاشها المغرب وقيادته الوطنية بزعامة السلطان سيدي محمد بن يوسف الذي اعتلى عرش البلاد سنة 1927، بعد وفاة والده السلطان مولاي يوسف بن الحسن (1912-1927)، غداة إقدام سلطات الحماية الفرنسية بالرباط على إصدار ظهير 16 مايو 1930 ، وما أعقب ذلك من أحداث ووقائع، انتهزها »الشباب الناهض« ، حسب تعبير الزعيم علال الفاسي، للاحتجاج والتنديد بسياسة الإقصاء، والتهميش، والمس بصلاحيات عاهل البلاد وبثوابت الهوية الثقافية المغربية، المتبعة من قبل سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب[2].

أولاً : نظام الحماية في سطور

تُرَى، ما القصد من هذا النظام العجيب الذي سُمِّيَ بالحماية؟ إن منظري الاستعمار ودهاقنته، والْخُبراء في شؤون الحرب، ومن ورائهم الأوساط المالية والصناعية. هم الذين ابتكروا هذه اللفظة، قاصدين بذلك طمس الهدف الحقيقي لهذا النظام. فمبدئياً، يقتصر دور فرنسا وكذلك غريمتها إسبانيا في المناطق التابعة لنفوذها، على مُساعدة السلطان وتمكينه من بسط سلطته في كافة أرجاء البلاد، وإنجاز الإصلاحات الضرورية للنهوض بالبلاد، أي أنَّ الغاية المتوخاة من الاعتماد على عون فرنسا، ثم إسبانيا، تتمثل، قبل كل شيء، في احترام سيادة المغرب، وتمهيد السبيل أمام

المغاربة والأخذ بيدهم لتدبير شؤونهم بأنفسهم، لا تولي التسيير المباشر لكل مرافق الدولة، في الحاضرة كما في البادية، وتهميش العاهل المغربي والخليفة السلطاني وأعوانهما، وحصر دورهما في التوقيع على الظهائر والمراسيم، وتدشين المنشآت الاجتماعية والدينية... والحق أنه ليس في الأمر ما يبعث على التساؤل أو الاستغراب، ما دام هدف الاستعمار وكيفما كان القناع الذي يحتجب به للتسرب إلى هذا البلد أو ذاك، هو استغلال واستعباد الشعوب، والسطو على خيرات أراضيها، والنيل من مُقوماتها الفكرية والثقافية، بل السعي إلى تحطيمها وتشويهها، بهدف فرض أنموذجه الحضاري.

وهذا ما يمكن تلمسه من العديد من الحالات والأمثلة، في أنحاء متفرقة من العالم، ومن بينها المغرب طبعاً، وفي فترات تاريخية مختلفة، منذ أن أخذت الأساطيل الحربية الأوربية تَمْخُرُ عُباب البحار أواخر القرن الخامس عشر، بحثاً عن أراضي جديدة، ومواد معدنية وغذائية كانت في أمس الحاجة إليها[3].

والمغرب، طبعاً، واحد من هذه الشعوب التي جعلتها ظروفُها التاريخية وأوضاعها الداخلية في مطلع القرن العشرين تقع في قبضة استعمارين عنيدين، فضلاً عن تدويل عاصمته الدبلوماسية وقتئذ، مدينة طنجة وناحيتها، بمقتضى تطبيق القانون الدولي فيهما، في فاتح يونيو 1925 ، في مجال الأمن، والإدارة، والمالية ...واكتفاء المغرب بتعيين ممثل للسلطان، صار يدعى بالمندوب السلطاني.

والواقع أن المؤسسات والأجهزة السياسية، والقانونية، والإدارية التي تَمّ إحداثها منذ سنة 1912، قد جعلت من ممثل الحكومة الفرنسية بالمغرب،

أي المقيم العام وكبار موظفي الحماية، مدنيين وعسكريين، الحكام الحقيقيين في البلاد.

فبعد تعيينه من طرف مجلس الحكومة الفرنسية، يُصبح المقيم العام يتمتع بسلطات واسعة، لا يتلقى التعليمات والأوامر إلاّ من مصدر واحد وهو وزارة خارجية بلاده .فهو رئيس الإدارة الفرنسية، والجيش، ويمثل المغرب لدى الدول الأجنبية، كما يقترح القوانين، ويصدر المراسيم التي يكون السلطان قد وضع عليها خاتَمَه .ويساعد المقيم العام في أداء مهامه، وزير مفوض منتدب لدى الإقامة العامة، ينوب عنه في حالة غيابه، وكاتب عام للمُقيمية يتولى الإشراف على تسيير الشؤون الإدارية والمدنية، ومُراقبة المديريات الشريفة، وتوجيه وتنشيط القطاعات الاقتصادية بصفته رئيساً لمجالس إدارة عدد من المؤسسات الصناعية والإنتاجية الكبرى، كالمكتب الشريف للفوسفاط، ومكتب الأبحاث والمساهمات المعدنية...[4].

هذا، وقد احتفظ بأساليب عمل المخزن القديم، بدءاً من ليوطي (1912-1925،Lyautey) وانتهاءً بأندري ـ لويس دي بْوا، André-louis du Bois آخر مُقيم عام فرنسي بالمغرب، قبل سنة 1956 ، حيث جُعِل من الإدارة غير المباشرة، وهي طبعاً من اختصاص سلطات الحماية، وسيلة تقنية شريفة عُهِدَ إليها بالإشراف على الأحباس، والعدل، والتعليم مثلاً، وأخرى تابعة للإقامة العامة، يقوم بتنسيق عملها كاتب عام.

ونتبين من دورية صادرة عن رئيس الديوان المدني للمقيم العام بتاريخ 27 نونبر 1924، ومُوجهة إلى رؤساء هذه المصالح التقنية، وتسميتهم الرسمية هي مدير عام، يحثهم فيها على الاطلاع على ما تنشره الصحف

والمجلات، بين الفينة والأخرى، من دراسات ومقالات ذات الصلة بالقطاع التابع لإدارتهم، التَّرَاتبية الرسمية لهؤلاء المسؤولين الفرنسيين الكبار، وهي على النحو الآتي :

- الكتابة العامة للحماية.
- مديرية الداخلية والشؤون السياسية.
-المديرية العامة للداخلية.
-المديرية العامة للأشغال العمومية.
-المديرية العامة للفلاحة،والتجارة، والاستعمار.(Colonisation)
-التعليم العمومي، والفنون الجميلة والآثار.
-الرئيس الأول لدى محكمة الاستئناف.
-المديرية العامة للشؤون الشريفة.
-الوكيل العام لدى محكمة الاستئناف.
-المديرية العامة للشؤون الأهلية ومصلحة الاستخبارات.
-المديرية العامة للمصالح الصحية.
-مدير مصالح البريد، والتلغراف والاتصالات.
-العقيد رئيس أركان الحرب العامة.
-رئيس الديوان الدبلوماسي (بالإقامة العامة).
-رئيس الديوان العسكري(بالإقامة العامة[5]).

على أن أربع مديريات قد تجمعت في يد مسؤوليها الفرنسيين مفاتيح القرار، والتفكير، والتخطيط، والتسيير، وهي مديرية الداخلية والشؤون السياسية، ومديرية المالية، ومديرية الأشغال العمومية، ومديرية الفلاحة.

وينبغي ألاَّ نُغْفِلَ هنا الدور الهام والخطير الذي كان يضطلع به مستشار الحكومة الشريفة، مدير الشؤون الشريفة، والمتمثل في مُراقبة وزراء المخزن، وضبط اتصالات الإقامة العامة بالقصر والمخزن المركزي، وتقديم مشاريع الظهائر إلى السلطان لإبداء رأيه فيها وملاحظاته عليها، والمراسيم إلى الوزير الصدر للتوقيع عليها.

وينضاف إلى هذه المديريات والمصالح كذلك، مديرية مكتب المياه والغابات، والمصلحة الشريفة لمسح الأراضي، ومديرية الصحة العمومية.

وأما خارج الرباط، فيتعين علينا ذكر عدد من المسؤولين الفرنسيين الكبار الذين كانت تقاريرهم، وآراؤهم تُتَّخَذُ بعين الاعتبار، بل تعتمد في بلورة سياسة الإقامة العامة في معالجة العديد من القضايا والنوازل، وفي مقدمتهم المراقبون المدنيون، وضُباط الشؤون الأهلية، وقواد الجيش الكبار المعينين على رأس المناطق والجهات المدنية والعسكرية، والقنصل العام الفرنسي بمدينة تطوان، عاصمة المنطقة الخاضعة للنفوذ الإسباني، والذي كان يرصد، في كل وقت وحين وباستمرار تحركات واتصالات وأقوال وتعاليق المسؤولين الإسبانيين والمغاربة على السواء، وفي مقدمتهم المندوب السامي الإسباني والخليفة السلطاني مولاي المهدي بن إسماعيل (1913-1923)، ثم بعده ابنه وخلفه الأمير مولاي الحسن بن المهدي (1925-1956).

وذلك كان شأن ودأب القناصل الفرنسيين المعتمدين في كل من مليلية السليبة، والعرائش، وطنجة.

على أن من كان منهم يُزاول مهامه في هذه الحاضرة الأخيرة،صورتُبته الدبلوماسية وزير مفوض، كان أكثر أهمية وأكبر وزناً من زميليه .فوضعية المدينة القانونية والإدارية من جهة، ووجود هيأة مخزنية بها برئاسة المندوب السلطاني من جهة أخرى، كان يجعل منها مرصداً فريداً من نوعه لالتقاط الأخبار والمعلومات، ورصد وتتبع أنشطة وحركات سكانها من المغاربة والأجانب، أو من الوافدين عليها.

هذا، وقد أسندت مهمة تتبع وتأطير عمل الموظفين المخزنيين، وفي مقدمتهم طبعاً المندوب السلطاني، إلى مسؤول فرنسي رفيع المستوى، ألاَ وهو «**مُراقب السلطات الشريفة**» بمدينة البوغاز، والذي كان هو الآخر يقوم بدور المخبر والجاسوس أكثر من قيامه بدور المرشد النّزيه أو المساعد المخلص.

وإليك نموذج من الكتابات التي كان يرفعها هؤلاء الموظفون الفرنسيون الكبار إلى الدوائر المسؤولة في الرباط .فقد جاء في «**مُذكرة أخبار**»، بتاريخ 12 أبريل 1951 ، صادرة عن مُراقب السلطات الشريفة بطنجة، وهو وقتئذ بول هوبر (Paul Hubert) ، ما يلي:

«... منذ يوم السبت 7 أبريل المنصرم، تميز النشاط السياسي، برعاية خمسة صحافيين مصريين، والباكستاني كرم الله، ومندوب الجامعة العربية صلاح أبو رقيق، بالاجتماع الذي انعقد في مقر حزب الوحدة .وقد تناول الكلمة أحد المصريين، فدعى إلى توحيد الصف والكلمة، وذلك بإنشاء هيأة سياسية واحدة، تتكون من جميع الأحزاب

الوطنية .وفي يوم 8 أبريل، نظم حزب الاستقلال حفل استقبال كبير في بيت مصطفى الْخَمَّال رئيس جمعية الكشاف المغربي.

وبالفعل، تَمّ توحيد الكلمة، واندمجت الأحزاب الأربعة(حزب الاستقلال، حزب الشورى والاستقلال، حزب الإصلاح الوطني، وحزب الوحدة المغربية)، في هيأة سياسية واحدة.

وتروج، في المدينة حالياً، شائعات مفادها أن عبد الرحمن أ؟؟؟ي قد أُصِيبَ بخيبة أمل كبيرة من جرَّاء ما حدث، بسبب تخوفه من تراجع مكانته لدى علال الفاسي، إذ يُعَدُّ من مُساعديه المقربين والْمُلاَزمين له في كل وقت وحين...»[6].

وإذا ما أضفنا إلى مسؤولي إدارة الحماية المركزية كبار الضباط العسكريين الذين كانت تُسند إليهم قيادة المناطق السبعة التي كان يتكون منها **«المغرب الفرنسي»** إدارياً وعسكرياً، ثلاثة عسكرية وهي مكناس، وفاس، وأگادير، وثلاثة أخرى مدنية، وهي الدار البيضاء، والرباط، ووجدة، وواحدة مدنية وعسكرية، في نفس الآن، وهي مراكش، علاوة على الْمُراقبين المدنيين، وضُباط الشؤون الأهلية الذين كانوا يتولون مُراقبة الحكام والسكان معاً في المناطق المدنية والمناطق العسكرية، أدركنا قُوة وشدة القبضة الحديدية التي كانت سلطات الحماية تدبر بها شؤون البلاد، وتتبع حركات وخطوات سكانها.

فهؤلاء جميعاً، وحسب أهمية وخطورة المهام الْمُزاولة، هُم الذين كان بيدهم القرار في كافة المجالات، وهم الذين كانوا يخططون، ويُقررون،

ويسهرون على تنفيذ سياسة وتوجهات الحماية، تحت ذريعة افتقار المغرب إلى أُطر إدارية وتقنية قادرة على تحمل المسؤولية والاضطلاع بأعباء تسيير مرافق وقطاعات الدولة الحديثة .ولهذا، ظل أعضاء المخزن التقليدي، وفي مقدمتهم عاهل البلاد، مبعدين عن مراكز القرار، لا دخل لهم فيما كان يُدَبّر في أروقة ومكاتب الإقامة العامة، في حين احتفظ أعوان المخزن المحليين، في الحواضر كما في البوادي، كالباشوات، ونظار الأحباس، والقواد، والشيوخ ...بصلاحياتهم ومهامهم التقليدية، ولكن تحت المراقبة الشديدة للموظفين الفرنسيين، التابعين إلى «**مديرية الشؤون السياسية**».

وبما أن المغرب وقتئذ لم يكن، طبعاً، يتوفر على إدارة، ولا على جيش، ولا على أطر تقنية متخصصة، كما هو شأن معظم الأقطار الأوربية في هذا الصدد، فإن الفرنسيين قد شرعوا، منذ أن تَمّ لهم الأمر بالبلاد، في إنجاز أشغال كبرى، وتأسيس مرافق وأجهزة الدولة الحديثة، مع مُتابعة عمليات : «**الباسيفاكسيون**» (pacification) في الجهات التي لم تعلن بعدُ خضوعها للنظام الجديد. وهكذا، تجند لإنجاز ذلك ليوطي وطاقم هائل من العسكريين، والإداريين، والتقنيين، مستأنسين بآراء مجموعة من التقنيين والمستشرقين الذين تسنى لهم فيما قبل الاطلاع والبحث والتأليف في تاريخ، وثقافة، وأنماط عيش، والبيئة الطبيعية لسكان الجزائر وتونس. وبما أنه كان عليهم بناء كل شيء، وتأسيس أدوات وتجهيزات الدولة الحديثة، فإنهم لا محالة، صاروا ينظرون إلى المغاربة، أو على الأقل معظمهم، بنوع من التعالي والاحتقار، فتولوا التدبير والتسيير لكل شيء. وأمّا السلطان وأعوانه الكبار، فقد انحصر دورهم في التوقيع على الظهائر والمراسيم،

واستمر الأمر على هذا الحال حتى بعد رحيل ليوطي عن المغرب سنة 1925، ووفاة السلطان مولاي يوسف سنة 1927.

ولَمَّا تَمَّ تنصيب سيدي **محمد بن يوسف** سلطاناً للمغرب سنة 1927، كانت سلطات الحماية قد قطعت أشواطاً بعيدة في سبيل تجهيز البلاد، وإنشاء وتطوير صناعة حديثة، وإعداد دوائر مسقية من الأراضي الفلاحية الجيدة لفائدة المعمرين الفرنسيين .وفي نفس الآن، تمكن عدد من أبناء الفئات الاجتماعية الميسورة في فاس، ومكناس، والرباط، وسلا، والدار البيضاء، ومراكش...، من ولوج المدارس والمعاهد العصرية، والتكون في مواد وتخصصات لم تكن مألوفة لدى المغاربة في منظومتهم التعليمية، وهو الأمر الذي أدى إلى تخرج مجموعة من الشبان المتعلمين والذين بالرغم من قلة عددهم، عَزَّزُوا، فيما بعد، صفوف نظرائهم الذين كانوا يدرسون بجامعة القرويين بفاس، وبباقي مؤسسات التعليم التقليدي في كبريات المدن الأخرى كمكناس، والرباط، وسلا، ومراكش، في وقت كانت قد أخذت أفكار السلفية الجديدة في المغرب، وأفكار المصلحين والمثقفين العرب والمسلمين تنتشر في رُبُوعه، عن طريق الصحافة وكتابات ثلة من هؤلاء المفكرين من أمثال **الشيخ محمد عبده، والأمير شكيب أرسلان**(7).

يسوقنا هذا إلى القول إن عاهل البلاد وأعوانه الكبار، وفئة المتعلمين الشباب، وغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى الواعية بواقع البلاد وبالمرامي الحقيقية للاستعمار، صاروا الآن، أي في حدود أواخر العقد الثالث من القرن العشرين، يلمسون عن كثب مرامي وأهداف سياسة سلطات الحماية في بلادهم، وإصرار هذه الأخيرة على الانفراد بالقرار في تدبير

شؤونها، دونما إبداء أدنى استعداد أو رغبة في أخذ رأيهم والاستئناس به قبل اتخاذ القرار. ولم يقف الأمر عند هذا الحد من التسلط والانفراد بالقرار. واستغلال خيرات البلاد، بل مضى قُدماً غلاة الاستعماريين في وضع المخططات وحبك المؤامرات بهدف زرع بذور التفرقة والانشقاق في صفوف المغاربة والمس بالاختصاصات الشرعية والسياسية لعاهل البلاد .وهذا ما اعتقدوا تحقيقه والتوصل إليه، حين صدر ظهير 16 مايو1930 ، وهو الأمر الذي سنحاول معالجته في المبحث الموالي من دراستنا هذه.

ثانياً :سنة 1930 ودلالاتها

لقد عمل الفرنسيون والإسبانيون كذلك، منذ السنوات الأولى لنظام الحماية في منطقتي نفوذهم على ترسيخ الحكم المباشر، متظاهرين بأنهم إنما يُطبقون تعليمات وتوجيهات السلطان، في حين أنهم المقررون والمدبرون لإدارة البلاد والتخطيط لمشاريعها وبرامجها .وبالرغم مِمَّا نُسِبَ من أقوال وأفعال لهذا المقيم أو ذاك، بدءاً باليوطي وانتهاء بالجنرال **بيير بوايي دي لاتور** (Pierre Boyer de Latour)، المقيم العام الفرنسي ما قبل الأخير، فإن الذي كان يهم هؤلاء المسؤولين السامين ومُساعديهم الكبار، وكذا المعمرين وباقي أفراد الجالية الفرنسية في المغرب هو بالأساس، الدفاع عن الوجود الفرنسي في البلاد، وضمان سُبُل ووسائل هيمنة الدولة الحامية على القطاع الاقتصادي المغربي ليكون ويدوم في خدمة اقتصاد **«المتروبول»** (la metropole)، والتصدي لكل مَن يمثل من المغاربة تهديداً لهذا التوجه الاستعماري، ومن ثَمّة خلق شبكة واسعة من الولاءات والمصالح في الأوساط الاجتماعية المختلفة حتى لا يتحقق توحيد صفوفها، فتعمد إلى المطالبة بحقوقها .يقول المرحوم علال الفاسي، في هذا المعنى، ما يلي :

«...ولقد يستغرب القارئ إذا قُلت له إن كل حركة صغيرة أو كبيرة، كانت تحتاج لمجهود وتضحية إزاء العناد الفرنسي الإسباني، وإذا أخبرته بأن إدارة الأمور الأهلية بفاس هاجت لأن شبّاناً عصريين أسسوا صالون حلاقة على أحدث طراز بشركة مُساهمة ووِفقاً لكل ما يقتضيه القانون، فأقفلته وفرضت على حلاقه غرامة مالية...»[8].

وقد كانت دسائس وحيل الاستعمار غاية في الْمَكْرِ والبُهْتَان، وآية في التزوير والتدليس على الدوام. فما أن يتم الأمر في قطر من الأقطار، حتى يُبادر دهاقنته إلى بث أسباب التفرقة والخلاف في صفوف سُكانه، ومحاولة خلق جو من التنافر والتضارب في المصالح، واللجوء إلى استعمال أنواع وسائل الترغيب والترهيب في فرض وجهة نظرها ومشاريعها، وضرب بعضهم ببعض، ليبقى سَيِّدَ الموقف يتحكم في كل شيء.

وهذا، بالفعل، ما نتبينه وبكل وضوح من المصادر، سواء تعلق الأمر بسياسة الفرنسيين في منطقة نفوذهم، أو بالإسبانيين في المنطقة الخليفية، إذ ظل الهم الوحيد للدولتين الحاميتين وممثليهما في المغرب، يتمثل في استغلال خيرات البلاد، وفي توفير الظروف المواتية لاستقرار وعيش رعاياهما، دون الاكتراث بأوضاع ومصالح أصحاب البلاد الشرعيين، أو الاهتمام بتعليمهم وتكوينهم، وتهييئهم للنهوض بأعباء تسيير مرافق الدولة الحديثة، كما تعهدتا بالقيام بذلك كله سنة 1912 وسنة 1913.

ولما رأى الفرنسيون أن جميع حيلهم ومُغالطاتهم لم تُؤت قط أُكلها، إذ ظل جميع المغاربة، في الشمال كما في الجنوب، في الجبال كما في

السهول، متشبثين بهُويتهم الثقافية ومُقوماتهم الفكرية والروحية، وبمؤسساتهم السياسية والاجتماعية، لجأوا إلى التلفيق والتزوير، وطمس الحقائق، وذلك باستخراج مغاربة المناطق الجبلية من حظيرة الأمة المغربية، بعد صدور ظهير 16 مايو 1930، مرتكبين بذلك اعتداءً شنيعاً ضدَّ الشريعة الإسلامية، واختصاصات عاهل البلاد، ووحدة المغاربة في العقيدة، والعادات والْمُعاملات، فضلاً عن خرقهم السافر لبنود وفق 30 مارس 1912 والتي تعهدوا، بموجبها، باحترام مؤسسات وتنْظيمات المغرب الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، بل صَوْنها والدفاع عنها في حالة تعرضها إلى الخطر. وعوض هذا، هاهم الآن قد قرروا تنفيذ مُخططات ومشاريع وأفكار غُلاة الاستعماريين من أمثال جورج سُرْدُون (Georges Surdon)، وجان گيرو (Jean Guiraud)، خريج المدرسة العليا ورئيس تحرير جريدة" لاكروا (La Croix)، والأسقف مونسنيور هنري ڤيال (Mgr Henri Vialle)، وأترابهم الذين ظلوا، في كتاباتهم، وخطبهم، ومحُاضراتهم يُنادون ويَحُضُّون على التصدي إلى الإسلام ومُحاربته بكافة الوسائل، وتهميش اللغة العربية، بل شن حرب عشواء ضدهما لأنهما يقفان حجرة عثرة في وجه انتشار النفوذ الفرنسي وحضارة الغرب المسيحي.

يقول المستشرق الكبير لوي ماسينيون (Louis Massignon) في موضوع ارتباط السياسة البربرية بالحركة التبشيرية المسيحية في المغرب، وذلك سنوات عديدة قبل فرض نظام الحماية سنة 1912 ، ما يلي:

«...إنها مسألة(السياسة البربرية)، قد كوَّنت فعلاً، بالنسبة إليّ، حالة ضمير على المستوى الديني والعلمي ولِمُدَّة أربع سَنَوات، حيث

حاصرني خلالها الأب دوفوكو *(le pere de Foucauld)*، كتابة ومُشافهة، لاحاً علي بأن أتفرغ وأن أهَبَ حياتي بعده إلى هذه الحركة المصيرية التي سوف تعمل على إقصاء الإسلام واللغة العربية من إفريقيا الشمالية لفائدة اللغة الفرنسية والديانة المسيحية، وذلك على مرحلتين، أولاهما تُخَصص للاستئصال الْقُلَيْسِ *(le tuf)* اللغوي والعُرْفِي القديم للبربر، في حين تَنْصَبُّ الجهود، في ثانيهما، على إدماج الأهالي بواسطة لغة وقوانين رفيعة، فرنسية ومسيحية...[9]».

ومعلوم أن ظهير 17 ذي الحجة 1348 ، الموافق لِ 16 مايو 1930 ، والذي سُمِّي ب «الظهير البربري»، لم يكن هو أول مُحاولة أقدم عليها مسؤولو الحماية الفرنسية بالمغرب لنسف وحدة الصف المغربية، في المجال السياسي كما في المجال الديني والاجتماعي، إذ سبق وأن اهتم بهذا الموضوع الجنرال ليوطي نفسه، إذ استعمل كل ما كان يملك من وسائل الإقناع، والتحايل، والتودد إلى السلطان مولاي يوسف للضغط عليه وحمله على وضع خاتمه على ظهير 2 ذي القعدة 1333 ، الموافق لِ 11 سبتمبر 1914 ، يُؤَسَّسُ بموجبه الْحُكْمُ الْعُرْفِي في القبائل الأمازيغية .وإذا كان هذا الظهير قد تَكَوَّنَ من توطئة وفصلين جد مختصرين، فإن ظهير 16 مايو1930 ، قد تَضَمَّنَ ثمانية فصول، حَدَّدَت، بكل دقة وعناية، الأهداف والغايات المتوخاة والمتمثلة في الأساس في"صفرنسة" ما يقرب 30% من سكان المغرب وقتئذ، والذين يقول في شأنهم عضو خطير ونشيط في أوساط المنظرين الاستعماريين، ويتعلق الأمر بسُرْدُون السابق الذكر، ما يلي:

«...يجب جمع الأعراف البربرية لا للمحافظة عليها، فهي صائرة إلى الانقراض والاضمحلال أمام أرقى منها، ولكن الأفضل لنا أن ندمجها في القانون الفرنسي من أن ندمجها في الشرع الإسلامي، وأن الواجب ليفرض علينا أن لا نحفر بيننا وبين البرابر حفرة غير قابلة للامتلاء، وفي المغرب قانون إسلامي وفرنسي. وحيث أن الأسلحة الفرنسية هي التي أخضعت البلاد البربرية، فإن من حقنا اختيار التشريع الذي يتعين تطبيقه في هذه البلاد، كما يجب على المخزن أن يكون مستعداً لمنحنا كامل الحرية في تنظيم البلاد البربرية وفق ما نتمنى، وبالوسيلة التي نرتضيهاأن...[10]».

وَرَد هذا الكلام المليء بالْمُغالطات والوقاحة في مُحاضرة ألقاها سُردون أمام جمهور من المسؤولين الإداريين الفرنسيين سنة 1928 ، أي في وقت لا زالت الْمُقاومة المسلحة مستمرة في جهات مختلفة من الأطلس الصغير وتافيلالت من جهة، وبينما كان هو وأمثاله يتداولون في شأن الصيغة النهائية للنص القانوني المرتقب اتخاذه، في هذا الصدد، من جهة ثانية.

هذا، وبالرغم من حداثة عهده بالمسؤولية الجسيمة التي آلت إليه، وصغر سنه نسبياً، فقد ظل السلطان سيدي محمد بن يوسف يتهرب من الموافقة على مشروع الإقامة العامة الفرنسية، ويجتهد في إيجاد الحجج والأعذار لربح الوقت وإرجاء البث فيه نهائياً. لكن، لَمَّا خلف لوسيان سان (Lucien Saint)، يناير 1929 غشت 1933) ستيگ، تحرك دُعاة السياسة البربرية من جديد، وراحوا ينظمون اللقاءات الخطابية والمهرجانات السياسية لاستقطاب المزيد من المؤيدين لدعواهم، حتى يتسنَّى لهم الضغط أكثر على

الإقامة العامة لِمُواصلة مساعيها من أجل إنجاح مشروعهم وحمل عاهل البلاد على التوقيع على الظهير المعد من قبل مديرية الحماية التشريعية ومستشاريها من أمثال سُردُون السابق الذكر .وهذا ما تَمَّ لهم فعلاً، في آخر المطاف، حيث استسلم السلطان إلى إرادة الإقامة العامة الفرنسية، ووضع خاتمه على الظهير المشؤوم. إذّاك تعالت أصوات غُلاة الاستعماريين بالانتصار، ظانين أنهم ربحوا الرهان، ومهدوا السبيل لتحقيق مخططاتهم الخطيرة، في حين أنهم، في الواقع، أتاحوا للمغاربة فرصة ثمينة للاحتجاج وإسماع صوتهم والتنديد بالظلم السافر النازل بساحتهم حِسّاً ومعنى، كما أنهم خلقوا الظروف الملائمة لتقارب أو اتحاد كلمة الوطنيين الشباب والسلفية الجديدة المتمثلة في ثلة من شيوخ القرويين المتنورين .يقول علال الفاسي، في هذا الصدد، ما يلي:

«...لقد وجد الشباب المغربي في دائرة الحركة السلفية ميداناً لبذل نشاطه وتعويد نفسه على العمل لخدمة الأمة والتضحية في سبيلها. وهكذا، تكونت منه مجموعة بفاس والرباط وتطوان، لم تلبث أن أخذت تتناول الشؤون العامة بأسلوب غير الأسلوب الأول. وكانت مقاومة المشايخ الذين استفادوا من نظام الحماية، فعملوا لبقائه من مقدمة ما تقوم به من الأعمال...[11]».

وهكذا، فما كاد يمر شهر ونيف على صدور الظهير المذكور، حتى انتظمت حلقات تفسيرية لمضامينه في المساجد، سرعان ما اكتست صبغة احتجاجية، تمثلت في ترديد الدعاء المشهور:

«...يا **لطيف، نسألك اللطف بما جرت به المقادير، وألاّ تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر...**[12]»، بعد أداء الصلاة في المساجد الْكُبرى في عدد من المدن **كسلا، وفاس، والرباط، والدار البيضاء، ومراكش، ومكناس، وتطوان، وطنجة، والقصر الكبير**... والحق أن شبان مدينة سلا كان لهم قصب السبق في دعوة المصلين إلى قراءة دعاء «اللطيف» في مساجدها، وهو الأمر الذي تَمّ فعلاً يوم الجمعة 20 يونيو 1930 بمسجدها الأعظم وبمسجد باب شعفة، بعد أن نجحوا في إقناع وتعبئة الفقهاء والأئمة، والتجار، وأصحاب الحرف للانضمام إلى صفوفهم، دفاعاً عن وحدة العقيدة، واللغة، والسيادة المغربية التي يُعتبر عاهل البلاد مُؤتمناً عليها.

وقد بذل ثلة من هؤلاء الشبان المناضلين **كمحمد اشماعو، وعبد الكريم الصابونجي، وقاسم حصار، وعبد الكريم حجي، وعبد اللطيف الصبيحي**، زعيم الحركة وعقلها المدبر والذي ضَحَّى بالوظيف وبمستقبله في سبيل الإسهام في رفع الحيف والظلم عن المغرب والمغاربة[13].

هذا، وقد حدث في مدينة فاس ما هو طبيعي أن يحدُث في مثل هذه الظروف والأجواء الحماسية، وذلك أن المصلين، بعد أدائهم لصلاة يوم الجمعة 18 يوليو 1930 بمسجد القرويين، واستماعهم لِخُطبة مثيرة للمشاعر وملهبة لها ألقاها الوطني المناضل الشاب عبد السلام بن إدريس الوزاني، خرجوا هائجين من المسجد وأصواتهم تتعالى بدعاء **«اللطيف»**. وعوض الانصراف إلى حال سبيلهم، بعد وقفتهم الاحتجاجية هذه وكما كان مقرراً، فإنهم راحوا يجوبون أزقة المدينة العتيقة، مُرددين شعارات وهُتافات، تدين

وترفض السياسة البربرية، وتعبر عن صمود المغاربة في وجهها، وقد بذل المؤطرون للتظاهرة، وفي مقدمتهم الوطنيون الشباب، قُصارى الجهود في سبيل ضبط المسيرة والسيطرة عليها، حتى لا ينفلت زِمامُ المبادرة والتحكم فيها من يدهم، وتؤُول الأمور إلى ما لا تُحمد عقباه.

هذا، وقد عرفت هذه المسيرة مُحاولات لإخراجها عن النطاق الذي حُدِّدَ لها، من حيث الحفاظ على النظام واحترام ممتلكات الغير وعدم العبث بها، أو المس بسلامة السكان وأمنهم، مغاربة كانوا أو أجانب، وذلك ما نجح فيه منظموها ومؤطروها الوطنيون الشباب، فقد أحبطوها في المهد، واستطاعوا التحكم في الأوضاع، مما جعلها تنتهي دون حدوث اضطرابات وأعمال فوضوية، حيث تفرق المتظاهرون في هدوء وانتظام .إلاّ أن مدير الشؤون الأهلية بالرباط بِنَازي (Benazet) ، وكذا المسؤولين الفرنسيين المحليين وفي مقدمتهم الرائد ميليي (le commandant Millet) رئيس قسم الاستعلامات بفاس، وكانوا طبعاً على بَيِّنَةٍ مِمّا قيل في المسجد وتردد من شعارات في المظاهرة، كما كانوا على علم بأسماء وحيثيات مُنَظِّميها ومُؤَطِّريها من الشبان المناضلين، سرعان ما أصدروا التعليمات والأوامر إلى الجهاز القمعي الاستعماري لشن حملة من الاعتقالات والاستنطاقات في صفوف الوطنيين، بل في صفوف حتى أوليائهم وأقربائهم .وهكذا، سيقت جماعة منهم إلى مقر محكمة باشا فاس **محمد بن البغدادي**. وكان من بينهم طبعاً **مُحمد حسن الوزاني**، والوطني الشاب الذي خطب في جموع المصلين بالمسجد **عبد السلام بن إدريس الوزاني، وعبد العزيز بن إدريس، والهاشمي الفلالي**... وبينما كان الأعوان المخزنيون يرتبون صفوف الْمُحْتَجَزين، دخل

الباشا المذكور إلى ساحة المحكمة، مُمْتَطِياً صهوة بغلته والذي، ما أن انتهى من التَّفَرُّس في وجوههم، حتى نُودي على كل واحد منهم، فَيُلْقَى به على الأرض، ثم يُوجَعُ ضرباً بالسَّوْط على ظهره، وبطن رجليه، ومقعده .ويبدو أن المنظر كان رهيباً ومحنة الْمُعَاقَبين شديدة الوطأة في نفوسهم، ولا سيما أن هذا كله كان قد تَمّ أمام جماعة من الناس، كان من بينهم سُواح أجانب، كانوا يزورون المحكمة وقت تنفيذ العقوبة[14].

وممَّا يدل على فظاعة وبشاعة الإهانة التي تعرض لها الوطنيون الشبان على يد الباشا محمد بن البغدادي، نظم شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المراكشي (ت.1954). لقصيدة تحت عنوان :"الدمعة الخالدة"، يستنكر فيها هذا العمل الشنيع، ويعرب عن تضامنه وعطفه على ضحايا القمع الاستعماري، حيث يقول:

أَسَالَ منَ الأَجْفَانِ عَن صَدْرِهِ نَهْـرا ... لِيُطْفِئَ ما بالقَلْبِ مُشْتَعِـلاً جَمْـرا

وَمِن أدْمُعِ الْبَاكِي الْغَزِيرَة مَا بِـه ... تُخَفِّفُ أحْزَانٌ قد أَقْلَقَـتِ الصَّـدْرَا

دَعُوا قَطَرَاتِ الدَّمْعِ تَنْزِلُ فَوْقَـه ... فَإِنِّي بِمَا فِي مُهْجَتِي مِنْكُـم أدْرَى

فَمَا نَكَدٌ مِثلُ الرُّعَاةِ تَرَاهُـمُ ... غَدَا نَهْيُهُم نَهْياً وَأَمْرُهُم أَمْـرا

وَذَا الأَرْعَنُ الْمَشْدُودُ بِالْحَبْلِ نِصْفُه ... مَتَى سَاسَ غَيْرَ الضَّأْنِ جَازَ بِهِ وَعْرَا

فَأَصْبَحَ والشَّكْوَى إِلَى اللهِ وَحْـدَه ... وَمَا الْمُرْتَجَى إِلاَّهُ أَنْ يَكْشِفَ الضُّرَّا

يَسُوسُ بِفَاسٍ مِن بَنِيه كِرَامَهُـم ... فَيَقْلِبُهم بَطْناً وَيَجْلِدُهُمْ ظَهْـرا

مُصَابٌ نَشَدَتَ الصبرَ عِنْدَ هُجُومِه ... فَفَارَقَنِي صَبْرِي يُرَدِّدُ لاَ صَبْـرا

مُصَابٌ جَسِيمٌ يَا كِرَامُ بِحَقِّكُـــم | خُذُو شَطْرَه إِنِّي اغْتَصَبْتُ لَكُم شَطْرَا
وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي أَنَّ بين ضُلُوعِكم | كُبُوداً حِراراً دُونَها كَبِدِي الْحَـرَّى
وَزَادكُم هَوْلَ الْمُصَابِ سَمَاعُكُـم | نداءَ بَنِيكُم تَسْتَغِيثُ بِكُم جَهْـرا
وَأَرْبَعَةٌ أَسْرَى بُطُونَهُم جَثَـــوْا | بِأَطْرَافِهِم تبَّتْ يَدَاهُم مِنْ أَسْــرى

إلى أن قال مُخاطباً علال الفاسي:

أُنَادِي رَصِيفاً لِي هُنَاكَ وَإِنَّنِي | أُحِبُّ رَصِيفِي فَوْقَ حَبِّ الْوَرَى طُرّاً
أَخِي كُلَّ مَا لِي دَمْعَةٌ وَإِخَالُهَا | لِمثْلِكَ مِن مِثْلِي تَقُومُ لَهُ عُــذْرَا
أَشَاعِرَ فَاسٍ دُونَ سَابِقِ رُؤْيَــةٍ | عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ مِنْ شَاعِرَ الْحَمْرَا(15)

ومعلوم أن هذه الأحداث وما شابهها قد حركت الهمم، وأجَّجت العواطف في كافة أرجاء البلاد، إذ بادر الوطنيون في المنطقة الخليفية إلى تنظيم حلقات لقراءة اللطيف في تطوان، فاكتست هذه الظاهرة طابعاً وطنياً شمولياً من جهة، كما تمخضت عنها أساليب وأشكال جديدة من النضال من جهة أخرى، تمثلت في توجيه العرائض إلى سلطات الحماية وتوزيع المناشير للتنديد بالسياسة البربرية. على أن التَّحَوُّلَ المهم الذي تحقق في ساحة النضال ومُحاربة الاستعمار، يكمن، ولا شك، في تَصَدُّر المدينة لهذه الأحداث، وتوليها دور الْمُدافع عن البادية المغربية، وعلى الخصوص المناطق الجبلية .يقول الأستاذ عبد الكريم غلاب، في هذا الصدد، ما يلي:

«...ولكنها لم تكن تدرك (الإدارة الفرنسية)أن القضية البربرية كانت فصلاً فريداً في تاريخ المغرب الحديث. فلأول مرة بعد

الحماية يقع تحول في الفكرة الوطنية، إذ أخذ سكان المدن يدافعون عن سكان الجبال، وأخذت العناصر العربية تشعر بواجبها إزاء العناصر البربرية...»[16].

ومهما يكن الأمر، فلن نتتبع هنا تطور هذه الأحداث، وما آلت إليه فيما بعد، وذلك بأن نذكر مثلاً مختلف الاتصالات والمفاوضات التي أجريت بين المسؤولين الفرنسيين والوطنيين، وماذا كان موقف المخزن من هذه الأحداث ومن أجل إيقاف حركة الاحتجاج والاعتصام بالمساجد .فهذا ما تحدثت عنه مصادر كثيرة، وأوفته حقه من التحليل والتعليق .فيكفي أن نشير هنا إلى أن المغاربة قد انتصروا، في آخر المطاف، وأرغموا سلطات الحماية على التراجع وإلغاء ظهير 16 مايو 1930 أربع سنوات بعد هذا التاريخ، مدشنين بذلك مرحلة جديدة من النضال والكفاح، بقيادة عاهل البلاد السلطان سيدي محمد بن يوسف الذي عرف كيف يُخطط ويرسم منهاج عمل الوطنيين، دون الدخول في مواجهة مع الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب، على الأقل حتى سنة 1947.

* * *

هوامش :

1- Julien (Ch.A). Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956, Edit. J.A., Paris, 1978, p; 103

2- حول نشأة وتربية وحدة ذكاء السلطان سيدي محمد بن يوسف، يُرجع إلى:
- الشابي، مصطفى، «ملامح شخصية محمد الخامس من خلال بعض الكتابات الأجنبية» ضمن أعمال ندوة «محمد الخامس، الملك الرائد»، مطبعة فضالة، المحمدية،1988، ص 326 وما بعدها.
- بوطالب، إبراهيم، محمد بن يوسف، معلمة المغرب، مطابع سلا ومطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995، ج21، ص 7026-7030 .

3- Delanoe (Guy), Lyautey. Juin, Mohamed V, fin d'un Protectorat, Edit. Eddif, Casa, 1993, p. 13.

حيث يورد المؤلف ما قاله المارشال ليوطي في هذا الصدد :«...يتعين علينا أن نجعل من المغرب صفقة تجارية مُربحة. إذ هذه الغاية هي المتوخاة من كل مؤسسة استعمارية...».

4- Brignon (J) et collaborateurs, Histoire du Maroc, Edit, Hatier, Paris, p. 341 et suiv

5 - Adn, Maroc, dach, carton C 15, dossier E XII.

6 - Adn, Maroc, dach, carton n° 317

حزب الإصلاح الوطني بزعامة عبد الخالق بن أحمد الطريس، وحزب الوحدة المغربية بقيادة محمد المكي الناصري يمثلان المنطقة الخليفية، الخاضعة لنفوذ الإسبانيين.

وأما عبد الرحمان أنگاي المذكور هنا، فهو من وطنيي ومناضلي مدينة طنجة، اتخذه الزعيم علال الفاسي مترجمه ومرشده في شؤون إسبانيا وأقطار أمريكا اللاتينية على الخصوص .أسندت إليه، فيما بعد، حين حصل المغرب على استقلاله سنة 1956 مهام في ديوان الملك محمد الخامس، إلاّ أن يد المنون قد اختطفته وهو في مقتبل العمر، على إثر حادثة سير في الطريق الرابط بين الرباط والدار البيضاء في يناير سنة 1956.

7 - Vermeren (P), Histoire du Maroc depuis l'indépendance. Edit. la Découverte Paris, 2006, p.7 et suiv.

8 - الفاسي، علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، دار الطباعة المغربية، تطوان، د .ت،ص.140.

9 - أورده جوليان في كتابه "Le Maroc face aux imperialismes...": .س، ص.158.

10- أورده مُحمد بن الحسن الوزاني في مؤلفه الموسوم ب :مذكرات حياة وجهاد ، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت، 1982، ج3، ص 58. وما بعدها.

11- الفاسي، علال، الحركات الاستقلالية... م .س، ص.139 .

14 - الوزاني، محمد حسن، مذكرات حياة وجهاد.... م .س، ج3، ص 82 .وما بعدها.

15 -وردت هذه القصيدة في :ديوان شاعر الحمراء، لمحمد بن إبراهيم المراكشي، ضبط وتنسيق وتعليق الدكتور أحمد شوقي بنبين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء،2000 ، ص 193. وما بعدها .

16 -عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، مطبعة الرسالة، الرباط،1987، ج1،ص.63.

* * *

الرموز المستعملة

ج :جزء

م .س : مرجع سابق

د .ت :دون تاريخ

A.D.N. : Archives diplomatiques de Nantes
dach : Direction des Affaires Cherifiennes
op.cit : Opuscule Citato
suiv : Suivant (e)
Edit : Edition

* * *

التحديات الوطنية في خطاب النخبة المغاربية
خلال القرن13هـ /19م

ودان بوغفالة *

احتدم النقاش بين علماء المغرب العربي حول مسألة الوطنية ومستلزماتها بزيادة الاحتكاك مع الطرف الآخر الأوربي منذ نهاية القرن الثامن عشر، وظهرت خلال القرن التاسع عشر على وجه الخصوص مفاهيم جديدة ذاع صيتها وانتشر أنصارها ولفتت انتباه المفكرين المسلمين في المشرق والمغرب الإسلاميين.

ودفاعا عن مصلحة الوطن، ثار الجدل بين مجموعة من الأزواج المتقابلة في المفاهيم، منها مثلا **الخلافة والوطنية**، أي :الاندماج في العالم العثماني ومحاولة فك الارتباط منه، القطعية والتقارب، النقل والعقل، التقيد والتحرر، الملكية والجمهورية، التقليد والتجديد، القوة الروحية والقوة المادية.وفي الوقت الذي مثلت فيه الأطراف الأولى للأزواج الأصول والقواعد التي انطلق منها الفكر الإسلامي الموروث والمحافظ حينئذ ودرج عليها في **الذود عن الوطن**، مثلت الأطراف الثانية لهذه الأزواج الفكر المغاربي المتفتح والواقع تحت تأثير المستجدات والمنخرط هو الآخر في المهمة نفسها.

وإذا كان الاتجاه المحافظ قد برر مواقفه، عن طريق تقديم نصوص شرعية وفتاوى التراث، فإن الاتجاه التحديثي المتفتح عاد هو الآخر أيضا إلى هذه

* أستاذ باحث، جامعة معسكر، الجزائر.

المصادر، وحاول التوفيق بين مقاصدها وبين ما تذهب إليه القيم الأوربية، واجتهد لإزالة التعارض والاختلاف الظاهر بينهما.

الخلافة والوطنية[1]: تناغم أم تناقض

تداخل مفهوم الخلافة (المفهوم الديني = التمثيل الشرعي) مع مفهوم الوطنية (المفهوم السياسي = الانتماء القطري) وتكاملا في فكر وموقف أغلبية ممثلي النخبة المغاربية .فلم تناقض الوطنية (أو القومية أحيانا) التي دافعوا عنها سيادة الخلافة العثمانية على الولايات المغاربية التابعة لها، ولم تلغ فكرة الخلافة والانتماء إلى العالم العثماني (الجامعة الإسلامية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ميلادي) فكرة الوطنية ولم تزاحمها. فالوطن الصغير جزء لا يتجزأ من الوطن الكبير، أي أن الوطن الطرابلسي أو التونسي أو الجزائري هو قسم من الوطن العثماني.

والذين ثاروا أو عارضوا، أو تحفظوا ولم يتحمسوا في هذا الاتجاه العام للمنطقة، إنما كان ذلك بسبب مناصرتهم للاستعمار (دعاة الاتحاد مع فرنسا)[2]، أو كان هذا الموقف رد فعل تجاه حاكم معين (معارضة حكام الولايات)أو سياسة بذاتها (الضرائب، التهاون في استرجاع المناطق المحتلة).تاريخيا ومبدئيا لم يرفضوا الخلافة ليطرحوا الوطنية بديلا عنها، فمن رفض الانتماء العثماني قبل غيره في الأصل، ولم تتبلور لديه الوطنية التي تقتضي الاستقلال السياسي والمشروع الاجتماعي والوعي بالذات على غرار النموذج الأوربي.

وحتى محاولات الاستقلال النهائي عن الدولة العثمانية التي أبداها بعض حكام الولايات في طرابلس (الأسرة القرامانلية)، وفي تونس (الأسرة

الحسينية)، وفي الجزائر (الدايات الباشوات)، لم تكن تحمل معنى الوطنية التي تهدف إلى تحويل المملكة إلى وطن، و تحويل الرعية إلى مواطن يتمتع بكل حقوق المواطنة، أي إقامة الشراكة السياسية، واثبات الحقوق الفردية والحريات ورعايتها. ولم تتجاوز تلك المحاولات حدود الرغبة في الانفراد بالسلطة في كيانات سياسية محلية، ولم ترق إلى المستوى الذي بلغته مثيلاتها في أوربا[3].

وإذا كان المغرب الأقصى قد تمتع باستقلاليته عن الحظيرة العثمانية، وقدم هو من جهته نموذج الوطن والخلافة المتحدين في قطر واحد، فإن العلماء به لم يمتنعوا عن الاعتراف بالخلافة العثمانية وتبعية الأوطان المغاربية الأخرى لها، رغم حالات الاصطدام والتناوش خاصة على الحدود الجزائرية. وتعتبر فتوى علماء فاس في هذا الموضوع هي أحسن مثال عندما طلب منهم ذلك السلطان مولاي عبد الرحمان 1859-1823م[4].

لقد تحالفت الوطنية و الخلافة في الذهنية المغاربية خلال القرن19م تحالفا منطقيا، فعندما أخذت الوطنية معنى الواجب الذي ترتبه الأوضاع المحلية ويستوجب الدفاع عن مصالح المنطقة، أخذت الخلافة معنى الجهة الشرعية والمؤهلة للقيام بهذا الواجب. وتعتبر المسألة الجزائرية والمسألة التونسية من المسائل التي أنتج بمناسبتها خطاب النخبة المغاربية الصور التي تحالفت فيها الوطنية مع الخلافة وتحاورتا فيما بينهما. حيث تراسل الأمير عبد القادر الجزائري مع الدولة العثمانية وهو يقود معركة تحرير وطنية ضد فرنسا، فاعترف بالخلافة العثمانية في رسالة له عام 1841م إلى

السلطان عبد الحميد 1839-1861م، وانتقد سياسة الأتراك بالجزائر وطلب النجدة .وهذا في رسالته المطولة التي استعرض فيها ظروف البلاد إذ قال:"... الينيشارية الذين كانوا بالجزائر، لما خرجوا عن طاعة أمير المؤمنين والدك المرحوم عاقبهم الله ... وسلط عليهم من لا يرحمهم العدو الكافر... فبدد شملهم... وملك القرى والمداين، واستولى على الأموال والذخائر والخزاين... وحال الكافر والبحر بين المسلمين وبين سلطانهم، مع شدة حاجتهم إلى من يقوم بهم، ويدافع عن حريمهم وأولادهم وأوطانهم ... ... والمسلمون بهذا القطر لا ينظرون من غيرك افراج ولا لهم ملجأ يلجأون إليه غير حصنك العالي الادراج، فأبصارهم لإعانتك وإمدادك طامعة، وقلوبهم بمحبتك وذكرك طافحة . فإن قيل مال عندك المال وافر وإن قيل جيش عندك العسكر البحر[5]".

ولم يقتصر نداء الوطنية للخلافة على العسكريين المحتاجين فقط[6]، دون السياسيين المتفرغين، ولا على نخبة البلدان المحتلة فقط دون غيرها ومن هي في جوارها متحررة .وإنما حمل خطاب أغلبية النخبة في المغرب العربي هذا الانشغال وطيلة القرن التاسع عشر ميلادي كله قبل الاحتلالات وبعدها.

فلقد تعجب حمدان خوجة وديوان أحمد باي قسنطينة بعد احتلال الجزائر من الذين يفكرون في فصل الجزائر عن الدولة العثمانية[7]، وعبر عن هذا الشعور الاتحادي كذلك من طرابلس إبراهيم سراج الدين بعد احتلال تونس ومصر، وكان واعيا بالتآمر الأجنبي على المنطقة حيث قال :"... الأجانب ..

يكرهون تقدم الوطن تحت الراية العثمانية المنصورة...[8]"، وأكد أعيان المنشية عام 1250هـ 1835م أن ثورتهم على يوسف باشا لا تستهدف فصل طرابلس عن الخلافة[9]. أما من تونس وقبل احتلالها، كان ابن أبي الضياف يرى في الارتباط بالدولة العثمانية "قوة العصابة الإسلامية[10]"، وكان خير الدين يصر على بقاء تونس في العالم العثماني، لأن "الروابط التي تربطها بالخلافة العثمانية أمنع حصن يصونها من أطماع الدول الأوروباوية المختلفة ...[11]".

بين الوطن والآخر : القطيعة أم التواصل

فيما أعلن البعض من النخبة المغاربية عن الحذر وعن القطيعة مع الغير "الآخر"، جزئيا أو كليا، صراحة أو ضمنيا، أعلن البعض الآخر عن رفع هذه القطعية وهذا التسفيه، وعن أهمية وضرورة الاقتراب من هذا الطرف ومد جسور التعاون معه من أجل الوطن.

إن خطاب القطعية والحذر كان يتجدد كل مرة مع تجدد اعتداءات الأوربيين على العالم الإسلامي .فيستدعي هذا الخطاب الألفاظ اللازمة للتنبيه والتخويف، وللاستنفار والتعبئة، ويدعم لغته وبكل قوة بأمثلة الاحتلالات .حيث كان الاحتلال الفرنسي لمصر عام 1798 م هو المثال الأكثر حضورا في الاسطوغرافيا المغاربية للقرن التاسع عشر ميلادي، وهذا بالنسبة للمنطقة المغاربية ككل [12]. وجاء المثال الثاني بعد ذلك من احتلال فرنسا للجزائر عام 1830 م بمثابة الدليل القاطع على صدق الخطاب، والبرهان الساطع على حقيقة الطرف الآخر.

ولم تعد الدعوة إلى القطيعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي في حاجة إلى تدليل على خطورة الأوربيين على الأوطان وعداوتهم .وهذا بعد زيادة الضغوط الأجنبية والتدخلات الأوربية في طرابلس الغرب، على عهد الأسرة القرامانلية الحاكمة، وبعد هزيمة الجيوش المغربية أمام فرنسا في ايسلي عام 1844 م، وأمام إسبانيا في تطوان عام 1860 م، وسقوط تونس بعد ذلك عام 1881 م في يد الاستعمار الفرنسي ومصر عام 1882 م في يد الإنكليز.

لقد انتقل الخطاب المغاربي إلى مرحلة التصعيد، بتوظيف تعابير المواجهة والتصدي للأوربيين "الجهاد"، وامتلك الأدوات والصور التي تمكنه من ذلك وتعزز موقفه في مواجهة دعاة التقارب والتوفيق. ونادى أنصار هذا التوجه ومنذ وقت جد مبكر بالاعتناء بالجيوش وترقيتها، فهي ليست في مستوى المواجهة[13].

إن احتلال فرنسا للجزائر أثار مشاعر المسلمين في كل مكان، وبدأت تعلو صيحات التحسيس بالخطر الداهم خاصة في المنطقة المغاربية. بل أصبح هذا الأمر برنامج عمل عند البعض، وهو ما اعتمدته إحدى الجمعيات الليبية في قانونها المسمى" فوائد ونصائح خيرية[14]"، حيث جعلت من ضمن أهدافها التعريف بالأطماع الأوربية، والكشف عن التحرشات الفرنسية على الإقليم، انطلاقا من الجزائر وتونس[15]. وبتدبير من أعضاء هذه الحركة، جاء في إحدى خطب الجمعة بطرابلس ما يلي :"... أنتم غافلون وتوقظكم حوادث الغرب والشرق وأنتم نائمون .أما علمتم بمن جزر الجزاير وهو إلى حيكم ساير، أما علمتم بمن سود وجه الخضرا وتفرغ إلى افتراس الأخرى، أما علمتم بمن شرب النيل وكيف تقلص في واديه ظلكم الظليل ..."[16].

وبرز من المغرب الأقصى ما يماثل هذا الخطاب ويشبهه، عند غالبية رموز النخبة .فمع الوزير محمد ابن إدريس (ت 1264هـ 1848/م) الذي أنشد بمناسبة الحرب في ايسلي أبياتا شعرية، ظهرت الدعوة إلى الجهاد ، وترادفت معاني التحذير من الفرنسيين في الجزائر[17].

ومع الناصري السلاوي في "الاستقصا..." تكرر نفس النداء وأكثر من ذلك حبذ الناصري القطيعة الشاملة مع الغير، وتأسف على أوضاع المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي، التي كان يراها في نظره قد تدهورت تدهورا خطيرا، على مستوى الأخلاق والاقتصاد والتجارة والعمل والمداخيل، والسبب عنده هو :"ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل الأربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم و عوا ئدهم على عوائد الجيل وجذبته إليها جذبة قوية[18]". والدليل الذي قدمه الناصري على ما ادعاه هو قوله :"أن أهل المغرب أقل الأمم اختلاطا بهم، فهم أرخص الناس أسعارا وأرفقهم معاشا وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج، وفي ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى، بخلاف مصر والشام وغيرهما من الأمصار فإنه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان[19]".

إن القطيعة في مفهوم السلاوي، يجب أن تتم أو لا بتقليص وتحجيم عدد الأوربيين الوافدين كتجار وسواح إلى العالم الإسلامي عامة، وإلى المغرب الأقصى خاصة. وهذا لتفادي التأثيرات القوية لهؤلاء والحاصلة في المجتمع الإسلامي، وللحفاظ على أسباب الحياة وعلى مظاهرها المقبولة فيه. وهو يلاحظ التغييرات التي طرأت على أحوال الناس، قدم السلاوي نموذج المغرب في الفترة السابقة كأحسن مثال على نجاعة سياسة العزلة. وقدم

بعد ذلك نموذج مصر والشام وغيرهما كأقرب مثال على تفكك بنية المجتمع من جراء عدم التحفظ في الاندماج مع الآخر .

استثناء فقط، كان يرى البعض من دعاة هذا الخطاب، خاصة المعتدلين منهم، رفع هذه القطيعة جزئيا عندما تقتضي ذلك الضرورة، كرعاية مصلحة الدين وجلب المنفعة للأمة من خلال العلاقة مع هذا الآخر.ومثال ذلك مسألة تحديث الجيش، وجواز التعاون في هذا الإطار مع الأوربيين" الكفار "مادام ذلك ممكنا .وهذا ما كان ابن العنابي يؤمن به و يدعو له، وفي نفس الوقت يرد على أقوال خصومه ويفند آراءهم : » وأنه إذا لم يمكن استعلام ذلك إلا من قبلهم، وجب استعلامه منهم، لأنه مستطاع لنا[20]".

أخذ عدد لا بأس به من أقطاب النخبة المغاربية على عاتقه مهمة خطاب التقارب. وإذا كان البعض منهم قد وعى أطر التقارب والتوفيق وآلياتهما وشروطهما، ثم النتائج المترتبة عنهما، فإن البعض الآخر قد غاب عنه ذلك واندفع وتحمس للموضوع .فتورط هذا الفريق الثاني تاريخيا واستغل في الدعاية للاستعمار الفرنسي خاصة، إما من خلال مواقف سياسية ناصر فيها الإدارة الاستعمارية و إجراءاتها، بشكل أو بآخر، من حيث يقصد أو لا يقصد ذلك، و إما من خلال مواقف فكرية لجأ فيها، وبحسن النية غالبا، إلى التلفيق أكثر من التوفيق[21].

لقد اهتم محمد بن عثمان الحشائشي بعدة مواضيع في دراساته المتعددة، غير أن موضوع التقارب هو المسألة التي أولاها اهتماما خاصا وقبل مجيئ الفرنسيين :"أما المسألة التي تعلقت بها أكثر من غيرها فهي دراسة الطرق الكفيلة بتقريب الشقة بين الفرنسيين والعرب، وقد كانت شغلي الشاغل قبل

احتلال فرنسا لتونس... وكنت كلما تهيأت لي الفرصة لا أتردد في القيام بما في مقدوري حتى أيسر هذا التقارب. وهكذا فقد ألفت كتابا بعنوان "الدرة النقية في النوايا الصادقة للحكومة الفرنساوية" سنة 1881 م[22] حين شبت ثورة بالإيالة إثر انتصاب الحماية، حاولت فيه إبراز المقاصد التمدينية لفرنسا...[23]".

معاصر الحشائشي ومواطنه، محمد بن عثمان السنوسي، تورط هو الآخر أيضا وانتقل من صفوف المعارضة للحماية الفرنسية إلى صفوف المسايرين لها والموظفين لديها، و أصبح خطابه (قبل أن يتراجع عنه في أواخر حياته) يتجه نحو التوفيق والتهدئة، ولذلك كتب كتابه المعروف بـ : "مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري "الذي حاول من خلاله مطابقة القانون العقاري الذي وضعته فرنسا في تونس عام 1885 م بأحكام الشريعة الإسلامية وفق المذهبين المالكي والحنفي.

وهناك من دفعت به المثالية والسذاجة إلى المناداة بضرورة الاتحاد وبأهميته مع الأمة الفرنسية المتحررة، لما في ذلك من خير للأمة العربية. وهو ما قال به محمد ابن عبد الجليل الطرابلسي[24] ومحمد بن عثمان الحشائشي التونسي[25]. وقبل ابن عبد الجليل والحشائشي اندفع كذلك من الجزائر أحمد بوضربة الذي قال في مذكرته إلى اللجنة الإفريقية عام1833 م: "وإنني سوف أحدد الأسس الرئيسية أملا أنها ستفيد فرنسا، وطني الجديد، كما أنها سترجع بالفائدة على بني جلدتي، وسأحقق سعادة العمر لو أنني أستطيع المساهمة في هذا العمل الجليل[26]". وبعد حوالي نصف قرن من دخول فرنسا إلى الجزائر توقع أحمد ولد قاضي[27] في "الرحلة القادية في مدح

فرنسا وتبصير أهل البادية "امتزاج العرب عن قريب مع الفرنسيين في أمة واحدة » كذات واحدة[28]".

وعلى خلاف هدا الفريق، استطاع الفريق الأول تناول موضوع التقارب والتآخي والتوفيق بكل وعي، انطلاقا من معرفة واطلاع كافيين على أهم الأسس والقواعد والاتجاهات التي تحكم الفكر الإسلامي والفكر الغربي. وأكثر من ذلك استطاع هذا الفريق التمييز بين ظاهرة الحضارة الغربية وأساسها الفكري والعلمي، واستقلالها عن ظاهرة الاستعمار وطبيعته العدوانية .وبالتالي قبول الظاهرة الأولى والتفاعل معها ورفض الظاهرة الثانية والتصدي لها.

إن حمدان بن عثمان خوجة، وحسونة الدغيس الطرابلسي[29]، يأتيان في طليعة المثقفين المسلمين المتنورين، وقبل رفاعة الطهطاوي، الذين تعرفوا على حضارة أوربا وعلى الفلسفة الغربية، فأعجبوا وتأثروا بها، وحاولوا إسقاط ما جاءت به من نظم وأفكار وحريات على مضمون التراث الإسلامي. قال حمدان :"درست مبادئ الحرية الأوربية. ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا فارقا بسيطا في التطبيق، وعليه فكل من له فكرة دقيقة عن الشريعتين يجعلهما تتطابقان فيما بينهما[30]". غير أن هذا الموقف لم يمنع حمدان من مطالبة فرنسا بالعدول عن فكرة البقاء في الجزائر[31]، ولم يمنعه أيضا من تعرية الاستعمار ومواجهته وكشف تجاوزاته، وتعرية الطابع المخادع للإيديولوجيا المحضرة للاستعمار بالاعتماد على الفكر الليبرالي أساسا[32].

التنمية الوطنية :أولوية النقل على العقل أم العكس

بحكم انقسام النخبة المغاربية خلال القرن التاسع عشر ميلادي إلى نخبة تقليدية وأخرى عصرية، اختلفت نظرتهما وتباين موقفهما من العقل. فهناك من لم يسلم سوى بالعقل الديني "الإسلامي"، وهناك من اعترف بالعقل الإنساني العلماني "غير الإسلامي"

لقد رفض بعض العلماء التسليم حتى للعقل الإسلامي "المرتبط بالدين" بأن يكون مصدرا للمعرفة ولا أن يكون وسيلة للتنمية، وهم الذين أغلقوا باب الاجتهاد وأصبحوا خصومه. بيد أنه تصدى لهؤلاء بعض المغاربة المجددين، أمثال محمد بن محمود ابن العنابي الجزائري[33]، ولو كان ذلك ضمن دائرة الماضي وإشكالية التاريخية. لأن ابن العنابي لم يعترف سوى بالحقيقة العقلية "جودة الرأي" التي يتضمنها القول الديني نفسه (الكتاب والسنة)، وهي عنده حقيقة متكاملة[34]. أما العقل غير الإسلامي "المسيحي"، فهو في نظره غير ناضج، ولا يمكن أن يحوز الصواب مادام يقر بالشرك[35]. لذلك رفض ابن العنابي وبلغة صريحة الفلسفة الغربية وكل النظم السياسية والدستورية التي وضعها الأوروبيون، وإن كان بعض ما أظهره هؤلاء ووضعوه لايتعارض مع الإسلام[36].

ولم يخرج الناصري السلاوي هو كذلك عن دائرة المنظور الديني للعقل، ووظيفته الأخلاقية" العقل الأخلاقي ."فالعقل عنده هو تكريم وتشريف من الله للإنسان، وتمييز له عن الحيوان، لذا يجب على هذا الإنسان الإيمان بالله

والالتزام بتنفيذ أوامره، والإنسان مكلف لأنه عاقل[37]. واعتبر السلاوي كل الأفكار والنظريات والنظم التي يضعها العقل ولا تنطلق من تعاليم الإسلام هي في حكم الانحراف المنبوذ: "كل سياسة لا تستضيء بنور الشرع فهي ضلال ...[38]".

ومع زيادة احتكاك المغاربة بالأوربيين وتعدد فرص التعرف على حضارتهم وعلى قوتهم، لم يعد صواب الرأي مرتبطا عند بعض المصلحين ارتباطا لازما بالدين .حيث أن العقل الإنساني "المسيحي، الملحد" أصبح محل إعجاب وتقدير.

إن العقل الغربي صار يصنف ضمن النوع المقبول والمتميز، وهو ما وصف به خير الدين باشا المفكرين الفرنسيين جان جاك روسو وفولتير ومونتسكيو. فقال عن الأول : "وله من حسن التعبير مالا تستقر معه الأوهام"، وقال عن الثاني "واشتهر... اشتهار الدجال في الأجيال"، ورأى أنه لو لم يكن ملحدا "لكانت شهرته أتم، والنفع بمعارفه أعم"، وقال عن الثالث بأن له » تعليقات صادقة وعبارات محررة راشقة[39].

الحرية وإشكالية البناء الحضاري للوطن :

ارتبط مفهوم الحرية في معظم الأدبيات التاريخية المغاربية للقرن التاسع عشر بالدين وبالموروث الثقافي التاريخي، ولهذا تحدث المؤرخون والفقهاء والأدباء عن الحرية الشرعية التعبدية، أي حرية الخضوع والتقيد بالشريعة الإسلامية، وحرية الإذعان للنظام القائم" أولي الأمر[40]".

لكن هذا المفهوم الديني والتاريخي للحرية اهتز وتزلزل بكثرة الثروات المحلية في بلاد المغرب العربي من جهة، ومن جهة أخرى تأثر وتجدد بانتقال مفاهيم فلسفة الأنوار وفكر الثورة الفرنسية إليه. وهذا عن طريق من تبناها من المصلحين المغاربة، وعن طريق التعابير الشفوية والممارسات السلوكية للأوربيين الوافدين إلى الأوطان المغاربية (رحالة، تجار، سفراء). ومن ثمة أثير موضوع الحرية، وظهر المعنى الحديث لها .

إن أحسن مثال نقدمه هنا عن المعنى التقليدي للحرية في الخطاب المغاربي هو ما قاله الناصري السلاوي :"اعلم أن الحرية الشرعية هي التي ذكرها الله في كتابه وبينها رسول الله... لأمته وحررها الفقهاء... فراجع ذلك وتفهمه ترشد ...[41]". لقد انتقد السلاوي بشدة مفهوم الحرية في الفكر الليبرالي الأوربي، ووصف أنصار الحرية ومنظريها بالملحدين المتحللين من الالتزامات :"إعلم أن هذه الحرية التي أحدثها الفرنج في هذه السنين هي من وضع الزنادقة قطعا[42]".

وما جعل السلاوي يتخذ هذا الموقف ويبني ذلك الحكم، هو مقتضيات هذه الحرية في الواقع ومستلزماتها، والصور التي ترتبها في المجتمع وعلى مستوى العلاقات. فالحرية في تقديره تسقط :"حقوق الله وحقوق الوالدين وحقوق الإنسانية"، لأنها تحرر الفرد من الحدود والعقوبات المتوجبة على من ترك التكاليف الشرعية وتعاطي المحرمات، وهي تصطدم كذلك بطبيعة البناء الأسري في المجتمع الإسلامي (عدم الاعتراف بالسلطة الأبوية = عقوق الوالدين والحرمان من برهما). ولا تتصف هذه الحرية بمواصفات

العقل "الأخلاقي" ولا تلتزم به، وليس لها ما يميزها عن الفوضى "حياة الحيوان"، سوى أن الأفراد يحترمون بعضهم البعض ولا يتظالمون، لأن الانسان عندهم، قال السلاوي، "لا يلزم أن يتقيد بقيد" إلا في حالة واحدة فقط وهي "إعطاء الحق لإنسان آخر مثله فلا يجوز أن يظلمه[43]".

انطلق خير الدين من ظاهرة الحرية في أوربا بالضبط، ليبين أنها كانت أساس الحضارة الحديثة في القارة، حيث قال : "الحرية هي منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأورباوية"، وأكد قوله هذا عندما كان يتحدث عن ثمار الحرية فقال : "وقد رأينا بالمشاهدة أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران هي التي تأسست بها عروق الحرية ....".كما أنه ضرب أمثلة عنها، وصور حياة الأفراد والدول بدونها تصويرا يبرز دورها فقال : "فالحرية إذا فقدت من المملكة تنعدم منها الراحة والغنى، ويستولي على أهلها الفقر والغلاء، ويضعف إدراكهم وهمتهم كما يشهد بذلك العقل والتجربة[44]".

وإذا كان خير الدين قد ارتبطت لديه الحرية أساسا بدائرة الدنيا، فإن ذلك لا يعني أنه أهمل دائرة الآخرة، ولم يهتم بها مثل السلاوي، لأن خير الدين كان يريد أن ينبه إلى ما أغفله الخطاب العام أو تشدد بشأنه (الحرية والتنظيمات). فلقد اهتم خير الدين بالضوابط الشرعية وبالمتغيرات الزمنية والمتطلبات الحاضرة والمستقبلية للحياة، أي اهتم بالدائرتين معا "مصالح الدارين"، ولم يغلب إحداهما على الأخرى بإلغاء هذه وترقب تلك كما يعتقد البعض[45]، حتى أصبح أصدقاؤه ينادونه بخير الدنيا والدين[46].

السلطة الوطنية :إصلاح أم تغيير

قد تعرض النظام السياسي في البلدان المغاربية إلى انتقادات شتى، من جانب المعارضين والمجددين (زعماء الثورات، دعاة تقييد السلطة)، ومن جانب المؤيدين والمحافظين كذلك (الوزراء والسفراء، العلماء المقربين).وأجمع هؤلاء وأولئك، وهم مختلفون، على ضرورة إصلاح هذا النظام فقط لا تغييره، فأعطوا المواصفات الواجب توفرها في الحاكم، وعددوا شروط المسؤولية وتبعاتها، بالتصريح أحيانا وبالتلميح أحيانا أخرى.

ولم يتحمس حتى من كان يغريهم الفكر التنويري والنظام السياسي الأوربي إلى طرح فكرة النظام الجمهوري، وإنهاء الحكم الوراثي أو الحكم القائم على القوة العسكرية. بل إن البعض حاول أن يثبت بأن رئيس الجمهورية ما هو في الحقيقة إلا ملك أو داي. مثلا، نفى بيرم الخامس وبصريح العبارة أن يكون هناك فرق جوهري بين النظامين الملكي والجمهوري "... الجمهورية ... من يقيمونه رئيسا لها ما هو في الحقيقة إلا ملك ..."، ونقطة الاختلاف بينهما عنده هي في "اللقب وفي تحديد السلطة أو إطلاقها...وزيادة الأبهة ..."[47]. وما كان يهم بيرم فعلا هو الدفاع عن الفكرة التي تقضي بوجوب قيام السلطة في المجتمع وإلزامية الخضوع لها "الاستقامة بدون ملك ...أمر وهمي ... إذ إقامة الملك أمر طبيعي لا يمكن الاستقامة بدونه ..."، وقال أيضا : » فلا مندوحة... عن الإقرار بوجوب الملك والانقياد إليه ...[48]".

وعندما كان حمدان خوجة يستعرض صلاحيات وسلطات الداي في النظام الحكومي للأتراك بالجزائر، أضفى على هذا النظام صفة الجمهورية هو الآخر أيضا بقوله : "في بعض الشكل يمكن القول بأن الجزائريين تبنوا مبادئ الحكم الجمهوري، ومنه فالداي هو ليس إلا رئيس الجمهورية". وسبب هذه المقاربة وهذا التطابق عند حمدان هو توفر صفات أساسية للحكم العثماني في الجزائر، منها الاختيار وعدم توارث الحكم[49].

إن الصفار التطواني قد لمح إلى ضرورة تحديد صلاحيات الملك حينما وصف النظام السياسي الفرنسي على عهد الملك لويس فيليب 1848-1830م..." ولا يستقل السلطان وحده بحكم من الأحكام[50]"، وكذلك أوضح حسونة الطرابلسي في رسالته إلى حكومة الملك لويس فيليب عام 1832 م، أنه يأمل في تدخل فرنسا في طرابلس لإنهاء الحكم المطلق ليوسف باشا، وتنصيب ابنه علي باشا في نظام ديمقراطي تحرري إنساني.واشترط حسونة على هذا الحاكم الجديد أن : » لا يتبع حكم أسلافه للبلاد، حيث لمس نتائجه السيئة، بل عليه أن يتخذ النظام الفرنسي قدوة له، ويكون من اللائق أيضا أن يلزم على قبول مبدأ مشاركته في الحكم، وأن يؤمن ملكيات الأفراد ويضمن الحريات الشخصية[51].

أما خير الدين التونسي فهو يعتبر أهم من تناول وناقش موضوع النظام السياسي الدستوري "المتقيد بالقوانين" في كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"[52]. حيث استعرض بنية النظام السياسي في أوربا و قارن بينه وبين النظام القائم في الوطن العربي والإسلامي، ولم ير أي مانع من تقليد الغرب في ما لا يخالف الشريعة الإسلامية، وهذا بهدف إنقاذ العالم الإسلامي وتحقيق الحضارة فيه. وأكد خير الدين على الفرق الشائع بين

النظام العسكري القائم على القوة والنظام الديمقراطي الدستوري، حينما قال:"فشتان بين حالة المستبد الذي يأخذ ويعطي بمقتضى الشهوة والاختيار، وحالة المتقيد بالقوانين الذي يفعل ما ذكر بمقتضاها متوقعا تعقب آراء كثيرة يخجل من تنزيلها إياه منزلة القاصر في تصرفه، فضلا عن الخائن فيه[53]".

إذا كان النظام السياسي في مغرب القرن التاسع عشر قد تعرض إلى النقد والتجريح من طرف بعض المثقفين المصلحين، فإنه تلقى من جهة أخرى المبالغة في المدح والتأييد والإشادة .وهو ما تمثله كتابات عدد من المؤرخين والأدباء في الجزائر والمغرب الأقصى خاصة، أمثال ابن سحنون وابن هطال والشريف الزهار والضعيف الرباطي وأبو القاسم الزياني والناصري السلاوي. حيث اتفق هؤلاء: على شرعية السلطة القائمة لأنها خلافة (السلطان ظل الله على الأرض)، وعلى جواز قمع الثورات لأنها فتنة (وجوب طاعة أولي الأمر)، وعلى الافتخار والتباهي بتحرير الأوطان لأنه فريضة (جهاد)، وعلى أحقية تولي الحكم لأن النسب شريف(سلالة النبي).

ومثال ذلك، ما أورده السلاوي على سبيل المثال في "الإستقصا"... من قصائد المادحين للسلطان المغربي مولاي الحسن 1894-1873 م[54]، كما تلقى باي الغرب الجزائري محمد بن عثمان الكبير 1798-1778 م قصائد مدح عديدة أثبتها ابن سحنون في" الثغر الجماني..."[55].

حاجات الوطن وتجارب الأوربيين

أخذت ثنائية التقليد والتجديد في الفكر العربي والإسلامي في الأبحاث التي انفردت بدراسة تغيرات القرن التاسع عشر معنى أوضاع الوطن العربي

والإسلامي وحاجاته في ملف النخبة، وهذا بين الحضارة العربية والفكر الإسلامي والحضارة الأوربية والفكر الغربي، أي ما مدى حضور هذا الثاني مع الأول و توافقه معه ؟ وما مدى قبول الأول للثاني وتفاعله معه؟

ولما كان القرن التاسع عشر هو القرن الذي اصطدمت فيه الأوطان المغاربية بالليبرالية الاستعمارية، وهو الظرف الذي زاد فيه احتكاك هذه الأوطان بالليبرالية ومظاهرها من خلال الجاليات الأوربية المهاجرة بها، ومن خلال الرحلة إلى مركز الليبرالية نفسها، كان ولا بد من إنتاج خطاب إصلاحي جديد يتبنى التجديد والعصرنة .وهذا ما أفرزته عملية المقارنة والوقوف على حقيقة البون الشاسع بين الواقع المغاربي والواقع الأوربي .

وفي الوقت الذي كان يدعو فيه أنصار التحديث والمعاصرة إلى ضرورة مراعاة متطلبات العصر وقضاياه المستحدثة وحاجاته المتجددة، وإلى الانفتاح على الأوربيين، كان دعاة التقليد يدعون إلى التمسك بالقديم و بتراث الأوائل لأن الحقائق اكتملت في التاريخ واستقرت به؛ وهي صالحة لكل زمان ومكان.

إن من يثور على المنظومة التقليدية (بنية الحكم، التعريفات الكلامية المقدسة) ولا يعترف بها كما هي حتى في جزئياتها، كان يصنف من طرف السلفيين (خاصة الوهابيين)ضمن الملحدين والمتنصرين وأصحاب البدع،. ومن أمثلة ذلك المغرب الأقصى وما كان يقول به المؤرخ والأديب محمد أكنسوس (1837 - 1796م) والفقيه الحافظ محمد كنون (ت 1885 م) ، وما حدث لأعضاء البعثات العائدين من أوربا[56].أما من كان يتزعم هذه المراقبة القاسية على المقالات المخالفة على حد تعبير الأستاذ محمد أركون[57]،

فكان يوصف من طرف التجديديين بالجمود والتزمت والجهل وتقديم المصلحة الشخصية؛ وهو ما قال به مثلا حمدان خوجة وخير الدين التونسي صراحة[58].

لقد ربط حمدان استقرار الوطن وحسن تسيير شؤون الحياة فيه بالحداثة والتجديد؛ لأنه كان يؤمن بمرونة التشريع وضرورة مواءمته لحاجات العصر .وهذا في الرسالة التي بعث بها عام 1833 م إلى السلطان العثماني محمود الثاني (1808-1839م)، حيث قال : "إن كل عصر له متطلبات وخصائص جديدة، ولدى ظهور عادة حديثة، وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب، وحتى لا يعرقل ذلك تسيير دولاب الإدارة الناجحة[59] ".

إن نموذج الجديد الجدير بالتفاعل معه، والواجب قبوله عند حمدان وخير الدين هو النموذج الأوربي، وعلى أن لا يتقيد هذا التحديث والاقتباس وهو يقتحم مختلف جوانب الحياة سوى بالضوابط الشرعية؛ فهي وحدها ترسم حدود الحياة الحديثة .وإذا كان البعض قد أقبل على تجديد الجيش واللباس والأثاث على الطراز الأوربي، فإنه كان من الأولى له أن يقبل على تجديد أفكاره ونظمه وسياسته.

إن جرأة حمدان ومستوى خطابه العصري من حيث النضج والوضوح والصراحة، ليس لهما ما يماثلهما في مغرب القرن التاسع عشر سوى جرأة ومستوى خير الدين . فما قاله حمدان عن ثنائية الأصالة والحداثة عام 1252هـ 1836 م قال به خير الدين عام 1867 م تماما .حيث قال حمدان : "فكما نقبل ما ثبت بتجاربهم في الطب... ينبغي أن نقبل كل ما ثبت عنهم

وتحقق في غيره، ما لم يناقض ديننا"، "ليس كل ما سبق إليه الكفار واستعملوه حراما، بل قد يكون واجبا[60]". وقال خير الدين :"فإن الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لاسيما إذا كنا عليه ... فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله"[61].

القوة المادية سلاح حيوي للأوطان

كان عدد كبير من المؤرخين والفقهاء والطرقيين لا ينوه سوى بالقوة الروحية والغيبية، ولم تطرح مسألة القوة المادية(التقنية، الحضارة)بإلحاح وإجماع إلا بعد الاصطدام بالآلة العسكرية الاستعمارية الأوربية وتلقي ضرباتها، وتحرك هذه الآلة في مجال واسع، أو بعد معاينة مظاهر هذه القوة عند الآخر (السفارات) الذي امتلكها وأنشأ حضارة راقية .وهو ما جعل بعض المثقفين المغاربة خاصة من زار منهم أوربا يربط بين وجوب امتلاك القوة المادية ووجوب اعتماد إصلاحات عديدة في الوطن.

إن اعتماد الحرية الشاملة والبناء الدستوري للسلطة هو أساس القوة المادية للحضارة الغربية في نظر خير الدين : "رأينا بالمشاهدة أن البلدان التي ارتقت إلى أعلى درجات العمران هي التي تأسست بها عروق الحرية والكونستيتوسيون المرادف للتنظيمات السياسية"[62]. وهذه القوة هي جارفة ومتعدية، ولا ترد إلا بقوة مادية أخرى مماثلة لها، وبالتالي دفع التعدي عن الوطن لا يتأتى إلا بالمحاكاة والتقليد، الأمر الذي يجب أن تهتم به الدولة المجاورة لأوربا[63].

والقوة المادية، عند ابن أبي الضياف، هي الثمرة التي يجب أن يتقاسمها الحاضر مع المستقبل، كما يلاحظ ذلك على الأوربيين الذين لا يستعجلون

نتيجة العمل ويبنون هدفهم في المستقبل، فهم مثلا "يصرفون الأموال لفائدة يمكن حصولها بعد سنين"، وبهذا العمل يحققون القوة الاقتصادية والاستقلال عن الغير .واعتبر ابن أبي الضياف هذا :"من أعظم أسباب العمران والثروة ..."، ولذلك تأسف على غياب هذه الاستراتيجية في السياسة الاقتصادية للبلاد[64].

أما ابن العنابي، فإنه طرح هو الآخر أيضا قضية القوة المادية، ولكن طغى على طرحه الهدف العسكري والبعد الحربي والمصلحة الدينية[65]، بما أنه كان يطرق موضوعا عسكريا، وقد سمى تأليفه "السعي المحمود في نظام الجنود".

وإذا سلمنا بفرضية الأستاذ أبو القاسم سعد الله، بأن ابن العنابي كان مطلعا على الاتجاه الليبرالي العقلاني الذي بدأ ينتشر في أوربا بعد الثورة الفرنسية[66]، فإن هذه الأخيرة لم تمثل مرجعيته عندما أثار قضية الرحمة والعدل، والحقوق الفردية والتسامح، وجعل منها أسبابا للقوة » ومن أسباب القوة التواضع، والعفو عن المظالم[67] ..."، فمرجعيته الفكرية كانت كلها من التراث الإسلامي .وإنما مثل الفكر الغربي لديه، ومن طرف خفي، الباعث المحرك والدافع القوي إلى طرح الموضوع ومناقشته.

إن الولاء للنظام القائم، وإلى أقصى درجات التأييد، جعل أحد المؤرخين يعتبر القوة المادية للمملكة فريدة من نوعها ولا نظير لها. وهو ما قال به أبو القاسم الزياني (1833 -1734م) في كتابه" البستان الظريف في دولة أولاد مولانا الشريف "عن السلطان المغربي مولاي إسماعيل (1727-1672م): "ولقد شاهدت الكثير من آثار الدول فما رأيت أثرا أعظم من آثاره ولا بناء

أضخم من بنائه ولا أكثر عددا من قصوره ... بل جعل مباني العالم كلها في بطن تلك القلعة المكناسية ...[68]".

بعيدا، عن هذه المبالغة من جانب الزياني، وعن تجاهل غيره كذلك ولوقت متأخر من القرن التاسع عشر لقوة الآخر الصاعد، اعتبر الشقراني[69] (ت بعد 1883م) القوة المادية في جانبها العسكري هي الفيصل والأداة الحاسمة عند المواجهة، وبالتالي فمن العبث انتظار الانتصار خلف العواطف المتقدة، فردية كانت أم جماعية .

وعليه فقد أيد الشقراني ثورة الأمير عبد القادر على فرنسا (1847-1832م)، وأشاد بها، وانتقد ثورة بوعمامة بالجنوب الوهراني (1904-1881م) وعارضها وقال عن زعيمها : » أنه لم ينظر لهذه الدولة العظيمة، والأمة الجسيمة، والجيوش الغزيرة، والإقامة الكبيرة[70] ... ...".

كما عبر الأمير عبد القادر الجزائري (1883-1807م) من جهته أحسن تعبير عن القوة الروحية لدى النخبة الصوفية؛ وهو الذي لم يهمل القوة المادية، وهذا من خلال المواقف الحربية والرسائل الموجهة إلى القادة العسكريين الفرنسيين، كرسالته إلى الجنرال دي ميشال (DEMICHELS) عام 1833 م، التي قال له فيها : »... كيف تفاخروني بقوة فرنسا، ولا تقدرون القوة الإسلامية ...ونحن وإن كنا ضعفاء، على زعمكم، فقوتنا بالله ...[61]". وتعكس كتاباته هذا الجانب أيضا ومثال ذلك كتاب" المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد"، ورسالة" " ذكرى العاقل وتنبيه الغافل[62]."

ويعتبر تدخل العناية الإلهية والقوة الربانية إلى جانب البشر، في الثقافة الإسلامية، من المسلمات الدينية المنصوص عليها و الثابتة في التاريخ،

والواجب الاعتقاد بها .وهو العامل الذي ظل المسلمون لفترة طويلة يفسرون به حركة التاريخ، ومثال ذلك في القرن التاسع عشر ما قاله المؤرخ المغربي محمد أكنسوس في كتابه "الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا على السجلماسي" عن السلطان مولاي عبد الرحمان (1859-1823 م) بعد تسلمه المملكة :"فلما قام مولانا المؤيد لم يجد فيها إلا رمقا قليلا وخيالا عليلا، قد وهت دعائمها وتداعت للسقوط وأشرفت على الانهدام المفضي إلى الانعدام فأمده الله تعالى بالسعادة الخارقة للعادة فقام بأعبائها بلا مال ولا رجال ولا معين ... وجعل يكابد تلك الشدائد بنهاية جهده والسعادة تكتنفه أماما وخلفا ويمينا وشمالا والتأييد من الله تعالى يمده والتوفيق يسدده والعناية تساعده حتى أقام بناء الملك الإسماعيلي..."[63].

إن كل هذه القضايا التي طرحها المجددون والمصلحون المغاربة في القرن التاسع عشر طرحها نظراؤهم بالمشرق العربي هم أيضا في نفس التاريخ، من خلال مواقعهم السياسية ومستوياتهم الفكرية، وظروفهم المحلية والدولية. فأثاروا النقاش أحيانا قبل المغاربة وأحيانا أخرى بعدهم في مسائل كثيرة، كالتقارب والتحرر والتجديد والإصلاح الدستوري وتثمين العقل.

* * *

هوامش :

1 ـ سنناقش هذه الثنائية بمعنى الارتباط وفك الارتباط مع الدولة العثمانية.

2 ـ محمد صالح بن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة، مراجعة وتقديم وتعليق يحي بوعزيز، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991، ص ص130-132

3 . للتعرف أكثر على صورة الوطن عند الأوربيين راجع :

ناصر الدين سعيدوني، عصر الأمير عبد القادر الجزائري، ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت،2000 م، ص ص29-30.

4 . راجع حيثيات الفتوى عند :

أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى9، أجزاء، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1956، ج9، ص ص 27-28.

5 . راجع الوثيقة رقم "5" عند :

عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، تونس، الجزائر، ليبيا، من 1816 م إلى 1871، ط1، الدار التونسية للنشر،1972 ، ص ص 222-225.

وانظر كذلك الوثيقة رقم "6"ص 227 من نفس المصدر.

6 . بعث أحمد باي قسنطينة رسالة إلى السلطان محمود الثاني (1808-1839م) يقر فيها بالخلافة و يطلب المساعدة، وهي تشبه رسالة الأمير عبد القادر، أنظر :

أحمد باي، مذكرات، ترجمة وتعليق محمد العربي الزبيري، ط 2، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1981م، ص ص 31-32.

7 - قال حمدان لبوضربة :«البلاد للعثمانلي، فكيف نلتزم باخراجها من حكمه...»، وقال ديوان أحمد باي قسنطينة إلى المشير أحمد باي تونس :«...ألستم مثلنا، تابعين لخليفة اسطنبول...»أنظر :

التميمي :المصدر السابق، ص 176.

أحمد باي :المصدر السابق، ص 22.

8 . أحمد صدقي الدجاني، بدايات اليقظة العربية و النضال الشعبي في ليبيا (1882-1911م)، وقائع محاكمة أول تنظيم سياسي في ليبيا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1977 م، ص 27 .

9 . جاء في رسالة لهم إلى السلطان العثماني أنهم : «لا زالوا عبيدا مملوكين لذات المتصف بالهيبة حضرة ظل الله مطعين منقادين...». راجع نص الرسالة كاملا في الوثيقة رقم 32 في ملحق الوثائق في : رود لفوميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، تعريب طه فوزي، مراجعة حسن محمود وكمال الدين عبد العزيز الخربوطلي، منشورات معهد الدراسات العربية العالمية، جامعة الدول العربية،1961، ص 82.

10- أحمد ابن أبي الضياف، إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان،8 أجزاء، ،" دولة أحمد باي"، تحقيق أحمد عبد السلام، منشورات الجامعة التونسية، تونس،1971 ، ج 6، ص84.

11- خير الدين، رجل دولة، مذكرات ، ص38 ، نقلا من تقديم المنصف الشنوفي في :
خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986 ، ص45.

12- راجع آراء العلماء المغاربة حول مشروع بونابرت في الشرق العربي، في الفصل الثالث من كتاب:
ودان بوغوفالة، الثورة الفرنسية في الاسطوغرافيا المغاربية، دراسة تاريخية تحليلية في نماذج من كتابات القرن 13 هـ 19/م، ط 1، مط .الرشاد، سيدي بلعباس، 2004م،
ص ص 86-00123

13- انظر :
الناصري السلاوي :المصدر السابق، ج9، ص ص 103-108
وانظر كذلك الكتب التالية التي اهتمت بموضوع الجيش :
- لسعي المحمود في نظام الجنود لـ :ابن العنابي.
- وكشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة لـ :الكردودي .
- وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب، قدور بن رويلة.

14- هي أول تجربة تنظيمية بطرابلس الغرب، ظهرت بعد احتلال بريطانيا لمصر وفي بداية ولاية أحمد راسم(نهاية عام1882م وأوائل عام1883 م .)في شكل جمعية سرية على يد إبراهيم سراج الدين وأحمد حسين النائب وحمزة ظافر المدني .

15- أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي أو طرابلس الغرب في آخر العهد العثماني الثاني 1882-1911م)، ط 1، مط .الفنية الحديثة، القاهرة،1971 م، ص 351

16- بدايات اليقظة العربية... مصدر سابق، ص35.

17- عبد الله كنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، ط2، مط .النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء،1978 م، ص32.
- انظر هذه القصيدة كذلك عند :الناصري السلاوي : المصدر السابق، ج9 ، ص50.

18- المصدر نفسه، ج9، ص208.

19- المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.

20 - محمد بن محمود ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود ، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1983 ، ص63.

21- التلفيق هو عدم الوعي بالأسس والقواعد والمستجدات التي يجب أن تراعيها عملية التوفيق الضرورية. لتعميق هذا المفهوم أكثر أنظر :
طه جابر العلواني، إصلاح الفكر الإسلامي، مدخل إلى نظم الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، ط 2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الأردن 1995 م، ص157-160

22- طبع هذا الكتاب بباريس عام 1882م .

23- محمد بن عثمان الحشائشي، الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، ترجمة محمد المرزوقي، ط١، الدار التونسية للنشر، تونس،1988 ، ص 39

وعن الظروف التي أحاطت بفكرة التقارب عند الحشائشي، راجع الفصل الأول من رحلته، ص 42-45

24- راجع رأي ابن عبد الجليل في مشروع بونابرت بالشرق العربي في الفصل الثالث من كتاب : بوغوفالة :مصدر سابق، ص101-103.

25 - الحشائشي :المصدر السابق، ص ص 43-44.

26- أحمد بوضربة، مذكرة إلى اللجنة الإفريقية، ترجمة و تقديم محمد العربي الزبيري ، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م، ص ص171-172.

27 - كان أحمد ولد قاضي باشا آغا بمنطقة فرندة (تيارت، الجزائر)، زار فرنسا ثلاث مرات، منها زيارته لمعرض باريس 1878م.

28- أحمد ولد قاضي،" الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية"، جريدة المبشر، ع1973، 21 ديسمبر 1878، ص3.

وانظر كذلك :

خالد زيادة، ثلاث رحلات جزائرية إلى باريس، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1979 ، ص63.

29- الدغيس هو من عائلة تركية اشتهرت بالعلم و بالسياسة بطرابلس الغرب، ساح بدول أوربا واحتك بطبقاتها الراقية .شغل منصب وزير الخارجية في الحكومة القرامانلية ثم استقال بعد ذلك .ومن وإلى باريس ولندن، انتقل إلى استانبول و اشتغل بالصحافة وقدم عدة تقارير للسلطان ، توفي في نهاية عام 1836م.

30- Hamdan Ben Othman Khodja, Le miroir, aperçu hisorique e statistique sur la régence d'Alger, introduction d'Abd el Kader Djegloul, éd. Sindbab, Paris, 1985, p.112.

31- Ibid, p. 262.

32 - Abdelkader Djeghloul, Eléments d'histoire culturelle algérienne, ENAL. 1984, p. 168.

33 ـ هو محمد بن محمود ابن العنابي (1775-1851) ، تولى القضاء الحنفي بالجزائر وولاه محمد علي الفتوى الحنفية بالإسكندرية، سافر إلى دول المغرب والمشرق العربيين وإلى اسطنبول، يسميه الأستاذ أبو القاسم سعد الله برائد التجديد في العالم الإسلامي، وكتابه" السعي المحمود "... ألفه بالقاهرة عام 1926.

34 - ابن العنابي :المصدر السابق، ص201-203.
35- المصدر نفسه، ص203.
36- المصدر نفسه، ص ص203-204.
37- الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج9، ص ص114-115.
38- المصدر نفسه، ص186.
39- خير الدين :المصدر السابق، ص ص 181-182.
40- لمقارنة هذا المفهوم بمفهوم الحرية عند باقي الشعوب و الأديان انظر:
فرانز روزنتال، مفهوم الحرية في الإسلام، دراسة مشكليات المصطلح وأبعاده في التراث العربي الإسلامي، ترجمة وتقديم معن زيادة، رضوان السيد،ط ١، معهد الإنماء العربي، بيروت 1978م، ص ص 15-20.
41- الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج9، ص115.
42- المصدر نفسه، ص114.
43- المصدر نفسه، ص ص114-115.
44- المصدر نفسه، ص 206-210-211
45- انظر هذه الأفكار عند خير الدين في :
خير الدين، المصدر السابق، ص ص 151-1153 وص ص224-225.
46- انظر مثلا رسالة محمد باجي المسعودي(1811-1880م) إلى خير الدين عام 1868 م في : المصدر نفسه، ص235.
47- محمد بيرم الخامس التونسي، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار،5 أجزاء، ط1، المطبعة الإعلامية بمصر، دار صادر بيروت، 1302/1303 هـ، ج3، ص 162.
48- المصدر نفسه، الصفحة ذاتها.
49 - BEN OTHMAN KHODJA: op. cit.p. 110
50 - سعاد الناصر :صورة الغرب في الفن الحكائي المغربي الحديث، ص 448، نقلا عن :
عبد الإله بلقزيز، الخطاب الإصلاحي في المغرب، التكوين والمصادر(1844-1918) ، ط1، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،1997 ، ص95.
51 - التميمي :المصدر السابق، ص299.
52 -خير الدين :المصدر السابق، ص ص. 89-166 ص ص206-228.
53 -المصدر نفسه، ص 164.
54 -الناصري السلاوي :المصدر السابق، ج9، ص ص139-173.

وانظر كذلك قصائد أخرى مشابهة قيلت في مدح نفس السلطان، عند :

مولاي عبد الرحمان ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، خمسة أجزاء، تقديم عبد الهادي التازي، ط 2، مط .ايديال، الدار البيضاء،1990، ج 2، ص ص144-276.

55 -أحمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة،1973 ، ص ص131-164، ص460.

56 -عن هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ :

محمد عابد الجابري،(الأصالة و التحديث في المغرب)، مجلة الثقافة، ع77، ذو القعدة - ذو الحجة 1403 هـ /سبتمبر -أكتوبر1983 م، وزارة الثقافة، الجزائر، ص59-63

57- محمد أركون، الفكر العربي، ترجمة عادل العوا، ط1، منشورات عويدات، بيروت- باريس،1982 ، ص133.

58- تتكرر هذه الأوصاف لديهما في أكثر من صفحة، أثناء مناقشتهما لموضوع "كرنتينه" بالنسبة لحمدان وموضوع التنظيمات و الإصلاحات الدستورية بالنسبة لخير الدين أنظر :

-حمدان بن عثمان خوجة، اتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت.، الجزائر،1968 ، ص46-75-110-150-151

-خير الدين :المصدر السابق، ص90-93-141-162

59- التميمي :المصدر السابق، ص170.

60-حمدان :المصدر السابق، ص 155،78.

61-خير الدين :المصدر السابق، ص 90.

62-المصدر نفسه، ص210.

63-المصدر نفسه،ص166.

64-ابن أبي الضياف :المصدر السابق، ج6، ص116.

65-انظر مثلا تفسيره للآية رقم 60 من سورة الأنفال في :

ابن العنابي :المصدر السابق، ص52.

66-أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي، محمد ابن العنابي، المتوفي 1850 ، صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1990 ، ص76.

67-ابن العنابي :المصدر السابق، ص222.

68- E.LEVI-PROVENÇAL, Extrait des histoires arabes du Maroc, 2eme éd., Larose Paris, p. 115.

69 -هو أحمد بن عبد الرحمان الشقراني (ت بعد 1883 م)، درس على يد فقهاء معسكر في النصف الثاني من القرن 19 م، اشتهر بمصنفه "القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط" الذي وضعه في نهاية القرن 19م، حققه الأستاذ سيعدوني وطبع، بعدما بقي لمدة طويلة مخطوطا.

70-أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سيعدوني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1991 م، ص25.

71- محمد بن الأمير عبد القادر الأمير الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، جزآن، تعليق ممدوح حقي، ط2، دار اليقظة العربية، بيروت،1964 ، ص178.

72-وضع الأمير كتاب << المواقف >>...في مقدمة وثلاثة أجزاء تحتوي على375 موقفا، وتضمن كل موقف شروح وتفاسير لأحاديث نبوية وآيات قرآنية، وطبع هذا الكتاب طبعتين، الأولى عام1911 م و الثانية عام 1966. أما رسالة "ذكرى العاقل.." فوضعها عام 1855وهي تناقش عدة قضايا من وجهة نظر صوفية.

E.LEV-PROVENÇAL : op.cit.p.126 . 73

* * *



أبعاد الحماية الإسبانية بين شمال المغرب وجنوبه



الكتابات التاريخية الإسبانية
حول منطقة الساقية الحمراء ووادي الذهب
قراءة سوسيو ـ تاريخية

محمد دحمان*

تعد الكتابات التي تطرقت لتاريخ الاستعمار الإسباني بالجنوب المغربي في حكم النادر، وخاصة لما يتعلق الأمر بالأعمال المكتوبة باللغة الأسبانية. زيادة على قلة المهتمين بها والتركيز على مواضيع الأدب والفن والسياسة إلى عهد قريب. وفي هذه المحاولة سنركز اهتمامنا حول ثمانية نصوص تاريخية إسبانية تغطي تاريخ المنطقة في الفترة الممتدة من سنة 1885 إلى حدود1975[1] تاريخ بداية الجلاء الاستعماري عن الساقية الحمراء ووادي الذهب.هذه النصوص من تأليف مجموعة من الرحالة والجغرافيين والأكاديميين والضباط العسكريين والأثنولوجيين، الذين زاروا المنطقة وأقاموا فيها لفترات زمنية حسب مهمة كل واحد منهم ما بين الباحث والمستكشف والحاكم العسكري السياسي. وقد وقع اختيارنا على هذه الكتابات نظرا لاشتمالها على معلومات غزيرة عن المنطقة وسكانها شملت الجوانب الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية، وهي محاور قلما أثارت اهتمام المؤلفين المغاربة الذين ركزوا أكثر على التاريخ الوقائعي من وفيات أعيان

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

وأشعار وأنساب قبائل ومساجلات فقهية...إلخ .كما أن هذا النوع من الكتابات سعى إلى تغطية كامل تراب المنطقة وكان أصحابها يسجلون معايناتهم المباشرة في آثار تعتبر رغم نواقصها من أهم ما خلفته تلك الفترة لطابعها الشمولي والعياني.

ونحن هنا ننطلق من التساؤلات التالية : ما هي طبيعة هذه الكتابات الإسبانية التاريخية؟ وإلى أي حد نقلت التاريخ الواقعي والممارسات السوسيو-ثقافية بالمنطقة؟ لذلك سنقسم تلك الأعمال حسب ثلاثة فترات تاريخية تبعا للسياق التاريخي وتطور الظاهرة الاستعمارية في جنوب المغرب:

I ـ مرحلة (1885-1950)

تعد هذه المرحلة منطلق تمركز الاستعمار بالمنطقة، وكذا بداية الكتابات حول الساقية الحمراء ووادي الذهب، حيث بدأت البواخر والفرق العسكرية الإسبانية تداهم سواحل المنطقة، وكان بطل تلك المحاولات الضابط والمستعرب الإسباني إيميليو يونيلّي[2]، الذي كتب رحلته، ونشرت سنة 1885،[3] كما ألف كتابا مفصلا حول الصحراء من حيث الطبيعة والسكان والعادات، وركز على المواقع الصالحة لرسو البواخر وأهمية المخزون السمكي بالمنطقة، يقول بهذا الصدد... : "إن هذا الموقع، مجال هذه المخازن السمكية، يعد ذا قيمة عالية بالنسبة لإسبانيا لأن ساكنة الأرخبيل الكناري يعتمدون في غذائهم الأساسي على هذا المورد[4]".كما يتطرق للقبائل التي تسكن منطقة الداخلة أو شبه جزيرة وادي الذهب : "تضم شبه جزيرة وادي الذهب من القبائل أولاد دليم[5]، تسيدراري[6] والعروسيين[7]، وهم الأقرب

للداخلة (Villa Cisneros)..."[8]، والملاحظ أن بونيلي يركز على ما يهم السياسة الاسبانية ومحاولتها الظفر باحتلال المنطقة الواقعة ما بين رأس بوجدور (Cabo Bojador) والرأس الأبيض (نواذيبو الحالية)، وذلك يظهر من خلال محاولته الإتصال بأعيان القبائل بل القيام برحلة داخلية انطلقت من الداخلة في اتجاه منطقة آدرار التمر حيث إلتقى بقبائل أولاد أبي السباع التي كانت تتمركز بجنوب وادي الذهب وفيما بين الرأس الأبيض وواحات آدرار التمر، يقول بهذا الخصوص ...: "منطقة آدرار تقطنها القبيلة الكبيرة العدد : أولاد أبي السباع، وهم أناس أشداء لكنهم عهدوا التجارة ولهم فيها خبرة، كما أنهم القبيلة المنتجة الوحيدة على امتداد الصحراء، كما يملكون واحات النخيل التي تمدهم بكميات كبيرة من التمور[9]".

كما يتطرق لقبيلة أولاد دليم إلى جانب قبائل العروسيين وأولاد تيدرارين والترارزة، مع التركيز في نهاية دراسته على أهم الشخصيات التي يرى أنها مؤثرة في السياسة والمجتمع بالمنطقة حيث يذكر : "في هذه المنطقة، هناك رجلان فقط يتمتعان بسلطة وقبول عام هما : عبد العزيز ولد المامي[10] وأحمد بن امحمد ولد عيدة[11]، حيث أن مصادقتها قد تصبح نافعة[12]"، وفيما يخص البناء الاجتماعي للمجتمع الصحراوي، يرى بو نيلي أن هذا المجتمع ينقسم إلى طبقتين الأولى يسميها : سكان الشواطئ، والثانية أحسن حالا من الأولى بفعل توفر اللباس والقوة الجسمانية وبالتالي القدرة على الحرابة.

ولم يتغير طابع هذا النوع من الكتابات الاسبانية لاحقا مع كل من الضابط بينس فرنسيسكو[13] وكول أندريس Coll Andres[14] فالأول وصف

ساكنة الصحراء بالنهب واللصوصية وكراهية الغير. ومارس الدهاء السياسي والقوة العسكرية في التعامل مع الساكنة حيث تقرب من شيوخ بعض القبائل وكذا من النساء عن طريق الهدايا والرعاية الصحية وجلب الماء الشروب من جزر الكناري، لكن كتاباته لم تخرج عن النظرة الاستعلائية الموسومة بالمركزية الأوربية.

أما الثاني (كول اندريس)فقد أقام لمدة سنوات بشبه جزيرة الداخلة التي كان يسميها الإسبان بياثيسنيروس (Villa cisneros)، حيث تجول بين مضارب البدو بالمنطقة، كما قدم وصفا مفصلا لمراحل تعمير الداخلة وتوزيع الساكنة مجاليا .ضم كتابه سبعة وعشرين فصلا حيث حاول المرور مسرعا من مرحلة ما قبل التاريخ إلى فترة احتلال المنطقة، رابطا هذا التاريخ برحلة حانون وبالتوسع البرتغالي والاسباني ومستبعدا العلاقة ببقية البلاد المغربية وبإفريقيا، ومعتبرا احتلال إسبانيا للمنطقة فاتحة خير على هذه الأخيرة، على أساس أن الأهالي هم عبارة عن مجموعة من "المتوحشين" و"الناهبين". ومعتبرا الداخلة حصنا يواجه شراسة السكان المحليين.كما نص على أن السكان لا يهتمون إلا بالجانب الظاهري للدين وكذا بالأعياد كعيد الفطر وعيد اللحم (عيد الأضحى) وعيد المولد. وما أنصفه في كتابه هو : المرأة حيث تحدث عن مكانتها في هذا المجتمع قائلا ...: "إن المرأة داخل الخيمة لها سلطة قوية على الأبناء وكذا على الزوج، فالزوجة ليس وضعها مماثل لما يقع في الشمال من أعمال شاقة، فهذا الزوج يقدرها جيدا ويعمل من أجلها وأجل العائلة، فهي المحافظة على المال في الخيمة وهي التي تقوم باقتناء الحاجيات وتعتني بالمنزل كمالكة له.أما الأبناء فيوقرون الآباء والأكبر منهم سنا[15] "كما تعرض لظاهرة" لبلوح[16]" الخاصة بالفتيات، يقول بهذا الصدد ...: "عندما يقترب وقت العرس يذهبون بالعروسة إلى المناطق

الداخلية بالصحراء لقضاء ستة أشهر هناك لتسمينها عن طريق تناول لبن الناقة كغذاء أساسي حيث أنه من العار أن تزف إلى العريس وهي نحيفة[17]".

كما تطرق هذا الكاتب لما أسماه بـ "سيكولوجية البيضاني[18]"حيث قدم مجموعة من الأوصاف لساكنة الصحراء المليئة بالأحكام المسبقة، ومن ذلك الخصائص التالية [19]:

1- البيضاني يتميز بالمكر والريبة، وحذر في حديثه مع الأوربي.
2- البيضاني غيور جدا، فهو لا يغار فقط على زوجته، ولكن يغار من أي شيئ في الحياة،
3- البيضاني والبيضانية كذابون،
4- البيضاني ناهب بطبعه وبتربيته، أي بالغريزة،
5- البيضاني كريم فيما يخص الدعوة لشرب الشاي فقط،
6- البيضاني يحسن على أقربائه ومعارفه، ومضياف،
7- البيضاني وعلى الخصوص البيضانية تحفظ تقاليدها وعاداتها القبلية بنوع من السرية التامة،
8 - البيضاني وكذا البيضانية يستجدون ويسألون كثيرا،
9- البيضاني ميال إلى العدل، فهو يدرك جيدا قواعد القانون الطبيعي،
10- يتميز البيضاني بالشغب في محادثاتة والفوضى،
11- يتميز البيضاني بالكسل holgazanerî ، فهو لا يعمل إلا قليلا إذا أراد ذلك .فالبيضاني ليست له حاجيات يعمل من أجلها، لذلك لا يعمل، فبمبلغ ثلاثين سنتيما يشتري نصف كيلو من السكر ومقدار عشرة سنتيمات من الشاي ويقضي نهاره بذلك، وإذا لم يحصل على ذلك، فإنه يستطيع شرب الشاي عند أية خيمة دخلها من جواره[20]".

ولا تختلف بقية كتابات هذه الفترة عما رأيناه إلى حد الآن، حيث نجد كتاب (بياثينيروس شاركو)الصادر سنة 1935[21]، وكتاب فلوريس موراليس انخيل[22] الصادر سنة 1946 يتصفان بنفس خصائص السابقين من نظرة استعلائية إلى ساكنة المنطقة، ومن إصدار الأحكام الجاهزة، وارتكاب لأخطاء تاريخية فيما يخص الوقائع والمجموعات الاجتماعية، فهذا بياسينيور يقول عن ساكنة وادي الذهب ....: "من الخصائص المميزة لسكان وادي الذهب الكبرياء المبالغ فيه ويظنون أنهم سادة الصحراء وأنهم من جنس نبيل. وإذا إحتاجوا لبضاعة ما يذهبون لنهبها من الآخرين، ولا يمارسون الضيافة ولوشفاهيا كما عند المسلمين .إن البيضاني حذر ولا يضع والثقة في أحد وغير قادر على التواصل [23]". ويرى هذا الكاتب أنه لا يجب على الإسبان أن يضعوا ثقتهم في سكان المنطقة.

ومن الأخطاء التي ارتكبها وصف الفئات الاجتماعية بالطبقات الاجتماعية المغلقة، واختزال تاريخ وادي الذهب بشكل بسيط وإصدار أوصاف عنصرية، مع حديثه الايجابي عن مكانة المرأة الصحراوية ودورها داخل المجتمع، كما يقدم معلومات دقيقة حول مركز الداخلة من حيث عدد الساكنة[24] آنذاك وطبيعة المساكن الموجودة ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية بذلك المركز تحت الاحتلال.

وقد ذيل كتابه بمجموعة ملاحق منها مرسوم رئاسي صادر عن مجلس وزراء الإسبان يحدد السياسة المزمع تطبيقها آنذاك بالمنطقة[25] (غشت 1934) وكذا مجموعة صور لشواطئ وآبار ومراكز العساكر بالمنطقة.

أما أنخيل موراليس فقد تطرق في كتابه لمظاهر الحياة الطبيعية والبشرية والاقتصادية بالساقية الحمراء ووادي الذهب، وقام بوصف دقيق

للتضاريس وللغطاء النباتي والوحيش، حيث وضع مشجرات القبائل وتحدث عن أصولها وأماكن نجعتها، كما تطرق لما أسماه بـ "التنظيم السياسي ؟ العسكري للمنطقة" حيث كانت الصحراء آنذاك مقسمة إلى منطقتي نفوذ، الجزء الشمالي ويسميه "بالمنطقة الجنوبية من المحمية المغربية" وعاصمته طانطان، و"الصحراء الاسبانية" وعاصمتها العيون.

كما تطرق لأخلاق إنسان الصحراء، يقول بهذا الخصوص : "من خصائص هؤلاء الرحل تحمل العطش والجوع، فهم قد يصبرون أربعة أيام دون شراب ولا طعام ما عدا بضعة تمرات. وملامح هذا الإنسان تعبر عن الحيوية والذكاء وعن حس قوي في القدرة على معرفة الاتجاهات بالإضافة إلى قوة الذاكرة، ذلك أن فكرة الاتجاه (Direccion) هي مسألة حياة أو موت، ناهيك عن الخبرة في معرفة الأثر[26]"، وفي موضع آخر يعود ليصدر أحكاما جاهزة في حق رحل الصحراء قائلا: "إن الرحالة، على غرار الأهالي غير المتحضرين بإفريقيا، يعتبر كائنا مثقلا بالمعتقدات ذات الطابع السحري، حيث أنه خرافي بامتياز[27]"، الشيء الذي قاده إلى الحديث عن علاقة الصحراوي بالجن واعتقاده في "العين" وفي الصلحاء الذين ذكر منهم أضرحة الساقية الحمراء. وخلال هذه الإشارة كان الباحث يحاول عزل المنطقة عن محيطها الحضاري والإقليمي مثل علاقاتها بوادنون والحوز أو ببلاد شنقيط، كما ناقض نفسه أحيانا، خصوصا فيما يتعلق بأنساب القبائل : فمرة ينص على الانتماء الصنهاجي لمجمل قبائل الصحراء ومرة أخرى يقول بالأصل الإدريسي الشريف لبعض هذه القبائل مثل العروسيين والسباعيين وتوبالت، مع اهماله لعدد من قبائل منطقة تيرس[28] بوادي الذهب مثل : أهل بارك الله واد يقب وأهل محمد بن محمد سالم، وأولاد اللب... إلخ.

إن ما يميز كتابات هذه الفترة (1885-1850) هو طابع النزعة الأوربية الاستعلائية تجاه الساكنة المحلية، كما تميزت تلك الكتابات بتعميم الأحكام الجاهزة، والاعتماد على الوصف وإهمال الوثائق المحلية، والتركيز على جمع المعلومات الشفهية من طرف ساكنة السواحل، التي كانت تعتبر فئات اجتماعية مهمشة كما تتميز بانتشار الأمية بين شرائحها وتعيش وضعية الأتباع (les tributaires) الشيء الذي جعل هذه الكتابات الإسبانية بعيدة عن واقع الحياة الثقافية بالصحراء. ذلك أن هذه المنطقة عرفت نهضة ثقافية طيلة القرن التاسع عشر، في نفس الوقت الذي عرفت فيه حراكا قبليا ورواجا للبضائع والأفكار من وإلي داخل المغرب، وحسبنا هنا العلماء الفقهاء : الشيخ محمد المامي، ومحمد بن محمد سالم المجلسي الشيخ ماء العينين، ومحمد بن سيدي محمد السباعي وأبناء عبد الحي الرقيبي، والفقيه الليلي التوبالي، والشيخ محمد المامون، وغيرهم، كما تبلور آنذاك بالصحراء اجتهاد فقهي يهم "أحوال البدو" وضرورة مراعاة الأحكام الشرعية لتلك الأحوال[29].هذا ناهيك عن إهمال الكتابات الاسبانية لحركة "الجهاد" التي عرفها الجنوب المغربي واشتد عودها مع بروز الشيخ ماء العينين على أديم الساقية الحمراء وربطه للعلاقات الروحية والسياسية مع سلاطين المغرب وانخراط مجمل قبائل الصحراء وبلاد شنقيط في هذه الحركة، ذلك "الجهاد" الذي اعتبرته هذه الكتابات الاستعمارية "حقدا" و"سيبة" و"توحشا" (Salvajisma) وهذا يقودنا إلى الإطلاع على الكتابات الإسبانية اللاحقة التي صدرت بعد سنة 1950.

II ـ مرحلة (1950-1970)

هذه المرحلة التاريخية تميزت، ميدانيا، بتركز الاستعمار الإسباني عسكريا وإداريا بالمنطقة، بل قام المستعمر بالتنقيب عن المعادن وتم

اكتشاف الفوسفاط، كما بدأ تشييد بعض التجهيزات الأساسية، وبروز مراكز لاستقرار الساكنة حول مواقع المراقبة العسكرية مثل : العيون، السمارة، الحكونية، حوزة، التفاريتي، كلتة زمور، أوسرد، تشلا، العركوب، زوك الشيء الذي سهل مراقبة السكان الرحل، كما مكن من إجراء تحريات ميدانية وجمع وثائق. ثم كانت زيارة الجنرال فرانكو للصحراء سنة 1950 بداية التفاتة جديدة للمنطقة ومحاولة لربطها أكثر بالمتروبول، لذلك ظهرت دراسات أكثر تخصصا من سابقتها، وخاصة مع الأنثروبولوجي الإسباني المعروف خوليو كارو باروخا الذي قام بدراسة اثنولوجية شاملة حول المنطقة سماها (دراسات صحراوية)صدرت عن معهد الدراسات الإفريقية بمدريد سنة 1955[30].

في مستهل هذه الدراسة - التي أنجزت ما بين نونبر 1952 ومارس - 1953 ينص باروخا إلى أنها كانت استجابة لطلب من الحاكم العام للمغرب والمستعمرات، حيث إنطلق هذا الباحث في التحري الميداني بداية بسيدي افني ثم العيون وطرفاية والسمارة وبئر انزران إذ قام بمقابلات ميدانية مع السكان، ومع الإداريين الاسبانيين بالمنطقة، وحرر بحثه في شكل فصول شملت مايلي:

1 - النظام الاجتماعي التقليدي بالصحراء الاسبانية.
2 - إقتصاد الساحل[31].
3 - من أجل تحليل بنيوي لقبيلة صحراوية : أولاد تيد رارين.
4 - أنماط العيش ما بين الرحل.
5 - ولي صحراوي وعائلته، محاولة بيوغرافية حول الشيخ ماء العينين.

6 - حروب الساحل كما يحكيها الرحل.

7 - التاريخ ما بين الرحل.

ويقول باروخا إنه استلهم أطروحة الأنثروبولوجي البريطاني بريتشارد القائلة بأنه على الأنثروبولوجي أن يركز على دراسة القضايا بدل التركيز على الشعوب، لذلك حاول دراسة ظواهر اجتماعية واقتصادية وثقافية لم يسبق للكتاب الإسبان أن درسوها بشكل أكاديمي دقيق، من قبيل المراتب الاجتماعية (قبائل محاربة، وزاوية، وتابعة) وأنواع القرابة والصلاح والبركة، والممارسات الزراعية والحروب عند القبائل والزمن ومكانة المرأة، وظاهرة التويزة، والصنائع والموسيقى والشعر الحساني .كما تطرق للشيخ ماء العينين ودعوته للجهاد وتدخله لفض الخلافات ما بين القبائل، ولإنقاذ الأجانب الذين تعتقلهم القبائل، ودور هذا الشيخ في تجديد الروابط ما بين قبائل الصحراء والسلاطين العلويين. يقول بهذا الصدد "لقد كان ماء العينين ثائرا قويا، ورجل فعل أقام بمنطقة فقيرة جدا تفتقر للموارد الطبيعية وبعيدة عن الحملات الاستعمارية الفرنسية"[32].

ومن ميزات هذه الدراسة كذلك، جمع الرواية الشفهية بشكل منظم والإطلاع على بعض الكتابات العربية المحلية التي يذكر منها الكاتب تقييدا خاصا عن تاريخ الصحراء من تأليف الشيخ محمد المامون بن محمد فاضل بن عبيدي[33] (تـ .1966) .كما حاول أن يسرد حوليات المنطقة انطلاقا من القرن التاسع عشر إلى حدود 1954 ، ولم يغض الطرف عن أية قبيلة من قبائل المنطقة كما كانت عادة الكتاب الذين سبقوه.

ومن الدراسات التي ظهرت في هذه الفترة كذلك، نجد المونوغرافية التي نشرتها مصلحة الإعلام بالإدارة الاستعمارية بالمنطقة التي كانت تحت عنوان (إسبانيا في الصحراء) والصادرة سنة 1968 بمدريد. حيث قسمت إلى

بابين، الأول تعلق بموقع الإقليم وعدد السكان والمساحة وأحقية اسبانيا في استعمار المنطقة.كما نص هذا الكتاب على أن قبائل المنطقة تنقسم إلى مجموعتين، الأولى ذات استقرار دائم، والثانية، ذات إقامة ظرفية، الأولى تترحل داخل المستعمرة، والثانية تترحل نحو البلدان المجاورة. وحسب هذه الدراسة فإن أهم القبائل بالمنطقة هي : الركيبات وأولاد دليم وأولاد تيدرارين والعروسيين .33أما القبائل الغير المستقرة فهي : الزركيين وأيت أوسى ويكوت وأيت لحسن .أما الباب الثاني من الكتاب فيتطرق لأوضاع المنطقة من وجهة نظر سياسية ـ اجتماعية، مبينا "إنجازات" إسبانيا في قطاعات العدل والتربية والصحة والإسكان والزراعة والمعادن والتجارة والمواصلات. والملاحظ هنا غياب المصادر المعتمدة في هذه المعلومات وعدم الإشارة إلى حياة الرحل بالمنطقة، وعلاقاتها بمحيطها الجهوي، وتغييب ذكر اثر جيش التحرير بالمنطقة والحراك السكاني الذي نجم عنه، حيث رحلت العديد من العائلات من المنطقة إلى طانطان ووادنون وأكادير هروبا من بطش الاستعمار .هذه الدراسة جاءت لتبرر التواجد الاستعماري بالصحراء ولتشيد بفتح بعض الطرق وبناء بعض الدور بكل من العيون والسمارة والداخلة وإحداث مجلس للشيوخ وفتح محطة إذاعية بالعيون، وهي أعمال ستزيد من استنزاف خيرات المنطقة وتركيز السلوك الاستهلاكي لدى السكان وربطهم بالدولة الاستعمارية، لكن أحداث سنة 1970 ستقلب الموازين وستعرف الساقية الحمراء ووادي الذهب منعطفا جديدا لازال يلقي بظلاله على المنطقة وعلى الكتابات حولها إلى اليوم.

III ـ مرحلة (1970-1975)

في هذه الفترة ظهرت نوعية جديدة من الكتابات والتحاليل التي لايمكن فهمها بمعزل عن السياق السياسي المحلي والجهوي الذي توجد فيه

المنطقة، حيث عرفت هذه الأخيرة احتجاجات ضد قوات الاحتلال توجت بانتفاضة "الزملة" عام أخبيط الزملة (بتاريخ 17 يونيه 1970)[34] ، وكذا تشكل طبقة عمالية بالمنطقة بفضل تنامي استخراج الفوسفاط واستغلال الثروة السمكية حيث شيدت معامل لتصبير السمك بالداخلة والكويرة، وتنامي الحس الوطني بالمنطقة، ناهيك عن الممارسات القمعية التي قامت بها قوات الاحتلال الاسباني تجاه السكان. غير أن الإدارة الاستعمارية فطنت لما صارت تعانيه الساكنة من تهميش وبؤس أوضاع، حيث تكدست جماهير الرحل على أطراف مدن العيون والداخلة والعركوب وآوسرد والكويرة بفعل تزامن ذلك التاريخ مع الجفاف وفناء قطعان الماشية، الشيئ الذي دفع تلك السلطات إلى بناء المزيد من الدور وتمهيد بعض المسالك القروية، وبالتالي تشغيل بعض أبناء المنطقة في شركات معينة في مجال البناء وتعبيد الطرق وكذا في الجندية.

هذه الأوضاع المستجدة بالمنطقة واكبتها كتابات إسبانية متعددة، عملت على تبرير استمرار التواجد الاستعماري بالمنطقة، كما بنت طروحاتها على الإحصاء الإسباني الذي تم سنة 1974، وقبل ذلك سنة 1973 حيث حاولوا ضبط عدد القبائل، بل إيجاد تصنيف جديد لقبائل المنطقة الغاية منه بث التفرقة بين المجموعات القبلية على أساس الأصيل والدخيل، كما بدأ الحديث في هذه الفترة عن وجود "خصوصية سياسية وثقافية للصحراء"[36] ولذلك منحت اسبانيا لمستعمرة الصحراء آنذاك صفة "الإقليم". فمثلا تم منح قبائل الصحراء "ميسم" (نار) جديد بدل ميسمها القديم المتوارث، كما تم التفريق فيما بينها كمايلي:

1 . قبائل الشمال ورمزوا لها بحرف (H) وتضم[37]:

* يكوت
* أيت موسى وعلي
* أولاد بوعيطة
* آيت بعمران
* اصكارنة
* أخرى مختلفة (ازوافيط، شناكلة، الريف)

2 . قبائل الاشراف، وتضم ثلاثة مجموعات:

أ -الأولى يرمز لها بـ (I) وتضم:

* أهل الشيخ ماء العينين
* فيلالة
* توبالت
* أولاد بسباع
* أهل بارك الله
* تندغة

أما قبيلة العروسيين فقد خصص لها الرمز: (E)

والمجموعة الثالثة هي الركيبات وقد خصص لها رمزان:

(A)خاص بالركيبات الشرق

(B)خاص بالركيبات الساحل،

3 . قبائل الساحل والجنوب وخصص لها الرمز (J) وتضم:

* لفيكات
* ايمراكن

* لمناصير
* مجاط
* لميار
* أولاد بوعيطة
* اديقب وقبائل أخرى جنوبية (كنتة، أولاد عمني، أولاد غيلان)...

4 ـ قبائل لعرب : خصص لها الرمز (F) وتضم:

* أولاد دليم
* الصكارنة

5 ـ قبائل تكنة:

* الزركيين ويرمز لهم بـ (C)
* آيت لحسن ورمزهم (D)

6 ـ قبائل الزوايا : ويرى الكاتب هنا أن أهل بارك الله هي القبيلة "الوحيدة التي تعد من الزوايا بأرض الساحل في الإقليم الاسباني بالإضافة على تندغة"[38].

أما قبيلة أولاد تيدرارين فيعتبرها من القبائل المحاذية للشاطئ وقد منحت الرمز (G). هكذا تصنف هذه الكتابات المتأخرة ساكنة المنطقة وتعتبرها مستقلة عن المغرب وجزءا لا يتجزأ من الدولة الاسبانية، بل تتطاول هذه الكتابات على التراث المحلي المكتوب وتوظفهفي سبيل البحث عن خصوصية مصطنعة لهذا الإقليم، وبالتالي اجتثاثه من انتمائه التاريخي[39]، حيث أن معظم هذه القبائل المذكورة توا، ما هي إلا امتداد اجتماعي وثقافي لمجموعات قبلية أصلية توجد بداخل التراب المغربي من الرحامنة وأولاد دليم والبرابيش والركيبات والسباعيين والعروسيين وتكنة وفيلالة وأولاد تدرارين والعلويين وغيرهم. كما أن المصادر التي أصبحوا

يستغلونها ـ أي الكتاب الإسبان ـ لتوجيه تاريخ المنطقة هي عبارة عن شروح وحواشي واجتهادات في نصوص أخرى أصلية معروفة لعلماء من سوس وتافلالت ومراكش وفاس وتلمسان، وبالتالي ليست هناك قطيعة ما بين آثار علماء الصحراء وآثار علماء هذه الحواضر والمناطق التاريخية في المغرب.

إذن، ما يميز كتابات هذه المرحلة هو كونها ضمت إحصائيات حول السكان والثروة السمكية المستخرجة من مياه المنطقة، وعدد رؤوس قطعان الماشية، ونقاط الماء ومراكز الاستقرار التي ظهرت في المنطقة، وطبيعة التسيير الإداري لهذه المستعمرة، وأعداد المعمرين التي أصبحت تتزايد بالإقليم من أجل العمل في الجندية والصيد البحري والإدارة .كما ضمت هذه الكتابات خرائط وبيانات تقدم نظرة تقريبية حول التطور الاقتصادي والاجتماعي في ظل الاحتلال، هذا الأخير الذي تميز بالتسلط والمقاربة الأمنية العسكرية ومنع كل أشكال التنظيم المدني.مع الإشارة إلى أن كتاب هذه المرحلة ارتكبوا نفس الأخطاء التي ارتكبها سابقوهم فيما يخص عدم ضبط أسماء الأماكن والأعلام البشرية بالمنطقة وكذا إصدار بعض الأحكام المسبقة على سكان المنطقة وعلى المغرب لما أراد استرجاع الصحراء سنة 1975، حيث ذهب أكيري إلى القول بأن" الشعب الصحراوي تعرض لمأساة تمثلت في المسيرة الخضراء، واتفاقية مدريد وضرورة الحفاظ على السلم باسبانيا آنذاك بفعل الفترة الانتقالية[40]"وهنا لا نكون أمام أبحاث علمية رزينة ولكننا أمام مجموعة من الكتابات التبريرية والدفاعية في نفس اللآن.

استنتاجات عامة

يببن منظور هذه الكتابات سابقة الذكر،تمثل الغريب لثقافة الآخر، وخاصة الأجنبي الذي كان يهدف إلى احتلال الجنوب المغربي، ثم حديثه عما بعد

ذلك الاحتلال، وهو يدبر شؤون المنطقة .هذه الوضعية هي التي أطرت دراسات وأبحاث الكتاب الاسبان حول الساقية الحمراء ووادي الذهب، وهذا لا يعني خلو تلك المؤلفات من الفائدة العلمية في فترة لا نجد عنها كتابات عربية. ذلك أن هؤلاء الأجانب يقدمون معلومات غزيرة عن الحياة اليومية، وعن أوضاع المرأة وكذا عن مختلف المظاهر الطبيعية من تضاريس وأودية ونقاط ماء ورؤوس بحرية، وكذا أهم مراكز النفوذ الروحي والزمني داخل المجتمع الرعوي بالجنوب المغربي .مع أن هؤلاء الإسبان ظلوا يركزون حديثهم حول وادي الذهب)قمي زر قضؤ(على حساب الساقية الحمراء وواد نون وآدرار التمر، كما ركزوا على القبائل القريبة من السواحل (إيمراكن، أولاد دليم، أولاد بسباع، الزركيين، أولاد تيدرارين، مجاط، العروسيين...) أكثر من تركيزهم على قبائل الداخل (الركيبات، الصكارنة، لبرابيش، تجكانت، آيت اوسى، أهل بارك الله...)وهذا له علاقة بخوف الأوربيين من قبائل الرحل ومن " المجابات الكبرى "داخل الصحراء، وكذا جزر الكناري من المناطق الصحراوية الساحلية، أيضا لبحث الإسبان عن مراسي وموانئ للتصدير ولممارسة الصيد البحري.

زيادة على ذلك، تعد هذه الكتابات متواضعة من ناحية المنهجية العلمية والتحليل الأكاديمي، وذلك عائد إلى تأخر البحث العلمي آنذاك في اسبانيا، وكذا إلى نوعية الكتاب الذين ألفوا حول الصحراء باستثناء خوليو كارو باروخا الذي قام بدراسة ميدانية حاول فيها القيام بتحليل بنيوي لطبيعة المجتمع الصحراوي مركزا على قبيلة واحدة ؟ أولاد تيدرارين ؟ لفترة زمنية قصيرة جدا، لكن من الصعب تعميم نتائجها على مجتمع الصحراء.

وعلى العموم لابد من جمع هذه الكتابات الاسبانية وتصنيفها وتحليلها تحليلا نقديا يتوخى الموضوعية وينأى بها عن شطط التأويلات المغرضة،

وذلك من أجل فهم نظرة الأجنبي سواء كان من المحتلين أو من غيرهم، وبالتالي المساهمة في إعادة كتابة تاريخ الظاهرة الاستعمارية على أسس علمية رصينة خدمة لفهم التراث وتثمينه قصد المساهمة في التنمية الثقافية والاجتماعية المنشودة.

* * *

هوامش :

1. للإشارة فإن مغادرة آخر جندي إسباني للصحراء كانت بتاريخ 28 فبراير 1976.
2. (Emilio Bonelli Hernando) من مواليد سرقسطة في 7 نونبر 1855، عاش في كل من مرسيليا والجزائر وتونس وطنجة حيث تعلم اللغة العربية. كتب حول المملكة المغربية، كما رشحته الحكومة الإسبانية) حكومة (Canovas للقيام برحلة إلى الصحراء وكان ذلك في سنة 1884 حيث زار رأس بوجدور والداخلة والرأس الأبيض Cabo Blanco ، وفتح مركزا للإسبان بشبه جزيرة الداخلة.

3 - Emilio Bonelli. Nuevos territorios espanolesde la costa del sahara, imprenta de fortanet, Madrid, 1885, 26 pages.

4. المرجع السابق الذكر،(ص8)
5. قبيلة من بني حسان، أنظر حولها كتابنا : المجاهد إبراهيم السالم ولد ميشان، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2007.
6. الأصح : أولاد تيدرارين.
7. قبيلة تنتسب للشرفاء الأدارسة، وتنحدر من سيدي أحمد العروسي دفين الساقية الحمراء(ناحية السمارة)
8. إيميليوبو نللي، نفس المرجع السابق (ص16)
9. نفس المرجع السابق (ص19)
10. أحد أعيان منطقة تيرس بوادي الذهب، من الزوايا.
11. أحد أمراء منطقة أدرار ببلاد شنقيط المعروفين بالحنكة السياسية والمراس الحربي.
12. إيميليو بونللي، نفس المرجع السابق (ص24)
13. هو Don Francisco Bens Argandona : ولد، بهافانا بكوبا في 28 يونيو 1867، أبوه من اشبيلية، وأمه كوبية، خريج الأكاديمية العسكرية بكوبا، مارس عمله بامليلية سنة 1893 ، وفي سنة 1900 نقل إلى جزيرة تنريفي بكانارياس ومنها

إلى الصحراء حيث ركز الاحتلال الاسباني بالداخلة سنة 1910، ثم بالطرفاية سنة 1916، وبالكويرة سنة 1920 ، كتب مذكرات مهمة.

14- هو كول اندريس، من المنفيين إلى شبه جزيرة الداخلة، وهو قسيس من مالاكا، كتب عن بلدة الداخلة مونوغارفية مفصلة.

15- آنظر:

Andes Coll. Villa senoro, victoriano suarez editor, Madrid, 1933 (PP.139-140)

16- عملية تسمين الفتاة قصد السمنة le gavage وهي عادة صحراوية قديمة.

17- انظر اندريس كول، المرجع السابق، (ص 140)

18- أنظر psicologia Moruna

19- أنظر المصدر المذكور سابقا. (150-157)

20- نفس المصدر السابق، (ص 157)

21- أنظر:

Aniceto Ramos charco-villasenor.Del sahara espanol, Rio de oro, Toledo, 1935, 136 P.

22- انظر: Angel Flores Morales. El Sahara Espanol, Madrid, 1946, 200P.

23- انظر : شاركوبيا سنيور ، المصدر السابق الذكر ، (ص 105)

24- بلغ عدد سكان الداخلة سنة 1935 حوالي 500 نسمة.

25- أنظر

Angel Flores Morales. El Sahara Espanol. 1946 (P 111).

26- نفس المصدر السابق (ص 125)

27- منطقة رعوية شهيرة تقع بإقليم أوسرد جنوب شرق مدينة الداخلة، أنظر حولها دراستنا : محمد دحمان .الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر الرباط، 2006.

28- أنظر : كتاب البادية للشيخ محمد المامي، نشر زاوية المامي، 2007.

29 - Julio Caro Baroja. Estudios Saharianos. I.E.A, Madrid 1955, 470 pages

30- الساحل : كلمة حسانية تطلق على الساقية الحمراء ووادي الذهب تمييزا لها عن الترارزة وآدرار ودرعة.

31- أنظر باروخا خوليو(Estudios Saharianos) ، مصدر سابق الذكر، (ص297)

32- أنظر حول هذا العالم والمجاهد مادة : الشيخ محمد المامون، بمعلمة المقاومة وجيش التحرير، نشر المندوبية السامية للمقاومة بالرباط. (عمل تحت الطبع).

33- تجدر الإشارة إلى أن قبائل المنطقة متعددة تضم كذلك : الزركيين وآيت لحسن وأولاد بسباع، ويكوت وأهل بارك الله واد يقب والصكارنة وأولاد تيدرارين وغيرهم كثير.

34- قاد هذه الحركة محمد سيدي إبراهيم بصير، ابن زاوية آل البصير الموجودة ببني عياض ناحية أزيلال وهي يعلى الطريقة الدرقاوية.

35- أنظر على سبيل المثال :

Autoctona. C.S.I.C, Madrid, 1975, 36P.

36- كتاب ألو نصو:

cultural Jose Enrique Alonso del Barrio.las Tribus del Sahara, Aiun Ano 1973.

Direccion general de promocion de sahara. El sahara Como unidad

37- ألونصو باريو، مصدر سابق الذكر،(ص 143)

38- أنظر:

germain Ayache "les visées sahariennes de l'Espagne en 1900 : la question de la saqia El Hamra. Hesperis-tamuda, vol XVI - Fasc.unique, 1975 (PP. 175-184).

- 39 José Ramon diego Aguire. Historia del sahara espanol, Kaydeda Ediciones Madrid.1988. (P.14)

بيبليوغرافيا

1-Bonelli Hernando, Nuevos territorios espanoles en la costa del sahara, en Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, XVII, 1885.

2-Bonelli Hernando Emilio. Viajes al interior del Sahara, en Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, XXI, 1886.

3-Bonelli Hernando. El sahara, descripcion geografica comercial agricola desde el cabo bojador a Cabo Blanco. ed. Péant. Madrid, 1887.

4-expedicion al sahara. de Rio de Oro a Iyil, en Revista de Geografia Comercial, 25-30, Madrid, 1886.

5-Cervera y Baviera, Julio. viaje de exploracion por el sahara occidental, en Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, XXII, Separata, 1887.

6-Coello, Franciso. Sahara Occidental, en Boletin de la Sociedad Geografica de Madrid, XXII, 1887.

7-Bens, Francisco : Memoria de la ocupacion de la Aguera 30-11-1920, Coleccion Garcia Figueras, Biblioteca Nacional, Madrid.

8-Coll, Andrés. Villa Cisneros. lib. victoriano Suarez, Madrid, 1933.

9-Sanchez, josé, Guillerino R. : El Sahara Occidental, Ed. Hernando, Madrid, 1932.

10-Ramos Charco - Villasenor, Aniceto. Del Sahara Espanol: Rio de Oro Imp. Asociacion de Huerfanos de Infanteria, Toledo 1935.

11-Oro Pulido, (Antonio de) : Algo Sobre El Hassania en El Sahara Atlantico, Ed Enola, Tanger 1940.

12-Garcia Figueras, Santa Cruz de Mar pequena y Sahara, ed. Fe, Madrid 1941.

13-Flores Morales Angel. El Sahara Espanol ensayo de geografia fisica, Humana, y économica. Alta comisaria de Espana en Marruecos, Madrid, 1946.

14-Domenech Lafuente, Angel : Algo Sobre Rio de Oro. Gobierno Politico Militar del A.O.E Madrid, 1946.

15-Bermeja lopez, josé. Territorios de Ifni - Sahara. sus posibilidades. Alta Comisaria de Espana en Marruecos, Barcelona, 1946.

16-Bens Francisco : Mis memorias. Veintidos anos en El desierto. Ed.del Gobierno de la.O.E Madrid, 1947.

17-Alia Medina Manuel. Contribucion al estudio geomorfologico de las zonas centrales del sahara espanol, I.D.E.A, Madrid 1949.

18-Bullon Diaz, Galo. notas sobre geografia Humana de los territorios de Ifni y del Sahara, en: Espana en Africa, I.D.E.A Madrid, 1949.

19-Caro Baroja, Julio. una vision etnologica del sahara espanol. Archivos de I.D.E.A, N 28, Madrid 1955.

20-Domenech lafuente Angel. Ma El Ainin Senor de Smara, Ed. Marroqui, Tetuan, 1954.

21-Caro Baroja, Julio. la Historia entre los nomadas saharianos, Archivos de I.D.E.A, N? 35, Madrid 1955.

22-Caro Baroja, Julio. Estudios Saharianos, I.D.EA, Madrid, 1955.

23-Diaz de Villegas, Jose : plazas y provincias Africanas Espanolas, ed. Gregorio toro, Madrid, 1962.

24-Hernandez Pacheco, Francisco, cordero Torres, José Maria : el Sahara Espanol. Instituto de Estudios Politicos, Madrid 1962.

25-Caro Baroja, Julio. los nomadas y su porvenir. archivos de I.D.E.A, N 78, Madrid 1966.

26-Castilla ortega, Manuel. Se constituye la Asamblea General del Sahara, en Revista Africa, 310, Madrid, 1967.

27-Alonzo del Barrio y otros. las Tribus del Sahara. Servicio de publicaciones del Gobierno general del sahara, Aiun, 1973.

28-Diaz del Ribero Franciso lorenzo. el sahara occidental, Pasado y Presente, ed. Gisa, Madrid 1975.

29-Cariado, Ramon. Sahara, pasion y muerte de un sueno colonial. Ed. Ruedo Ibérico, Paris 1977.

30-Correa, Isidoro. Rio de Oro: Sahara Occidental, Ed. vulcano, Madrid 1987.

* * *

الخطاب الاستعماري الإسباني حول شمال المغرب (1850-1956)
إشكالات أولية

علي بولربح*

I ـ تبلور الخطاب الاستعماري الإسباني حول المغرب:

مقدمـــة :

إن الخطاب الذي تبلور حول المغرب، منذ أواسط القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين، استهدف الكشف عن الخصائص الاجتماعية والإثنية والاقتصادية لمنطقة شمال المغرب، خاصة أن إسبانيا، من خلال التيار الأفريقاني الذي نما خلال هذه الفترة التاريخية، جعلت من المغرب مجالاً حيوياً لها، حيث طورت من أجله خطابا إيديولوجيا عبر فترات تاريخية، يصعب تحديد بداياتها. لكن سنحاول في هذه الدراسة أن نبرز خصائصه وتوجهاته الفكرية خلال منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين، و هي المرحلة التي ساهمت بشكل واضح في سيطرة الإسبان على شمال المغرب، وفرضهم لواقع ترافق وتحولات سياسية واقتصادية واجتماعية فيه. .رغم ماتميز به مسارهم التاريخي في هذه المرحلة – في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين – من تمزّق سياسي وانهيار

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

اقتصادي وتراجع اجتماعي وثقافي، حتى أضحى بلدهم خارج التحولات الإستراتيجية التي كانت تعرفها أوربا والساحة الدولية آنئذ. فقد كانت إسبانيا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين" مثقلة ومتعبة تقلصت إمبراطوريتها وضعف حالها وأمامها التاريخ يجري والعالم حولها يتقدم ولابد لها من مسايرة الركب إن أرادت العيش والبقاء[1]".

مع هذا المسار التاريخي مثل المغرب الملاذ الأخير لتوجهات إسبانيا الاستعمارية ولأفكارها الأفريقانية، خصوصا مع الهزائم المتتالية في حروبها بالفلبين وكوبا سنة 1898، وفقدان آخر مستعمراتها. سيصبح المغرب المجال الجغرافي الذي تتطلع إليه القوى الاستعمارية الإسبانية التي نشطت ضمن جمعيات ومؤسسات، استهدفت تقوية التيار الذي ينادي بالحقوق التاريخية لإسبانيا في شمال المغرب، الذي نما بشكل واضح مع احتلال الجزر الجعفرية سنة 1848 وهزيمة المغرب في حرب تطوان سنة 1860. ولقد كرست هذه الأحداث والقضايا مفاهيم إيديولوجية، وخطاب استعماري إسباني حول المغرب ..نتساءل كيف تقوى هذا الخطاب حتى أصبح تيارا قويا له رموزه الرئيسية في الثقافة الإسبانية ؟ و ماهي مضاعفاته الإستراتيجية على تاريخ المغرب و العلاقة معه منذ فرض الحماية الإسبانية؟

1. خصوصية الخطاب[2] :

منذ أواسط القرن التاسع عشر، اعتبر المغرب بالنسبة لإسبانيا مجالاً مثل مصالحها الحيوية والاستراتيجية الجديدة، وسيصبح البلد الذي سيوجه الإيديولوجية الاستعمارية، خصوصا، مع فقدان إسبانيا لمستعمراتها. إن الهزائم المتتالية التي منيت بها الجيوش الإسبانية في معارك التحرير بكل

من أمريكا اللاتينية، بالهند الصينية والفلبين، نتج عنه أزمة ضمير لدى الشعب الإسباني، الذي انقسم على أمره بين داعٍ للسيطرة على المغرب بالقوة والسلاح، وبين تيار نادى بضرورة فهم المجتمع المغربي ونسج علاقات خاصة مع هذا البلد. ومثل هذان التياران اتجاهين كبيرين بالمجتمع الإسباني الذي عاش خلال هذه الفترة أزمات نفسية أثرت على المسار التاريخي العام الإسباني.

التيار الأول مثلته الطبقة الرأسمالية التي كانت ترى في المغرب سوقاً اقتصاديا هامة لمنتوجاتها الاقتصادية، وفي نفس الوقت اعتبرته مجالا لاستنزاف خيراته من الموارد الطبيعية الموجهة لصناعاتها. بالإضافة إلى هذه الطبقة كان الجيش الإسباني المنهزم في مناطق التحرير، يبحث عن أراضي جديدة يرد بها الاعتبار إلى فلوله المنكسرة. تطور هذا التيار بخصائصه العدوانية والاستفزازية مع تفاقم الأزمات الداخلية التي عرفتها إسبانيا طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

التيار الثاني مثله الاتجاه الأفريقاني الذي ظهر بالمجتمع الإسباني وركز على المصالح الإسبانية بالقارة الإفريقية، ومن بينها المغرب.أصبح هذا التيار منذ أواسط القرن التاسع عشر، يمثل اتجاها رئيسا في السياسة الخارجية للبلد و تبنى تصوراً سلميا لعلاقاته مع المغرب.

انتهجت السياسة الاستعمارية الإسبانية خططا مختلفةً استهدفت من ورائها البحث عن أدوات جديدة للسيطرة على مناطق جغرافية من المغرب. ويمكن أن نعتبر أننا أمام تيار فكري كان يهدف إلى تحديد الأفق الاستراتيجي للإيديولوجية الاستعمارية الإسبانية بالمغرب التي تطورت،

بشكل واضح، مع نهاية القرن التاسع عشر وازدهرت مع بداية القرن العشرين، ورأت أن مصادر السيطرة تتأتى من خلال فهم ومعرفة جغرافية المنطقة وأشكال التنظيم الإثني، مما أعطى تطوراً واضحا لمفهوم "غزو البلد وتطور البحث حوله"، وكان هذا الاهتمام يتم تحت إشراف مؤسسات ذات طابع معرفي[3]. تبنى تيار الأفريقانية هذا المفهوم ووجه عمليات استكشاف المنطقة الشمالية المغربية، مستفيدا من احتلال الثغور "سبتة ومليلية"، بالإضافة إلى الجزر الجعفرية، بل وعمل على توجيه السياسة الاستعمارية بالاعتماد على النفوذ الإسباني بالمنطقة وعلى الإرث التاريخي الذي مثلته السلطات الإسبانية بها .ويمكن تحديد الأهمية الاستراتيجية لشمال المغرب والسواحل المتوسطية بالنسبة لإسبانيا، مع قراءة الاتفاق الموقع بين فرنسا وإنجلترا سنة 1904 ، الذي يؤكد البند 8 منه على المصالح الإسبانية بالمنطقة الشمالية من المغرب بسبب المكانة الجغرافية وامتداد النفوذ الإسباني بالمنطقة، وسيتأكد ذلك سنة 1906 مع مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي أنجز الخريطة الاستعمارية للمغرب.

2. تطور الخطاب الاستعماري الإسباني حول المغرب :

أ - من أواسط القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين :

إن التباينات والصراعات الإيديولوجية وتطور النظريات الإمبريالية، خلال مرحلة القرن التاسع عشر، مهد لظهور تيار الأفريقانية الإسبانية الذي سينكب على فهم أولي للمجتمع المغربي، واستكشاف خصائصه الجغرافية والإثنية والسكانية والاقتصادية. لقد "ظهرت حركة تأليف أفريقانية، عرفت تراكماً منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى ستينيات القرن التالي، تعرف

بالمغرب والمغاربة، شاركت فيها قطاعات مهمة لها أطماع ومصالح معينة في المغرب"[4]. و يمكن تبيان أهمية الخطاب الاستعماري الإسباني الذي نما منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وسيتطور بشكل قوي مع نهاية حرب تطوان سنة 1860 لما يمثله من أفكار أسست النموذج الفكري الذي هيمن وساهم في إنجاز المشروع الاستعماري الإسباني بالمغرب .

وبالفعل منذ نهاية حرب تطوان 1860 وإلى حدود 1880، نمت رغبة أكيدة لدى القادة الإسبان، في أن يتعرفوا و بشكل مضطرد على الخصائص الجغرافية للمغرب مع التركيز على الأهمية الإستراتيجية لهذا البلد بالنسبة لإسبانيا .ويمكن تحديد مرحلة الاستكشاف الجغرافي للمغرب ما بين سنة 1880-1912، وهي فترة تاريخية مهدت لاستعماره، عن طريق ما تميزت به من دعوة إلى معرفة البلد واكتشاف المجال،" لقد كان لزاما المرور عبر المعرفة الجغرافية أولا، وتأطير هذه المعرفة في مؤسسات ودوريات، دشنت مرحلة الدراسات الجغرافية الاستكشافية منذ بداية الثمانينات من القرن 19، ومن أهم الأسماء التي دشنت هذه المرحلة نجد على سبيل المثال

[5]Gnozalo de Reparez و Teodor de Guevas و Emilio Bonelle

وقد اعتمدت غالب فرق البعثات التي توجهت إلى المنطقة تحديد عدد قبائل المنطقة الشمالية وساكنتها، وكذلك أشكال تنظيمها القبائلي، وتحديد المسارات الرابطة بين القبائل، ومقاييس المسافة، وتحديد المراكز الحضرية وتنظيماتها، كما وقفت على طبيعة البنية الاقتصادية ومؤهلاتها. كانت هذه المعطيات مهمة بالنسبة للمستعمر، بالخصوص لضبط معرفته الأولى بالمجال، وللتحكم فيه لاحقا، وتحديد الأفق الإستراتيجي لوجوده بشمال

المغرب. فالمنوغرافيات التي كتبت في هذه الفترة عكست اهتمامه اولا، لأنها ركزت على قضايا إستراتيجية مختلفة يحتاجها في سياسته الاستعمارية.

من اجل ذلك، وفي سنة 1876، أحدثت أولى المؤسسات باسم "Sociedad Geografica de Madrid"، التي ستصبح لاحقا "Real sociedad .Geografica" وستصبح من المؤسسات الأساسية التي تنجز تصورات وترسم مخططات للسياسة الاستعمارية لإسبانيا بشمال المغرب[6]. ولذلك ليس غريبا أن نجد أفراد المؤسسة العسكرية الإسبانية يهتمون باستكشاف المجال المغربي، من أجل معرفة خصوصيات "الجغرافيا الطبيعية، الجغرافيا السياسية، الجغرافيا البشرية، التنظيم الاقتصادي. (Manuel Lompardero, Vicente 1947, p/45) "من أجل ذلك أحدثت بعثة في 23 مارس 1882 من فريق عسكري يتكون من Don Angel Alvarez,

Ramon Jaudens, Ardany, Eduardo Alvarez :التي رفعت شعارا : "اذهب لتستكشف "Voy a explorar"[7]، اهتمت بدراسة الأشكال الطبوغرافية والخصائص الجغرافية للمنطقة الشمالية ..واضطلعت بمهمة صعبة تتمثل في جمع معطيات دقيقة تساعد سياسة التدخل العسكري لإسبانيا بالمغرب، وعلى استكشاف أولي للمجال، وتعميق البحث في القضايا الاجتماعية المحلية، مع إنجاز خرائط متنوعة تساعد على فهم البعد الإستراتيجي للمنطقة الشمالية...

أنجزت هذه اللجنة في سنة 1905، وانطلاقا من مجموع من الرحلات الميدانية والاستكشافية للمنطقة، خريطة للجزء الشمالي للمغرب، مقياس

1/500.000، اعتبرت ملخصا عاما لأعمال اللجنة الجغرافية المغربية، وتوطينا للمعطيات حول الريف .إلى حدود هذه الفترة التاريخية، تميزت هذه الأعمال بالتوجهات السلمية للاستكشاف Exploracion pacifica، ولكن سرعان ما أصبحت هذه الأعمال في خدمة المؤسسات العسكرية الإسبانية التي استغلت المعطيات الخرائطية - الكارطوغرافية والمعلومات الدقيقة حول طبوغرافية المنطقة الشمالية للاكتساح العسكري لشمال المغرب.

وقبل ذلك أنجزت هذه اللجنة، مع بداية تأسيسها سنة 1882 خريطة توضيحية تجمع المراكز الحضرية التالية :طنجة، تطوان، سبتة، وميناء العرائش، بالإضافة إلى القصر الكبير وأصيلا. وتميزت هذه الخريطة بدراسة الطرق والمسالك الرابطة بين طنجة، العرائش مرورا بأصيلا إلى حدود القصر الكبير. اتبعتها في دجنبر من سنة 1883 بإنتاج بحث بعنوان "الجغرافيا العسكرية للجزء الغربي المكون طنجة ـ الفنيدق ـ القصر الكبير ـ العرائش والمحيط الأطلسي[8]".

شهر أبريل 1884 توفي القائد العسكري Jaudenes المسؤول المباشر عن أعمال هذه اللجنة، وقد عوضه عسكري آخر هو Francisco Galbi كما اختير Eduardo Alvarez لتحمل مسؤولية التسيير وإنجاز الدراسات .بإشرافهما أنجزت هذه اللجنة مجموعة جديدة وهامة من الخرائط التي ستصبح الأساس في تحديد طبيعة قبائل جبالة، وقبائل الريف، والمسالك الرابطة بينها. ومن أهم إنجازاتها خرائط و دراسات :

-الطريق الرابطة ما بين طنجة وأصيلا والعرائش.
-الطريق الرابطة ما بين العرائش والقصر الكبير.

-رسم توضيحي للعرائش.
-رسم توضيحي لأصيلا.
-رسم توضيحي للقصر الكبير.
-رسم توضيحي لسبتة مع ضاحيتها مع تحديد مجال قبيلة أنجرة.

اعتمد مجموع هذه الدراسات في تفسير أولي للمجال المغربي، على تحديد الخصائص الطبيعية للمنطقة الشمالية مع معرفة المكونات السكانية والمراكز الحضرية. ستعتبر هذه الدراسات والوثائق مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين أساسية في إقامة وتوطيد الحماية الإسبانية، وستكون لبنة أولى للكتابات اللاحقة، وتعكس في نفس الوقت اهتمام المؤسسة العسكرية الإسبانية بهذا الجانب، ونشر الإيديولوجيا الأفريقانية الإسبانية، كما ستبرز الأهمية الإستراتيجية لهذا الخطاب مع بداية عهد الحماية.

ب ـ خلفيات الاستعمار الإسباني :توطيد الخطاب الاستعماري منذ عهد الحماية *1912* :

إن أهم تأثيرات فترة الحماية الإسبانية لشمال المغرب تتلخص في عنصري المقاومة الريفية ما بين 192-1927 ، ثم الحرب الأهلية التي عرفتها إسبانيا سنوات 1936-1939 مع صعود الجنرال فرانكو Franco إلى الحكم. في هذه الفترة تميز الخطاب الإسباني بتوطيد التصورات الاستعمارية بشمال المغرب، مما يظهر من خلال المنوغرافيات والدراسات التي أنجزت، التوجهات العامة للإيديولوجية الإسبانية التي ظهرت مع قيام الحماية سنة 1912 والتي ركزت على أهمية الوجود الإسباني بشمال إفريقيا.[9] من أجل

ذلك اعتمدت المؤسسة العسكرية الإسبانية كثيرا على إنجازات المرحلة الأولى التي قدمت استكشافا أوليا لجغرافية المنطقة الشمالية، كما نهجت نفس التصور السابق في اعتمادها على كتابات القواد العسكريين مع إنشاء فرق بحث من أمثال :

José Guillermo Sanchez, Vicente Guarner, José Guarner, Tomas Garcia Figueras

قائد المدفعية، وكذلك فريق البحث الذي أنجز دراسة حول البادية المغربية تحمل عنوان:

(Comision Historica de las Campanas de Marruecos. y psesiones de Espana en Africa. Madrid 1935-36).

والذي ينتمي إلى المؤسسة العسكرية، ويتكون هذا الفريق من :

Candido pardo Gonzalez, César Voyer Méndez, Luis Villanueva Lopez Moreno, Nicolas Benavides Moro, José Diaz de Villegas.
(Maria dolors Gracia Ramon § Joan Nogué Font, 1995. p.339.

ركزت المحتويات العامة لدراسات هذه الفرق على إشكالية الوجود الإسباني بشمال إفريقيا مع البحث بشكل عميق في جغرافية المنطقة الشمالية.إن التصورات الكولونيالية الإسبانية في هذه الفترة، أساسا مع بداية سنة 1928، اهتمت بمعرفة الأماكن الغنية لاستغلالها اقتصاديا؛ كالاهتمام بالثروة الباطنية للمنطقة، والبحث عن المناجم والمعادن من أجل تصديرها إلى الخارج، خصوصا استغلال منجم الحديد بالجهة الشرقية (الكرت) بالناظور، بمنطقة بني يفرر. توطدت هذه الفكرة بإنجاز خرائط منجمية للمنطقة الشمالية أساسا بجهة الريف، والكشف عن الثروة الاقتصادية و الطبيعية التي تزخر بها.

وقد أقرت السلطات الإسبانية في سنة 1928، أول مخطط عام للأشغال العمومية Plan general de obras publicas للمنطقة الخليفية بقيمة 80 مليون

بسيطة، يهدف إنجاز طريق رابطة ما بين مليلية وتطوان، ودعم الممرات الرابطة بين القبائل مع إقامة بعض التجهيزات الهيدروفلاحية، واستغلال مناجم المنطقة، وكذلك الاهتمام بنشاط الصيد البحري.

ويمكن ذكر المؤسسات التالية التي كانت أساسية في استغلال مناجم الحديد:

"Compania Espanola de Minas del Rif" التي استغلت حوالي 95٪ من حديد المنطقة في سنة 1933، ومؤسسة "Sociedad la Alicantina". تصدر هذه المؤسسات منتوجاتها عبر ميناء مليلية ما عدا المؤسسة الأخيرة التي تصدر عبر ميناء سبتة. وقد توطدت بعض المراكز الحضرية أساسا مدينة تطوان، التي كانت تمثل قطبا اقتصاديا هاماً خلال المرحلة الاستعمارية الإسبانية، حيث وجهت لها استثمارات صناعية خلال الحرب الأهلية الإسبانية ما بين 1939.1936[10].

وقد اعتمدت السلطات الإسبانية كذلك على سياسة التقسيم الجهوي، إذ كان الهاجس الأمني عاملا أساسيا للتقسيم الإداري للمنطقة إلى خمس جهات، كل جهة تضم عاصمة محلية:

أ ـ الجهة الغربية Region occidental Lucus عاصمتها العرائش، مساحتها 3114،67 كلم^2.

ب ـ جهة جبالة Region Jebala عاصمتها تطوان، مساحتها 2793،89 كلم^2.

جـ ـ جهة غمارة Region Gomra عاصمتها الشاون، مساحتها 4154،50 كلم^2.

د ـ جهة الريف Region Rif عاصمتها الحسيمة، مساحتها 3476،18 كلم^2.

هـ ـ جهة الكرت Region Kert عاصمتها الناظور، مساحتها 6116،52 كلم^2.

واعتمدت إسبانيا كذلك على سياسة التقسيم القبلي - الإثني، مع التركيز على إحصاء سكان القبائل الريفية وجبالة، ودعم القبائل التي لها قوة ديموغرافية على حساب القبائل الضعيفة ..ولقد بدت هذه القضايا أساسية بالنسبة للمستعمر الإسباني من أجل السيطرة على المجال وضبط الإنسان..

بعد أن تعرفنا على الإيديولوجية الإسبانية و الطرق التي نهجتها لتحقيق أهدافها بالمغرب، يجذر بنا أن نقدم نظريات التنظيم المجالي التي اعتمدتها إسبانيا بشمال المغرب مع مجيء فرانكو إلى السلطة.

II - الوجود الاستعماري الإسباني بشمال المغرب :استراتيجيات التدخل.

مقدمـــة :

مع إقامة الحماية الإسبانية بشمال المغرب ابتداء من 27 نوفمبر 1912، حاولت السلطات الاستعمارية الإسبانية نهج استراتيجية عسكرية خاصة بالمنطقة، فارتطمت بإرادة قوية للمقاومة الريفية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي منذ 1919 - 1927 ، بعدها طرحت مفاهيم وتصورات جديدة، اصطلح عليها بفترة "السلم" Pacificacion.

لقد حاولت السلطات الاستعمارية أن تنهج سياسات التقسيم الإداري، القبلي والجهوي للمنطقة الشمالية، وأقرت سياسات اقتصادية اعتمدت فيها على استغلال الخيرات الطبيعية والاقتصادية والبحث باستمرار عن أماكن الاستيطان و الاستغلال : المناجم، الفلاحة :التهيئة الفلاحية لبعض المناطق السهلية :حوض اللوكس، سهل ملوية، سهل ومنخفض بني بوفراح..والتركيز على سياسة التصدير للمواد المستغلة و الاستفادة من موانئ الثغور : مليلية شرقا، سبتة غربا.

واستطاعت السلطات الإسبانية خصوصا مع صعود القائد العسكري فرانسيسكو فرانكو Francisco Franco إلى الحكم، أن تنهج سياسات "مخططات التهيئة لهذه المنطقة"[11]، وجعل فترة حكمه تعتمد "التأثير الترابي بالمنطقة الشمالية المغربية". لقد هدفت هذه السياسة أن تنجز بعض الطرق، تهيئة موانئ الصيد البحري، سكك حديدية، تهيئة المدن وإعطاء نظرة عن تطور المعمار في إسبانيا من خلال إبراز نمط البناء : نموذج "تطوان، العرائش، الحسيمة..."، وظهور ما يسمى بالنموذج المعماري الكولونيالي الإسباني بالمنطقة الشمالية[12]، التي عرفت قفزة رئيسية مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

إن الإرث الثقافي الإسباني بشكل عام في المنطقة، على المستويات التالية :المعمار، الاستيطان، أشكال توسع المدن والأحياء الإسبانية، أشكال وأنواع استغلال المجال :قنوات الري، معامل صناعية، سكك حديدية، ثكنات عسكرية..، كلها قضايا تمثل إرثا ثقافيا خاصاً ترك بهذه المنطقة، فاستغلاله يمثل أداة فهم وجود للمؤسسة العسكرية الإسبانية بالمنطقة الشمالية المغربية، و كيف تعاملت مع ساكناتها، وتؤسس لفهم جديد لتاريخ المنطقة، وفي نفس الوقت تبين إنجازات وإخفاقات السياسة الاستعمارية الإسبانية.

1 ـ التقسيم الترابي والسياسي لمنطقة النفوذ الإسباني:

ساهم الوجود الإسباني بالمنطقة الشمالية المغربية في إحداث تغيرات بنيوية على مستوى التنظيم الترابي والسياسي. لإحداث ذلك؛ استثمرت

السلطات الإسبانية وسائل وأدوات عديدة للتدخل في المجال الجغرافي: الأداة العسكرية، الأداة الإدارية، التركيبة البشرية، سياسة الاستيطان.

لقد ارتبط التنظيم الترابي والسياسي للمنطقة الشمالية بإشكالية تنظيم القبيلة وعلاقتها بالسلطة المحلية. إن الانتقال من مجتمع تحكمه علاقة خاصة بالقبيلة إلى سلطة عسكرية استعمارية حددت سياسة التقسيم الترابي والتنظيم القبلي من خلال دور القواد "المدنيين والعسكريين"، في إحداث سياسة تنظيمية ـ استخباراتية، تجعل من المجال الجغرافي للمنطقة وساكنته تحت إدارة السلطة العسكرية .مرت هذه السياسة بمراحل، هدفت من ورائها السلطات الاستعمارية إحداث هُدنة ومراقبة القبائل التي تعرف حركات وثورات دائمة.

أ ـ مراحل السيطرة الترابية:

اعتمدت السلطات الإسبانية سياسة تمثلت في نهج خطة عسكرية هدفت من ورائها القضاء على المقاومة الريفية والقبائل التي ناهضت الاستعمار الإسباني، وذلك من بداية الحماية إلى سنة 1927. خلال هذه المرحلة مارست سلطة عسكرية، واعتبرت أداة حاسمة في السيطرة الترابية. إن التوجه الاستعماري الإسباني ارتبط بالإيديولوجية الأمنية [13]التي هيمنت على التوجهات الإستراتيجية الإسبانية.

إن المتتبع لمسار الوجود الإسباني يفهم أن السلطة العسكرية لم تنل نوعاً من الاعتبار إلا مع نهاية حرب الريف سنة 1927، خصوصا مع التجاوب العسكري الذي حصل مع الجيش الفرنسي[14] الذي ساهم بشكل واضح في ضرب المقاومة المحلية.

لقد تمت السيطرة العسكرية على المنطقة الشمالية عبر مراحل وذلك على الشكل التالي :

* سيطر الجيش الإسباني على المنطقة الشرقية والساحل التطواني من سبتة إلى حدود تطوان سنة 1924، بالإضافة إلى المنطقة الغربية حول حوض اللوكس.
* سنة 1925 سيطر على المنطقة الغربية ومنطقة الجنوب الشرقي وقبيلة أهل صريف.
* تميزت سنة 1926 بالسيطرة على الريف الأوسط الذي عرف مقاومة كبرى للوجود الإسباني تحت قيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي.
* سنة 1927 تمت السيطرة على قبائل حدود منطقة الحماية الفرنسية، وبذلك كانت سنة نهاية الحروب المباشرة التي كانت السلطات الاستعمارية الإسبانية تواجه بها القبائل المتمردة.

للانتقال من مرحلة إلى أخرى باشرت السلطات الإسبانية الاهتمام بقضايا الإصلاح الإداري الداخلي وسياسة التقسيم الجهوي والقبلي. هادفة من وراء ذلك تحقيق مكاسب ذات بعد سياسي واقتصادي وإيديولوجي .إن الانهيارات والهزائم الكبرى التي عرفتها جعلت الإيديولوجية الاستعمارية تعرف هزات عميقة، ولم تنج إلا بمساعدة السلطات الفرنسية، التي ساهمت بشكل واضح في السيطرة على المنطقة الشمالية.

ب ـ وزارات التسيير:

أحدثت السلطات الإسبانية ، خلال هذه الفترة ، وزارات تحكمت في تسيير المنطقة الخليفية. ويمكن ذكر أهم الوزارات وذلك على الشكل التالي:

-وزارة العدل : Ministerio de Justica تهتم بشؤون الأهالي، ويرأسها كاتب عام، إضافة إلى المصالح المركزية التابعة للسكرتارية العامة :مصلحة القضاة والكُتاب و محافظ الأرشيف.

-وزارة الحبوس : Ministerio del Habous تهتم بتسيير وإدارة شؤون الحبوس بواسطة هيئة إدارية تتكون من الكاتب العام، والمجلس العام للحبوس.

-الوزارة المالية : Ministerio de Hacienda اعتمدت هذه الوزارة على جمع الضرائب والمداخيل العامة .وقد أقيمت مصالح جمركية بالموانئ لمراقبة المواد المصدرة والمستوردة .لقد كانت لهذه الوزارة دور أساسي في جمع خيرات المنطقة الشمالية.

-وزارة الفلاحة والإنتاج Ministerio de Agricultura y produccion أحدثت هذه الوزارة في سنة 1946. اهتمت بتنمية النشاط الفلاحي وتعزيز الاستيطان الإسباني بالمنطقة الشمالية، واعتمدت على مخططات التهيئة القروية، ويظهر هذا "بجهة لوكس" الخصبة .وقد أحدثت شركات فلاحية إسبانية بالمنطقة اهتمت بالاستغلال الفلاحي، أهمها شركة :Compania del Lucus Colonial .-وزارة الأعمال الاجتماعية :Ministerio de Accion social أقيمت هذه الوزارة سنة 1954. واهتمت بالقضايا ذات البعد الاجتماعي، مثل: الاهتمام بالطفولة، تحسين مستوى العيش، والعلاج..

- وزارة التعليم العمومي Ministerio de Instruccion Publica أحدثت هذه الوزارة سنة 1946 واهتمت بقضايا التعليم : مثل التعليم القرآني، والتعليم

الابتدائي، وإنشاء بعض المعاهد الدينية. وتوجد بعض المؤسسات التابعة لها مثل :

- المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي.
- المعهد الأعلى الديني.
- المعاهد الدينية.
- المدارس القرآنية.
- المدارس الابتدائية المغربية.

2 ـ مندوبية التسيير المحلي :

من أهم الإشكالات الميدانية التي حاولت السلطات الإسبانية أن تهتم بها هي مسألة "التسيير المحلي" لتراب المنطقة .لقد نهجت سياسة تمثلت في مفهوم المراقبة الذي يعتمد على مراقبة الإنسان والمجال، وقد استفادت من التجربة الاستعمارية التي مارستها بأمريكا اللاتينية، وحاولت تطبيقها بالمنطقة الشمالية.

مثلت الاتفاقية بين إسبانيا وفرنسا سنة 27 نوفمبر 1912 الأساس التي انبنت عليها الإدارة الاستعمارية الإسبانية. لقد أقرت هذه الاتفاقية أن المندوب السامي الذي تعينه السلطات المركزية الإسبانية يمثل سلطتها الواسعة تحت إشراف خليفة السلطان المغربي الذي يمثل الإدارة المغربية[15]، في نفس الوقت مثل القواد الأداة الرئيسية التي ارتكزت عليها الإستراتيجية الإسبانية لتسيير وتدبير شؤون المنطقة على المستوى الأمني والاستخباراتي والتوجهات الاجتماعية والاقتصادية والتجهيزات الأساسية التي سنتها المؤسسة الاستعمارية.

- **القواد** : لقد مثل القواد السلطة العسكرية والسياسية للمستعمر الإسباني. إن أصل الفكرة عسكرية انبثقت من الطابع العام لسلطات الحماية الإسبانية التي اعتمدت على الوجود العسكري في التنظيم السياسي للمنطقة الشمالية المغربية[16]. تنتمي جميع مصالح المراقبة إلى "مندوبية شؤون الأهالي" "Delegacion de Asuntos Indigenas" التي ضمت عناصر المراقبة المدنية والعسكرية، وكونت هيئة عامة استعملتها السلطات الاستعمارية لتوجيه السياسة الأمنية والعسكرية.

أ - مندوبية شؤون الأهالي "Delegacion de Asuntos Indigenas" : تطرح أدبيات هذه المرحلة الأهمية البالغة التي كانت تقوم بها هذه المندوبية في ضبط الإنسان، وجمع معلومات، ومعرفة أماكن الصراع (Garcia Fguras) والمحافظة على الأمن.كانت هذه المؤسسة تمثل وزارة الداخلية الإسبانية بالمنطقة، إذ تهتم بجمع جميع أنواع المعلومات التي تهم المجال والساكنة .فكان التنظيم الداخلي لهذه المندوبية يتم على الشكل التالي :الكتابة الخاصة ويتفرع عنها كاتب عام، الذي يقوم بدور التسجيل والتوثيق في القضايا الأساسية بالمنطقة(كالأمن)...، ويحاور في الشؤون العامة، ويساعده في ذلك فرعين : فرع يهتم بالمسألة السياسية Cuestion Politica وفرع يهتم بشؤون الأخبار العامة Servicio de Informacion •

ب ـ مندوبية الأشغال العمومية والمواصلات Delegacion de Asuntos Indigenas اعتبرت هذه المندوبية العمود الفقري للسياسة العامة للإسبان بشمال المغرب .وهكذا، كانت مسؤولة عن إنجاز مشاريع تهم الطرق الرابطة بين المدن، تحديد المسالك والممرات في المناطق الصعبة أساسا الجبلية، إنجاز موانئ و تجهيز المدن بالموارد المائية...

جـ ـ المندوبية المالية Delegacion de Hacienda اهتمت هذه المندوبية بالقضايا ذات الطابع المالي، مثل جمع الضرائب، سن الميزانية السنوية بالنسبة للمنطقة الشمالية ودراسة الإصلاح الضرائبي..

د ـ مندوبية الاقتصاد Delegacion de economica كرست مندوبية الاقتصاد دورها في معرفة الخصوصية الاقتصادية للمنطقة الشمالية، واعتمدت في ذلك على إنجاز "مخططات اقتصادية" تهم المنطقة. وهكذا أنجزت بعض الدراسات الوصفية للمجالات الجغرافية السهليةصحول جهة لوكس والگرت، واهتمت بتحليل العناصر الطبيعية للمنطقة والتعرف على المشاريع والأنشطة الفلاحية التي يمكن أن تنجز .ومن تم عملت السلطات الإسبانية على إنشاء مؤسسات فلاحية تهتم بأنشطة زراعية جديدة..

أما على مستوى الأنشطة الاقتصادية الأخرى، ساهمت مندوبية الاقتصاد بإنشاء مؤسسات صناعية بأهم المراكز الحضريةصب : تطوان ـ العرائش ـ الناضور، كما اهتمت بالتنقيب على المعادن. وهكذا تم اكتشاف مناجم عديدة، أهمها منجم الحديد بجهة الگرت قرب مدينة الناظور بقبيلة بني يفرر.

هـ ـ مندوبية التربية والثقافة Delegacion de Education y de Cultura تحتوي هذه المندوبية على الأقسام التالية :مصلحة التعليم، مفتشية التعليم، مفتشية التعليم الأولي الإسباني، التعليم العبْري، الكتابة الثقافية، المصالح العامة للثقافة :التي تضم (مركز الدراسات المغربية، المعهد الموسيقي الإسباني المغربي للموسيقى، الدراسات الأركولوجيا ، المحفوظات والمكاتب) ، مفتشية الفن التشكيلي، الصناعة التقليدية المغربية، مصلحة السياحة، الرياضة والتربية البدنية. وكانت تستقر بمدينة تطوان المعاهد

التالية : "معهد الجنرال فرانكو" و"معهد مولاي الحسن"، اللذان اهتما بالبحث والنشر في الدراسات المغربية - الإسبانية، وقد نشرت هذه المعاهد دراسات هامة خلال هذه الفترة.

خاتمـــــة :

أبرزت هذه الدراسة بشكل عام، خصوصية الخطاب الاستعماري الإسباني حول شمال المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين و الأدوات الاستعمارية التي استعملتها إسبانيا لإنجاز مشروعها بالمنطقة.

إن الأزمات الفكرية والعقائدية بالإضافة إلى الهزائم المتتالية التي منيت بها الجيوش الإسبانية منذ أواخر القرن التاسع عشر في الحروب الاستعمارية بأمريكا اللاتينية ومناطق أخرى، من العناصر التي وجهت الإيديولوجية والخطاب الاستعماري الإسباني نحو الجار القريب المغرب. لقد مثل هذا الخطاب الأرضية الفكرية التي وجهت فئة المستعمرين وبعض من رجال السياسة والجيش الإسباني لإقامة مشروع الحماية الإسبانية بالمنطقة الشمالية المغربية، إذ اعتبر المغرب البلد الذي يمكن أن يحل الأزمة النفسية للجيوش الإسبانية، ويلبي طموح ومصالح القوى الاستعمارية الاقتصادية والعسكرية .

* * *

هوامش :

* أستاذ باحث، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان ـ مارتيل.

1. محمد عبد الكافي زليتني :(1991) إسبانيا من الديكتاتورية إلى الديمقراطية أمثولة وقدوة. مدريد. ص 11 ضمن :عبد الرحيم برادة :إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1956 ـ 1931 ج1. منشورات إفريقيا الشرق، 2006 ص.25.

2. هدفنا في هذا العنصر تحديد طبيعة العلاقة التي جمعت المغرب بإسبانيا والعوامل التي ساهمت في احتلال المنطقة الشمالية، وتبيان الخطاب الإيديولوجي الإسباني الذي تطور مع نهاية حرب تطوان سنة 1860، والدعوات التي أدت إلى احتلال المغرب. ولا يمكن فهم هذه الخاصية إلا بتحليل التصور الإيديولوجي الاستعماري الذي تطور مع تيارات متباينة ظهرت بالمجتمع الإسباني، والتباينات التي ظهرت معه.

3. يمكن ذكر المؤسسات العلمية التي أسست خطابا استعمارياً حول المغرب على الشكل التالي :

- Sociedad Geografica de Madrid.
- Real Sociedad Geografica.

4. عبد الحميد برادة :(2007) إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1956 ـ 1931: ج .1. إفريقيا الشرق .ص41.

5. قيس مرزوق الورياشي :"(1988) الافريقانية الإسبانية :من النظرة الفولكلورية إلى النظرة الاستراتيجية" في : "السوسيولوجيا المغربية المعاصرة، حصيلة وتقييم، منشورات جامعة محمد الخامس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم .11 ص 18.

6. علي بولربح :(2006) تطور البحث الجغرافي حول المغرب .مطبعة إخوان سليكي، طنجة، الطبعة الأولى .ص 45.

8. نفس المرع السابق Manuel Lompardero.

7- Manuel Lompardero (1947) : La exploracion eientifica de la geografia de marriecos. Conerencia promunciada en el Instituto de Estudios Africanos el 23 de abril de 1947

- Muñoz Llorente, José y Muñoz Isaac (1912) : politica colonista. Madrid. Imp. Helénica. P .170.
- Actuación de los centros comerciales Hispano-Marroquies, con respecto a la politica economica de España en Africa 1915. 23 p.
- Bonelli (Hernando), Emilio (1920) : Marruecos y Tanger, españoles : Conferencia pronunciada, por el exemo, Sr. Don. Madrid imp. Patronato-Huérfanos. Intendencia. 29 p.
- Nueva organización territoial de las fuerzas militares del norte de Africa. In. Revista Africa - Revista de Tropas Coloniales. Epoca II. Enero 1928. pp. 3-4.
- Fernando de Caranza : Plitica colonial de España Africa. Revista de Tropas Coloniales. Epoca II. Enero 1928. pp. 269-270.
- Ciemente Cerdeira : Apuntes para la historia del Rif. Alta comissaria de España en Marruecos. Publicaciones de la Biblioteca de la delegación general. Editorial Hercules. Madrid - Ceuta. 1926. 89 p.

9. يمكن ذكر بعض الدراسات التي فسرت هذا التوجه على الشكل التالي:

10ـ علي بولربح : الكتابات الإسبانية حول مدينة تطوان من خلال أرشيف المكتبة الوطنية بمدريد. مقاربة بيبليوغرافية 1956-1912، جامعة عبد المالك السعدي. أعمال ندوة :تطوان في الوثائق الإسبانية على عهد الحماية .ص 1998 .43

11. حاول فرانكو أن يطور هذه الإيديولوجية من خلال كتابات مهدت لها والتي أعطت صورة عن مستوى التفكير التي تعاملت به بالمنطقة.

12. نموذج من الكتابات :

- Alta Comosaria de España en Marruecos (1948). Acción de España en Marruecos. La obra material. Tetuán - Madrid. Tallers del Instituto Geografico y Catastral.

13. اعتبر الهاجس الأمني عاملا للوجود الإسباني العسكري خلال مرحلة الحماية رغم التغيرات الإدارية والسياسية التي همت المنطقة من مراقبة مدنية وعسكرية واستخباراتية.

14 - Francisco Gómez - Jordana Souza conde de Jordana (1976) : La tramya de nuestra actuacion en marrueccs. Ed. wacional. Madrid. P.118-119.

15 - I.Garcia Figueras y J.L. Fernandez - Llebrez : Manuales del Africa española. Marruecos. Consejo Superior de Investigaciones cientificas. Instituto de Estudios Africanos. P.150.

16 - Federico Pita Ezpelosion (1933) : Del protectorado Español en Marruecos. Unos cuantos de observacion en la capital de la zona española. Graficas. La Iérica, Madrid. Melilla. P.103.

* * *

بيبليوغرافيا

- الورياشي، قيس مرزوق :(1988) الأفريقانية الإسبانية :من النظرة الفلكلورية إلى النظرة الاستراتيجية .السوسيولوجيا المغربية المعاصرة .حصيلة وتقييم .منشورات كلية الآداب، الرباط .ص 15-43

- برادة، عبد الرحيم :(2007) إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية 1931-1956 منشورات إفريقيا الشرق. الجزء الأول والثاني. الدار البيضاء.

- بوزويتة، سمير :(2007) مكر الصورة .المغرب في الكتابات الفرنسية 1832-1912 منشورات أفريقيا الشرق .الدار البيضاء .ص 239.

- بولربح، علي :(2006) تطور البحث الجغرافي حول المغرب. مطبعة سليكي إخوان .طنجة .الطبعة الأولى. ص 141.

- بولربح، علي :(1998) الكتابات الإسبانية حول مدينة تطوان من خلال أرشيف المكتبة الوطنية بمدريد .مقاربة بيبليوغرافية 1912-1956 أعمال ندوة :تطوان في الوثائق الإسبانية على عهد الحماية .جامعة عبد المالك السعدي، تطوان. ص 41-54.

- Alfaro y Zarabozo s. (1919): Geografia de Marruecos y posesiones españolas de Africa. Toéde, Imprenta del Colegio de Maria Cristina.
- Alta Comisaria de España en Marruecos. Delegación de asuntos indigenas-Nombres de lis musulmanes habitantes en la zona de proctectorado de España en Marruecos. Regiones, Kabilas y poblados de la misma. Año 1937 Imerio - Ceuta.
- Alta Comisaria de España en Marruecos (1948). Acción de España en Marruecos. La obra material. Tetuán et Madrid. Tallers del Instituto geografico y Catastral.
- Alvarez Gendin, Sabino (1949) : La administración española en el proctectorado de Marruecos, plazas de soberania y colonoas de Africa. Madrid conjo Superior de
- Angel Domenech L. (1942) : Apuntes sobre geografia de la zona norte del protectorado de españa en Mrruecos. Editorial Gran Capitán. Libreria del ejercito. Madrid. 143 p.
- Anuario Guia oficial de Marruecos (1923) : Zona española (comercio y turismo). Madrid. Editorial. Ibero - Africana.
- Aprovechamiento de los recursos hidraulico de la zone norte. (1956)Å: Teuan. 25 p.
- Arques Fernandes, Enriqué (1942) : El momento de España en Marruecos. Madrid. Ed. Vice secretaria de educación popular Imp. S Aguire. 158 P.
- Cabelero de puga, Eduardo (1907) : Marruecos. Politica e intereses de España en este imperio. Madrid. Imp. Eduard Arias. 32 P.
- Cabelero de puga, Eduardo (1921) : España en Marruecos. Ayer, Hoy y Mañana. Conferencia. Madrid. Imp. R. Velasco. 38 P.
- Cabanas. Rafael (1952): Aportación al estudio del "habitat" en la región occidental del protectrado español en Marruecos Archivos del Instituto de Estudios Africanos. Años VI n°22.
- Carvajal, José de (1884) : España y Marruecos-Discurso. Madrid. Tip. Manuel Ginés Mernandez. 39 P.
- Ceano-Vivas, José (1928) : La enseñanza en las Kabilas. Tetuán. Martinez. 15 P.
- Comision historica de las campañas de Marruecos, de España en Africa. Madrid y Tallers del ministerio de la guerra. Servicio geografico y cartografico (1935 - 1941). 3 vols. Nota : Los vols. II y III están publicados por el servicio Historico Pilitar.

- Cordero Terres, José Maria (1941) : La misión Africana de España. Madrid. Ediciones de la vice secretaria de educación popular. Diana. Artes Graficas. 95 P.
- Cordero Terres, José Maria (1946) : Consecuencias administrativas de la demografia del Africa Española. Madrid. 80 P.
- Cuevas Teodora de (1895) : Estudio relativo a la producción industria y comercio del corche en el bojalato de Tetuán Madrid. Imp del T. minuesa.
- Dahir aprobando la delimitación del permetro del termino municipal de Tetuán. Tetuán 31 Marzo 1930. 2 P.
- Datos estadistico de la superficie cultivada, produccion agricola obtenida, arbolado e industria apicola, correspondientes à los años 1934 - 35 - 36 - 37 - 38. 2 vols.
- Dirección general de Marruecos y colonias (1944). Anuario de estadistica y catastro de la dirección de agricultura. Madrid. Diana. Artes, Graficas.S.A. 160 P.
- Domenech (1935) : El habt. Notas sobre la Gharbia. Ceuta. M. alcala. Conferencia sobre : sociologia marroqui. Pronunciada en el curso de perfeccionamiento de interventores. 83 P.
- Epifanio Gonzalez Jimenez (1950) : La obra de España en Marruecos. S.A.E. Graficas Espejo. Primera edición Madrid.
- Ferrocarrilles de Marruecos : Linea Ceuta a Tetuán. Memoria Años. 1943-44. 2 vols.
- Garcia figuras, Tomas (1929) : primera compaña de beni Aros. Operaciones de la columna de Larache. Juni-Julio 1929. Cronicas de Guerra. Comandante. Mad. C.I.A.P. 55 P.
- Garcia figuras, Tomas (1939) : Marruecos (la acción de España en el norte de Africa). Barcelona. N.A.G.S.A. Edic. F.E. 365 P.
- Garcia figuras, Tomas (1943) : Dirección general de Marruecos y colonias. Reivindicaciónes de España en el norte de Africa. Madrid. 53 P.
- Garcia figuras, Tomas (1945) : El problema de Tanger. Madrid. Publicado en "Accion espagñola".
- Garcia figuras, Tomas (1949) : Africa en la acción Española-premio Africa de Literarura 1946. 2°ed. Mad. Instituto de Estudio Africanos. Ed. Ares. 236 P.
- Garcia figuras, Tomas (1955) : La zona española del protectorado de Marruecos. Madrid. Instituto de Estudios Africanos. Fénix, Artes. 210 P.

- Gutiérez Trujello, Emilio (1943) : Evolución y desarrollo futuro de la población de Tetuán. 25 P.
- Inignez Fernando (1913) : Por tierras de Marruecos. Valor agricola de la zona. Madrid. Hijos de Rens. Ed. Im. Rev. Legisl. y jurisprudencia. 212 P.
- Jesus Jiménes ortoneda (1930) : Estudio de la región del Rif. Conferencia. Alta comisaria de España en Marruecos, Inspección de Intervencion y Fueraz Jalifians. Madrid. 64 P.
- Llord O'lawlor, Manuel (1952) : Apuntes de derecho administrativo del protectorasos de España en Marruecos. Tetuán. Ed. Marroqui. 208 P.
- Lombardero vicente, Manuel (1945) : Cartografia del AfricaEspañola. Madrid. Dreccion general de Marruecos y colonias 1944-1945. 95 P.
- Lombardero vicente, Manuel (1947) : La exploración cientifica de la geografia de Marruecos. Conferencia pronunciada en el Instituto de Estud. Afr. 23 AV. 1947, 49 P.
- Ochoa iglesias, Antonio (1946) : Sintesis de geografia humana y económica de Marruecos : conferencia Leida el dia 16 abril 1945 en la Real sociedad Geografica. Dirección general de Marruecos y colonias Madrid.
- Pajero (y figuras), José del (1885) : Ensayos de politica colonial. Madrid. Im. Miguel Ginesta. 384 P.

* * *

العلاقات المغربية الإسبانية
عشية التوقيع على عقد الحماية سنة 1912

رشيد يشوتي*

شهدت العلاقات المغربية الإسبانية خلال بداية القرن العشرين مجموعة من التوترات ارتبطت في مجملها بمشاكل المنطقة الشمالية، لذلك أمام المشاكل المريرة والمتكررة بين الريفيين وإسبانيي مليلية خلال بداية القرن العشرين، ولما كان المغرب يجنح دوما للسلم مع الجيران لا سيما مع الجارة إسبانيا، فقد سعى إلى حل تلك المشاكل العالقة بينه وبين حكومة مدريد. لكن في الوقت الذي سافرت فيه البعثة المغربية إلى مدريد للتفاوض، وفي اليوم الذي تم فيه استقبال السفير أحمد بن المواز من قبل الملك ألفونسو XIII، وصلت الأنباء أن الحرب بين الريفيين والإسبان قد اندلعت.

من الأكيد أن المغرب وإسبانيا بذلا قصارى جهودهما لتفادي وقوع الحرب، ولدرء كل الأخطار التي من شأنها تعكير صفو العلاقات الثنائية بين البلدين. غير أن التناقضات الظاهرة لمطالب الطرفين المتنازعين، وإصرار كل منهما على البقاء في موقعه، والتمسك بمطالبه، كانت ترشح الحل العسكري على مثيله الدبلوماسي. وإذا كانت قضية المناجم هي التي أفاضت الكأس في هذه المطالب، لاسيما وأن إسبانيا كانت تود مباشرة استصدار قانون المناجم بسرعة، حتى تضمن الأمان التام لمصالحها، فإن المخزن حاول، من جهته، إيجاد حلول منصفة ومستعجلة لهذا النزاع، آخذا بعين

* أستاذ باحث، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، السويسي، الرباط.

الاعتبار الاتهامات الموجهة له من قبل إسبانيا، خاصة ما يتعلق بغياب قواته وسلطته بالريف.

واعتبارا للانعكاسات المحتمل ترتبها على نظام السلطان عبد الحفيظ الذي استقر للتو، واعتبارا للموقف البطولي الذي اتخذته قبائل الريف بالتخندق في صف السلطان عبد الحفيظ ضد أخيه عبد العزيز، ومبايعة الأول في وقت كانت فيه أصوات القبائل في غاية الأهمية بمكان، فقد صبا السلطان عبد الحفيظ إلى إنهاء هذا المشكل بأقصى سرعة.

لكن من الجدير بالتذكير، أن قبائل الريف لم تكن غافلة عن هذه النزاعات الدبلوماسية، لذلك كانت كلما وقع خلاف معين بين الطرفين الريفي والإسباني سارعت القبائل إلى إيفاد ممثل أو ممثلين عنها إلى العاصمة المركزية، بغية إطلاع السلطان عن الوضعية، ووضعه أمام الأمر الواقع.

لقد نشطت التحركات الدبلوماسية بين الطرف المغربي والإسباني، وحيث إن التحركات تمت تقريبا في حيز زمني محدود، فإننا لم نراع الترتيب الكرونولوجي لهذه التحركات، لاسيما الوفادة المغربية الأولى إلى مدريد التي أخرنا الحديث عنها إلى آخر هذا المقال، حتى تحقق استمرارية مع الوفادة المغربية الثانية بقيادة محمد بن عبد السلام المقري .

1 ـ البعثة الريفية إلى فاس

بعد وصول السلطان عبد الحفيظ إلى سدة الحكم، ولوضعه في الصورة التي عليها معاناة الريفيين مع إسبانيي مليلية، زار العديد من أعيان الريف العاصمة فاس، غير أن الوثائق لا تسعفنا في فك عدد هذه البعثات، هل

كانت بعثة واحدة، أم أكثر؟ لذلك، بناء على محصلة المعطيات التي تم تجميعها أمكننا القول أنها كانت عديدة غير أنه لم يؤرخ لها، ومنها البعثة التي وصلت إلى فاس بقيادة محمد أزماني (الفرايل)، الذي، بعد أن استقبله السلطان، زوده بحزمة من الرسائل إلى قبائل قلعية، يدعوهم فيها إلى الثبات على موقفهم ضد الزرهوني ومحاربته، ومبلغا إياهم أنه سيرسل عما قريب محلة سلطانية، تحت قيادة محمد بن بوشتى البغدادي[1].

وحسب صاحب "الظل الوريف "فإنه كانت قد توجهت إلى فاس فاس بعثة تحت قيادة القائد محمد بن الحاج عمر الكَلعي، ولعله قصد بذلك الوفد الذي ترأسه محمد بن عمر الشادلي في أكتوبر 1908..."، يخبر المخزن بما يريده أبو حمارة وما أبرمه معه الإصبان .وجلس بفاس نحو ستة أشهر، ولم يحصل على طائل من المخزن، وأعيُن قبيلته شاخصة لما يرد به عليهم، حتى تغلب عليهم أبو حمارة .وفي أثناء المعارك الكَلعية مع أبي حمارة تشتتت الإدالة التي كانت تحت نظر القائد البشير بن السناح، وهرب إلى مليليا واستوطنها...[2]".

وفي أعقاب المفاوضات القلعية مع حاكم مليلية، الجنرال مارينا، أوفد الشريف أمزيان بعثة تمثيلية لفاس لطرح قضية النزاع الريفي الإسباني على السلطان، بيد أن الوثائق لا تفيدنا كثيرا في التعرف على ظروف هذه البعثة، إلا النزر القليل جدا، والذي لا يفي بالغرض المطلوب، منها مثلا الوثيقة التي عثرنا عليها بمديرية الوثائق الملكية، وهي وثيقة يطلب فيها الشريف محمد أمزيان توسط مندوب السلطان، بطنجة، محمد بن العربي الطريس، أن يبلغ صاحبه (ابن أخيه)، إلى الأعتاب الشريفة في أمن وأمان[3].

وفي وثيقة، أخرى، زودنا بها مشكورا الشريف صالح، حفيد الشريف محمد أمزيان، وهي عبارة عن رسالة جوابية من أمزيان إلى مندوب السلطان بطنجة الحاج محمد الطريس، تؤكد على اعتناء المخزن بالبعثة الريفية، كما يشكره فيها أمزيان عن الجهود التي يبذلها الطريس من أجل أن يستقبل السلطان حفيده (!ابن أخيه)محمد التباع ..."[4]. وبعد وصلنا جوابك الأعز، بوُقوفِك مع ابن أخانا (كذا)الذي وجهنا للأعتاب الشريفة، وعلمنا أنك غير مقصر في جانبه كما هو المظنون بالسيادة، فجزاك الله خيرا على الاعتناء... كما أحب من السيادة أن أكون منه على بال عند رجوعه، كثّر الله خيرك، وعلى المحبة التامة..."[5].

بيد أنه أمام ضآلة الوثائق، ومقابلة العربية منها بالأجنبية، لم نجد تفسيرا مقنعا لشخصية القائد محمد الشادلي، الذي وجدناه في مقدمة رجالات الحركة والجهاد في معارك يوليوز 1909، ثم وجدناه ثانية ضمن البعثة الريفية إلى فاس .هذه الوضعية الشائكة، وضعتنا أمام افتراضين :إما أن البعثة الريفية إلى فاس تمت على دفعتين على الأقل: الأولى، تحت قيادة محمد التباع، والثانية، تحت قيادة الشادلي، وبمجيء هذه الأخيرة إلى فاس اهتمت بها الصحافة والمفوضيات الأجنبية، فأعارتها الاهتمام البالغ، لاسيما الإسبانية منها.

أما الافتراض الثاني، فيكمن في أن البعثة الأولى بلغت فاس، وأمام الظروف الوقتية التي كانت تعيشها فاس، لم يتم استقبال البعثة، فعادت أدراجها إلى الريف، لتعود مجددا في وفادة ثانية كبيرة، وهو ما نرجحه، على اعتبار أنها هي التي ذكرتها الوثائق الإسبانية من أن البعثة الريفية، التي بلغت فاس في أواسط شهر أكتوبر 1909، تكونت من 25 نفرا، على

رأسهم الشريف محمد التباع، والقائد محمد الشادلي[6]. وبمجرد وصولها إلى فاس، تكلف المخزن بإيوائها والإنفاق عليها، بعد أن طلب منها انتظار تعليمات السلطان.

وحسب ذات الوثائق الإسبانية فإن الصدر الأعظم استقبل الوفد الريفي يوم 18 أكتوبر 1909[7]، وأن الغرض الذي جاءت تصبو إليه البعثة الريفية هو الحصول على السلاح والمال[8]، وليس المشورة وإبلاغ السلطان بأحداث ووقائع الريف، كما تمت إشاعة ذلك.

خبّل مجيئ الوفد الريفي حسابات الدبلوماسية الإسبانية بفاس، لذلك لم تتوقف عن التجسس والاستخبار عن كل صغيرة وكبيرة يجريها الوفد مع السلطات المخزنية .ولما لم تسعفها الخطوات، قدمت استفسارات إلى السلطان والمخزن اللذين أبلغا تطميناتهما إلى القنصل الإسباني بأن الوفد لن يتلقى أي مساعدات بأي شكل من الأشكال[9].

استقبل الصدر الأعظم، في 1 نونبر 1909، الوفد الريفي بقيادة الشادلي ومحمد التباع من جديد، غير أنه في الوقت الذي كان فيه الريفيون ينتظرون تطمينهم بالدعم والمساعدات التي جاؤوا من أجلها، أبلغهم الصدر الأعظم بأن السلطان جدد رفضه تقديم أي دعم مادي للريفيين بسبب الظروف الوقتية، وأن رغبته تكمن في توجيههم كمبعوثي سلام إلى قبائلهم بالريف، لمطالبة إخوانهم بخلع السلاح وعدم مواجهة إسبانيا[10].

أثارت هذه التصريحات غضب الوفد الريفي، وبخاصة القائد الشادلي الذي ثارت ثائرته .ومن المحتمل أن هذه التصريحات هي التي كانت سببا

في خصومة محتملة بين الوفد الريفي والسلطات المخزنية بفاس، وإلا بماذا نفسّر بقاء هذا الوفد شهورا مديدة بالعاصمة .

ثم إن ملامح هذه الخصومة ازدادت تأكيدا بالتقرير الصادر عن القائد بريموندمهص(ب)رفقوغ، حيث أمكننا قراءة إن" الشادلي لا يزال بفاس، وهو يشكو من أن السلطان قد مَثَّلَ به، وأنه خُدع من قبل خصومه القواد الذين تحالفوا مع إسبانيا ضده. وأن السلطان وعده بمحلة وأسلحة، ثم فجأة" نصحه "بعدم مغادرة فاس. يقول الشادلي :مولاي حفيظ" لا يريد فعل أي شيء ضد الإسبان[11]". ثم يضيف قائلا : "إن ما يقتلني هو أن المولى عبد الحفيظ يظهر عليه إنه متفق مع إسبانيا لطردي من بلدي..."[12].

اعتبارا لهذه الحيثيات، ومخافة على نفسه وعلى رفقائه من أذى محتمل من السلطات المخزنية، دعا الشادلي رفقاءه إلى مغادرة المقر الذي كان مخصصا للوفد الريفي بفاس، واللجوء للاحتماء بضريح مولاي ادريس بفاس[13].

مرت الشهور إذن، ولم تعد البعثة إلى الريف، لقد كانت مرابطة دائما بفاس تنتظر تعليمات السلطان الذي صرح لهم بعد انتظار طويل" :إن إخوانكم دخلوا في الحرب مع الإسبان فعودوا إلى بلادكم[14]".

وعلى الرغم من أن الوفد الريفي عاد بخفي حنين وبخيبة آمل، أولا بسبب تصريحات السلطان، وثانيا بسبب وفاة القائد الشادلي[15]، فإنه كان، مع ذلك، موضع شبهة من قبل الهيئة الدبلوماسية التي عبرت عن بالغ قلقها واستيائها بسبب توجه الريفيين إلى فاس، لولا أن الوزير الفرنسي رينيو

(Regnault) هدأ من روعها، مبرزا لها أن" السلطان حتى هذا الوقت لم يقدم أي مساعدة لا من الأسلحة والذخائر، ولا من القوات العسكرية للقبائل الريفية. وأن الإعلان الرسمي الوحيد الذي صرح به، عدا الاحتجاج الذي وجهه إلى القوى (الدولية بطنجة)، ينحصر في إيفاد مندوبين مكلفين بتهدئة المنطقة الريفية[16]".

2. السفارة الإسبانية إلى فاس بقيادة الوزير ميري دلْ بال (Merry del Val)

استهدفت هذه السفارة، التي وفدت إلى فاس بقيادة السفير الإسباني ميري ديل بال[17] (Alfonso Merry del Val)، وبعضوية السكرتير الأول للبعثة باديا (Padilla)، والكاتبين لينييري (Lignière) مون كَيرو (Mon gueiro)، والمقدم مارينكو (Marenco)، والطبيب بيلنكَير (Belinguer)، إضافة إلى ترجمانين وأب فرانسيسكاني[18]، التفاوض حول مسألة حدود مليلية وسبتة. وقد استمرت هذه السفارة من 8 مارس إلى 15 ماي[19] 1909. وخلال مداولات المفاوضين المغاربة والإسبان، قدم المفوض الإسباني ميري دل بال للمخزن مجموعة من المطالب[20]، قدر عددها بـ 30 مطلبا، حافظنا على ترتيبها، كما وردت في الكناش، يهمنا منها ما يلي:

ا. مطلبه بتنفيذ ما في الشروط من تعيين المدد لحراسة سواحل مليلية والنكور وبادس، وجعل قائد رحى كبير على هذا المدد بقصبة اجنادة، يكون مفوضا في فصال الدعاوي الصغيرة.

أجابت الحضرة الشريفة عنه بأن المخزن مساعد على تعيين كل ما تضمنته الشروط من ذالك، نعم لا يكون كبيرا على المدد المذكور إلا من

ينتخبه المخزن ويرتضيه لذالك، ويكون موافقا للغرض ويعوض له في فصال الدعاوي الصغيرة فقط، ثم إن فُصلت فذاك، وإلا فإن وقع تنازع أو مخالفة فترفع لنائب المخزن بطنجة، وأما الدعاوي الكبرى فترفع للدولتين ابتداء طبق ما في الشروط.

4. مطلبه المفاوضة مع حاكم مليلية في انتخاب شيوخ القبائل الريفية للولاية على من يصلح .

أجابت الحضرة الشريفة عنه بأن المخزن لا يوجه إلا من يرى أهليته لذالك، وعند إرادة توجيهه يعلم به سفارة دولة إصبانيا، لتكون على بال بواسطة نائبه بطنجة.

10 ـ مطلبه تقييد ما صيرته الدولة الصبنيولية على المسلمين أهل الريف واليهود الذين التجأوا إلى مليلية عند تحرك الثائر بالريف في مدة أربعة أعوام، وقدر ذلك نحو مائتي ألف ريال سكة إصبنيولية[21].

أجابت الحضرة الشريفة بأنه سيصدر الأمر بالبحث لنائب المخزن بطنجة ومراجعته للأصول التي كانت راجت في المسألة، وجعله التأويل فيها وأسامع الدولة بطنجة، وحيث يحل وزير المالية السعيدة ونائب وزير الخارجية بطنجة، تتمم مباشرة ذالك بحول الله.

12 ـ مطلبه أداء الصائر الذي صيروه على المحلة التي كانت بالريف والتجأت إلى مليلية[22] وقبولها بإذن المخزن ومكثت عندهم 6 أشهر، وأركبوها في مركب حربي إلى الرباط وقدر الصوائر 165.000 بسيطات.

أجابت عنه الحضرة الشريفة، بأن المخزن الشريف يعين لذلك أجلا قدره ستة أشهر، تعتبر بعد وصول السفير لطنجة من سفارته هذه، لكن لا يمكن الخلاص، إلا بعد أن تسلم الدولة الصبنولية ما كانت حازته من المحلة المشار لها من الآلة الحربية.

13 ـ مطلبه جلب الماء لسبتة ومليلية، وتوجيه لجنة في ذلك لمليلية حيث لم تكن قد توجهت.

أجابت عنه الحضرة الشريفة، بأن المخزن لا يساعد على ذلك أحدا (كذا) من الدول على ذلك ولا يمنحه لهم، إذ لا مصلحة في المساعدة عليه رأسا، وتوجيهه اللجنة لمليلية لا معنى لها حيث لا نتيجة وراءها.

14 ـ مطلبه إعطاء الوعد للكمبانية الصبنيولية في مسألة المعادن حتى يصدر الضابط.

أجابت عنه الحضرة الشريفة، بأن الضابط سيصدر في ذالك بالمتعين، لكن المخزن لا يقدر أن يعطي امتيازا للكمبانية الصبنيولية إذا لم تكن يدها عن الترامي الواقع منها الآن، ويعلن المخزن إعلانا كافيا بانه إذا صدر مكروها للخارجين لذالك أو لغيره من دون إعمال قاعدة ولا إذن من جانب المخزن، فهو بريء من عهدة ذالك.

20 ـ مطلبه في مسألة الضوء الكهربائي بطنجة مع مسألة التيلفون بها، والزيادة في محل إدارة التيلفون بالبناء على البرج الذي بقي به لجانب المخزن[23].

أجابت الحضرة الشريفة بأن المخزن كلف وزير ماليته السعيدة بجعل التأويل في ذالك بوجه لا ضرر فيه على الجانبين[24].

23 ـ مطلبه في مسألة منع سكان مليلية من مجاوزة الحدادة.

أجابت الحضرة الشريفة بأن (كلمة غير مقروءة)، هو بقاء الأوفاق والشروط على حالها من غير تغيير ولا إبطال، وحيث يستقر الأمن ويثبت، يظهر ما يكون في ذالك بحول الله .وأما الاستشهاد بأنه إذا لوحظ المنع فلا يخرج أجنبي حتى للمعادن والبناء، فحيث يريد المخزن ذالك يجعل له تاويلا بحسب الإمكان.

26ـ مطلبه تعيين لجنة من قبل المخزن مع لجنة من قبل الدولة بجعل علامات الحدود.

أجابت الحضرة الشريفة عنه، بأنه إن كانت الشروط المؤسسة في هذا الموضوع تقتضي ذالك، فالعمل عليها لكن بحسب الإمكان والوقت وبعد حلول المدد السعيد بتلك الناحية.

30 ـ مطلبه الإنعام على التاجر "رِكَرْدُ أروليس أرساطُ" بظهير شريف يتضمن إباحة السفر له لكبدانة بدون مانع.

أجابت الحضرة الشريفة عنه بأنه بعد تحقق الأمن بتلك النواحي يظهر.

وينتهي التقييد بذكر أن " :أغراض الحضرة الشريفة عندهم، هو انجلاء جنودهم عن حدادة مليلية وغيرها من السواحل الريفية، التي احتلوها بغير

موجب خرقا للشروط .ثم تأخير خدمة المعدن التي بتلك الناحية، حتى يكون الضابط لها، ويقع الاتفاق على ما يكون فيها بحول الله.

والثالث كف جنودهم التي بسبتة عن الروجان في بلاد انجرة وعدم إحداث شيء يُخلّ بالسكينة العمومية وقوفا مع الشروط وسعيا في إبقاء الأمور جارية على قواعدها"[25] .

واضح من خلال هذه المباحثات أن المخزن الحفيظي لم يلب أية طلبات مباشرة للسفارة الإسبانية، لاسيما وأن الاحتلال العسكري لم يتخذ طابعا مؤقتا كما كانت تلوح بذلك إسبانيا، وكما يستخلص ذلك من المذكرة المغربية المرفوعة إلى عمادة السلك الدبلوماسي بطنجة، والتي سنتطرق إليها كاملة بعد قليل، تقول المذكرة... : "والذي زاد في تشويش أفكار الجلالة الشريفة وأفكار جميع الرعية ما شاع شيوعا فاشيا، من أن نية الدولة الاصبنيولية ليست مقصورة على ما أخبرت به، من كونها تريد إجراء التربية على من سعى في قتل بعض خَدَمة المعدن بقرب مليلية مع أنه لا حق لها في ذلك أصلا ...بل في نيتها مقاصد أخرى أجنبية ومغايرة لما أعلمت به والذي يؤيد ذالك هو وجود العدد الهائل من القوة الحربية الآن بمليلية ونواحيها..."[26]

بيد أنه جبرا لخاطر الوفادة التي رجعت خاوية الوفاض من فاس، أبلغ السلطان القنصل الإسباني عزمه على إرسال بعثة مهمة إلى مدريد .ولما طال مقام هذه الأخيرة بالعاصمة الإسبانية، ولما لاحظ المخزن عدم انجلاء القوات الإسبانية وحشدها لمزيد من الجنود بالريف، فضل إقحام السلك الدبلوماسي المعتمد بطنجة، بأن رفع مذكرتين إلى كل من المفوضية الإسبانية وعمادة السلك الدبلوماسي.

3 . المذكرتان المغربيتان المرفوعتان إلى المفوضية الإسبانية وعمادة السلك الدبلوماسي بطنجة

3-1 . المذكرة الاحتجاجية المغربية المرفوعة إلى المفوضية الإسبانية بطنجة

أمام هذه الحيثيات، ولما انتبه السلطان إلى تعنت الإسبان في البقاء قابعين بالمناطق المحتلة، رغم الجهود المبذولة، وبالرغم من تكرار طلب المخزن بجلاء القوات الإسبانية عن المناطق المحتلة في رأس الماء ومارتشيكا (سبخة بوعرق)، فقد وجد نفسه مجبرا على رفع مذكرة احتجاج إلى المفوضية الإسبانية بطنجة، مؤرخة في 35 شعبان 1327 هـ 16/ شتنبر 1909، طالبها فيها بضرورة الجلاء السريع للقوات الإسبانية عن منطقة رأس الماء وسبخة بوعرق.

3-2- المذكرة المغربية المرفوعة إلى عمادة السلك الدبلوماسي بطنجة

أمام عسر المشكلة المغربية الإسبانية فضل المخزن الحفيظي إقحام المفوضيات الدبلوماسية بطنجة في هذا النزاع، وفي الوثيقة التالية الخطوط العريضة التي استند إليها المخزن لسلوكه هذا المسلك بغية استرداد حقوقه... :"فلا يخفى على جميع من بلغه علم بوقائع الريف، الصادرة من الدولة الصبنيولية، من ظاهر الافتيات العدائي المبني على أساس التطاول الحائد عن مناهج الانسانية، مما لا يسوغ لها في قانون دولة من الدول، لاسيما مع عقد المؤتمر الذي كان مركزه ببلادها، وبذلك كان في القياس العقلي أن تكون هي أول محافظة على إجراء حقوق شروطه، وعدم التظاهر بما يعاكس عقائده .وأما ما يدعيه من ابتياع المعدن، فدون مشقة تأمل

يحكم العقل بأن لاحق فيه، وأن المشاكل كلها المُنبنية على المسئلة المعدنية، لا مراكز لها في باب السياسة، إلا مجرد العداء، إذ مسئلة المعدن في نفسها، هي مربوطة بعقودها الخاصة بها في شرائط المؤتمر، وتداخلها في ذلك هو هضم لحقوق تلك الشروط قبل إجراء عمليتها حسب وفاقاتها المنصوصة .وطالما رءا المخزن ... عاقبة ذلك تؤول إلى سوء الحال، فجعل أخر أمره أولا، وقدَم مبادئ التحذير من الشيء قبل وقوعه، وبيّن ما ينشأ عن ذلك من إقلاق الراحة العمومية حتى كان ورد السفير الصبنيولي لشريف حضرتنا فَشُوفه بتقارير ذلك أيضا، ثم بعد توجهه وقع الكَتْب له في ذلك زيادة في الاستبراء بشبه الاسترعاء، ولم يقع في شيء من ذلك حصول على طائل.

ثم بعد هذا كله، بعثنا سفارتنا السعيدة لمدريد لحل تلك المشكلة وغيرها، وارتكب الكل ابتدائيا وانتهائيا حرصا على بقاء ميدان المصارفة سالما، ومع طول تغافل المخزن وتجلده وتجرعه كأسات الصبر، وغض الطرف، ترجيا لتحسين الأحوال، وتأميلا في طمأنينة الأفكار، والدولة تزيد في تحشيد عساكرها، وسحب جنودها على الريف .

والحالة الراهنة أن سفارتنا عندها في عاصمتها مدريد من دون ملاحظة على ذلك، فاجتمع في الحال المناوشة في الإيالة، والمخابرة مع السفارة، والمسؤولية الإنصافية والإنسانية قائمة فيما بين هاتين الجملتين، وجانب المخزن ... مع تكرر الهجوم على الريف، والصولة على أهله بالقوة، ما زال يكرر أوامره الشريفة لقبائل الريف بلزوم الحياد، انتظارا لنتائج المباشرة الرائجة، وحتى الوفد المتعين توجيهه لتلك النواحي التي من خصوص الولاة على القبائل دون قوة فعالة، حيث الشر لا ينطفئ بمثله، بينما يقع تقهقر

جنودهم فعليا إبقاء للحياد من جهة الريافة، وإن كانت الدولة لا يزيدها ذلك إلا إغراء وزيادة سحب الجنود، ووقوفها أمام الهجوم الاعتدائي سببا مسببا، ثم أيضا إن هذه مدة والسفارة بمدريد لم يظهر من نتائج مخابرتها ما يعول عليه في القضية الحالية، والطول إذا تمادى ربما يضيق به فسيح المجال، حتى تصير المخابرة في موضوع آخر، ولا أحد من الناس مطلقا تسمح همته بالسكوت عن الكلام في حقوقه، وتركها لحيز الضياع أو الإهمال، أو تساعده قواعد الإنسانية على تحمل الاعتداءات التي يحسبها فاعلها حقوقا له.

وعليه، فقد اقتضى نظرنا، العالي بالله، إذننا الشريف لك في كَتْب كتاب استرعائي في ذلك كله، حسبما تضمنه كتابنا الشريف هذا، يكون الخطاب فيه للزعيم وسفراء الدول استلفاتا لأنظارهم، لإبلاغ ذلك إلى دولهم العظام، لينظروا في حل هذه المشكلة التي تأباها قواعد الإنسانية والتمدن، ولا يسلمها قانون دولة من الدول، لا سيما والأمور المغربية المعدنية وأشباهها كلها منوطة بعقود المؤتمر الذي صادقت عليه جميع الدول التي تعهدت العمل عليه، وبناء على ذلك فمن حقوق شروطه الاحتفاظ عليها والوقوف أمام كل من يصادفها فضلا عمن يروم إيقاع خرق في شيء منها، وهم يعلمون جميع ذلك..."[27].

اعتبارا لهذه الحيثيات، سلم المغرب مذكرة رسمية إلى الوزير رينيو (Regnault) قيدوم الهيئة الدبلوماسية بطنجة، ومندوب فرنسا بها، بغية إبلاغ كل الدبلوماسيين بقضية المغرب، ورفعها من جهتهم إلى بلدانهم.

وقبل رفع المذكرة إلى رينيو، أوصى السلطان نائبه محمد الجباص بمجموعة من التوصيات تؤكدها هذه الرسالة" :وبعد، وصل كتابك عن إذننا

الشريف لك في كتب كتاب استرعاء لزعيم النواب، على ما تباشره إصبانيا من سوء الأعمال بالريف، التي آلت بها إلى حشد الجنود الجرارة المدهشة بالريف، استرعاء ممزوجا بمجاملة التعبير، ولا يمس بشيء من روابط حسن الوداد، وسلامة التفاهم بين الجانبين، بامتثالك شريف أمرنا في ذلك، وسلوكك فيه مسلكا مناسبا للمراد، وهو توجيه الاسترعاء على كثرة الجنود الصبنيولية المحشودة أخيرا، مع التنبيه على النكت الضارة بعموم الراحة، وحقوق الشروط والمخزن وإيالته الشريفة، ووجهت نسخة من مكتوبك للزعيم، وصار بالبال، وقد تتبعنا تلك النسخة، واستوعبها علمنا الشريف وقوبلت بالاستحسان، وإن المخزن ... لم يلتفت إلى إعمال ذلك، إلا لمّا رأى من تزايد اضطراب أحوال الريف بكثرة حشد الجنود عليه، التي تزيد العاقبة فظاعة ووخامة...[28]؟

وفيما يلي نص المذكرة المرفوعة إلى عميد السلك الدبلوماسي بطنجة:

"... في علم جنابكم، وعلم جناب الدول المحترمين بهذا، ما هو واقع الآن من حشد الدولة الإصبنيولية المحترمة للعساكر الجرارة التي يزيد عددها على ستين ألفا بنواحي الريف، والدخول بهذا العدد الكثير في الإيالة الشريفة مدهش جدا، حيث إنه لا يدري المقصود منه، ولا تعلم نتيجة مآله.

ولما بلغ هذا الخبر مسامع الجناب الشريف المولوي، استاء منه غاية الاستياء للعلم بما ينشأ عنه من الاضطرابات والفوضى، في النواحي الشرقية الشمالية من هذه الإيالة الشريفة، بل وفي سائر الإيالة، ولا شك أن ذالك يخل بالراحة العمومية.

والذي زاد في تشويش أفكار الجلالة الشريفة، وأفكار جميع الرعية، ما شاع شيوعا فاشيا من أن نية الدولة الإصبنيولية ليست مقصورة على ما أخبرت به من كونها تريد إجراء التربية على من سعى في قتل بعض خدمة المعدن بقرب مليلية مع أنه لا حق لها في ذلك أصلا بطريق العدل والإنصاف، حسبما تقفون عليه في التقييد الواصل إليكم طيه، المبين تفصيلا لحادثة الريف إلى تاريخه، بل في نيتها مقاصد أخرى أجنبية ومغايرة لما أعلمت به.

والذي يؤيد ذالك هو وجود العدد الهائل من القوة الحربية الآن بمليلية ونواحيها، ولذلك صدر الأمر الشريف (...) برفع ما قرر أعلاه لجنابكم، لتكونوا منه على بال وترفعوه لجماعة نواب الدول المحترمين، وأنتم منهم، كي يرفعه كل واحد من النواب، المذكورين، لمسامع دولته لتستلفت أنظار الدولة الإصبنيولية المحترمة، بطريق المحبة والوداد على كيفية لا تخل بحسن علائق الجوار بين الدولتين المتجاورتين للخطر الذي ينشأ عن أعمالها بالنواحي الريفية المضرة بالمصالح العمومية .مع أن جانب المخزن الشريف لا زال يأمل الخير في الدولة الإصبنيولية مما يروج بين أعضاء دولتها وبين أعضاء السفارة السعيدة، ويرتجي حل هذه المشكلة مع الدولة المذكورة حلا إنصافيا، مطابقا للشروط والأوفاق المرعية المعقودة بين الجانبين.

وفي الختام نصرح لجنابكم عن الأمر الشريف ... بأنه لا مسؤولية على جانب المخزن الشريف مالية أو غيرها في هذه الحوادث الريفية، كما يعلمه كل منصف[29]..."

وبالفعل قام عميد السلك الدبلوماسي بمراسلة المفوضيات الأجنبية حول الاسترعاء المغربي، فراسل في المقام الأول وزارة الخارجية الفرنسية، بعد

تلخيص رسالة الجباص، وهذا تعريب لمراسلة رينيو لسطيفان بيشون، حول استرعاء المذكرة انتباه الأوروبيين في المقام الأول حول : "...تركيز الحكومة الإسبانية لقواتها التي تتجاوز أكثر من 60.000 رجل مع عتادهم الحربي في منطقة الريف، وأن دخول هذه القوات بأعداد كبيرة إلى الإمبراطورية الشريفة ينبغي أن يلهمنا شكوكا خطيرة لأنه لا يعرف الغرض سيما أننا لا نستطيع التنبؤ بالنتائج ...وما من شك في أن هذه الأحداث من المرجح أن تزعزع السلام عموما، وأن الذي زاد من درجة القلق لدى السلطان وجميع رعاياه، هوالشائعة التي انتشرت من أن نية الحكومة الإسبانية لا تنحصر فقط، كما أعلنت ذلك سابقا، في معاقبة جناة قتل عمال المناجم حول مليلية، في حين أن هذه الحكومة ليس لديها الحق في القيام بذلك من حيث العدالة والإنصاف, ...وأن المخزن يلفت اهتمام الحكومة الاسبانية إلى الخطر الذي قد ينجم عن تصرفها في منطقة الريف، تصرفا قد يضر بالمصالح العامة..."[30]

لقد اتضح من خلال هذه المذكرة، أن المغرب انتقل من موقع الإبلاغ إلى موقع" التهديد. "كما أبان المخزن، بعد تبرئة ذمته من مسؤولية الانعكاسات التي يمكن أن تترتب عن أحداث الريف، عن فهمه العميق للشؤون الدبلوماسية، لاسيما حينما أعلن أن" :أية مسؤولية نقدية أو أخرى لا يمكن أن تعلق بالمخزن فيما يهم أحداث الريف[31]."وفي المقابل لم ينس المخزن تذكير الوزير رينيو بأن المغرب يظل مستعدا دوما للتفاوض مع إسبانيا، وأنه يأمل حل المشاكل العالقة بين البلدين بإنصاف.

بالتأكيد، إن المخزن سعى من خلال إرسال هذه الشكوى إلى عميد السلك الدبلوماسي، إبلاغ القوى الأجنبية بعدالة قضيته، دون إقحامها مباشرة في الشؤون الداخلية لبلاده، غير أنه لما طال انتظار المخزن بسبب

عدم جلاء القوات الإسبانية عن النقط المحتلة قرر رفع "سكلار"[32] عام إلى الدول الموقعة على وثيقة مؤتمر الجزيرة الخضراء.

"... فلا يخفى ما أدى إليه طول انتظار المخزن انكفاف حركة الصبنيول العدائية بالريف، من ازدياد الاعتداء وعدم رفع تلك الحركة رأسا، لكون سفارة المخزن (...) بعاصمة دولتها مدريد، والتمادي على ترك الحال على ما هو عليه، لم تظهر، له في النظر نتيجة، إلا تضاعف أضرار تلك الجنود بالريافة.

وراجع المخزن أنظاره الشريفة في هذا الموضوع الأهم. فاقتضت أنظارنا، السعيدة، تحرير سكلار عام على الدولة، المذكورة، في مباشرتها العملية العدوانية بالريف، الماسة بحقوق الشروط، كلا وبعضا، والكتب به لباشدورات الدول المصادقين على وفق المؤتمر الجزيري ليرفعوه لحضرات ملوكهم. حسبما تصلك المكاتيب لهم بذلك، ومعها نظير حرفي منها.

وعليه، فنأمرك أن تعجل بدفع المكاتيب المذكورة إلى الباشدورات عزما، ولا باس أن تكتب لكل منهم، من عندك، صحبة الكتاب له تنبيها على كونك، منذ نشات الوقائع الريفية، وأنت على حسب أوامرنا الشريفة لك، تكتب لنائب أشغال إصبانيا في المسألة، رَوْما لانكفاف جنودهم ووقوفهم مع الشروط، إلى غير ذلك مما يناسب..."[33].

غير أن الجواب الذي صرحت به الهيئة الدبلوماسية بطنجة على الطلب المغربي، والذي كان المخزن يأمل من خلاله إشراك السلك الدبلوماسي كحكم في النزاع المغربي الإسباني، لم يأت مناسبا لآمال السلطان، لاسيما بعد إعلان الهيئة الدبلوماسية وبإجماع أن : "القضية المرفوعة من قبل محمد

الكَباص، في مذكرته للهيئة حول أحداث الريف، يجب حلها حصريا بين إسبانيا والمغرب[34]"، وهو ما أكدته نفس المذكرة الموقعة من قبل رينيو[35] والتي أعلن فيها صراحة، عن أن هذه القضية المرفوعة من جانب المغرب لا يمكن حلها إلا بين المغرب وإسبانيا، على اعتبار أن القضية تهم أمن واستقرار منطقة تدخل ضمن منطقة النفوذ الإسباني[36].

أمام اعتراض المفوضية الإسبانية على هذه المذكرة الاحتجاجية، ومطالبة وزيرها بطنجة، الوزير الكَباص بضرورة سحبها[37]، وأمام تسلل الهيئة الدبلوماسية بطنجة من التوسط في النزاع المغربي الإسباني، اضطر السلطان، في ظل هذه الأوضاع، إلى بذل مزيد من جهوده الدبلوماسية بإخبار القنصل الإسباني يوم 9 غشت 1909. بإرساله بعثة مهمة إلى الريف.

4 ـ البعثة المخزنية إلى الريف

ياتي إرسال هذه البعثة في خضم النزاع المغربي الإسباني، حتى يبرهن المخزن عن مساعيه الحميدة، ونيته الصادقة في فصل هذا النزاع بالطرق السلمية، ومخافة من استمرار الانعكاسات الخطيرة التي ترتبت عن التدخل الإسباني بالريف، أبلغ السلطان الإسبان بالإجراءات الجديدة التي اتخذها، ومنها أنه وجه في الحين..." مكاتيب لجميع أعيان الريف، تحضهم على ملازمة السكون والهدنة، والوقوف عند الأوامر الصادرة لهم بذلك، مع رقاص خاص، بعد أن أعلم بها نائب أشغال الصبنيول هنا، ورجال السفارة السعيدة بمدريد، الذين أعلموا بها رجال الدولة الإصبنيولية المحترمة .وبإثر ذالك، وردت أيضا من الحضرة الشريفة مكاتيب عديدة لكل قبيلة من قبائل الريف، على حدتها، مع كتاب لكافة القبائل يأمرهم ... فيها بأن يلازموا السكينة

ولا يحركوا مع الجار أدنى ما يشوش، ريثما يرد عليهم الوفد الشريف في الأثر، حاملا لهم الأوامر الشريفة شفاهيا بما يكون عليه عملهم، من حسن المصارفة وجميل المعاملة المتعينة بين الجوار...[38]".

كما حاول الجانب السخزني، من جهته، طمأنة الريفيين، على لسان القواد العاملين بالمنطقة، بالمساعي التي ينهجها حتى يفك مشكلة الاحتلال الإسباني للمنطقة بالوسائل السلمية، ومنها هذه الرسالة التي وجهها السلطان إلى القائد علال بن كروم القلعي :"... فنحن جادّون، بحول الله، في انجلائه عن بلادكم وخروجه منها لما هو مؤسس من القواعد المحكمة والشروط المؤسسة التي لا ينبغي لعاقل أن يتجاوزها، وقد وجهنا من حضرتنا الشريفة السفراء لمدريد لمباشرة الأمر في ذلك حتى يصفو، إن شاء الله، على وفق السراد .فلا تُحركوا ساكنا في ضرب أو نحوه، وقُم على ساق الجد في كف كل من يتشوف لذلك، فإنا، إن شاء الله، آخذون في مباشرة أمركم...[39] ".

وكان قد خطر على بال المخزن توجيه وفد مؤلف من عدد عسكري بقصد تسكين تلك النواحي، بيد أنه ظهر للسلطان عبد الحفيظ "...أن الأنفع والأفيد هو تقديم توجيه رؤساء الوفد المعين كل واحد منهم عاملا على عدة قبائل من القبائل الريفية، ليؤلف كل واحد منهم قلوب إيالته، ويحملها على لزوم السكون والحياد من غير أن يوجه معهم قوة فعالة، رعيا للظروف الحالية. وأمر، (السلطان ...)أن يتوجهوا أولا لطنجة، وأن تقع المخابرة بين دار النيابة السعيدة، وبين نائب أشغال الصبنيول، وبين أعضاء السفارة السعيدة بمدريد، وبين رجال الدولة الإصبنيولية المحترمة، في كيفية توجه الرؤساء المذكورين، بحرا أو برا، وما يقع عليه التوافق يكون عليه العمل...

وهذا كله فعله جانب المخزن الشريف سعيا في تأكيد تحسين علائق الوداد والمحبة والمجاملة بينه وبين الدولة الإصبنيولية المحترمة المطلوبة بين الجوار، وحرصا على بقاء ميدان المصارفة سالما، ورغبة في المحافظة على حقوق الشروط والعهود والأوفاق التي اخرها فصول المؤتمر المنعقد بالجزيرة، من بلاد الدولة الإصبنيولية المحترمة[40]...

كما يستخلص من الوثيقة المبينة أسفله أن هذا الوفد ضم مندوبين مخزنيين رفيعي المستوى على رأسهم :القواد الحاج محمد المرابط النجاري، علي بن رجكَون الدليمي الشرادي، وعبد السلام الوديي، الذين كلفهم السلطان بحل النزاع القائم بين الريفيين والسلطات الإسبانية بمليلية[41]. وقد وصلت هذه البعثة إلى طنجة بتاريخ 18 غشت 1909، وظلت بها إلى غاية 21 أكتوبر حيث واصلت منها المسير إلى الريف، بمساعدة لوجيستية من إسبانيا[42]، التي نقلت البعثة على متن الزورق الحربي ألبارو باثان (Alvaro Bazan)، أين وصلت بصعوبة إلى مليلية صبيحة يوم 25 أكتوبر، بعد موت عبد السلام لودبي غرقا. وقد استقبل القائد البشير بن سناح، عامل الريف، المندوبين الباقين، الذين زفوا له بشرى تسمية المخزن له رئيسا للبعثة الشريفة للريف، وكبيرها[43].

خديمنا الأرضى، كبير الوفد الريفي، القائد البشير بن السناح ... وصل كتابك مُعلما بخروج الجنرال الصبنيولي يوم عشرة الفارط من محل نزوله مسافة نحو ثلث ساعة، ولم يلاقه أحد من الريافة، فرجع لمركزه، ثم بعده بيوم ذهب إلى سيدي وارياش(كذا)، وعاد كذلك .وأنك وجهت الوصيف القائد محمد المرابط لمحل ولايته، وأكدت عليه في النزول ببني سعيد، كما وجهت

الخديم ابن رجكَون لمحل ولايته، لينزل بتافرسيكت، وبأنك تركت خليفة عبد السلام الأوديّ المتوفى، حتى نأمر بنظرنا الشريف في ولايته مكان المتوفى أو عدمها .وأعلمت بكون الجنرال صرح لك بأن لا كلام لغيره في كَلعية، وبينت أنه إن سوعد على ذلك، يقع التشوف إلى ناحية أخرى، وصار بالبال... وأما الخليفة عبد السلام، المتوفى، فقد تقدمت لك ظهائر ولايتنا الشريفة إليه مكان عمّه، المذكور، لما وصفته به من الأهلية لذلك، كما أشرت به، وقرر الخديم الجباص في شأنه مثله. وأما محاولة الجنرال التعرض لكم على الكلام مع كبدانة، فقد أمرنا بمباشرة ذلك في محل الكلام بطنجة، وعلى يد سفارتنا السعيدة بمدريد..."[44].

لقد سعى المخزن من خلال هذا التحرك الدبلوماسي إلى إظهار مساعيه الحميدة لنشر الهدوء والسكينة، واتخاذ ذلك حجة لصالحه لمطالبة الإسبان بالتعجيل بالجلاء عن الأراضي المغربية المحتلة. وهو الملتمس الذي رفعه السفير أحمد بن المواز إلى الوزير الإسباني..." وخاطبناه بما اقتضته الأوامر الشريفة في شأن الوفد الموجه للريف على طنجة، وفي شأن تقهقر جنودهم لداخل حدادتهم ليتأتى العمل السياسي، بينما ينظر مولانا... في تأليف القوة الكافية الفعلية التي تتوجه للريف..."[45].

بيد أن إسبانيا المدعمة باستراتيجياتها الدبلوماسية لم تحرص فقط على الاتصال بالقوى الاستعمارية الأخرى، لشرح موقفها أمام أنظارها، بل رأت من الواجب التذكير بأن الهجمات الريفية ضد الإسبان لا يمكن أن تمر دون عقاب، وقد أكد الوزير الإسباني، في هذا الصدد، أن إسبانيا ..." راغبة في تأكيد المحبة بين الجانبين، وفي جميع التسهيلات العملية"، وأنها على بصيرة من الطلب الملح للمخزن بضرورة تقهقر الجنود، "غير أن توقع التمادي

من أهل الريف، وزيادتهم الهجوم على بادس والنكور، يقتضي التأني حتى يؤمن حالهم المستوجب لتربيتهم. وصرح بأن دولتهم ليس لها مقصود في شيء من أرض الريف، وإنما مقصودها حسم مادة الضرر باسم المخزن الشريف...[46]".

وعلى الرغم من إبداء إسبانيا ابتهاجها من بعث الوفد المخزني إلى الريف، واعترافها بأهمية هذه التحركات لفك الخلافات القائمة بين الطرفين، إلا أن ذلك لم يثنها عن عزمها مطالبة المخزن بتوضيحات رسمية عن أهداف البعثة الشريفة ونواياها الحقيقية، وضرورة الاتفاق على مختلف النقط العالقة بين الطرفين[47].

لقد استهدفت البعثة الريفية التركيز على حل مسألتين :

* نشر الأمن والسكينة في الريف عبر الوسائل الدبلوماسية، وكذا من خلال إشراك أعيان القبائل في بث الهدوء .وهو ما تؤكده الرسالة الجوابية المبعوثة من الوزير محمد الكَباص إلى البشير بن السناح، والتي مما جاء فيها..." :وصل كتابك معلما... بأنك وجهت المرابط لبني سعيد وقراءة الظهير الشريف على القبائل ...كما وجهت ابن رجكَون لتفرسكت، وعلمنا ما شرحته وصار بالبال...[48]".

ونصت رسالة أخرى حول نفس الموضوع، على وصول كتاب البشير بن السناح، الذي أبلغ فيه السلطان بملاقاته "خارج مليلية بنحو ساعتين بأعيان قلعية ووجوه غيرها من أولائك القبائل، وتلاوتكم عليهم مكاتبنا الشريفة بولايتك وولاية بقية الوفد، كل على من عين له، وإجابة جميعهم إجابة السمع والطاعة والامتثال، وإظهارهم الفرح والمسرة بذلك، والتزامهم الثبات على

جادة الهدنة والسكينة ...ونأمرك أن تأخذ في تأليف أفكارهم بأخذ السياسة النافعة في إقبالهم على تعاطي أسباب معايشهم، والإعراض عما سواها..."[49].

* تهيئة منطقة الريف لاستقبال القوات المخزنية اللازمة والقادرة على مساعدة الوفد الدبلوماسي في مهمته بالريف.

بيد أنه رغم هذه المساعي والجهود المخزنية، ظلت إسبانيا متمادية في احتلالها للأراضي الريفية، مرتكزة في ذلك على أسين اثنين:

- أولهما ، اعتبار هذا الاحتلال ردة فعل على الضغوط التي تمارسها قبائل قلعية على إسبانيا ، لاسيما بعد انضمام كل القبائل الريفية الأخرى إليها.

- ثانيهما ، إن مجيئ البعثة الشريفة إلى الريف لا يشكل ضمانة حقيقية لاستتباب الأمن بالمنطقة[50].

بل أكثر من ذلك، شككت السلطات الإسبانية، من جهتها ، في الوفود التي بعثها السلطان إلى الريف، وخاصة منها المهمات السرية التي كلف بها السلطان عبد الحفيظ، شفويا ، القائد محمد أزماني المدعو الفْرايَل، حتى أن الوزير الكَباص، لم يكن على علم بها[51].

5 ـ السفارات المغربية إلى مدريد

5-1 السفارة المغربية الأولى :سفارة أحمد بن عبد الواحد ابن المواز[52].

سافرت هذه البعثة من المغرب في 18 جمادى الثانية 1327 ، الموافق لـ 6 يوليوز 1909، ووصلت إلى مدريد يوم 20 جمادى الثانية 8 / يوليوز، لتبدأ المفاوضات يوم 21 جمادى الثانية 9 /يوليوز باستقبالها من طرف وزير

الخارجية الإسباني أياندیسالاثار (Allendesalazar)، ويوم 22/10 يوليوز، من قبل الملك ألفونصوققفت، لتبدأ محادثات الجلسة الأولى يوم 23 جمادى 12 / 1327 يوليوز 1909.

وكما يستنتج من التواريخ، فإن هذه السفارة ابتدأت أشغالها في اليوم الذي اندلعت فيه الحرب في الريف بين الإسبان وقبائل قلعية.

ضمت هذه السفارة، التي أقامت في مدريد بين 9 يوليوز 1909 إلى بداية أكتوبر1910، كلا من السفير أحمد بن المواز، ومستشاريه، محمد زنيبر وبناصر غنام، والكاتب محمد الكردودي، وأمين الصائر، محمد بن جلون[53]. وقد استقبل الملك ألفونسو ققفت هذه السفارة، التي أعربت له عن الرغبة الصادقة للسلطان عبد الحفيظ على توطيد العلاقات مع إسبانيا[54].

والواضح أن هذه السفارة قد بعثت في ظروف غير عادية، لعل أهمها عدم الاستقرار السياسي إن في بلاد المغرب أو في إسبانيا .ثانيا :أنها تزامنت مع اندلاع الحرب المغربية الإسبانية لـ 9 يوليوز1909 ، حيث ذهبت هذه البعثة لحل مشاكل سابقة كانت عالقة بين الطرفين، فإذا بها تواجه مشاكل إضافية متمثلة في نتائج الحرب المغربية الإسبانية، لاسيما بسبب "الأسبوع التراجيدي" والاضطرابات الاجتماعية التي أدت إلى تساقط الحكومات. لذلك فقد كثر عدد وزراء الخارجية الذين تفاوض معهم السفير ابن المواز، وهم على التوالي: الوزير مانويل أييندیسالاثار (Manual Allendesalazar)، وخوان بيريث كابايیرو (Juan Perez Caballero)، وگارثيا بريیطو (Garcia Prieto).

1-1-5 ـ مفاوضات ابن المواز مع مانويل أييندیسالاثار من *12* يوليوز إلى *6* أكتوبر *1909*

تركزت هذه المفاوضات حول دراسة المشاكل العالقة بين الطرفين منذ انتهاء السفارة الإسبانية التي قادها الوزير /السفير ميري دِلْ بَالْ إلى فاس.

وقد استمرت هذه المفاوضات على طول ست جلسات، وتركزت حول ثلاث نقاط، هي:

- جلاء القوات الإسبانية عن المناطق المحتلة بالريف.
- "تطاول" الريفيين على العمال الإسبان في هجوم 9 يوليوز 1909.
- إرسال البعثة المخزنية المكلفة بضمان الأمن بالريف.

وهذه النقطة الأخيرة الخاصة بالأمن، هي التي تعلقت بها إسبانيا بغية ضمان استمرار احتلالها للريف، لمعرفتها المسبقة بعجز المخزن عن تحقيقها، على اعتبار أن هذا المطلب نادت به إسبانيا منذ حرب مليلية لسنة 1893.

ومن جهة المفاوض المغربي، كانت هذه النقطة هي التي تعكر صفو العلاقات، وتحول دون إقرار الأمن بالريف، على اعتبار أن الاحتلال مناقض للأمن، وهو ما أمكننا قراءته من خلال هذا النص : "لا يمكن للوفد (المخزني) تيسير المباشرة ومساعدة أهل البلد له، إلا إذا حصل الانجلاء، وأما مادام الاحتلال فإنهم يبقون متشوشون ومحتجون .فكيف أنهم مهجوما عليهم ببلدهم وأرضهم محتلة وهم ينكفون عن المدافعة عنها".

ثم أضاف قائلا : "وبالجملة فإنه لا يتأتى مباشرة الوفد لعمله ولا لغيره ما دام البارود والاحتلال، ولا تمكن المباشرة إلا مع الهدنة والانجلاء...[55]".

في المقابل، ظلت إسبانيا متمسكة بأن إقرار الأمن بالريف هو الحد الأدنى للجلاء عن الريف .وقد توقفت المفاوضات عند هذا الحد، بسبب التغيير الذي طرأ على وزارة الخارجية الإسبانية .

5-1-2 مفاوضات ابن المواز مع خوان بيريث كاباييرو من 5 نونبر إلى 31 يناير 1910

واصل المفاوض المغربي مفاوضاته مع وزير الخارجية الإسباني الجديد كاباييرو. وقد دارت المباحثات حول عدة نقاط، منها :مسألة التعويضات؛ وبناء الطريق الرابطة بين سبتة وتطوان؛ وضمان الأمن في الثغور المحتلة؛ واحتجاجات القائد البشير بن سناح ضد سياسة الجنرال مارينا.

تناولت هذه المباحثات، حسب عبد العزيز التمسماني، قضايا هامشية تعمدت إسبانيا إقحامها في جدول الأعمال، أولا تمريرها لإثقال المغرب بالمطالب، وثانيا، طرحها لتكريس الاحتلال الإسباني بالمنطقة الريفية لكسب مزيد من الوقت[56].

وخلال الجلسة التاسعة من هذه المفاوضات، أدرجت قضية القائد ابن السناح الذي استشاط غضبا من الجنرال مارينا، أولا :بسبب عقده اجتماعات منفردة مع أعيان الريف دون إشراكه فيها، كما يمكن استنتاج ذلك من المذكرة التي رفعها في شأنه السفير المغربي ابن المواز، "... إن الحضرة الشريفة قد جردت أوامرها بان تطلب من جناب حكومتكم المحترمة، إصدار أوامرها للجنرال مرينه بالانكفاف عن منع قبائل الإيالة الشريفة الريفية من المصارفة مع عمالها، لأن أعيان الريف يكتبون للحضرة الشريفة بان الجلنار (كذا)، المذكور، يمنعهم من ذالك مع استبداد بتجنيد العسكر من الإيالة الشريفة بالريف على غير ضابط...[57]".

وثانيا، بسبب زيادة إسبانيا ما قدره كيلومترا في الاحتلال.

لم يجد الوزير الإسباني من رد على هذين السؤالين إلا قوله إن الريفيين هم الذين أرادوا اللقاء بمارينا لوحده، وأن الزيادة في الاحتلال قد اقتضته المصلحة[58].

وفي رسالة أخرى، أمكننا استخلاص الأفكار التالية، حول التدخل السافر للجنرال مارينا في شؤون الريف : "...أما الجنرال مرينة إذا باشر، بعض المباشرة، مع القبائل من غير حضور القائد البشير بن سناح، فوزير الخارجية يذكر لجناب السفير، أنه لم يقع في ذلك مخالفة عن اتفاق مجعول. ثم حيث القائد المذكور لا زال لم يشرع في عمله على وجه رسمي، وغير خاف أن عسله يكون بعد الوفاء والإنجاز على ما اتفقنا ... وثانيا حيث تسكين الحال في القبائل مجعول على يد الجنود الصبنيولية لا غير، نيابة عن عدم وجود الأحكام الشريفة، فلا غرابة، بل لا بد منه، أن القبائل يباشرون الصلح مع جناب الجنرال مرينة، ويقدمون له طاعتهم من دون واسطة الغير...[59]".

وقد نشطت تحركات القائد البشير بن سناح، خلال هذه المرحلة، التي تميزت بالتأزم بينه وبين الإسبان، قبل أن يرتمي، بعد ذلك، في أحضانهم .ويمكن استنباط أهم هذه التحركات، من خلال الوثائق التي تهمه، والقابعة بمديرية الوثائق الملكية.

تقول الوثيقة الأولى التي بعثها ابن المواز إلى النائب السلطاني بطنجة "...الفقيه السيد محمد الجباص، وبعد، فقد وجّهنا لك قبل خريطة الريف مبينا فيها مواضع وصول العسكر. ولما قيل لنا أن صورتها سابقا (كذا)قبل احتلال سلوان، بحثنا عن خريطة متؤخرة (كذا)، فعثرنا على هذه الخريطة التي تصلك صحبته، لاكن لم نَرَ فيها مراكز العسكر، وقيل لنا إن المراكز لا زالت لم ترسم، لأن التبدل والتغير لازال يقع فيها.

نعم حيث إن سيادتك على بال من المواضع التي بها العسكر، حسبما أخبرك به القائد البشير بن السناح، فرقم المراكز بالخريطة سهل، وإن ظهرت خريطة أخرى مرسوم فيها تصوير المراكز المتوخرة (كذا) نعجل لك بتوجيهها.

وقد بلغنا قدوم وزير الخارجية غدا، وعند ملاقاتنا به وإعلامه بتنفيذ صائر المحلة بطنجة، كما أجابتنا به الحضرة الشريفة، وتجديد الكلام معه بطلب تقهقر جنودهم، وفاء بتصريحاتهم التي عندنا، التي هي أن المخزن الشريف متى ظهرت منه الوسائل، وترتبت الولاة في أماكنهم، ووقع الشروع في انتخاب المدد السخزني، وفي عمل التحريب المؤقت يقع الانجلاء تدريجيا، كما علمته مما سبق، وما تقرر به الكلام معه نُعلمك..."[60].

أما الوثيقة الثانية المرفوعة من السلطان إلى البشير بن السناح، فتقول:

"... خديمنا الأرضى القائد البشير ابن السناح، وكافة وفد المخزن المتقدم للريف، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله، وبعد : فقد أخبر الخديم النائب الطالب محمد الجباص بما كتبتم له به من مشافهة كبير احتلال الصبنيول لكم، بتجدد الإذن إليه من دولته بزيادة الجند بتراب قلعية مسافة ألفي متر، وهي مقدار ثلث ساعة، بعد وقوع الاتفاق من الجانبين على التعهد بالهدنة فاستمهلتموه إلى إعلام حضرتنا الشريفة بذلك، وقال إنه منفذ ذلك عاجلا من غير إمهال .كما أخبر أنه بنفس ورود كتابكم عليه بذلك استفهم عند الباشدور بطنجة، ونفى أن يكون لديه علم بزيادة على ما رسمته الدولة في خريطة الاحتلال، وإن كانت زيادة وقعت، فإنما هي لأجل تجدد الهجوم الواقع من بعض الريافة أخيرا، ثم صرح له بأن الزيادة على ما في تلك الخريطة لا تكون، ولو حدث هجوم آخر.

وقد أجيب بأن مثل هذه المظاهر، بعد عقد الاتفاق على لزوم حد السكينة، وإلقاء السلاح من الريافة والجنود، لتبقى الحال في هدنة وراحة تامة، (و) ليقع الشروع في الأعمال المستكملة لمهمات التسكين، هو مما يزيد العامة نفورا واضطرابا، في الاتفاق المتعهد به إثر ملاقاتكم بأعيان القبائل .

وأمرناه بأن يقرر هذا القدر تقريرا بسيطا للباشدور بطنجة، ويؤكد عليه في الجريان على مقتضى تصريحات الدولة بعدم الزيادة في الاحتلال على ما حلت به الجنود، لتبقى الثقة بالإنفاق المذكور في محلها التفاتا تاما، لما ينتج من نتائج المباشرة الرائجة ما بين المخزن والدولة، وأعلمناكم لتكونوا على بال، ونأمركم أن تزيدوا على أيديكم في التسكين، وإرداف التأكيدات للقبائل بملازمة حد الهدنة وإلقاء السلاح، وترك التشوف لمد اليد في شيء من شؤون الاحتلال، وتوصوا كبراء القبائل وأعيانهم على السعي كل السعي في الكون على بال من ذلك، وتعرفوهم بما للمخزن ... من إرادة الخير بهم، وجلب المصالح والمنافع إليهم التي تعود عليهم براحة البال، وتمتيعهم بالتَعَيُّش الهنيء في بلادهم، بناء على المباشرة الرائجة، القريبة الكمال، الحسنة النتيجة، بحول الله..."61

وتقول الوثيقة الثالثة:

"...ينتهي لكريم علم مولانا الشريف أن كبير العساكر اصبنيولية (كذا) بمليلية مرينة وجّه علينا، وأملا (كذا) علينا ما هو مقيد بالطرة والشروط لإتمام الهدنة بينه وبين قلعية، وطلب تعجيل الجواب، فأجبناه عن الأول، بأن المُطالَب بدم النَصَرى (كذا) المذكورين في هو الشادلي القلعي،

حيث كان هو الذي أمر بذلك تلك الساعة، وغيره إنما كان له ما صدر، والشادلي الآن بفاس بالحضرة الشريفة، وهناك يكون الكلام معه بما يقتضيه النظر الشريف .وأما المراهين فلا سبيل إلى أخذ أحد منهم، إلا بإذن شريف صريح. وأما ورود كَلعية عليه بالذبيحة على أعين الناس، فقد ساعدناه فيه، لما فيه من المصلحة الوقتية دون ضرر .وأمرنا لجماعة من قلعية بالورود وفق مطلبه، ولا زالوا للآن لم يقدموا، ونحن في انتظارهم .

وأما ألف من العدة، طلبنا منه (كلمة غير مقروءة)[62] حتى يسكن جأش الناس، ويرجع كل واحد لمحله، ويطالع العلم الشريف، فيكون خيرا إن شاء الله .

وأما ورود النصارى لأسواق البادية، فقد أذنا لهم يتسوقون الأسواق القريبة من محل نزول عسكرهم جدا، دون البعيدة عنهم، كالأحد من بني شيكر. وأما خدمة المعادن، فالأمر فيه متوقف على الأمر الشريف الخاص، ولا سبيل لما دون ذلك، بخلاف الطريق فإنهم جادّين (كذا) في الخدمة فيها...[63]".

بيان الشروط التي أملاها علينا كبير عسكر اصبنيول، مرينة، بمليلية لتمام الهدنة مع كَلعية والقبائل الريفية؛

أولها، يطلب الأناس الذين قتلوا النصارى عند ابتداء الأمر الذين انتصب لأجلهم القتال بين الفريقين.

الثاني، يطلب خمسة عشر مرهونا من كَلعية، فلانا فلانا من أعيانهم، أو عشرة فلا أقل، من كل ربع اثنين[64].

الثالث، يطلب يردون عليه جماعة من كَلعية، على أعين الناس، وبيدهم ذبيحة بقصد التوبة.

الرابع، يعطونه ألف من العدة التي أخذوا لموتاه تكون مائتين من نوع مُوسَر، والباقي غيره.

الخامس، يكونون (كذا) النصارى يتسوقون أسواق باديتهم، ولا يقربهم أحد بسوء.

السادس، لا يكلمون من هو في خدمة المعادن بسوء ولا يناله منهم مكروه[65].

والواضح من خلال هذه الوثيقة، أن إسبانيا لم تتحرر من قيودها السابقة في علاقتها مع المغرب، إذ تذكرنا هذه الشروط، بتلك التي فرضتها على المخزن خلال أزمة حرب تطوان 1859، والتي ركن إليها النائب السلطاني محمد الخطيب، ورفضها السلطان محمد الرابع .يبتدئ السيناريو الإسباني بطلب الجناة وتقديم الرهائن، (أنجرة = قلعية)، وينتهي بالإهانة، تحية العلم للجناة، في قضية أنجرة، أمام المفوضات الدبلوماسية بطنجة، مقابل إتيان قبيلة قلعية بالذبيحة على أعين الناس بمليلية، قصد التوبة.

أما الوثيقة الرابعة فقد نصت على:

... ننتهي لكريم علم مولانا الشريف أننا بعد حلوسنا بمليلية بالغنا المجهود في تفقد أحوال قبيلة قلعية، وما هي عليه وكيفية نزول عساكر اصبنيول، فوجدناها على الكيفية المقيدة طرته على التفصيل فيه، وهي الكيفية التي تركوها (كذا) عليها الوفد من قلعية الذين بالحضرة الشريفة

الشادلي، ومن في شاكله، من غير إحداث زيادة، إلا ما قدمنا به الإعلام، من المحل المعروف بالهيدون، وفوق دار الشادلي، بعدما كان بهما سابقا، كما أشير إلى ذلك طرته، وهذا هو سبب تأخير الإعلام حتى نعلم بالحقيقة والكيفية على ما هي عليه، وها حجرة من المعدنين المشار لهما يصل سيدي ملفوف فيَّ كلمة غير مقروءة ّداخله بقصد النظر إيَّه، وقد بقي بين قصبة سلوان وبين المعدن الذي اشتراه فرانصيص من بني بويفرور من قلعية نحو نصف ساعة، كما بقي بينه وبين سلوان، يعني المعدن الآخر، الذي اشترى اصبنيول منهم، نصف ساعة ونصف، والكل يصله كور مدفعهم، إلا أنهما لم يصلوا إليهما الآن.

ويعلم سيدي أن هذه النواحي محتاجة إلى إظهار المدد الشريف فيها، ليرتدع بظهورها واشٍ، وينزوي كل مرتاب بمن تعود إلى الروكَان، لأن واحد من قبائل الريف تشوف لبيع معدن بلده، بحيث إذا ظهرت لأحد فيهم حجرة تلمع، أتى بها للروم والكبانيات هنا يشتري، يحرضونهم على ذلك، حتى إذا لم يرتدعوا بها، حل بهم ما حل بالقبائل التي وراء ملوية من بيع بلادهم الأصلية للأجانب بالعدول..."[66].

بيان المراكز التي بها الآن عسكر اصبنيول وذلك ما هو خارج من الحدود القديمَ، وأما العسكر الذي داخل الحدود ومحيط مليلية، فليس في عدد ما سيذكر، وهذه الكيفية والتركيب هي التي تركوه عليها الوفد من قلعية الذي بالحضرة الشريفة، لمحمدٍ والشادلي، وإضرابهم إلى المحل المسمى بالهيدون، وفوق دار الشادلي، فإنه كان بهما قبل، فارتحل عنهما في بعض المعارك، ثم رجع إليهما، وهما الحسيمات التي قدمنا الإعلام أنه هَمّ بالزيادة إليهما، وذلك دون زيادة إلى ماكان وصل إليه قبل..."[67].

في المقابل، ومخافة من التوصل باحتجاجات مماثلة من قبل الإسبان حول القائد البشير بن السناح، أوصت إحدى الرسائل السلطانية الخديم ابن السناح بالالتزام بالمهام المنوطة به دون تجاوزها، كما تثبت ذلك الرسالة التالية ..." :وأما الخديم ابن السناح فإننا لم نجعل له شيئا من الأمر زائدا على الولاية يقتضي له الدخول في مفاوضة أجنبية لا بقبول ولا بمصارفة، وقد جددنا له أمرنا الشريف بترك التداخل فيما ليس من أشغال وظيفته، بل حسبه حفظ السكون والمحافظة على استدامة الراحة..."[68].

وبالعودة إلى الجلسات التفاوضية مع الإسبان، وخلال الجلسة العاشرة، عاد الوزير الإسباني لرفع مطالب جديدة /قديمة، همت مسألة سانتاكروز "التي طال صبرهم عن إنجاز تنفيذها"، ومسألة تعويضات الدار البيضاء، ومسألة ضحايا" خَدَمة المعدن بالريف[69]."

3-1-5 مفاوضات ابن المواز مع كَارثيا بريبطو من 2 أبريل إلى 4 شتنبر 1910

استؤنفت المفاوضات المغربية الإسبانية من جديد مع الوزير كَارثيا بريبطو، ودارت المناقشات فيها حول المطالب الإسبانية التي طالبت بها خلال المباحثات مع الوزير كابايرو، وقد عمل المفاوض المغربي على إرضاء بعض تلك الرغبات كما يثبت ذلك هذا التقييد" :منها مطلب الضوء والطيلفون (كذا)، فقد باشرنا الكلام مع المخزن حتى تأكدت الأوامر للأمين محمد المقري بالتعجيل بمباشرة ذالك، وانتهى الكلام في هذه المسألة. ومنها إصلاح طريق أنجرة، فقد باشرنا تجديد الكلام فيه مع المخزن الشريف حتى صدرت أوامره الشريفة للنائب السيد محمد الجباص بطنجة بتوجيه

المهندسين ...ومنها مسألة تحديد بقعة سانطكروز، فقد وقعت للمراجعة على إمهال هذه المسألة ريثما يكون الجناب الشريف بالحوز، وانتهى الكلام فيها ...ومنها مسألة ما يتعلق بالصائر على المسلمين واليهود الملتجئين لمليلية في زمن الثورة..."[70].

توقفت المفاوضات مؤقتا، سافر خلالها السفير ابن المواز إلى العاصمة فاس للتشاور، وبعد عودته إلى مدريد، بتاريخ 22 شعبان 1328 ، عقدت آخر جلسة، وهي الرابعة عشر، غير أن المفاوض الإسباني أبدى غضبه عن عدم موافقة السلطان على العديد من الأمور .حينها رفع الإسبان مذكرة وفق جديدة، وجهت إلى السلطان بتاريخ 9 رمضان عام 1328.

يرجع، في حقيقة الأمر، سفر الوزير ابن المواز إلى العاصمة فاس إلى حمله مشروع الوفق الذي خطته إسبانيا، وحاولت تضمينه مجموعة من النقاط المتعذر تنفيذها من قبل المخزن، والتي رفضها، هذا الأخير، جملة وتفصيلا، كما جاء ذلك في جواب ابن المواز في الجلسة الرابعة عشر، والذي تعكسه خاتمة الرسالة السلطانية إلى الوفد المغربي بمدريد ..." :وكتب بما تصلكم نسخة منه متصلة بنظير من ذالك التحرير، المشتمل على أمور خوارق ماسة كل الإمساس(كذا)بشرف المخزن ونور سمعته، ونأمركم أن تتنزلوا لإعطاء المسألة حقها من النظر..."[71].

وفيما يلي الخطوط العريضة التي تضمنها مشروع الوفق الأول : "...الحمد لله، المحب العاقل الفقيه الأجل وزير الحضرة الشريفة المحترم عيسى بن عمر، بعد مزيد السؤال عنكم محبة أن تكونوا بخير وعافية على الدوام، فجناب المحترم الفقيه السيد أحمد بن المواز سفير جانب الحضرة

الشريفة، في دولتنا يدفع لرفيع جنابكم مشروع الوفق الذي يحسم به مادة المشاكل الحادثة في النواحي المجاورة للحصون الصبنيولية .فهذه الحوادث الجالبة للأسف، وكثير الضرر، لا يقع من دون انقطاع لدولة إصبانيا مدة الفتنة المديدة وعدم الإنجاز من جانب المخزن الشريف بالشروط المنبرمة بين الجانبين بعد طلب جانب حكومة إصبانيا إنجازهم غير ما مرة، وعدم وجود ولاة المخزن عمّ، فلأجل ذلك كله حدثت حالة الفوضى بالريف، كما لا يخفاكم، والحصون الصبنيولية بسبب مجاورتهم، ألحقتهم عواقب الفوضى، وحصل لهم الضرر الكثير في شؤونهم. فتلك الحالة التي لا يمكن بقاؤها تلتفت (كذا) حكومة دولة إصبانيا نظر المخزن الشريف مرارا عديدة، وخصوصا حيث التجأت المحلة السعيدة التي كانت بمرشيكة، وهي تنوب نيابة يسيرة على نفوذ المخزن الشريف في ذالك الصغير. فحاصله، جانب حكومة إصبانيا رأت نفسها بالالتزام في استعمال القوة لرد التعديات والهجوم المتوحشة الصادرة من الريافة، وتربيتهم، حيث لم تلزمهم عقوبة من استعمال الجنود الصبنيولية أنتجت الحمد لله الهدنة المادية في البلد، فجانب الحكومة الصبنيولية مؤسسا في الأصول السياسية الابتدائية، وطبق المصالح والشؤون الشريفة لا بد أن تكون بيدها الضمانات بأن لا تقع إعادة الحوادث الجالبة للأسف المذكورة (كذا)، لا في مليلية ولا في غيرها من نواحي الريف، ومطلقا في النواحي المجاورة.

وقد جعلت إصبانيا في مشروع الوفق المذكور الضمانات والاحتياطات المتفقة مع رغبتها في الهدنة واستقامة الأحوال .فجانب السفير السيد أحمد بن المواز قد تبين منه اهتمامه وميالته غاية في المصالح الشريفة طول مدة المباشرة الصعيبة (كذا)، ومن عقله الأرجح ونيته الحسنة تسوغ لجانب

حكومة إصبانيا أنه مشافهة (كذا)، ومن المعرفة التي له في هذه الأمور المهمة يشرح لكم زيادة البيان فيهم، ويثبت لكم ما لدولة إصبانيا من حسن الميال ورغبتها المعدة لفصال هذه القضايا، التي لا زالت بدون فصال، فلأجل ذالك، أمرنا بما قيل إنه عازم على السفر بهذا المقصود، فجانب الحضرة الشريفة من عقلها القامن، وسياستها العلمية ترى بمثل ما يرى جنابكم الرفيع اعتدالنا ومبالَتُنا الرشيدة، وتقبل الوفق المصحوب مع السفير، وتتفضل بإصدار أمرها الشريف لإمضائه بمدريد مع وزير الخارجية لدولة إصبانيا..."[72].

لكن وضدا على مسار المحادثات، قامت إسبانيا، من خلال تقديم مشروع هذا الوفق إلى تنشيط خططها وخدعها، فبعد أن كان المخزن هو الذي يشتكي من استبطاء الإسبان في المفاوضات، كما يستشف ذلك من الوثيقة أسفله، حتى يطّلع الإسبان على نتيجة حرب مليلية 1909 التي كانوا يعتقدونها سهلة سريعة وفي متناولهم، بتحطيم المقومات العسكرية للحركات الريفية، ..." يعلم جناب الوزير المحترم السنيور بلير كبلير أنه لا يخفى عن مقام الحكومة الإصبنيولية الفخيمة المحبة أن المدة طالت علينا في أحوال المخابرة في شأن القضايا المتعلقة بالريف، وتكررت المراجعات من جناب الحضرة الشريفة ومن جنابكم المحترم، وغاية ما نحن منتظرون له هو بيان ما تخص به المخابرة الحبية نهائيا..."[73].

وفي الوقت الذي كان المخزن يشتكي فيه من استبطاء الإسبان، وجدنا هذه المرة، الإسبان هم الذين يشتكون من هذا الاستبطاء، كما وقع الحال حين توديع وزير الخارجية الإسباني غارثيا برييطو للسفير ابن المواز، حيث حضه

على ضرورة التعجيل في حل المشاكل العالقة بين الطرفين، والتوقيع على الوفق، بدعوى أن إسبانيا مراقبة في ذلك من قبل الدول الأوربية ...".أعلمنا وزير خارجية إصبانيا بالحضور على وداعه مع الفقيه السيد أحمد بن المواز المصحوب بالوفق لشريف الحضرة، ولما تلاقيا به أظهر أن دولتهم لا زالت على حسن النوايا وتأكيد المحبة (...) ويرغبون في التفات النظر الشريف للتعجيل بحل المسألة وإزالة المشاكل لكون مملكة إسبانيا (كذا) كلها مراقبة لأعمال حكومتهم في الأمور التي بين الجانبين، وهذه مدة طويلة وهي تتمشى على مهل وإبطاء..."[74].

غير أنه نظرا للهجة الصارمة لإسبانيا في المحادثات، فإن السفارة المغربية واجهت فشلا ذريعا، على حد تعبير العروي، بسبب النوايا الإسبانية التي أضمرتها لإرغام السلطان على تأدية تعويضات حربية عدوانية [75].كانت إسبانيا تعتقد أن المغرب لن يكون قادرا على تأديتها مما يسهل عليها فرض حماية حقيقية وسابقة لوقتها على الريف[76].

5-2- السفارة المغربية الثانية :سفارة محمد بن عبد السلام المقري

لما فشلت المفاوضات التي قادها ابن المواز، اقتضى نظر السلطان عبد الحفيظ إشخاص الوزير محمد بن عبد السلام المقري لمدريد، لإتمام الأشغال التي شرعها ابن المواز، لذلك أوصى السلطان ابن المواز بتمكين المقري" من جميع ما عندكم من تقاييد أشغال السفارة السعيدة، ومحاضر سائر أعمالها، وما كنتم تروجونه في المخابرات وتُجْرونه في مجالس المذاكرات ليكون على بصيرة من ذلك كله[77]"...

وفيما يلي نص الخطاب الذي ألقاه الوزير المقري أمام العاهل الإسباني ألفونسو...: "XIII لقد شرفني دام علاه بالوفادة لعاصمة مملكتكم الفخيمة والمثول لدى بساط جلالتكم المنيفة، وذلك لإتمام المخابرة التي دارت بين سفارته السعيدة وبين جناب حكومتكم المحترمة... اعتمادا على التسهيلات التي سنجدها في رجال دولتكم المحبة[78]".

توجهت هذه السفارة إلى العاصمة مدريد بقصد حل سائر المسائل العالقة بين الدولتين، حلا يرضي الجانبين، وقد تكونت هذه البعثة من محمد المقري، وابنه الطيب، والمندوب المخزني لبنك المغرب، وادريس البوكيلي، كاتب الدولة في الشؤون الخارجية، ثم علي زكي باي، مكلف بمهمة [79].وقد أبلغ السلطان عبد الحفيظ الملك ألفونسو XII من خلال الرسالة التي بعثها إليه، أن الغرض من بعث السفارة المغربية الثانية هو" إنجاز فصل القضايا، نظرا لما حصل فيها من طول المدة، واعتبارا بما له من الرغبة التامة في دوام المجاملة وحسن المصارفة مع الدولة الإصبنيولية المحبة، حتى ترجع سفارته السعيدة مسرورة ظافرة بالحصول على سائر الرغائب..."[80].

ولأهمية هذه السفارة وتأثيرها البالغ في العلاقات المغربية الإسبانية أوردنا هنا ملخصات لكل جلساتها الست والعشرين.

ملخص الجلسة الأولى :همت المناقشات صوائر الملتحقين بمليلية من رعايا المخزن والصوائر الحربية بالدار البيضاء.

ملخص الجلسة الثانية :همت مبلغ صائر الملتحقين مع الصوائر الحربية في حادثة الدار البيضاء، والذي أوقفته المفاوضات في أربعة ملايين من

البسيطة، ومدة خمس عشر سنة من الأداء .كما همت مسألة المعادن، حيث طالب الإسبان بنسبة 50 في المائة من المداخيل، ثم استطرد الوزير الإسباني الكلام على" قتلة الإصبنيول بمعادن الريف"، فأجيب الوزير أنه اعتبارا لكون هذه الحادثة هي أساس مسألة الريف فمن المتعين تأخير النظر فيها حتى يقع الشروع في المسألة الريفية[81].

ملخص الجلسة الثالثة :لم يخرج مضمون المناقشات فيها عن دائرة البحث فيما يوثق للإسبان في القدر الذي طلبوه سابقا، وهو 400.000 بسيطة على وجه التعويض عن ضحايا المعادن، و 4 ملايين بسيطة أخرى كتعويض عن أحداث الدار البيضاء.

ملخص الجلسة الرابعة :تم فيها إحضار مشروع الوفق، بغية" تعديل سائر الفصول التي لم يحصل فيها توافق.

ملخص الجلسة الخامسة : طالب فيها الإسبان بأن يمتد تصرف المندوبين العالين المخزنيين حتى بادس والنكور وسبتة.

ملخص الجلسة السادسة والسابعة والثامنة : لم تخرج مذاكراتها عن دائرة الجدال كسابقاتها، غير أن أهم القرارت التي خرجت بها هذه الجلسات هو الموافقة على عدم التدخل في تعيين أو عزل المندوب العالي المخزني بحدود الريف، وعدم إدراج مسألة سبتة ضمن مفاوضات الريف، وتقليص عدد العسكر المخزني، المكلف بتعمير النقط الموجود بها عسكر الاحتلال، من 1600 إلى 1300 فقط.

ملخص الجلسة التاسعة :خصصت لدراسة كيفية استخراج رواتب القوة المخزنية، التي تنظم بحدود الريف، والتي حددت في مداخيل ديوانة المخزن

بمليلية، وزكوات وأعشار أسواق النقط المحتلة، والقبائل المجاورة لبادس والنكور.

ملخص الجلسة العاشرة :شرع فيها في المخابرة حول التعويضات الحربية بالريف، والعناصر التي ساهمت في قتل الإسبان، إلا أن المفوض المغربي أبدى معارضة قوية للصوائر الباهظة التي ادعت إسبانيا أنها أنفقتها على العسكر المخزني الملتجئ إلى مليلية، وقد أكد المقري عدم قدرة المغرب على تأدية هذه الصوائر، متذرعا بضعف ثرواته ومداخيله المالية[82].

ملخص الجلسة الحادية عشر :همت مناقشاتها قضيتي قائد الحدادة بسبتة وعامل الأنجرة.

ملخص الجلسة الثانية عشر :عادت المناقشات فيها إلى موضوع التعويضات الحربية بالريف، وبنفس التبريرات السالفة (ضعف ميزانية المخزن وكثرة الديون عليه) كانت ردود المفوض المغربي، مضيفا تبرؤه من كل مسؤولية عن التعويض الحربي على اعتبار أن "خروج أولائك العملة كان على وجه غير حقي"، لأن الرعية الشريفة عرفت "كل ذلك وجعلته نصب عينها في الاحتجاج على المخزن، إذا سمعت أنه يريد أي تعديل في هذا التعويض مع الدولة (الإسبانية)"، لذلك اقترح السفير تدخل الدولة الإنجليزية في القضية[83]، وما حكمت به في النازلة يكون عليه المعول."

غير أن المفوض الإسباني أبدى غضبا شديدا، ولهجة عنيفة، مدعيا أن التنازل عن مسألة التعويضات أمر مستحيل، ولا يجب أن يخطر ببال المخزن وأن إسبانيا لن تقبل البتة بتدخل دولة أجنبية في المفاوضات بين المغرب.

وإسبانيا، متذرعا بأن هذا لم يحصل خلال توقيع الأوفاق السابقة، مثل وفقي سنة 1901 و1902.

ورغم التبريرات التي قدمها محمد المقري بأن الزمن مختلف الآن، وأن السلفات التي حصل عليها المغرب لم يتبق منها شيء، إلا أن الوزير الإسباني رد بأنه لا يريد سماع هذا، وأن شرف الدولة الإسبانية" يتحاشى عن الرضى بتداخل الأجنبي في القضية"[84].

ملخص الجلسة الثالثة عشر :خصصت لدراسة مبلغ الغرامة الحربية، والتي همت صوائر احتلال كبدانة والبحر الصغير، وصوائر تعزيز القوات الإسبانية بضواحي مليلية، وكذا مجموع صوائر الحرب، وصوائر الأشغال العمومية التي بيانها كالتالي :

منار رأس ورك، 23.625.
صوائره 02.500.
فتح الترعة التي بين البحر الكبير والصغير 35,64.648.
الصائر عليها 65.000.
عمل الرسوم والصور لمرسى البحر الصغير 36.159.
الطرق في قلعية 80.074.
عمل الرسوم والصور 52.077.
الخدمة والمهندسون 23.000.

وقد احتج المخزن بشدة على هذه المبالغ، بدعوى أنه ليست له أية مصلحة في البحر الصغير حتى ينفق عليه كل هذه المبالغ.

ثم عادت المناقشة لموضوع التعويضات، والتي خوفا من طول المخابرة حولها، وتسهيلا على المخزن، تم تحديدها في ثمانين مليونا 80 مليونا[85]. وكان جواب المخزن واضحا بأنه" غير قادر على تحمل هذا العدد ولا تطيقه رعيته الشريفة[86]".

غير أن تفوق الدبلوماسية الإسبانية كان واضحا، ولم تصدق مثل هاته التبريرات حتى تسقط في شباك الوزير المقري، بل بالعكس، كان سهلا عليها أن تدحض هذه الادعاءات، وتعطي بديلا عنها، كما وقع مثلا في هذه النقطة، حينما ربطت مسألة التعويضات بمسألة التوثيق، أي "ما ينوب المخزن الشريف من أرباح المعادن"، وهذا على الرغم من أن السفير المغربي تذرع بأن هذا" الأمر لا زال مجهولا وضابطه إلى الآن لم يبرز للوجود ...حيث إن مدخول المعادن هو الثورة التي بقيت بالإيالة الشريفة[87]".

ملخص الجلسة الرابعة عشر :جددت فيها إسبانيا رفضها قبول الخمسة والعشرين مليونا، التي اقترحها المغرب، رغم تذرع السفير مجددا بكون "المالية الشريفة في غاية الضعف، ولا يمكنها أن تتحمل أكثر من ذلك"، وبالرغم من تهديده برفع القضية المغربية إلى مجلس لاهاي[88]، بصفته "المجلس المؤسس لفك مثل هذه الارتباطات"، لاسيما بعد أن" بلغت المناقشة حدها في الجدال قولا وجوابا بلهجة لم يتقدم لها مثيل."

وأخيرا، وأمام الضغوطات المستمرة على السفير، وإثقاله بالطلبات، فقد هدد المقري الوزير الإسباني بإلغاء المفاوضات وطلب الاستئذان في السفر، "بعد تقديم مراسيم الوداع لجلالة الملك ولرجال حكومته[89]".

نمّت هذه التقنيات الصادرة عن السفير المغربي عن روح عالية في المقاومة الدبلوماسية للمغرب، وفي الدفاع عن مصالح المخزن أمام المفوضيات الأخرى، غير أنها لم تكن تكتسب النفس الطويل، ولا القوة التي تضمن الثبات على المواقف، فكان الاستعجال في إنهاء المفاوضات، وجبر خاطر الإسبان، عاملين ساهما في رضوخ السفير المغربي للطلبات الإسبانية.

فحين هدد المقري بالرحيل وإنهاء المفاوضات، كان الرد الإسباني سريعا بأن رئيس الوزراء خارج مدريد ولا يمكن له أن يقطع المخابرة مع السفير المغربي دون استشارته. وحينما أراد السفير المغربي استغلال انعقاد مجلس الوزراء الإسباني، تحت رئاسة الملك ألفونسو الثالث عشر، ليدرج ضمن جدول أعماله "روجان المذاكرة في المسألة المغربية على مقتضى ما في السطور، أحسن بكثير من الاقتصار على ما في الصدور"، لم يجد هذا الطلب صدى لدى الدوائر الحكومية الإسبانية.

ملخص الجلسة الخامسة عشر :خصصت لمناقشة الصوائر الحربية بالريف، وفيها نجحت الدبلوماسية المغربية في فتح فجوة في الجدار الإسباني، الذي صمم على عدم التنازل في مسألة التعويضات المالية المقدرة سلفا بـ 85 مليون بسيطة .ومرجع هذا النجاح هو لقاء السفير المغربي بنظيريه الفرنسي والإنجليزي على خلفية مراسيم تشييع جثمان الحاكم العام بمدريد، الذي هو أخو رئيس الوزراء الإسباني، حيث "كشفت الظروف عما لم يكن في الحسبان". إذ بعد إبلاغ السفير المغربي بمجريات المفاوضات السارية بين المغرب وإسبانيا، أعلم السفيران الفرنسي والإنجليزي حكومتيهما، اللتين دعمتا المفاوض المغربي بمجموعة من التوصيات دون أن تخلو من عيوب، ومن هذه التوصيات:

- استحسان فرنسا للمخابرة المغربية مع إسبانيا، وحثها على الزيادة في مبلغ التعويضات دون أن يتعدى ذلك سقف 35 مليون بسيطة .

- تطعيم السفير المغربي بنبإ استخباراتي، مفاده أن السفير الإسباني بباريس صرح للفرنسيين بإمكانية تنازل بلاده عن مبلغ 85 مليون إلى 70 مليون بسيطة فقط.

- حث الطرفين الفرنسي والإنجليزي، المغرب على الثبات على موقفه.

غير أن الأمر المعيب في المسألة، هو حض المخزن على تعويض إسبانيا عن المال الناقص، بتعديل زيادة في الحدود، مراعاة لحالة المالية الشريفة.

وقد طالبت بهذا التعويض أيضا حتى أنجلترا، التي صرحت أن" الدولتين وقع اتفاقهما على التعديل في حدود سبتة ومليلية، نظرا لضعف مالية المخزن."

دخل السفير المغربي في مفاوضات الجلسة الخامسة عشر، وتحت التوصيات السالفة، بأوراق رابحة مكنته من كسب رهان هذه الجولة .إذ بعد طول حديث، بدأت إسبانيا في تقديم التنازلات من 85 إلى 70 إلى 65 مليون بسيطة. وفي المقابل رفع المفاوض المغربي القدر من 25 إلى 33 مليون بسيطة، بعد إصرار الطرف الإسباني على" عدم قبول زيادة المذاكرة في النقصان"، وتصميم المقري على" عدم استطاعته على زيادة شيء فوق ذلك[90]".

وبالرجوع إلى قضية التعويض الترابي بدلا عن المالي، فقد أبلى المفاوض المغربي البلاء الحسن، كما يستخلص ذلك من الوثيقة التالية"

وليكن في علم مولانا ...أن المتعين والأولى حسب ما يظهر للخديم وتفضي به مصالح المخزن الشريف، حالا واستقبالا، هو أن الجناب الشريف ...يرفض التعويض من الأراضي رفضا كليا، من غير أن يقبل من أحد، أيّا كان، نصحا منه ولا إشارة به. ويهون على جنابه ... أن يرتكب أخف الضررين بأن يتحمل قبول الوجهة المالية ولا يسمح شرفه ...بتعديل في الحدود، إذ لا يخفى على كريم علم مولانا ...ما يترتب على ذلك من الارتباكات والمشاكل التي لا فكاك لها، أولا، من جانب الرعية، حيث لا يعلم ما يصدر منها بسبب ذلك .ثانيا، من جهة الإصبنيول، فلا يسكن بال معه أبدا مر الأزمنة والدهور[91]".

ملخص الجلسة السادسة عشر :انحصر الاجتماع فيها في تحرير المحاضر السالفة فقط من غير إجراء مخابرة.

ملخص الجلسة السابعة عشر :رغم أن موضوعها كان مخصصا لمناقشة التعويض الحربي بالريف، إلا أن إسبانيا ركزت فيها على تعديل حدود سبتة، متذرعة بالتعديلات التي طالبت بها فرنسا في الجهة الشرقية، ومستندا إلى اتفاق 1860 الذي يرخص ذلك.

ملخص الجلسة الثامنة عشر :حاصرت فيها الدبلوماسية الإسبانية المفاوض المغربي بالضغط عليه لقبول أحد الأمرين :إما الموافقة على الوجهة المالية والإقرار بالتعويض الحربي بالريف، وإما التعويض الترابي بالزيادة في مجال حدود سبتة ومليلية .وبنفس المنهاج السالف، كان رد المقري واضحا" :إن الوجهة المتعلقة بالتعويض من الأراضي أمر صعب للغاية لا على جانب المخزن، ولا على جانب الدولة، لما ينشأ عنه من التشويشات العظيمة بالإيالة الشريفة ...لذلك كله، فقد رأينا أن الوجهة

المالية أولى وأحسن من غيرها، ونود من جناب الوزير (الإسباني)أن تكون مذاكرتنا مقصودة [92] عليها..."

وفي المقابل رفض السفير الإسباني الحديث عن الإنقاص من المبلغ المفروض، بدعوى أن مجلس الوزراء قرر أن" :التعويض إذا كان نقدا، فمبلغه 65 مليونا، وإذا كان من الأراضي فقد قررنا ما تؤديه الدولة منها في مقابلة 32 مليونا التي بقيت فرقة بين العددين."

وبنفس النبرة، رد المفاوض المغربي بأن : "الأرض كلا أو بعضا فأمرها متعذر جدا، حيث إن الأمة تقوم وتقعد لسماع ذلك، ويحصل فيها من الاضطرابات ما يكون وخيم المآل، والدولة هي أول راغب في التحفظ على السلم العام. وأما المبلغ، فلولا أن حالة المالية الشريفة في الدرجة الأخيرة من الضعف، لما راجعنا جناب الوزير في النقصان عنه، سيما وقد صرح لنا غير ما مرة من إعطاء التسهيلات في سائر المسائل"...

ثم أضاف المقري، مذكرا الوزير الإسباني، بأن" المخزن الشريف رفض من أول الأمر قبول التعويض لأنه غير ملزوم به، ولاكن مراعاة لما هي عليه رغبته من الحصول على الوفاق بين الجانبين، صرحنا لكم بقبول 25 مليونا. ولم تقبل الدولة. الإسبانية ذلك، ...لذلك رعيا لما هي عليه خطة المخزن الشريف مع الدولة، فإنه يقبل أن يكون مبلغ التعويض من 50 مليون".

وعلى الرغم من هذه الزيادة الكبيرة في مبلغ التعويض من 33 إلى 50 مليون، فإن الوزير الإسباني واجه ذلك بالرفض القطعي، وبعد جدال ولهجة قويين كادت أن تنقطع معهما المفاوضات بصفة غير مرضية، قال السفير المغربي :"حيث إن المخزن الشريف يود دوام المسالمة مع الدولة، فإنه يقبل

60 مليونا داخل ما تقرر في التعويضات الحربية بالدار البيضاء وهو أربعة ملايين..."."

غير أن هذا الطرح المغربي قوبل بدوره بالرفض، وحينها هدد المقري بقطع المفاوضات" :يعز علينا أن تنقطع المخابرة بسبب خمسة ملايين لم تتنازل الدولة عنها..[93]".

ملخص الجلسة التاسعة عشر :طالب فيها الوزير الإسباني نظيره المغربي بقبول مساعدة إسبانيا على : "زيادة جبل موسى محرما لحدود سبتة، أو يساعدها على احتلال أعاليه مؤقتا ليمكنها حفظ السلم العام بتلك الناحية، وحينئذ تتنازل الدولة عن خمسة ملايين ولا تطالب المخزن إلا بستين مليونا".

وأمام الرفض المغربي للحديث مجددا في قضية التوسع الترابي، وفهمه لخطط الدبلوماسية الإسبانية، هدد مجددا بقطع المخابرة بدعوى طول المذاكرة وتجديد المواعيد، التي لم تحصل من ورائها فائدة، وتشعب مواضيع المفاوضات.

ملخص الجلسة العشرين :خصّصت للتفاوض حول مسألة حدود سبتة ومسألة التوثيق، أي ما يمكن توثيقه من مدخولات المعادن لضمان التعويضات لصالح إسبانيا. ولما قدرت الخارجية الإسبانية أن مداخيل المعادن وحدها غير كافية في التوثيق، طالبت بزيادة 5% من مداخيل المراسي الفاضلة عن توثيق السلف الجديد الذي حصل عليه المغرب من فرنسا في سنة 1910، أو إدخال ما يقابلها من أملاك الأحباس.

ولما رد المفاوض المغربي بالرفض، وضرورة تركيز التوثيق على مداخيل المعادن، أجاب المفاوض الإسباني بأن مداخيلها غير كافية، لذا وجب أن يكون التوثيق" عاما في سائر معادن الإيالة الشريفة "باعتبار أن السنوية العامة التي وجب تأديتها هي 2.540.000، لمدة 75 سنة.

ولدحض هذا الطرح، رد السفير المغربي بأن :"أغنى المعادن هي الموجودة بأصقاع الريف، وقد أخبرنا غير واحد من المهندسين أنها في غاية الجودة، ولمراعاة أنها قريبة من شاطئ البحر، فإن الناس تتنافس في امتيازاتها. والدليل القاطع عندنا على كفاءتها، هو أن البعض من شريكة (كذا) المعدن المفتوح بالريف، لما كانت المخابرة (بالريف)[94] جارية بباريز خاطب المخزن الشريف في أن يُسلّف له 70 مليونا، ويدفع له معادن الريف في التوثيق[95].

رغم هذا التفنيد الجلي للطرح الإسباني، لم يتوقف الوزير الإسباني عن المطالبة بضرورة تعميم التوثيق على سائر المعادن المغربية.

ملخص الجلسة الواحدة والعشرين :تمت فيها مجددا مناقشة تعميم التوثيق في معادن المغرب، وحيث ثبت المفاوض المغربي على رأيه، فقد طالب الوزير الإسباني بدلا من التعميم بإضافة معادن غمارة ومعادن ناحية سوس إلى معادن الريف، حتى تصبح كافية في التوثيق. غير أنه تحت ضغط الجدال، رضخ المفاوض المغربي فقبل بزيادة المعادن الموجودة في أحواز تطوان، خاصة منها معادن بني سعيد وبني معدان، محاولا تقديم هذا العرض مقابل الجلاء عن الريف.

لكن وعلى الرغم من هذه التنازلات، فإن المفاوض الإسباني ضرب بالاقتراح المغربي عرض الحائط، ومؤكدا على أن الجلاء عن الريف" يكون على وفق ما قررتموه (المخزن)مع الدولة الفرنسوية في الانجلاء عن الشاوية. ثم أحضر الكتاب الأصفر، ولما قرأ الفصل الراجع للانجلاء عن الشاوية، قال إنه يحب أن يكون على الريف مثل ما هو مقرر في الانجلاء عن الدارالبيضاء".

وبعد جدال قوي حول هذه المسألة تقرر أن" الانجلاء عن الريف يكون بنفس الشروط المقرة عن الانجلاء عن الحدود الجزائرية[96]".

ملخص الجلسة الثانية والعشرين :هي إعادة للجلسات السابقة من المذاكرة والجدال حول مسألة توثيق المعادن، غير أنه خلال هذه الجلسة وقع انهيار الدبلوماسية المغربية، إذ وافق المقري فيها على تعميم توثيق معادن الإيالة الشريفة، مع تخصيص قبض الثلث من مدخول المعادن لصالح إسبانيا.

وحيث إن الدبلوماسية الإسبانية كانت أكثر منهجية وتصميما على إرضاخ المغرب وإثقاله بالكلف والالتزامات تجاه الدول الأجنبية، فإن المفاوض الإسباني رفض قبول حصة الثلث، وهو ما أثار حفيظة السفير المقري الذي أعلن غاضبا : "سابقا صرح لنا الوزير بأن معادن الريفي (كذا) لا تكفي في التوثيق ولا بد من التعميم في جميع الإيالة، والآن لما حصل التعميم، قال : إن الثلث من مدخوله لا يكفي..." ثم انطلق يساوم عبثا السفير المغربي بمطالبته بأربعة أخماس من مدخول المعادن، ثم ثلاثة أرباع، ثم طالب بالثلثين.

في مقابل هذه الطلبات الكثيرة، أعرب السفير المغربي قائلا :"كان على الدولة (إسبانيا) لما عزمت على إشهار الحرب بالريف، أن تعتبر أن مالية المخزن ضعيفة لغاية لا يمكنها أن تقوم بأداء أي تعويض كان، كما تعتبر أن أمر التوثيق متعذر، بسبب ما شمله توثيق سلف..." 1910 ثم أردف قائلا : "نظرا لكون معادن الريف هي أغنى معادن الإيالة، فإن المخزن يجب أن يدخل عليه من ذلك ما يقابل به الصوائر اللازمة...".

ثم عاد الجدال حول النِّسب، ولجبر خاطر إسبانيا اقترح السفير المقري 40% من مداخيل المعادن لصالح إسبانيا، ثم رفع النسبة إلى50%، وفي المقابل طالبت إسبانيا بـ 60%. وبعد جدال طويل تم الاتفاق بين الجانبين على نسبة 55%.

وحول كيفية استلام واجب السنوية، اقترح المفاوض الإسباني "تعيين مندوب في إدارة المعادن، وهو يعين تحته مراقبا بكل مرسى، لقبض معشرات ما يوسق من المعادن للخارج رأسا، من غير واسطة البنك المخزني[97]". وقد وافق السفير المغربي على ذلك.

ملخص الجلسة الثالثة والعشرين :خصصت لتحرير ما وقع الاتفاق عليه بين الجانبين في الأمور الآتية الذكر:

1 ـ حول الصوائر الحربية بالريف اقترح الإسبان زيادة على 65 مليون، أن تكون السكة فضية، وهو ما رفضه السفير المغربي.

2 ـ تم إيقاف الصوائر الحربية في 31 أكتوبر 1910 ، زيادة على الصوائر الحربية بالدارالبيضاء لسنة 1907، ومبلغها أربعة ملايين من البسيطة

الإسبانية سكة ذهبية، زيادة على "ما صيرته الدولة على رعايا المخزن الشريف الملتجئين بمليلية من تمام 1903 إلى 1907...".

3 ـ إن المدة التي يؤدى فيها ما اجتمع في المبالغ، المشار إليها، تكون من 75 سنة.

4 ـ تعيين الدولة الإسبانية لمندوب إسباني عال في إدارة المعادن المخزنية تكون وظيفته الاطلاع على دفاتر الامتيازات الثابتة وفسخها ...شريطة عدم تدخله في شؤون الإدارة المخزنية.

5 ـ مبلغ الامتيازات الثابتة يحوزه البنك المخزني، على يد الإدارة المخزنية، ويدفع منه للدولة واجب السنوية[98].

ملخص الجلسة الرابعة والعشرين :خصصت لدراسة حدود سبتة، وفيها طالب الوزير الإسباني نظيره المغربي بتوسيع حدود سبتة ومساعدته على ذلك، وكان جواب السفير : "عار على خديم مثلي أن يساعد ذلك، لأنها خطة رديئة ضد خدمة المخزن والوطن، ونحب من الوزير أن لا يزيد في تكرار هذه الجملة...[99]".

ملخص الجلسة الخامسة والعشرين : خصصت هي الأخرى لمناقشة مشكلة حدود سبتة وعاملها، وقائد الأنجرة .كما خصصت للمخابرة حول مشكلة تجار مليلية المنصوص على عدم خروجهم من مليلية للبيع والشراء خارجها، يكون لهم ذلك بموجب ما خوله لهم عقد الجزيرة الخضراء .وقد قبل السفير المغربي ذلك .أما فيما يخص فتح ديوانة مليلية، فإن الإسبان رفضوا في البداية فتحها، لكن بعد الاحتجاج المغربي بدعوى" أن صائر القوة

المخزنية التي تنظم بالنواحي الريفية هي منها، فإذا لم تفتحها، فمن أين يخرج الصائر اللازم لها ولغيرها؟ "[100] قبلوا بذلك.

ملخص الجلسة السادسة والعشرين :خصصت لمناقشة المسائل العالقة بحدود سبتة وعاملها[101].

وبعد الانتهاء من هذه الجلسات الستة والعشرين راسل الوزير المقري السلطان يخبره : "بتتميم المخابرات نهائيا على وجه سلمي تأيدت به سياسة المخزن... وزال سببه ما كان حاصلا من سوء التفاهم المبني على مكايد ذوو (كذا) الغايات، ولكن بعد أن كانت بوارق اليأس تهددنا... تصرفت، فكانت مساعي المارقين عن محبة جنابه الشريف عظيمة... وهذا يصل مولانا ...المحضر الأخير الذي هو خاتمة الأعمال، وغدا، بحول الله، نوجه نسخة من الوفق بعد إمضائه من الجانبين، إمضاء معلقا على مصادقة الجناب الشريف..."[102].

وعشية التوقيع على ههذا الوفق توجه السفير الوزير المقري إلى باريس[103]. وبالفعل، وفي أقل من شهرين تمت مصادقة السلطان على الوفق المغربي - الإسباني بمقتضى ظهير مؤرخ بـ 20 ذي الحجة 1328 ، الموافق 23 دجنبر 1910[104].

* * *

هوامش :

1- D.P.C 1911, Telegrama del gobernador militar de Melilla al ministro de España, N° 402, de 4 de diciembre de 1908, p 156.

2. أحمد سكيرج، الظل الوريف في محاربة الريف .دراسة وتحقيق رشيد يشوتي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 2010، ص 93.

3. مديرية الوثائق الملكية، الرباط(م.و.م)، ملف صفر 1326. رسالة من الشريف محمد أمزيان إلى محمد الطريس بتاريخ 11صفر 1326.

4. وردت في الرسالة كلمة حفيد (كذا)، والمقصود بها" حفيظ "وهي التسمية التي يطلقها الريفيون على ابن الأخ أو الأخت.

5. م.و.م، ملف صفر 1326. رسالة من الشريف محمد أمزيان إلى النائب الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 25 صفر 1908 /1326.

6- A.G.V, C 3H16. Rapport du capitaine Brémond au ministre de la guerre. Rapport mensuel du mois d?octobre. Fès le 3 novembre 1909.

7- D.P.C 1911, Telegrama del ministro plenipotenciario de S.M á Tanger, Merry del Val, al ministro de Estado, N° 756, de 23 de octubre de 1909, p 326.

8- D.P.C 1911, Ibid, Telegrama N° 753, de 19 de octubre de 1909, p 326.

9- D.P.C 1911, Ibid, Telegrama N° 756, de 23 de octubre de 1909, p 326.

10- D.P.C 1911, Telegrama del cónsul de España á Fez, Manuel Cortes, al ministro plenipotenciario de S.M á Tanger, Merry del Val, N° 764, de 1 de noviembre de 1909, p 329.

11- A.G.V, C 3H16. Rapport du capitaine Brémond au ministre de la guerre. Rapport mensuel du mois de novembre. Fès le 3 décembre 1909.

12- A.G.V, C 3H16. Compte rendu de l?entretient du sergent Kouadi avec le caïd Chadli, sans date.

13- D.P.C, 1911, Telegrama del consul de España en Fez al ministro de plenipotenciario de S.M. en Tanger, N? 764 de 1 de noviembre de 1909, p 329.

14. عياش جرمان، أصول حرب الريف، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، نشر SMER ، مطبعة النجاح الجديدة. البيضاء 1992 ص153، الإحالة رقم55.

15- D.P.C 1911, Telegrama del ministro plenipotenciario de S.M á Tanger, Merry del Val, al ministro de Estado, N? 787, de 17 de diciembre de 1909, p 343.

16- D.D.F 1910, affaires du Maroc 1908- 1910. Imp nationale. Paris 1910, doc N° 311, p 253. Lettre de Regnault, ministre français à Tanger à S. Pichon, ministre des affaires étrangères. Tanger 6 octobre 1909.

17. انظر صورته أعلاه، ومن الجدير بالإشارة أن توافد هذه السفارة الإسبانية تزامن مع مثيلتها الفرنسية بقيادة رينيو Regnaul، لمزيد من التفاصيل ينظر :

D.D.F, Affaires du Maroc, Tome V, docs N° 134 et 163. Voir aussi Castillanos : op. cit., p. 77.

18- A.G.V, C 3H16. Rapport du commandant Mangin au ministre de la guerre. Rapport mensuel du mois de mars 1909. Fès le 3 avril 1909.

19- A.G.V, C 3H16. Ibid. Rapport mensuel du mois de mars 1909. Fès le 3 avril 1909.

20. الخزانة الحسنية الرباط (خ.ح.ر)، محفظة رقم 956، أورده الأستاذ المرحوم عبد العزيز التمسماني خلوق :الحركة الحفيظية والأطماع .الإسبانية في شمال المغرب.مجلة دار النيابية، السنة الخامسة، العدد17، شتاء 1988 ص49. لقد سبق للأستاذ عبد العزيز التمسماني خلوق التعرض لنفس هذا الموضوع وأشار إلى أنه اقتبسه من الخزانة الحسنية أعلاه، لكننا لم نعثر على هذه المحفظة، علما أن المحفظة تحتوي على الوثائق فقط، ثم رجحنا أن تكون في كناش معين، لكن لم نجده، وبذلك وجب التنبيه على أن هذه الوقائع موجودة في الكناش رقم 868 رسائل متبادلة بين الحكومة المغربية والإسبانية في شأن الحرب الريفية مابين 1328- 1327 هـ، عهد المولى عبد الحفيظ..

21. حاول المخزن إرضاء بعض الطلبات الإسبانية اعتقادا منه في تيسير المفاوضات بمدريد، ومنها مسألة صائر المسلمين واليهود الذين كانوا التجأوا لمليلية سابقا، كما تثبت ذلك الوثيقة التالية :"...خديمنا الأرضين الأمين الكبير الحاج محمد المقري والكاتب الطالب عبد الله الفاسي (نائب وزير الخارجية المغربي)وفقكما الله وسلام عليكما ورحمة الله، وبعد فقد أعادت الدولة الصبنيولية الكلام في مسئلة صائر المسلمين واليهود الذين كانوا التجأوا لمليلية سابقا، وألحت في ذالك على يد سفرائنا الذين عندها، وحيث إن أمر ذالك كان وقع الشروع في مباشرته على يدكما لما تكلم فيه باشدورها بشريف حضرتنا فنأمركما أن تأخذا في إتمام مباشرة ذالك كما ابتدأت والسلام" .رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الوزير محمد المقري والطالب عبد الله الفاسي بتاريخ 19 قعدة 1327. الكناش 868 م.س. وكذا الكناش877. رسائل في شأن الحرب الريفية الإسبانية مابين 1328- 1327 هـ، عهد المولى عبد الحفيظ. نسخة من جواب السفارة المخزنية للوزارة الإصبنيولية حول اللوائح الأربع التي دفعها الإسبان بتاريخ اثنين منها 12 نونبر، والثالثة بتاريخ 13 والرابعة بتاريخ 14 منه 1909.

22 ـ لمزيد من التفاصيل حول معاناة هذه المحلة ينظر مقالنا حولها في:

Rachid Yechouti : å Les tribulations d'une Mehalla chérifienne près de Melilla 1907-1908. Revue Al Mesbahia, N°7. Publication de la faculté de lettres et des sciences humaines Saïs -Fès, 2007, pp 1-18.

23-حاول المخزن إرضاء بعض الطلبات الإسبانية اعتقادا منه في تيسير المفاوضات بمدريد، ومنها مسالتا الضوء والتليفون، كما تثبت ذلك الوثيقة التالية :"...خديمنا الأرضى الحاج محمد المقري، وبعد فقد كتب سفراؤنا الذين بمدريد بأن الدولة الإصبنيولية تطلب إتمام مباشرة مسئلتي الضوء والتيليفون التي كانت ابتدئت (كذا) على يدك، وقدمنا أمرنا الشريف قبل هذا لتأخذ في

إتسامها. ثم لما أعادت الكلام في ذالك الآن نأمرك أن تأخذ إكمال مباشرة القضيتين من هناك مع باشادورهم بطنجة قطعا لإعادة الكلام. والسلام ..." رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الوزير محمد المقري بتاريخ 19 قعدة 1327. خ.ح.ر. الكناش : 868 رسائل متبادلة بين الحكومة المغربية والإسبانية في شأن الحرب الريفية مابين 1328- 1327 هـ. عهد المولى عبد الحفيظ .وكذا الكناش 877 رسائل في شأن الحرب الريفية الإسبانية مابين 1328- 1327 هـ. عهد المولى عبد الحفيظ .نسخة من جواب السفارة المخزنية للوزارة الإصبنيولية حول اللوائح الأربع التي دفعها الإسبان. اثنين منها بتاريخ 12 نونبر. والثالثة بتاريخ 13. والرابعة بتاريخ 14 نونبر سنة 1909.

24- D.P.C. 1911. Telegrama del ministro de negocios exteriores jalifiana al ministro de Estado. N° 981. de 27 octubre 1910/ 24 chawal 1328. p 417. D.P.C. 1911. Ibid. Telegrama N° 990. de 17 noviembre 1910/ 14 dou kaâda 1328. pp 426-427.

25. الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .تقييد ما تكلم فيه سفير إصبانيا الفخيمة الكبالير مري دِلْ البال (كذا) الوافد على شريف الأعتاب في ثامن عشر 18 صفر عام 1327 من المسائل التي ستذكر، وما أجابته به الحضرة الشريفة عن كل منها ووقع الفصال معه عليه.

26. خ.ح.ر. الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .نسخة مما كتب به النائب محمد الجباص بطنجة لنائب الفرنصيص زعيم نواب الدول وقته.

27. م.و.م. ملف شعبان 1327 . رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الوزير الجباص. بتاريخ 25 شعبان 1327.

28. م .و .م، ملف 1327 هـ. رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى نائبه في طنجة محمد الكباص، بتاريخ 11 رمضان 1327 حسن الفكيكي:الشريف محمد أمزيان، م، س .ص 397.

29 - خ.ح.ر. الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .نسخة مما كتب به النائب محمد الجباص بطنجة لنائب الفرنصيص زعيم نواب الدول وقته .بتاريخ متم شعبان عام1327 ، الموافق 16 شتنبر سنة 1909.

30- D.D.F. 1910. Affaires du Maroc 1908- 1910. annexe I du Doc N° 295. pp 231-232. Traduction de la lettre de Mohamed Guebbas à Regnault. Lettre de Regnault à S. Pichon. Tanger 21 septembre 1909. Madariaga : España, op. cit. pp 291-292.

31 D.D.F. 1910. Affaires du Maroc 1908- 1910. annexe I du Doc N° 295. Ibid. Madariaga : España, op. cit, pp 291-292.

32 - تعريب محرّف للكلمة الفرنسية Circulair، أي مذكرة.

33. انظر الوثيقة رقم 8، م.و.م، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الوزير الجباص بتاريخ 4 شعبان 1327.

34- D.P.C, 1907- 1908. Lettre du ministre d'Etat espagnol Allendesalazar aux représentants diplomatiques du Roi espagnol auprès des puissances signataires de l'acte d'Algesiras, du 1er octobre 1909. Doc N° 735, p 318. Voir aussi doc N° 744 et son annexe, p 322.

35 ـ مذكرة رينيو المؤرخة بتاريخ 22 شتنبر1909، وقد وقعها كل ممثلي السلك الدبلوماسي المقيم بطنجة، ومنهم :الإسباني (Merry del Val)، الإيطالي (Neranzinni)، الإنجليزي (White)، البرتغالي (Berjona)، الألماني (Rothenhan)، الأمريكي (Dodge)، البلجيكي (De Ligne)، الروسي (Likatscheff)، الهولندي (Vening)، والنمساوي- الهنغاري (Callenberg) انظر:

N.S, S.S : Maroc, politique étrangère, relations avec l'Espagne. 21 mars - 30 juin 1916, Vol 86, XXII. Microfilm, lettre de la légation française au Maroc, à Pichon ministre des affaires étrangères, Tanger le 9 octobre 1909.

36- Madariaga : España, op. cit, p 295. Voir aussi M.A.E, NS, SS : Maroc, ibid. lettre du 6 octobre 1909 et du 9 octobre de la même année. B.C.A.F, N°9, 1909, p 328.

37- B.C.A.F, N°9, 1909, p 328.

38. خ.ح .ر، الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .تقييد شامل للأسباب التي نشأت عنها الحوادث الريفية الحالية.

39. م .و .م .ملف جمادى الثانية 1327 هـ، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى القائد علال بن كروم القلعي، بتاريخ 15 جمادى الثانية 1327 حسن الفكيكي :الشريف محمد أمزيان، م .س، ص 396.

40. خ.ح .ر، الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .تقييد شامل للأسباب التي نشأت عنها الحوادث الريفية الحالية.

41- Madariaga : España, op. cit, p 285.

42- S.H.M, Legajo 38, Carpeta 15 año 1909. Embajada Marroqui : antecedentes relativos al viaje hecho por emisarios del sultan a la plaza de Melilla.

43. انظر صورته في الصفحة الموالية .وانظر الوثيقة رقم :9، م .و .م .ملف قعدة الحرام1327 هـ، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى القائد البشير ابن السناح، بتاريخ 12 قعدة الحرام1327 وأيضا،

S.H.M, Legajo 57, Carpeta 4, año 1910. Alto comisario del Rif, Antecedentes relativos al nombramiento de alto comisario del Rif al Kaid Ben Sanah.

44 ـ الوثيقة رقم 9 :، م .و .م .ملف قعدة الحرام1327 هـ، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى القائد البشير ابن السناح، بتاريخ 12 قعدة الحرام 1327

45. م .و .م .ملف شعبان 1327، رسالة من أحمد بن المواز إلى السلطان عبد الحفيظ، بتاريخ 18 شعبان 1327

46 ـ م. و. م. ملف شعبان 1327، المكان نفسه.

47- Madariaga : España, op. cit, p 287

48. م .و .م .ملف ذي القعدة 1327 ، رسالة جوابية من الوزير محمد الكباص إلى البشير ابن السناح بتاريخ 2 ذي القعدة 1327 .16 نونبر 1909.

49. م .و .م .ملف ذي القعدة 1327 ، رسالة جوابية من الوزير محمد الكَباص إلى البشير بن السناح، بتاريخ 3 ذي القعدة 1327.17 نونبر 1909

50- Madariaga : España, op. cit, p 286.

51- Archivo general militar de Madrid (A.G.M.M), Instituto de Historia y Cultura Militar (I.H.C.M), Rollo (microfilm) N° 211. Carta del ministro del Estado al capitan general de Melilla de 1 octubre de 1910.

52. هو الفقيه الأديب الكاتب القاضي أبو محمد أحمد بن عبد الواحد ابن المواز السليماني، تدرج في أسلاك الوظيفة المخزنية، إذ عين كاتبا لعاملي فاس ابن الطالب، ومن بعده خليفته السراج. ولما قامت ثورة العبيد بفاس، اتهم بانخراطه واندراجه فيها وتحريضهم على الثورة ضد السلطان الحسن الأول، فكان مآله السجن بمراكش .وبعد خروجه منه، بعد توسط الباشا الحاج عبد الله بن أحمد، عاد إلى وظيفته، فوُلي قضاء الحضرة المراكشية، ثم قضاء المحلة العلية وكتابة الرسائل الأجنبية وتصفح الرسوم المخزنية ....

قال فيه صاحب فواصل الجمان" :نبيه المحل، نبيل العقد والحل، روض علم سقيت بماء الأدب أدواحه، فزهت ثماره وذكت أرواحه، كالقلم ظرفا وقامة، والعلم شموخا وشهامة، والسيف حدة وصرامة، ذو جرأة وإقدام، تقصر عن شاوه سورة المدام ."لمزيد من التفاصيل ينظر محمد غريط :فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، نشر المطبعة الجديدة، الطبعة الأولى، فاس سنة 1346 هـ، ص 187-183.

وقد برز اسم هذه الشخصية، في بداية القرن العشرين بالخصوص، كمحرر للبيعة الحفيظية الشهيرة، حيث انتمى من قبلها إلى"جماعة الشباب الناهض" وهي جمعية قامت لأجل تنوير أذهان المغاربة ومقاومة الاحتلال الأجنبي . وابن المواز هو موظف مخزني وعالم سلفي، كان على اطلاع واسع لما يحدث في العالم العربي والإسلامي من أفكار إصلاحية، خلف لنا كتبا أهمها :"حجة المنذرين"، و"خطوة الأقلام". لمزيد من التفاصيل ينظر عثمان أشقرا :في الفكر الوطني المغربي .سلسلة المعرفة للجميع، نونبر -دجنبر 2000، الرباط، ص 77-76

53 ـ انظر صورة السفارة المغربية إلى مدريد في الصفحة الموالية.

1909, pp 262-263
.B.C.A.F. N° 7 - 54

55. خ.ح.ر، كناش رقم 956 ، محضر الجلسة الخامسة عشر، بتاريخ 15 رجب 1327 ، أورده عبد العزيز التمسماني خلوق :الحركة الحفيظية والأطماع .الإسبانية في شمال المغرب.مجلة دار النيابة، السنة الخامسة، العدد17 ، شتاء 1988 ، ص52. للتذكير، فإننا لم نعثر على الكناش رقم 956 بالخزانة الحسنية، ومع ذلك فقد اعتمدنا على مقال الأستاذ التمسماني كمرجع، لا سيما في تلخيصه لمحاضر الجلسات .

56. التمسماني :م.س، ص52
57. خ.ح.ر، الكناش 877 م.س .نسخة من تقييد كتبه السفير ابن المواز إلى وزير الخارجية الإسباني بتاريخ 2 محرم الحرام عام 1328، الموافق 14 يناير عام 1910
58. التمسماني، م.س، محضر الجلسة التاسعة بتاريخ 25 قعدة 9 / 1327 دجنبر 1909 ، ص63
59. خ.ح .ر، الكناش :877 م.س .رسالة من وزير الخارجية الإسباني إلى الفقيه السفير ابن المواز، بتاريخ 9 دجنبر 1909
60. انظر الوثيقة رقم 10 ، م .و .م .ملف قعدة الحرام1327 هـ، رسالة من أحمد بن المواز إلى النائب محمد الجباص، بتاريخ 15 قعدة الحرام 1327. ما تبقى من الرسالة هو إخبار بموت بغلة السفير أحمد بن المواز، ومطالبته التعويض عن ذلك، وتنفيذ المخزن له.
61. انظر الوثيقة رقم 11:، م .و .م .ملف قعدة الحرام1327 هـ، رسالة من السلطان إلى القائد البشير بن السناح، بتاريخ 3 قعدة الحرام 1327.
62. الظاهر أنها :الانتظار.
63. انظر الوثيقة رقم 12، م .و .م .ملف قعدة الحرام 1327 هـ، رسالة من القائد البشير بن السناح إلى السلطان، بتاريخ 2 قعدة الحرام 1327.
64. الظاهر أن مرينا أخطأ وتبعه في ذلك البشير بن السناح، لأن كونفدرالية قلعية تتكون من خمسة أخماس، وبالتالي اثنين من كل خُمُس تعطي عشرة.
65. م .و .م .ملف قعدة الحرام 1327 هـ، تتمة الرسالة من القائد البشير بن السناح إلى السلطان، بتاريخ 2 قعدة الحرام 1327.
66. انظر الوثيقة رقم 14، م .و .م .ملف قعدة الحرام 1327 هـ، رسالة من القائد البشير بن السناح إلى السلطان، بتاريخ 2 قعدة الحرام 1327.
67. انظر الوثيقة رقم 15 :، م .و .م .ملف قعدة الحرام 1327 هـ، تتمة الرسالة من القائد البشير بن السناح إلى السلطان، بتاريخ 2 قعدة الحرام 1327 هـ.
68. خ.ح.ر، الكناش 868 : م.س، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى البعثة المغربية بمدريد بتاريخ 12 حجة 1327.
69. محضر الجلسة العاشرة بتاريخ 19 محرم 1327 هـ 31 /يناير 1909.
70. خ.ح.ر، كناش رقم 957 ، رسالة أحمد ابن المواز إلى كَارسيا برييطو، بتاريخ 12 مارس 1910 ، أورده التمسماني :م.س، ص.52 لم نعثر، أيضا، على المحفظة رقم 957 بالخزانة الحسنية.
71. خ.ح..ر، الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .نسخة من كتاب كتبه السلطان إلى البعثة الدبلوماسية بمدريد، بتاريخ 12 ربيع الثاني عام 1328 هـ.
72. خ.ح.ر، الكناش 868 رسائل متبادلة، م .س .ذ .نسخة من كتاب كتبه وزير الخارجية الإسباني مانويل غارثيا بريبطو إلى وزير الخارجية المغربي عيسى بن عمر، نصه معرب من قبل كاتب" لكَاصيون "المندوبية الإسبانية بطنجة السيد محمد الزيلاشي . بتاريخ 26 أبريل عام 1910.

73. خ.ح .ر ،الكناش 877 : م.س، نسخة من تقييد كتبته السفارة لوزير الخارجية الإسباني، بتاريخ 2 محرم الحرام عام 1328 ، الموافق 14 يناير 1910.
74. خ ح.ر، الكناش 868 : رسائل متبادلة، م .س .ذ .نسخة من كتاب كتبته السفارة المغربية بمدريد إلى السلطان، بتاريخ 16 ربيع الثاني عام 1328 هـ.
75- A. Laroui : Les Origines, op. cit., p.104.
76- A. Laroui : Ibid.
77. خ.ح.ر. كناش رقم 828. م.س. رسالة من السلطان إلى ابن المواز بتاريخ 15 رمضان 1328، ص 391 من الجدير بالإشارة إلى أن أرقام هذا الكناش هي تنازلية، من أعلى رقم إلى أدناه.
78. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، م.س، رسالة من المقري إلى السلطان عبد الحفيظ، بتاريخ 26 رمضان 1328، ص 388.
79. عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد 10 مطبعة فضالة، المحمدية 1989، ص 57.
80. الخزانة الحسنية كناش رقم 569 ، رسالة جوابية من المقري إلى السلطان عبد الحفيظ حول ما كتب به لأعضاء السفارة السعيدة. رسالة بتاريخ 6 رمضان، ص 364.
81. خ .ح.ر. كناش رقم 828 ، م.س، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثانية، بتاريخ فاتح شوال 1328 ، ص 386.
82. ح.ح.ر. كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة العاشرة، بتاريخ 11 شوال 1328 ، ص 361.
83. للإشارة، فقد رفض المفاوض الإسباني اقتراح المقري وساطة الإنجليز، رفضا تاما.
D.P.C. 1911, Telegrama N? 977, del ministro del Estado á los embajadores de S.M en Paris, Londres, y encargado de negocios de España en Tanger, p 414.
84. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثانية عشر، بتاريخ 15 شوال 1328 ، ص 360.
85. جدير بالتنبيه إلى أن إسبانيا فرضت في بادئ الأمر مبلغ 120 مليون بسيطة .وقد رفضها المفاوض المغربي رفضا تاما .كما يجدر التنبيه أن رقم هذا المبلغ 80 مليونا، هو غير صائب، على اعتبار أن الوثائق ستذكر بعد قليل مبلغ 85 مليون وليس مبلغ 80 مليون بسيطة .
86. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثالثة عشر بتاريخ 18 شوال 1328 ، ص 357.
87. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، المكان نفسه.
88. استضافت لاهاي مقر هيئة التحكيم الدولية "التي أنشئت في عام 1899 بموجب اتفاقية لاهاي، المكلفة بتسوية النزاعات بين الدول، وبين المنظمات الدولية، وأيضا بين الأفراد، واختصت أكثر بالتحكيم في الخلافات التجارية والاقتصادية .
عمر الكدي :كيف أصبحت لاهاي عاصمة العدالة الدولية؟ تاريخ الإطلاع 13 مارس 2009.

89. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الرابعة عشر، بتاريخ 22 شوال 1328، ص.357.

http://www.rnw.nl/hunaamsterdam/internationaljustice/02030902

90. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الخامسة عشر، بتاريخ 25 شوال 1328، ص.354.

91. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، نفس الرسالة من المقري إلى السلطان .

92. لعله أراد قول مقصورة عليها .

93. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثامنة عشر، بتاريخ 30 شوال 1328، ص. 347 -349.

94. كلمة زائدة داخل المتن، ولما شوشت على سياق الكلام وضعناها بين قوسين.

95. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة العشرين، بتاريخ 4 قعدة الحرام 1328، ص 341- 343.

96. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الواحدة والعشرين، بتاريخ 5 قعدة الحرام 1328، ص.337- 339.

97. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثانية والعشرين، بتاريخ 8 قعدة الحرام 1328، ص.333- 336.

98. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الثالثة والعشرين، بتاريخ 9 قعدة الحرام 1328، ص 332.

99. ح.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الرابعة والعشرين، بتاريخ 9 قعدة الحرام 1328، ص. .

100. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة الخامسة والعشرين، بتاريخ 11 قعدة الحرام 1328، ص 323 -325.

101. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عن مجريات الجلسة السادسة والعشرين، بتاريخ 11 قعدة الحرام 1328، ص 320 -321.

102. خ.ح.ر، كناش رقم 828، رسالة من المقري إلى السلطان عبد الحفيظ، بتاريخ 12 قعدة الحرام 1328، ص 320. انظر الصورة المرفقة لتوقيع وفق 16 نونبر1910.

يمكن الاطلاع على النسخة العربية من الوفق المغربي الإسباني، ص314-315، ضمن الكناش رقم 828. أما النسخة الإسبانية فيمكن الاطلاع عليها في:

D.P.C. 1911, N° 988, pp 420- 425. Isidro de las Cagigas : Tratados y convenios referentes a Marruecos. Publicación del consejo superior de investigaciones científicas- Instituto de estudios africanos. Madrid 1952, pp 285- 290.

103. خ.ح.ر، كناش رقم 828 ، رسالة من المقري إلى الصدر الأعظم، بتاريخ 16 قعدة الحرام 1328، ص 313.

104- Isidro de las Cagigas: Tratados y convenios referentes a Marruecos, op. cit. p 290

بيبليوغرافيا :

- المصادر العربية

- خ.ح.ر. كناش رقم 569، خلاصة المكاتيب الصادرة عن وزير الخارجية الحاج محمد بن عبد السلام المقري وتقييدات أخرى، 1328-1329عبد السلطان عبد الحفيظ.

الخزانة الحسنية كناش رقم 569، رسالة جوابية من المقري إلى السلطان عبد الحفيظ حول ما كتب به لأعضاء السفارة السعيدة، رسالة بتاريخ 6 رمضان 1328، ص 364.

الخزانة الحسنية الرباط (خ.ح.ر.)، الكناش رقم 868: رسائل متبادلة بين الحكومة المغربية والإسبانية في شأن الحرب الريفية ما بين 1327-1328 هـ المولى عبد الحفيظ.

- خ.ح.ز. الكناش 877 رسائل في شأن الحرب الريفية الإسبانية ما بين 1327-1328هـ. عهد المولي عبد الحفيظ.

خ.ح.ر. الكناش 877 : م.س، نسخة من تقييد كتبه السفير ابن المواز إلى وزير الخارجية الإسباني بتاريخ 2 محرم الحرام عام 1328، الموافق 14 يناير عام1910.

خ.ح.ر.كناش رقم 828، خلاصة الجلسات التي عقدها وزير الخارجية محمد بن عبد السلام المقري بمدريد لحل المسائل التي تباشر على يد السفارة المغربية هناك مع شروط الوفق المغربي الإسباني سنة 1328هـ.

- رسالة من السلطان إلى ابن المواز بتاريخ 15 رمضان 1328، ص 391. من الجدير بالإشارة إلى أن أرقام هذا الكناش هي تنازلية من أعلى رقم إلى أدناه.

مديرية الوثائق الملكية، الرباط (م.و.م.)، ملف صفر 1326، رسالة من الشريف محمد أمزيان إلى محمد الطريس بتاريخ 11 صفر 1326.

م.و.م.، ملف صفر 1326، رسالة من الشريف محمد أمزيان إلى النائب الحاج محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 25 صفر 1326/1908.

م.و.م.، ملف 1327هـ، رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى نائبه في طنجة محمد الكباص، بتاريخ 11 رمضان 1327.

م.و.م.، ملف شعبان 1327 هـ رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الوزير الجباص، بتاريخ 25 شعبان 1327.

م.و.م. رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى الرزير الجباص بتاريخ 4 شعبان 1327.

م.و.م.، ملف قعدة الحرام 1327هـ رسالة من السلطان عبد الحفيظ إلى القائد البشير ابم السناح، بتاريخ 12 قعدة الحرام 1327.

المراجــع :

- أشقرا عثمان : في الفكر الوطني المغربي، سلسلة المعرفة للجميع، نونبر - دجنبر 2000، الرباط.
- التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد 10، مطبعة فضالة، المحمدية 1989.
- التمسماني خلوق، عبد العزيز : الحركة الحفيظية والأطماع الإسبانية في شمال المغرب، مجلة دار النيابة، السنة الخامسة، العدد 17، شتاء 1988.
- سكيرج أحكد، الظل الوريف في محاربة الريف، دراسة وتحقيق رشيد يشوتي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط 2010.
- عباس جرمان، أصول حرب الريف، تعريب محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، نشر SMER، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1992.
- غريط محمد : فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان، نشر المطبعة الجديدة، الطبعة الأولى، فاس سنة 1346هـ.
- الفكيكي حسن : الشريف محمد أمزيان، شهيد الوعي الوطني 1905-1909، مطبعة ربانيت، الرباط 2008.

Sources et références :

*** Sources imprimées :**

*** Documentos presentados a las Cortes en la legistatura (D.P.C.) de 1907-1908 por El ministro de Estado Manuel Allendesalazar, Madrid 1908. Imp del ministro del Estado. Madrid 1908.**

D.P.C. 1911, Telegrama del gobernador militar de Melilla al ministro de Espana, n° 402, de 4 de diciembre de 1908.

D.P.C. 1911, Telegrama del ministro plenipotenciario de S.M. à Tanger, Merry del Val, n° 764, de 1 de noviembre de 1909.

D.P.C. 1911, telegrama del consul du Espana en Fez al ministro de plenipotenciario de S.M. en Tanger, n° 764 de 1 de noviembre de 1909.

D.P.C. 1911,Telegrama del ministro plenipotenciario de S.M. à Tanger, Merry del Val , al ministro de Estado, n° 787, de 17 de diciembre de 1909.

D.P.C. 1907-1908. Lettre du ministre d'Etat espagnol Allendesalazar aux représentants diplomatiques du Roi espagnol auprès des puissances signataires de l'acte d'Algesiras, du 1er octobre 1909, Doc n° 735. Voir aussi doc n°744 et son annexe.
D.P.C. 1911,, Telegrama del ministro de negocios exteriores jalifiana al ministro de Estado, n° 981, de 27 octubre 1910/24 chawal 1328, p; 417. D.P.C., 1911, Ibid. Telegrama n° 990, de 17 noviembre 1910/14 dou kaâda 1328.
D.P.C. 1911,, Telegrama n° 977, del ministro del Estado à los embajadores de S.M. en Paris, Londre, y D.P.C. 1911, n° 988.

*** Documents diplomatiques français, (D.D.F.). Paris Ministère des affaires étrangères. Imprimerie nationale, Paris.**

D.D.F. 1910, affaires du Maroc 1905-1910, Imp nationale. Paris 1910, doc n° 311, p. 253. Lettre de Regnault, ministre français à Tanger à S. Pichon, ministre des affaires étrangères. Tanger 9 octobre 1909.
D.D.F. 1910, Affaires du Maroc 1908-1910, annexe 1 du DOc n° 295, pp. 231-232. Traduction de la lettre de D.D.F. Affaires du Maroc, Tome V, docs n° 134 et 163.

*** Sources :**

*** Archives de Guerre, Vincennes. (A.G.V.), Service Historique de l'Armée de Terre (S.H.A.T.).**

A.G.V. C 3H16. Compte rendu de l'entretien du sergent Kouadi avec le caid Chadli, sans date.
A.G.V.3H16, Rapport du capitaire Brémod au ministre de la guerre. Rapport mensuel du mois de novembre. Fès le 3 décembre 1919.
A.G.V.C.3H16, Rapport du commandant Mangin au ministre de la guerre. Rapport mensuel du mois de mars 1909. Fès le 3 avril 1909.
A.G.V.C.3H16 Ibid. Rapport mensuel du mois de mars 1909. Fès le 3 avril 1909.

*** Archives du ministère des Affaires étrnagères, Paris. (A.E.P.)**

- (A.E.P.) Archives des Affaires Etrangères; Correspondances plolitiques et commerciales. Sous série (S.S.) : M. Maroc 1917-1940.

- (A.E.P.), Archives des Affaires étrangères. Correspondances politiques et commerciales, sous série (S.S.) : M. Maroc 1917-1940.

*** S.H.M, Servicio historico militar, Madrid. Comandancia general de Melilla. Seccion de Africa.**

S.H.M.Legago 38, Carpeta 15 ano 1909. Embajadam Marroqui, antecedentes relativos al viaje hecho por emisarios del sultan a la plaza de Melilla.

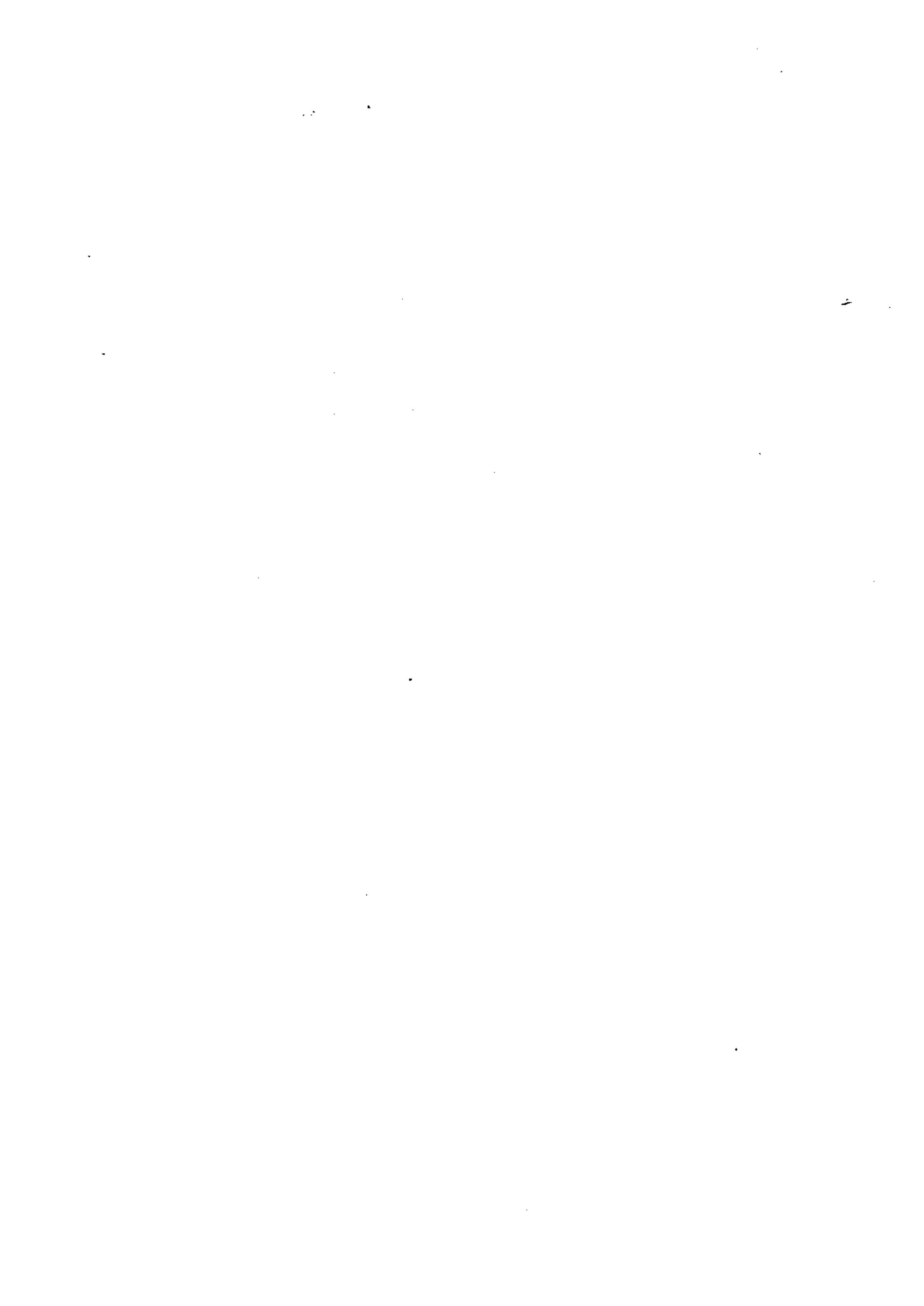
S.H.M., legago 57, Carpeta 4, ano 1910. Alto comisario del Rif, Antecedentes relativos al nombramiento de alto comisario del Rif al Kaid Ben Sanah.

Archivo general militar de Madrid (A.G.M.M.), Instituto de Historia y Cultura Militar (I.H.C.M.), Rollo (microfilm) n° 211. Carta del ministro del Estado al capitan general de Mililla de 1 octubre de 1910.

*** Réferences :**

- Laroui Abdellah, Les Origines sociales et culturelles du nationalisme marocain 1912-1930. Ed centre culturel arabe, Casablanca 1993.
- Cagigas, Isidro de las : Trados y convenios referentes a Marruecos. Publicacion del consejo superior de investigaciones cientficias-Instituto de estudios africanos, Madrid 1952.
- Madariaga, Maria Rosa de, Espana y el rif, cronica una historia casi olvidada, Ed Uned. Melilla 1999.
- Pidal, Ramon Menendez : Historia de Espana. Vol XXXV III, Espana de Alfonso XIII, et Estado y la politica. Ed Espasa-Calpe.
- Yechouti Rachid : "Les tribulutions d'une Mehalla chérifienne prés de Mililla 1907-1908", Revue Al Mesbahia, n° 7, Publication de la faculté de lettres et des sciences humaines. Sais-Fès, 2007.
- Bulletin du comité de l'Afrique française (B.C.A.F.à, n° 7. 1909.

* * *



طنجة والمنطقة الخليفية
خلال الاحتلال الإسباني للمدينة

محمد العبوتي *

شكلت مدينة طنجة مجال صراع دولي منذ بداية القرن العشرين عرف ذروته خلال الحرب العالمية الثانية، بعدما امتدت أيدي إسبانيا الفرنكاوية إليها، ساعية إلى ضمها للمنطقة الخليفية في 14 يونيو 1940 والحرب العالمية في أشدها، مما شكل، خلال الفترة، حدثا دوليا بارزا وسط المنافسة الدولية حول التحكم في القواعد الخلفية للدول المتحاربة .

1. الاحتلال الإسباني لمدينة طنجة (يونيو 1940 ـ أكتوبر 1945)

تعتبر مدينة طنجة مفتاح البحر الأبيض المتوسط، ونافذة هذا البحر على المحيط الأطلسي، يغري موقعها الجغرافي الممتاز القوى العظمى للاستئثار بقسط كبير من هذه المدينة التي «عاشت منذ اتفاقية باريس المبرمة يوم 18 دجنبر 1923 المتعلقة بتحديد نظامها الدولي، وضعية خاصة تحت المراقبة الأجنبية. أصبحت المدينة، والمنطقة المحيطة بها تخضعان للإدارة الدولية التي أنشأت أجهزة و هيئات ومجالس تدبر شؤونها، وتمارس اختصاصات إدارية، وقضائية واسعة»، من خلال هذا الوضع اعتبرت إسبانيا نفسها ذات أسبقية في تسيير شؤون المدينة.

على هذا الأساس، يبدو من المستحيل، استثناء المطالب الإسبانية حول المدينة عن الإطار العام للسياسة الاستعمارية الإسبانية تجاه شمال المغرب من جهة أو تجاه الوجود الفرنسي من جهة ثانية.

---

* باحث، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط

دخلت إذن، "المحلات الخليفية" التابعة للجيش الإسباني طنجة يوم 14 يونيو 1940 على الساعة الثامنة صباحا "لتثبيت النظام باسم السلطان"، وفرنسا في أوج اندحارها أمام ضربات الجيش الألماني الذي احتل مدينة باريس. وقد تلقى الممثل الدبلوماسي الفرنسي بالمدينة برقية من قبل الوزير الإسباني يحيطه علما بدوافع هذا "الاحتلال المؤقت"، والمحترم لكل حقوق الدول التي يهمها الأمر، وكذلك الإدارات المستقرة بالمدينة[2]، وتشير رسالة للوزير الإسباني "مانويل أميبا"[3](Manuel AMIEVA) إلى مندوب السلطان بالمدينة إلى دواعي هذا الاحتلال، وفي نفس الوقت حاول إقناع هتلر بشرعيته[4]. فقد أخذت الجالية الألمانية، والإيطالية تتجول في الشوارع معبرة عن فرحها بالاحتلال الإسباني للمدينة، واعتبرته ضربة قاسية للحلفاء وإيذانا لدخول إسبانيا الحرب إلى جانب المحور[5]. فقد أصبح الألمان انطلاقا من هذا التاريخ يلعبون دورا مهما داخل المدينة، أسسوا فيها صحافة واكبت انتصاراتهم الحربية، كنشرة الأخبار التي كانت تصدرها القنصلية الألمانية العامة بطنجة[6]، أغلب ما كان ينشر فيها يتعلق بالدول العربية، كالتقرب الذي أبداه بعض الزعماء العرب للمحور كرشيد علي الكيلاني في العراق، كما كانت تنشر بعض مقالات أمير البيان شكيب أرسلان[7]، استغل الألمان وضعيتها ليخاطبوا الرأي العام الوطني العربي، والحركات الاستقلالية بمختلف أرجاء الوطن العربي في خضم حرب الدعايات بين الدول المتحاربة.

عرفت المدينة محطات نضالية وطنية قبل اجتياح القوات الإسبانية، فقد كانت متنفسا للزعماء الوطنيين المغاربة والعرب، كما امتاز أهلها بنشاطهم الوطني منذ صدور الظهير البربري، فقد «انخرطت (ساكنتها) في الجهاز

العام للحركة الوطنية بمناسبة الاحتجاج على الظهير البربري، وتأسس بها فرع لكتلة العمل الوطني»[8]، ساهم أهل المدينة في مختلف المحطات النضالية التي قادتها الحركة الوطنية المغربية وشهدت زيارة قادة عرب كبار عرفوا بنضالهم على الساحة العربية كزيارة شكيب أرسلان للمدينة[9].

عند اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية، كان موقف غالبية أهالي المدينة مع الثوار، وسلك زعماء الحركة الوطنية في المدينة نفس النهج الذي سلكه زملاؤهم في المنطقة الخليفية، خاصة الموالين لحزب الإصلاح الوطني .ففي خضم الظروف الصعبة التي كانت تمر بها، قدم وفد من طنجة إبان الحرب إلى تطوان، أثار انتباه السلطات الإسبانية بالوضعية الصعبة التي تعيشها المدينة منذ انتصارات جيش الثوار، ناقلا مسعى لشيخ الزاوية الدرقاوية، مولاي أحمد بن الصديق، طالب فيه السلطات الإسبانية بالسماح لقبائل من المنطقة الخليفية والقريبة من المدينة التزود بحاجياتها من أسواق طنجة[10]. وحاول الجانبان المتحاربان في إسبانيا ضم شعور أهالي طنجة كل واحد لصفه، سواء المسلمون منهم أو اليهود، على الشكل الذي تم في المنطقة الخليفية :«فمن الوهلة الأولى، اعتقد الملاحظون الأوربيون أن المسلمين واليهود سيشاركون في المعركة السياسية .يساند المسلمون معسكر المحور بصفة عامة والفرنكاوي بصفة خاصة، ويساند اليهود معسكر الديمقراطيات الأوربية بصفة عامة والجمهورية بصفة خاصة» غير أن الفكرة التي يمكن استخلاصها من خطابات وشهادات المشاركين في المواجهات ومن الذين اتخذوا الحياد توضح أن المسلمين واليهود، الذين لم تكن لهم أهداف خاصة، لم يدخلوا هذه المواجهة، رغم محاولة الجانبان توظيف دورهم الثانوي في دعايتهم خلال الحرب[11].

عند احتلال الإسبان للمدينة، احتج أهلها بكل قوة وانضموا إلى صف الزعماء الوطنيين مبدين نفس الحماس والرأي فيما يخص وحدة الدولة المغربية، كما عبر عنها عبد الله كنون معارضا كل تمزيق قد يطال التراب المغربي[12].كما انضم إلى ساكنة طنجة الزعماء الوطنيون في المنطقة الخليفية الذين احتجوا بقوة كذلك، وفي مناسبات عديدة، على هذا الاحتلال، وتجاهل إسبانيا لمطالبهم[13]، خصوصا أن هذا الاحتلال تزامن مع توقيف جريدة الحرية، فاستغلها عبد الخالق الطريس في شن هجمات على الإدارة الإسبانية. أما المكي الناصري، فرغم المقالات التي كان ينشرها في جريدة الوحدة المغربية والمتعاطفة مع إسبانيا، مركزا على الصداقة المغربية ـ الإسبانية، إلا أن حدث احتلال طنجة جعله يقدم احتجاجه وينتقد عمل فرانكو الذي ما فتئ يلح على شعار"إيزابيلا" كقانون أساسي للسياسة الداخلية الإسبانية، فاعتبر الناصري هذا الاحتلال، مساسا كبيرا بالعالم الإسلامي أجمع وبالمغاربة على وجه الخصوص[14]، وفي نفس الوقت لم يخفي تعلقه بفكرة إلحاق مدينة طنجة بالمنطقة الخليفية[15].

ولم تغب هذه المواقف عن بال الحكم الفاشي في إسبانيا للاستفادة منها، أولا، تجاه العالم العربي، وثانيا، في سياسته تجاه فرنسا للتقليص من الدور الذي تلعبه هذه الأخيرة على الساحة العربية، مقدما فرنسا كعدوة رئيسية للبلدان العربية[16]. وبالنسبة لبريطانيا فقد قدمت احتجاجات عديدة لحكومة مدريد حول عدم شرعية هذا الاحتلال، ففي 13 نونبر صرحت الخارجية البريطانية بلسان "بوتلر"(R.A.BUTLER)، وأثناء انعقاد اجتماع "الغرفة الوطنية"، أنها قدمت احتجاجا لحكومة مدريد، كما أن "صامويل هوير"، السفير البريطاني في مدريد والمرسل من الحكومة البريطانية في « مهمة منع إسبانيا من الدخول في الحرب »[17]، احتج بلغة صارمة لدى"سيرانو سونيير" وزير خارجية إسبانيا[18].

ورغم الإنزال الذي قام به الحلفاء على شواطئ شمال إفريقيا في نوفمبر 1942، والضمانات التي تلقاها فرانكو من "صامويل هوير" بأن "العمليات لا تهدد بتاتا التراب الإسباني"، ومن الرئيس الأمريكي روزفلت مبلغا إياه عدم الخوف من الإنزال، إلا أن فرانكو أعطى أوامره لمندوبه السامي في تطوان "أوركاث" (wrgaz) بإلحاق منطقة طنجة بالمنطقة الخليفية في يناير 19 1943. وكتبت صحيفة التايمس ليوم 23 شتنبر 1943 أن «حكومة صاحب الجلالة تتابع باهتمام كبير تطور الأحداث في طنجة، وهي مستعدة في أي فرصة ممكنة لتقبل اقتراحات الدول ذات المصالح في المدينة حول مستقبل وضعها...، وأن حكومة صاحب الجلالة دعت الحكومة الإسبانية إلى إعادة النظر بكل جدية في الطريقة التي تتصرف بها قنصلية ألمانيا وجاليتها في استعمال المدينة لنشاطها ضد المصالح البريطانية، والمخالفة للحياد الذي اتخذته إسبانيا في الحرب»[20].

هكذا، عندما انتهت الحرب بانتصار الحلفاء وجدت إسبانيا نفسها أمام ركام من المشاكل جراء مواقفها المتذبذبة وتصرفاتها غير الحكيمة كاحتلالها مدينة طنجة دون أخذ في الحسبان مجموعة من الاتفاقيات تخص المدينة، مما تسبب في عزلة دولية لنظامها جراء المحاكمات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية.وقامت بمحاولات مختلفة قصد إيجاد مؤيدين لوجهة نظر فرانكو عبر سياسة جديدة تعمل على جلب أصدقاء جدد لتكسير عزلتها الدولية التي امتدت إلى أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، وكان العالم العربي ضمن إستراتيجيته لصنع حلفاء ولو بوزن ضعيف على المستوى الدولي محاولا خلق توازنا في المواقف حول احتلال إسبانيا لشمال المغرب الذي هو جزء من العالم العربي.

* * *

هوامش :

1. عبد العزيز التمسماني خلوق، «طنجة تحت السيطرة الإسبانية : يونيو 1940- أكتوبر1945»، العلم الثقافي، السبت 21 مارس.1993

2 - "Le coup de force de 1940 et ses incidences", Informations Nord-Africaines, n° 9, mai 1952, p. 7-8

وجاء في مقال إبراهيم الخطيب "نازيون ألمان ووطنيون مغاربة في تطوان إبان الحرب العالمية الثانية" في جريدة الاتحاد الاشتراكي ليوم 28 يناير 2000 أنه "عندما احتل الإسبان طنجة باسم خليفة السلطان، أخذت سياستهم المتغاضة عن مخطط التمرد تعرف ترددا حاسما .كانوا يتخوفون من ردود الفعل التي ستتلو عملية الاحتلال، لذا عمدوا إلى الإيحاء بأنه ليس احتلالا وإنما عملية عسكرية ترمي فقط إلى القضاء على الفوضى قبل استفحالها"

3- الوزير الإسباني في طنجة، عوض ب "ميراندا كارتين" (M. Carlos MIRANDA QUARTIN) في 15 غشت 1940.

A.B.G.R., D.A.P., S.P.E., Zone de Tanger, du 11 a 17 août 1940.

4. رسالة" أميبيا "إلى مندوب السلطان بطنجة، يوم 14يونيو.1940

"Le coup de Force de 1940", in informations Nord Africaines, n° 9, mai 1952; p. 7-8.

5. رسالة "الدوتشي موسوليني" إلى فرانكو في 25 غشت 1940.

The Spanish government and The Axis, Documents, United government printing office, Washington, 1946, p.8

6. جريدة خاصة بالولاة وبيعها كان ممنوعا، حسب ما ورد في صفحتها الأولى.

7. نشرة الأخبار ، تصدرها القنصلية العامة الألمانية بطنجة : شكيب أرسلان "خطر الروسية على العالم الإسلامي"، في ثلاث حلقات، العدد8 ليوم 10 يونيه 1942 ، العدد 9 ليوم 17 يونيه 1942، العدد 10 ليوم 24 يونيه 1942.

8. عبد العزيز التمسماني خلوق ، «مساهمة طنجة في الحركة الوطنية المغربية »، مجلة دار النيابة، العدد28، 1991، ص89.

9. نفسه، ص.89 .

10 - A.B.G.R., D.A.P., Confidentiel, Revue de la presse arabe, "Une délégation Tangéroise à Tétuan", ERRIF du 4 février 1937.

11 - Eloy MARTIN CORRALES, " Tanger Durante la guerra civil Española (1936-1939)", Les Tangerois, N° 4, automne 2002, p.21.

وقام مراسل جريدة الوقت "le temp≤" الفرنسية في مدينة طنجة باستجوابات لساكنة هذه المدينة من اليهود حول موقفهم من أحداث إسبانيا، فصرح له إسرائيلي من المدينة قائلا: «دون أن يظهروا ذلك علانية، فأغلبية إخواننا عبروا عن موقفهم منذ بداية المواجهات لصالح القضية الحكومية.صحيح أن بعض الإسرائيليين الطنجيين لم يخفوا تفضيلهم للحكومة الوطنية، لكن ما نخشاه هو إصابة إسبانيا بعدوى معاداة السامية الهتلرية، أو التأثير المتزايد لرجل الدين وانبعاث من جديد لروح محاكم التفتيش التي عانى منها آباءنا، ولكننا رعايا أوفياء للسلطان، وكل هذا لن يصلنا».

L'univers Israélite, Paris, n° 49, 5 août 1938.

-12 A.B.G.R., D.A.P., Bulletin de Renseignements Politiques et Economiques, Zone de Tanger, du 4 au 10 août, 1940.

-13 A.B.G.R., D.A.P., S. P.E., Zone espagnole, du 7 au 13 juillet 1940.

-14 Ibid., du 11 au 17 août 1940.

-15 Ibid., du 1 au 7 septembre 1940.

موقف حزب "الوحدة المغربية" من إسبانيا يتلخص فيما يلي، حسب ما جاء في منشور للحزب، وهو أن« حركة الوحدة المغربية تنظر إلى إسبانيا نظرتين مختلفتين، نظرا إلى أن بيدها في المغرب منطقة ممتلكات ومنطقة حماية، فمنطقة الممتلكات الإسبانية في الشاطئ المغربي كمليلية وسبته مما ضمنته لها المعاهدات المنعقدة بين حكومة المغرب وحكومة إسبانيا تنظر إليها الوحدة المغربية الآن كما كان ينظر إليها في عهد الاستقلال القومي قبل إعلان الحماية، ويجري فيها على مبدأ إبقاء ما كان على ما كان (سطاطوكو). ومنطقة الحماية التي فيها نفوذ إسباني فقط تنظر إليها الوحدة المغربية كجزء لا يتجزأ من التراب القومي الخاص ، وتعتبر التدخل الإسباني فيها تدخلا أجنبيا مؤقتا قائما بالخصوص على أساس الفقرة الثالثة من الفصل الأول من معاهدة فاس المنعقدة بتاريخ مارس 1912 والمعاهدة الإسبانية المنعقدة في مدريد بتاريخ 27 نونبر 1912 التي هي فرع عن معاهدة فاس بالخصوص»

حركة الوحدة المغربية في المنطقة الخليفية : تصريحها الأساسي ومطالبها العامة عام 1356 هـ/ سنة1937 م، مطبعة الوحدة المغربية ، ص.8-7.

-16 "L'Enjeu de Tanger", op. Cit., p.2.

-17 Samuel HOARE, "mon ambassade en Espagne", Hommes et Mondes, mai 1947, p.6.

-18 "le Coup de force de 1940", op. Cit., p.9.

-19 "Le Débarquement en Afrique du Nord", Informations Nord-Africaines, N° 9, mai 1952, p.9.

-20 Ibid. , p.10.

* * *

بيبليو غرافيا:

- العلم الثقافي، السبت 21 مارس 1993.
- الاتحاد الاشتراكي ليوم 28 يناير 2000.
- نشرة الأخبار، تصدرها القنصلية العامة الألمانية بطنجة، 1942
- مجلة دار النيابة،طنجة، العدد28، 1991
- حركة الوحدة المغربية في المنطقة الخليفية : تصريحها الأساسي ومطالبها العامة عام 1356 هـ /سنة 1937 م ،مطبعة الوحدة المغربية

-Informations Nord-Africaines, N° 9, mai 1952
-A.B.G.R.(Archive de la Bibliothèque Générale de Rabat) , D.A.P S.P.E., zone de Tanger , zone Espagnole, 1940.
-The Spanish government and The Axis, Documents, United government printing office, Washington, 1946, p.8.
-A.B.G.R., D.A.P., Confidentiel, Revue de la presse arabe, 1937
Les Tangérois, N° 4, automne 2002
-L'Univers Israélite, Paris, N° 49, 5 août 1938
-Hommes et Mondes, Paris, mai 1947:

* * *

مدن مغربية في خط المواجهة

كيف واجهت سلا آفة الحماية والاستيطان ؟
"المدينة المقفلة"

عز المغرب معنينو*

تمهيد : مشكل الحماية والاستيطان الأجنبيين بالمغرب كان في بداية انفتاح المراسي المغربية في وجه التجارة الخارجية أمرا صغيرا ضئيلا لا يشكل خطرا، لكنه تطور تطورا سريعا مدهشا بعد هزيمة الجيش المغربي في معركة وادي إيسلي أمام الجيش النظامي الفرنسي الزاحف من الجزائر سنة 1844 م، وهزيمته الثانية في حرب تطوان أمام الجيش الإسباني سنة 1860م، حتى انقلب إلى "نظام" مؤسس على اتفاقيات ونصوص معاهدات دولية، وعظم أمره بانفتاح أبواب المغرب على مصاريعها أمام التجارة الأوروبية ومجيئ ألوف من رعايا الدول الغربية إليه للاستقرار بموانئه، والارتباط بعلائق - أكثرها مريب - مع جماعة من المغاربة القاطنين بالمدن والقرى المجاورة لها، الذين أصبحوا بدورهم غير خاضعين لسلطة المخزن ولا يدفعون الضرائب، وصاروا بذلك يكونون دولة داخل دولة، وقضاياهم فارضة نفسها على سلطة السلطان، إلى أن انهارت هيبته وفرغ بيت ماله بكثرة مطالب ودعاوى المعمرين الأجانب، وتدخل دولهم عسكريا ودبلوماسيا بدعوى حماية رعاياها والدفاع عن مصالح تجارها، وانتهى بالمغرب إلى السقوط في نظام الحماية الاستعمارية سنة 1912 م، بعد 1200 سنة من السيادة التامة والحرية الكاملة.

---

* أستاذ باحث، المدرسة العليا للأساتذة، الرباط

تذكير : تتميما لما ذكرناه في دراستنا السابقة "النظرة النشاز التي رسمها الآخر عن سلا ـ المدينة المقفلة ـ ".[1] بقيت أبواب المدينة موصدة في وجه المستكشفين والرحالة الأجانب طيلة القرن 19 م، ولا نحتاج إلى أن نعيد ما ذكرناه سابقا فيما يخص الموقف السياسي والتاريخي الثابت للسكان وعلماء سلا المدعوم من قبل المخزن، من منع دخول النصارى عموما إلى داخل المدينة أو سكنهم بين ظهرانهم كيفما كانت هويتهم، وأذكر هنا بأن المدينة تنصلت من مقررات مؤتمر مدريد المنعقد سنة 1880 م،[2] خاصة البند رقم 11 الذي يعطي الأجانب بالمغرب حق اقتناء ممتلكات عقارية بترخيص من المخزن في كل المدن المراسي المغربية الثمانية الممتدة من تطوان وطنجة إلى الصويرة دون المدن الداخلية، وكذا حق شراء أو كراء الأراضي الفلاحية المجاورة لها على مدى جغرافي يمتد حوالي 10 كيلومترات، وبرر السلويون عدم خضوعهم لهذا البند بكون مدينتهم لم تعد لها مرسى على نهر أبي رقراق لان الضفة السلوية اليمنى أصبحت مثقلة بالرمال والغرين والحجارة، وأن كل المراكب التجارية الواردة إلى المرسى المذكورة تحط رحالها بالضفة الرباطية اليسرى، وبالتالي مدينة سلا لا تدخل في مجال مرسى الرباط.

أولى محاولات الاختراق :على غرار ما فعله الأوربيون في باقي المدن المراسي المغربية الأطلسية، والتي شهدت توافد واستقرار أعدادا كبيرة من المعمرين الأجانب، اشتروا بها العقارات والأراضي الفلاحية في شراكة مع المحميين المغاربة، حاولوا جاهدين اختراق أبواب مدينة سلا المقفلة في وجه النصارى، في البداية لجأ التجار الأوروبيون إلى استخدام وإشراك بعض يهود

سلا في معاملاتهم التجارية كوسطاء وسماسرة، منهم باروخ بن طاطا السلوي سنة 1846 م، والأخوين يعقوب وابراهام رفائيل شوطو سنة 1904 م، وأفرايم حسان السلوي سنة 1912 م، وحيم بن يوديس السلوي[3].كما استقدموا يهودا من أوربا من ذوي الخبرة وأسكنوهم بملاحها، من بينهم اليهودي سالمون بيطون الذي قدم من جبل طارق، وكلفه التجار الإنجليز سنة 1864 م بمخالطة أناس من قبائل عامر وبني أحسن وسهل الغرب في الفلاحة والكسب، ولزجر هذا اليهودي المستوطن بسلا عن الدور الذي أصبح يطلع به داخل ملاحها وفي القبائل المجاورة للمدينة، تعرض للضرب والسجن على يد قائد عامر الغازي العامري[4]، بإيعاز من عامل سلا الذي تظاهر بالحياد في هذه القضية، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن تدخل قنصل إنجلترا بالرباط[5]. واليهودي إسحاق أنفا الذي استقدم من الجزائر كمحمي فرنسي وأسكن بملاح سلا، قام بكراء حانوتين من أملاك الأحباس لبيع المنتوجات المستوردة المصنعة والرخيصة والمنافسة للمنتجات الحرفية المحلية، تعرض هو الآخر لعدة مضايقات كرفع السومة الكرائية عليه[6]. وفي سنة 1898م طلب القنصل الإنجليزي بالرباط من عامل سلا عبد الله بن سعيد السلوي، بأن يعين محلا بالمدينة يسكنه طبيب من جنسه "تطوع" لتقديم خدماته العلاجية لسكانها، فأجيب طلبه بالرفض وأبلغه العامل المذكور رسميا بأن السماح للأجانب بالاستيطان داخل سلا ليس من خطته "والسكن لم يجر بها عادة"[7]. على العموم وجدت فرنسا وغيرها في الطائفة اليهودية موضع قدم لها داخل سلا، ونصبت نفسها مدافعة عن حقوقهم.

انخراط السلوين في الحماية القنصلية :سؤال يصعب الإجابة عنه، فحسب قوائم المحميين التي تسلمها القنصليات الأجنبية بالمغرب إلى الإدارة

المخزنية، نشر الباحث مصطفى بوشعراء السلوي في مؤلفه القيم "الاستيطان والحماية بالمغرب ما بين 1863 م و1894 م[8]" أسماء بعض السلويين الذين دخلوا مبكرا في المخالطة والحماية، في مقدمتهم سنة 1879 م السيد بوعبيد ولد الحاج موسى سمسار التاجر H.Mateios، لكثرة تردد هذا التاجر الإنجليزي على أسواق سلا وأحوازها لشراء الثيران وتصديرها نحو مستعمرة بريطانيا بجبل طارق. وفي القوائم الفرنسية العامة نجد أحمد بن الهاشمي السلوي ومحمد الورديغي وكلاهما سمساران لتجار فرنسيين مابين 1880 م و1891 م .وفي القوائم الألمانية لسنة1884 م نجد التاجر أحمد الصابونجي، وإدريس حصار وأخاه بنعاشر، وكلهم دخلوا في منازعات ودعاوي مع تجار ألمان بعد أن اشتروا منهم آلات ادعوا أنها فاسدة وامتنعوا عن الأداء، فرصة استغلها خليفة عامل سلا أحمد الطالبي السلوي وقام بسجنهم سنة1901 م[9].

كلما اقتربنا من نهاية القرن19 م تزايد عدد المعمرين بشكل تصاعدي، أي أن نسبتهم تضاعفت 50 مرة في ظرف ستين سنة، كما هو مفصل في الجدول التالي:

عدد المستوطنين الأجانب بالمغرب	السنوات
200/250 نسمة	1832م
700 نسمة	1858م
1360 نسمة	1864م
1650 نسمة	1872م
3000 نسمة	1880م
6000 نسمة	1890م
9000 إلى 10000 نسمة	1894م

على العموم ظلت أعداد المحميين بسلا ضئيلة خلال النصف الثاني من القرن 19 م، مقارنة مع عددهم في جارتها الرباط، فمن بين 63 محميا و34 سمسارا بالعدوتين وأحوازها، نجد حوالي 7 أشخاص من قاطني سلا بنسبة (7٪ فقط)، أما في طنجة مثلا بلغت نسبة الأوروبيين بها سنة 1872م 60٪ من بين مجموع سكانها، و 52٪ من سكان الدار البيضاء سنة 1885م، وكذلك الأمر بالعرائش وأصيلة والجديدة وآسفي والصويرة، معظمهم من المغامرين الباحثين عن الربح والغنى خارج أوربا[10].

وضعية المحميين قبيل سنة 1912 م : متابعة لتطور هذه الظاهرة في سلا، وبعد بحث مضن دام حوالي سنتين في محافظ الخزانة العلمية الصبيحية بسلا عثرنا على أعداد لا بأس بها من الوثائق الدبلوماسية ؟ فوق ما كنا نعتقد بوجوده ؟ تؤرخ لطبيعة وملابسات العلاقات المعقدة التي كانت في أغلب الأحيان متوترة بين قناصل الدول الأوروبية بالرباط وممثلي سكان سلا، لموقفهم العدائي الصريح من كل سلوي حاول لأسباب مختلفة التموقع إلى جانب الآخر القوي اقتصاديا وماليا وسياسيا. ورغم إجراءات المقاطعة والازدراء والعقاب الجسدي أحيانا ضد من فضل الخروج عن الجماعة السلوية، لاحظنا أن بعض السلويين تجرؤوا على الخروج عن الجماعة، خاصة بعد انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 م، وقصف و نهب الدارالبيضاء في غشت 1907 م، وتهديد البوارج الفرنسية بقصف سلا المتهمة علانية بمعاداة النصارى .إذا ما وقع بها اعتداء على المحميين أو المخالطين لتجارها، حيث نلاحظ في قوائم المحميين بسلا[11] أن أعدادهم تزايدت نسبيا في شتى المجالات التجارية مع الأجانب، وانضاف إليهم ولأول مرة بعض أعيان وأشراف المدينة، أكثرهم فضل الدخول في الحماية الألمانية كسماسرة

نظرا لمواقف قادتها المؤيد لبقاء المغرب دولة مستقلة، ولتسهيلات تجارية ومالية كان تجارها يقدمونها للمتعاونين معهم، أذكر منهم :مولاي أحمد الصابونجي، وإدريس بنبراهيم الدكالي السلوي، والحاج المختار بن حجي السلوي، ومولاي حسن العلوي ومولاي المكي بن المهدي العلوي السلوي، وأحمد بن محمد الأحرش السلوي، ومحمد بن أحمد النجار السلوي، والقائد عبد الله بنسعيد السلوي، والبشير بن عبد العزيز معنينو السلوي وغيرهم...، وفي القوائم الإنجليزية نجد محمد بن عبد الهادي زنيبر سمسار، والحاج عبد السلام الحمدوشي مخالط للطبيب الإنجليزي، وحجي بن محمد زنيبر مخالط في التجارة، وهناك مجموعة أخرى من أعيان وأشراف سلا فضلت الانتماء إلى الحماية القنصلية الفرنسية أذكر منهم محمد لعلو السلوي، ومحمد حصار السلومي، والمكي بن عبد الرحمن الطالبي السلوي، والشريف محمد الكتاني، ومولاي احمد بن عبد السلام الوزاني، والحاج عبد الواحد الغربي، والمكي بن محمد العزوزي وغيرهم[12]..

مع اشتداد الأزمة المغربية وانهيار السلطة المخزنية أصبحت الحماية القنصلية ضرورية حسب رأيهم آنذاك، وذلك من أجل الدفاع بها عن أنفسهم وعائلاتهم وتجارتهم، يفهم من ذلك بأن انقساما أو شرخا ما حدث داخل الجماعة السلوية، ففريق فضل الحماية الألمانية لاعتبارات سياسية سبق ذكرها، وفريق آخر رأى من مصلحته ومصلحة مدينته التجاوب بإيجاب مع التيار التجاري السياسي الفرنسي المتصاعد داخل المغرب، وبالتالي الاستفادة منه مثلما فعلت الجارة الرباط وغيرها من المدن المغربية، واعتبر معاداة هذا التيار الفرنسي القوي سيزيد من تأزيم أوضاع سلا الاقتصادية، وسيجرها لا قدر الله إلى الاصطدام العسكري مع فرنسا مثلما حصل لمدينة

الدار البيضاء من قصف بحري عشوائي لسكانها الآمنين في صيف سنة 1907 م.

الانفتاح الحذر عن الغرب :من أهم المفكرين الذين برزوا بسلا في ميدان تجديد الفكر الإصلاحي المؤرخ أحمد الناصري السلوي ، فإنتاجه المطبوع منه والمخطوط ومجموع أفكاره يمكن اعتبارها بمثابة أنوية مشروع نهضة.لقد كان من دعاة إصلاح عيوب و أساليب التعليم التقليدي ، و محاربة مظاهر البدع و الطرقية، ومنع تناول الأعشاب المخدرة ، وفرض المكوس الغير شرعية، والانفتاح الحذر على الغرب القوي والاحتياط من محاربته، وبأخذ العبرة مما حصل بالمشرق العربي وغير ذلك. فبحكم تكوينه العلمي واشتغاله في الوظائف المخزنية خاصة بالمراسي المغربية، واحتكاكه المباشر بالتجار الأجانب المقيمين والوافدين إليها، تفطن إلى المشاكل التي أصبح يطرحها التدخل الأجنبي قائلا"... وكثر خطارهم وتجارهم بمراسي المغرب، وازدادت مخالطتهم وممازجتهم بأهله ...وانفتح لهم بابا كان مسدودا عليهم من قبل..."[13]، لذلك حاول رصد الآثار السلبية للانفتاح التجاري العشوائي على أوروبا، وما نتج عنه من تردي اجتماعي، "...ولعمري أن في اختلاطهم بنا ، وممازجتهم لنا لمضرة و أي مضرة ، ومايعقلها إلا العالمون..." لقد كان العلماء لسان حال السكان المتضررين.

المصادر المتعلقة بالأملاك العقارية : أهمها كناشة الحوالة الحبسية السلوية، وتتضمن مائة وخمس وستين صفحة، منظمة ومكتوبة وفق الطريقة العدلية تذكر اسم المحبس ونوع الملكية وحدودها وشروط الوقف وغير ذلك، كما تذكر قيمة الإيرادات التي تصرف على أهل العلم. ولمنع الأيدي من

غصب أملاك الأحباس كلف السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان قاضي سلا العلامة أبا بكر عواد بإعادة ضبط كناشة الحوالة السلوية القديمة، مهمة صعبة ومعقدة أسندت إلى العلامة المؤرخ أحمد الناصري الذي تولى ضبط وترتيبا أوقافها، والتنقيب على ما ضاع منها، ورده إلى أصوله، وبعد سنين من الاجتهاد والبحث في الأصول، جاءت الحوالة الحبسية السلوية الجديدة سنة 1868 م في أحسن تقويم، وهي المعتمدة والمرجوع إليها اليوم .والمصدر الثاني هي كنانيش الأملاك المخزنية، وتحوي الخزانة الحسنية بالرباط العديد منها، إلا أنه يمنع على روادها من الباحثين إلى حد اليوم - سنة 2004م - الاطلاع عليها[14]، لأسباب نجهلها ،ومن حسن الحظ أننا تمكنا من الاطلاع على إحدى هذه الكنانيش السرية بالرباط و العلنية بالخزانة الصبيحية بسلا، تعرفنا من خلالها على جميع تقاييد الأملاك المخزنية بسلا وأحوازها، من عقار وجنان وبلادات الحرث المكترى منها والمنفذ للكراء أو بلا كراء على وجه الانتفاع أو كانت مهملة ،واسم كل منها وحدودها ومحلها وقدر مساحتها طولا وعرضا، وبيان قدر الكراء الذي كان يعطيه المتصرف فيها، والزيادة الكرائية التي قومت بثمن وقت الإحصاء، وقد أشرف على هذه العملية عامل سلا ومحتسبها وناظرا أحباسها وأمين مستفادها الهاشمي الصبيحي و أبو المواريث أحمد بن الأمين عبد الرحمان بو علو ،وأمينا مرسى العدوتين محمد بن البشير الفاسي وأبو بكر جسوس الرباطي ،والأمينان محمد حصار ومحمد بوحموش، والمهندسان المكلفان بتصوير الأملاك المذكورة الحسن بن محمد الزعري السلوي ومحمد بن علي بن سالم الرباطي[15]، ونستنتج مما ذكر أن المخزن منذ سيدي محمد بن عبد الرحمان إلى المولى عبد الحفيظ لم يكن غافلا عن ما يجري بسلا، وأنه بذل جهده في تقييد وإحصاء الأملاك التي تعود فوائدها عليه، وقد لعب القضاة دورا حاسما في الحفاظ عليها.

القاضي الحاج علي عواد: ولد بسلا سنة 1844 م، ودرس بمسقط رأسه ثم قرأ بمدارس فاس نحو ست عشرة سنة، تولى القضاء الشرعي بسلا وأحوازها سنة 1891 م، خلفا لقاضيها محمد بن الطالب معنينو المتوفى، وفي سنة 1898 م نقل إلى مراكش كنائب لقاضيها ثم عين قاضيا بالجديدة وبعدها بآسفي، إلى أن عاد في ظروف عصيبة إلى منصب القضاء بسلا للمرة الثانية سنة 1901 م. برز كزعيم للجماعة السلوية في فترة الاضطرابات التي سبقت فرض عقد الحماية، وشارك بكل قوة في مقاومة الإصلاحات المتنوعة التي يفرضها الأجنبي بغرض التوغل داخل مدينة سلا والقرى المجاورة لها[16]، متبنيا أفكار وآراء المؤرخ أحمد الناصري، وتكمن قوة شخصية عواد في تكوينه الديني المتين و روحه الصوفية و مرجعيته العائلية باعتباره قيدوم أسرة عريقة في الرياسة والجهاد والعلم والقضاء وتولية خطة الإفتاء والإمامة والتدريس بالجامع الأعظم بسلا وببعض الزوايا والمساجد الأخرى، ومنصبه الشرعي مكنه من سلطة واسعة على المدينة وأحوازها الممتدة إلى قصبة مهدية، مثل مراقبة ناظري الأحباس وأبي المواريث والمحتسب وغيرهم ،إضافة إلى روابط المصاهرة التي جمعته مع كبار العائلات السلوية كآل الناصري والجريري والجعيدي، وروابط التلمذة بالنسبة لعدد كبير من أبناء أعيان سلا الذين درسوا عليه أو على يد أخيه العالم القاضي أبي بكر عواد شيخ أحمد الناصري بامتياز، إلى جانب عطفه وتقديره للشرفاء وأصحاب الأضرحة والطرقيين، فهويته الجماعية وسط ساكنة المدينة جعلت منه محورا رئيسيا لكل أنشطتها ،ومرجعا أساسيا لابد من المرور عبره لإحداث أو تغيير أي شيء بسلا، وكذلك بأحوازها لما عرف به من علاقات حميمية ذات صبغة دينية مع أعيان وشيوخ قبائل احصين وعامر والسهول، فضلا عن كونه

ميسورا له عدة أراضي وأملاك عقارية، ويتمتع بامتيازات مخزنية وحظوة كبيرة لدى السلطان وجهازه المركزي، وعلاقة وثيقة مع كبار علماء الرباط وفاس ومراكش و المشرق العربي، وعلاقة صداقة وثقة مع قناصل ألمانيا بالرباط.

منذ تنصيب علي عواد قاضيا على سلا و أحوازها، في العقد الأول من القرن 20 م وهو في صراع دائم ومستميت مع قناصلة وتجار ومحميي فرنسا بالعدوتين، استعمل خلالها كل الوسائل والحيل لمنع تسربهم أو بسط نفوذهم داخل المدينة واحوازها، فكل عملية تهدف بيع أو كراء إحدى عقارات سلا إلى الأجانب والمتعاونين معهم، حتى ولو تمت بأساليب ملتوية أو تحت الإغراء والضغط والتزوير فإنها تفشل عند التسليم أو الإشهاد العدلي. لذلك بقيت عقارات المدينة والأراضي المجاورة لها سالمة من التفويت نسبيا ومراقبة من طرف قضاة المدينة، عكس ما حصل بالقبائل المجاورة للمدن المراسي الأخرى من تجاوزات في بيع الأراضي بطرق غير شرعية وبأبخس الأثمان للتجار المغاربة واليهود وأهل الحماية والأجانب، حتى اضطر السلطان مولاي الحسن الأول إلى منع عدول البادية من الإشهاد في مختلف المبيعات، إلا إذا أجاز لهم قضاة المدن المراسي، خوفا من تواطئهم على تفويتها بدون موجب[17]، والقيام بحملة إحصائية لجميع الأملاك المخزنية بالمغرب.

ومن الجانب الآخر كان قناصلة فرنسا بالرباط يشتكون من الحاج علي عواد لدى سفرائهم بطنجة ،ومما جاء في إحدى شكايات القنصل لو بيري، أن قاضي سلا "يقول للناس هذا هو حكم الشرع، والذي امتنع عنه ما بقي له سوى شرع الفرنسيس"[18]. أما القنصل الفرنسي بالرباط لاريش

LERICHE فكان يناور و يضغط بقوة على عامل سلا الصبيحي ليمنع القاضي عواد من الدخول في أمور التجارة والعقار، قائلا في تهديد مبطن" صبرت غاية وفوق النهاية ولا بقية سوى أرفع الأمور لدولتنا لتكون على بال"[19]، وعاتبه في رسائل أخرى بعدم الوقوف إلى صفهم في الدعاوى المسجلة بسلا، ويطالبه بنقل بعضها إلى قاضي الرباط ليفصل فيها[20]، أما التاجر الفرنسي لوي مرسي فقد اتهم القاضي عواد مرارا بالمماطلة في دعاوى أصحاب الحماية المرة بعد المرة، وأنهم يتعرضون إلى العنف من قبل سكان سلا والنهب بالقبائل، حتى ضاق بهم الحال ورفعوا شكاياتهم إليه، ونبهه في الأخير ليعود إلى الصواب حسب زعمه وإلا فلا يلوم إلا نفسه في ما عسى أن ينجم عن ذلك من العواقب[21].

بعيد سقوط العدوتين في يد الجيش الفرنسي :مباشرة بعد احتلال الحملة العسكرية الفرنسية لمدينة الرباط في مارس1911 م، فرضت نفسها كقوة بديلة للمخزن بالعدوتين، تنفذ أوامر قنصل فرنسا بالرباط LERICHE الذي لم يتوان في إظهار رغبته الجامحة في اختراق أسوار سلا بالقوة، والعبث بكل ما هو مقدس فيها، وفق مخطط اقتصادي وسياسي يواكب الزحف العسكري نحو فاس لفك حصار القبائل للسلطان مولاي عبد الحفيظ، الغرض منه هو شراء السواني والعقار بسلا، والأراضي في عامر وحصين وبني أحسن وسهل الغرب.و مواكبة لذلك ازداد ضغط كبار التجار الأجانب وممثلي دولهم على قاضي سلا ليفتح أمامهم شرعية كراء العقار داخل المدينة، بدعوى إسكان ضباط البوليس الدولي وكبار الفرنسيين المشتغلين بسلا، إلا أن القاضي عواد منع العدول من القيام بذلك،معللا رفضه بأن المخزن لم يأذن لهم[22]، ملقيا القبض على كل مخالف لأوامره،

ولتفادي تهديدات البوارج الفرنسية باللجوء إلى قصف مدينة سلا من جهة البحر كما فعلت سنة1851 م، وافق القاضي بحذر شديد على بعض عقود البيع تخص تجارا من ألمانيا وفرنسا فقط، ليمنع بذلك ممثل فرنسا وتجارها من حق الانفراد بهذا الامتياز، ولتبرئة نفسه مما قد يتهم به، بعث مرسولا إلى عامل المدينة الصبيحي ليلا و على سبيل السر يستفسره بدهاء عن حقيقة موقف المخزن، وهل هو موافق على البيع أم لا ـ قائلا : "فلتسر لنا بذلك ليكون التمشي عليه مستقبلا ـ الجواب مكتوب"[23].

مادام قبول البيع أصبح أمرا لا مفر منه، فمن الأحسن حسب وجهة نظر القاضي عواد تفضيل التجار الألمانيين عن الفرنسيين المتنافسين على غزو أسواق سلا واحوازها، لانخفاض أثمنة أراضيها الفلاحية بسبب ما حصل لأصحابها من إفلاس ونهب جعلهم يقبلون على بيعها، لذلك أوعز للعدول كتابة عقود الشراء للتجار الألمان، وتسهيل الإجراءات المتعلقة بتسجيلها بكنانيش المحكمة الشرعية بسلا، مثلا بيع دار القايد المهداوي للتاجر فوك الألماني بقصبة مهدية، مع غض الطرف عن من يتعرض أو يطعن في البيع[24].

هذه المضاربات العقارية لم تكن محصورة بين الأجانب فقط، بل شاركهم فيها كبار تجار الرباط وعلى رأسهم التاجر الأمين الحاج عمر التازي، الذي بعث من فاس بخمسين ألف ريال لنائبه محمد المريني الرباطي، ليشتري له عن طريق السمسار الدكالي السلوي أراضي وسواني بسلا جهة مطانة (وتسمى اليوم بطانة)وغيرها[25]. بتنسيق مع صديقه وشريكه التاجر العامل الطيب الصبيحي، الرافض بدوره دخول التجار الأجانب مجال نفوذ سلطته الإدارية لتظل حكرا على فئة من التجار المغاربة كان هو واحد

منهم، وتعزيزا منه لموقف القاضي الذي يتلاءم مع مصالحه .وللتخفيف من الضغوط والإحراج الذي يتعرض له، بعث يذكر السلطان مولاي عبد الحفيظ بأن بيع العقار للأجانب غير جاري بسلا، ولا إذن له من جانب المخزن بالمساعدة على ذلك، مما يجعل التجار الأجانب يذهبون شاكين لقناصلتهم بالرباط أو لسفرائهم بطنجة ليضغطوا من جهتهم على النائب السلطاني بطنجة محمد الجباص، والحاكم العسكري بالرباط ليساعداهم على تملك العقار بسلا دون معارضة[26].

مثلا لما منع نائب قاضي سلا التاجر جورج بنزويك الفرنسي من شراء أراضي فلاحية بحوز سلا بواسطة السمسار محمد الشرقاوي، ذهب شاكيا عند القنصل لاريش ليتولى مطالبة واستعجال عامل سلا على أن يسرح البيع، معتبرا أن القانون لا يخول لنائب القاضي منع شراء البلادات سواء للمسلمين أو للنصارى أو اليهود[27]، فأجابه الصبيحي بما يتحجج به عواد، بأن عدول سلا لا يتعدون في الإشهاد على نحو ذلك ما لم يرد عليهم الإذن في بطاقة المخزن[28].

دخول تجار الولايات المتحدة الأمريكية في المنافسة : احتجاجات وضغوط لم تعد مقتصرة على تجار فرنسا وألمانيا ،بل شاركهم فيها منافسون من دول أخرى، كمثال التاجر الذمي يوسف عمران قزيز الموظف بسفارة الولايات الأمريكية المتحدة بطنجة، اشتكى لدى سفيرها بأنه لما كان في الرباط قدم إلى سلا واشترى سانية بقرب أسوارها، داخل منطقة عشرة كيلومترات المحيطة بالمدينة جهة مطانة، كما تنص على ذلك اتفاقية الجزيرة الخضراء، وأن قاضي سلا عواد أذن للعدول بكتابة العقد الابتدائي،

وبعد عودته إلى الرباط بلغه أن القاضي منع العدول من تسجيل رسم الشراء باسمه بل ولا حتى باسم سمساره الشرقاوي، واستجابة لشكايته تقدمت سفارة أمريكا الشمالية باحتجاج رسمي للمخزن، مطالبة بالمساواة بين الأجانب، ومعاملة محمييها بمثل ما عومل به تجار فرنسا وألمانيا وهم ابروندة وفوك ونظافة. ؤظعؤيطهظ وبكل صراحة أجاب قاضي سلا عن استفسار النائب السلطاني بطنجة محمد الجباص "بأن أولئك التجار اشتروا بالقوة"[29]. فاستغرب الجباص مما صرح به عواد، وكتب إليه ليذكره بما جاء في عقد الجزيرة الخضراء من شروط تلزم المغرب بعدم التمييز بين دولة وأخرى، وأمره بالتحري في القضية وأن" يجري التاجر المذكور مجرى أمثاله فيما ذكر مما يخوله له العقد المذكور"[30].

وخوفا من أن تتعرض الأملاك المخزنية داخل سلا ومهدية وأحوازهما إلى التفويت، كلف الوزير المقري ناظر سلا أحمد الطالبي مع عدلين عينهما القاضي،بالقيام بحملة كبيرة لإحصاء وتقييد كل البناءات والسواني والأراضي الفلاحية في سجل خاص حفاظا عليها من الضياع[31]، أما المحميين فكان القاضي يماطل في تسليمهم أصول عقود الكراء أو البيع لمدة طويلة تصل إلى أكثر من ستة أشهر، مثلا لما وافق إبراهيم الغزواني على بيع أرضه بسلا لتاجر فرنسي وفق شروط اتفاقية مدريد، حضر المشتري عند القاضي ليحوز التصريح بذلك ،لكن هذا الأخير أبطل البيع واستدعى البائع وخوفه إن أقدم على ذلك، فرد عليه القنصل الفرنسي لاريش بأن كلامه غير معقول وأنه يريد "سفك الدماء و تفاقم الأمر"[32]. تهديدات لم تثن القاضي عن الوقوف بصرامة و عنف في وجه كل من يريد اكتراء أو بيع عقار للأجانب، كما حصل مع المحمي محمد بن العربي الدكالي[33].

فصل قضاء سلا عن أحوازها : استغل الحاكم العسكري بالرباط ذهاب القاضي عواد لأداء فريضة الحج أواخر سنة 1910 م، و أصدر قرارا يلزم العامل الصبيحي بفصل قضاء سلا الشرعي نهائيا عن قبيلة عامر، وبالعمل على جعل القبيلة مستقلة بنفسها تحت نظر قاض جديد عينه بنفسه، كان في ما قبل نائبا لقاضي سلا على عامر إلى أن قبض عليه بعدما اتهمه عواد بكتابة الزور وارتكاب الجرائم[34]، وهذا نص التعيين "اقتضى نظري (الحاكم) أن سيدي محمد بن محمد النصرى الذي بيده ظهير جلالة السلطان يكون قاضيا على قبيلتي عامرو حوز سلا، وما يعدلون في تلك القبيلة سوى العدول الأربعة المذكورين بعده وهم"[35]، وهدد نائب القاضي وعدول سلا أنه سيجري عليهم عقوبة شديدة، إن كتبوا أو أثبتوا رسوما تخص سكان عامر وحوز سلا، ما عدا القاضي والعدول الأربعة المعينين من طرفه، وجعل مقر محكمتهم بدار القائد العروسي، وعملهم الأسبوعي يوم سوق الاثنين، والقاضي محمد النصري العمري يكون نازلا بسيدي عياش، ويقدم في كل خمسة عشر يوما لقبيلتي عامر وحوز سلا ليثبت رسوم العدول وينظر بنفسه في الدعاوي المهمة[36]. لم يكتف الحاكم الفرنسي بتقليص سلطة القاضي عواد على سلا دون أحوازها، بل حتى داخلها منعه من إدخال المتهمين إلى سجنها، وأعطى صلاحية ذلك للعامل الصبيحي وحده."والذي أوجب عليه السجن من قبل القاضي.لابد منه أن يأتي إليك ويخبرك وأنت تأمر بإدخاله السجن"[37]، وأن تسجل بنفسك أسماء المساجين في كناشة خاصة، وسبب سجنهم وتاريخ ابتدائه وانتهائه، ونبه الصبيحي أن كناشة السجن ستكون تحت مراقبته، أما مصاريف تموين السجناء فأبقاها الحاكم العسكري الفرنسي بالرباط جارية على مالية أحباس المدينة البئيسة[38].

وقبيل عودة القاضي علي عواد من الحج، كانت الأوامر الواردة من الرباط إلى سلا قد نفذت، ولم يعد أحد يسجن بسلا إلا على يد عاملها، ولم

يعد يسمح للقاضي أو المحتسب أو الناظر أو لنقيب الأشراف العلويين إدخال أحد إليه، وأن السجن ليس به الآن من مساجينهم سوى واحد فقط[39]. وتوخيا من الإدارة الفرنسية إهانة المساجين أمام سكان سلا، لأن غالبيتهم من مقاومي القبائل أو الرافضين لسياسة الاحتلال، فرض عليهم الخروج من السجن في النهار وارتداء ثوب خشن" خنشة "فوق ملابسهم لضرب المركز، أي تجصيص الطرق بالحجر لمرور قوافلهم، كما فعل بالوطنيين في بداية الحماية، وليس الغرض تكوين السجين مهنيا أو دعمه ماديا لإعادة دمجه في المجتمع بعد إطلاق سراحه كما كان معمولا به في سجون أوربا آنذاك.

محاولة لتجاوز الواقع المفروض :بعد عودة القاضي عواد من الحج إلى مسقط رأسه في بداية مارس1911 م، وجد نفسه مجردا من معظم سلطاته الشرعية، الأمر الذي أثار غضبه ورفضه القاطع لكل ما فرض على نائبه أثناء غيابه، وتشبث بشرعيته الدينية وبالإدارة المخزنية المنهارة، وأكد في شاكيته إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ على أنه منع من سجن من يستوجب السجن شرعا، وأنه يتوفر على كتاب شريف صادر في 18 شعبان1326 هـ 15/شتنبر1908 م، ينص على قصر الأمور المتعلقة بخطة القضاء عليه وإسناد النظر فيها إليه، وأنه لا سبيل لمن يروم الدخول معه فيها من عامل أو غيره، دون أن ينتقض أو يطعن في تعيين قاضي عامر الجديد المستقل عن سلطته لتوفره على ظهير شريف سابق .وتعزيزا لمطالبه توصل عامل سلا باستفسار من الوزير محمد الجباص عن السبب الحامل على ذلك ،وطلب منه أن يشرح الواقع شرحا شافيا[40]. وبتنسيق بين القاضي ونائبه أحمد بن أبي بكر عواد والعدلين السلويين العربي حمدوش ومحمد بن دحمان عقدوا رسم بيع أرض تابعة لأحباس المدينة تتواجد خارج أسوارها، تفاديا لتفويتها إلى مالكين أجانب، غضب لذلك الجنرال الحاكم بالرباط واعتبر البيع تحديا

لسلطته، ولمنع تكرار ما حصل فرض على نائب القاضي ذعيرة قدرها مائة ريال" جزاءا لهم على فعلهم لأنهم عقدوا أمرا خارجا عن القوانين والقواعد الشرعية[41]"، بمعنى آخرالحاكم الفرنسي نصب نفسه حاميا للشرع الإسلامي، وألزم عامل سلا أن يتوجه إلى مكتبه بدون تأخير، على أن يحضر معه القاضي علي عواد باعتباره المحرك الفعلي لهذا البيع المتحدي، وكذلك الناظر مصحوبا بكناشة الحوالة الحبسية لسلا، من أجل مساءلتهم وتأنيبهم، وعرض القضية على أنظار قاضي الرباط ليبث فيها[42].

إضعاف سلطة قاضي سلا ترمي إلى منعه مستقبلا من الوقوف في وجه الرأسمال الأجنبي وخاصة منه الفرنسي المتهافت على شراء أو كراء ملكيات شاسعة من أشخاص يدعون أنهم أصحابها بأثمان دون ثمنها الحقيقي، مستغلين الفوضى الشاملة التي شهدها ميدان العقار بالمغرب، والمتمثل في تفويت الأراضي المخزنية والحبسية والجماعية إلى الخواص أو الأجانب بطرق ملتوية، شارك فيها ممثلو المخزن من وزراء وعمال وقواد وقضاة وعدول وتجار وأشراف،كل واحد يبحث عن نصيب في هذه العمليات.

فرض رموز دولة فرنسا المحتلة : في سياق خطط الفرنسيين الممنهجة لبسط نفوذهم على المدينة كلها، أمر عامل سلا الصبيحي بإحصاء كل الممتلكات الحضرية والفلاحية التي في حوزة السكان ليؤدوا عليها الضرائب، بدون استثناء أو إعفاء، ومن أخفى أمواله أو كذب تفرض عليه ضريبة مضاعفة، وألزم العامل بإخبار الناس بواسطة البراح في الأحياء والأسواق والدواوير التابعة لسلطته[43]، ودعا الحاكم الفرنسي العسكري بالرباط العامل الصبيحي إلى القدوم صحبة أعيان سلا إلى الرباط لتقديم التهاني بمناسبة حلول أعياد رأس السنة الميلادية (1911م - 1912م)[44]،

والتي أصبح التأريخ بها جاريا في كل الوثائق والمراسلات الرسمية إلى جانب التاريخ الهجري، وقبلها صدرت مراسيم تدعو الجميع إلى المشاركة في احتفالات عيد الجمهورية الفرنسية في 14 يوليوز1911 م، وإقامة استعراض عسكري بالرباط يحضره عاملا العدوتين وأعيانها، مع إلزام طبجيتها بضرب مدافع الشارة من الأبراج على العادة في الأعياد الإسلامية أو عند قدوم السلطان[45].

وتجنبا لكل ردود فعل سلبية أو عصيان كانت سلا مراقبة من طرف العديد من المخبرين، يرصدون ما يقع داخل المساجد والزوايا والدروب والأبواب، وعلى سبيل المثال لا الحصر ،لما حضر إلى المدينة شيخ الطريقة التيجانية سيدي محمد بن البشير لأسباب نجهلها، لم يبلغ به الباشا الصبيحي الحاكم العسكري بالرباط، وقام غيره بذلك، فأدب العامل على تهاونه أو تستره بذعيرة قدرها خمسون ريالا ،ونبهه إلى أن يخبر بكل صغيرة أو كبيرة تقع في دائرة مسؤوليته[46].

احتلال أخطبوطي مكن الحاكم الفرنسي من سحب البساط من تحت أقدام القاضي أولا، ثم العامل ثانيا، بعدما أجاز لعدول سلا ونواحيها الإشهاد على الأجانب مباشرة، وتمكينهم من أصول الملكية مثل باقي المغاربة، من دون الحصول على إذن القاضي بجواز الإشهاد، ولا على بطاقة العامل[47]، ليفتح الباب على مصراعيه للمعمرين والمحميين والسماسرة لشراء الأملاك المخزنية والحبسية وغيرها، دون أن تخضع الأصول العقارية لمراقبتهما.

والجدول التالي يبين بعض الأملاك التي اشتراها الأجانب بضواحي أسوار سلا، ما بين 7 أكتوبر 1912 م و11 نونبر1913 م[48] "ثمن البيع بالريال سكة فرنسية"

طبيعة العقارات	أسماء البائعين	أسماء المشترين	تاريخ البيع	الثمن	موقع العقارات
قطعتين أرضيتين	المعطي بن عبد الله حصارالسلوى	فريدريك ديلوكه الطلياني الساكن بالرباط	6ذي القعدة و3ذي الحجة 1330 هـ	618 541	تابريكت خارج باب سبتة
خمس جنانات	محمد بن بنعاشر حصار السلوي	سعيد بن شعبان التونسي وكيل التاجر كينيو الفرنسي الساكن بالرباط	2 محرم 1331	82 70 82 38 35	تابريكت خارج باب فاس
سانية حضور جنان	بنداود بن محمد الشاوي المزابي الرباطي	فوك فيشر الألماني الساكن بالرباط.	2 محرم1331هـ	10000 04000	خارج باب سبتة خارج باب الريح
6 جنانات وأرض بالولجة	عبد الرحمان بن محمد غنام الرباطي	يعقوب بن سوسان الطنجي الساكن بالرباط	11 محرم 1331هـ	02417	الساحل خارج باب شعفة وتابريكت
قطعتين أرضيتين	فريدريك ديلوكه	لوطار السويس	2صفر1331ه	03000	تحت راس الماء

كما اشترى التاجر فابرو نائب الكبانية الإنجليزية الفرنسية المغربية من محمد بوغالب الجزائري ،أراضي بقبيلة مختار من بني احسن بما مجموعه 180.000 فرنك بتاريخ 19 محرم عام1331 هـ.

الخوف من رد فعل القبائل : الكل كان يسعى إلى جني أرباح مادية في وقت انهارت فيه السلطة المخزنية بالعدوتين، بحيث لم تعد سوى شبح أمام القوة الفرنسية المحتلة والمتحمسة إلى تشجيع عمليات البيع، وفي نفس الوقت تمنعها إذا كانت لا تتلاءم مع مصالحها، كمثال نسوق قضية

ادعاء سيدي مأمون العلوي الضرير وابنه الرباطيين وابن عمهم سيدي المكي السلوي[49]، بأن لديهم رسوما تعود إلى أيام السلطان مولاي سليمان تثبت ملكية الأشراف لأراضي مخزنية شاسعة بعين أغبالو، وأراضي الأحباس المحيطة بعين عتيق وما جاورهما، وملكية أراضي قبيلتي الأوداية والأعراب بضواحي الرباط وما ولاها إلى وداي سيدي يحي قرب زعير[50]، استظهروا بها لبيع أجزاء منها للتاجر الفرنسي Brossard .

والملفت للنظر هو أن السلطات الفرنسية بالرباط تخوفت من أن تفويت أراضي قبائل بأكملها للتاجر المذكور سيعرض سكانها إلى الطرد خارجها، وبالتالي حصول اضطرابات اجتماعية عند أبواب الرباط وطريق الدار البيضاء، فتدخلوا هذه المرة لمنع أشراف العدوتين من بيع أراضي جيش الوداية، وعرضوا رسوم الملكية ليفحصها المستشار Michaux Bellaire، فاتضح له أنها مزورة لأسباب تتعلق بالشكل والمضمون[51]، وبإيعاز من الفرنسيين عارض نقيب الأشراف بالعدوتين البيع[52]، وقام المخزن بحملة واسعة أمر خلالها قضاة وعدول العدوتين بمنع بيع تلك" البلادات"[53]، وكتب مولاي عبد الحفيظ بصفته سلطان المغرب الشرعي إلى قناصلة فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإسبانيا وبلجيكا يحثهم على منع تجارهم من شرائها، ومن دفع شيئا من الدراهم لأصحابها فهي ضائعة والمخزن بريء منها[54]، ومن جهة أخرى أمر عامل سلا بحيازة الرسوم المذكورة من الأشراف، وقاضي المدينة باليقظة حتى ينفذ الأمر الشريف[55].

بعد احتلال سلا عسكريا لم يعد أمام الجماعة السلوية المعارضة للاحتلال من منفذ سوى طلب الحماية القنصلية الألمانية أو الإنجليزية بعد أن لمح إلى شرعيتها بعض الفقهاء وهم في حالة هيجان وغضب، أو الهجرة

بالأهل والأولاد إلى الشرق العربي، ولكن الحكمة وقبول الأمر الواقع كان هو الحل الأخير، مادامت المدينة لا تقوى على الدفاع عن نفسها، والقبائل تجاسرت على نهب بساتينها ونقب أسوارها، ومادام السلطان وقع على دخول الحماية، والاحتلال شمل أو سيشمل الجميع .

عزل القاضي عواد من منصبه سنة 1913 م، وسط احتجاجات عريضة من قبل الجمهور السلوي، لكنه ظل خطيبا بالمسجد الأعظم بسلا، وشارك في انتفاضة الحرفيين ضد ضريبة جديدة فرضتها الحماية عليهم رغم أوضاعهم المزرية تسمى "الكياب" سنة 1920 م، ويرجع الفضل في افتتاح قراءة اللطيف ضد الظهير البربري بالمسجد الأعظم بسلا إلى الشيخ العلامة الحاج علي عواد بتنسيق مع رجال الحركة الوطنية السلوية سنة 1930 م، توفي رحمه الله سنة 1935 م ودفن بالزاوية الدرقاوية بسلا.

وتوجد بالخزانة الصبيحية بسلا العشرات إن لم نقل المئات من الوثائق الديبلوماسية المتنوعة، التي تكشف لنا عن تدخلات قناصل فرنسا بالرباط وغيرهم في شؤون سكان سلا وأحوازها، أغلبها تتعلق بقضايا العقار والرهن والديون المتعلقة بالمحميين والمخالطين والموالين لهم[56] وغير ذلك .

ومباشرة بعد 1912 م أقام ضباط الحاميات العسكرية والمعمرون ببناء مجموعة من المراكز الحضرية على الطرق المؤدية إلى فاس عبر زمور، والشمال عبر سهل الغرب، أجهزت على ما تبقى لسلا من إشعاع على مجالها القروي، وتحولت سلا بدورها إلى ضاحية سكنية تابعة للعاصمة الجديدة الرباط، وبقيت مهمشة من قبل رجال السلطة الفرنسية الحاكمة بالمغرب وعلى رأسهم المقيم العام الجينرال اليوطي، والجدول التالي يوضح قلة تواجد الأجانب بسلا حتى في عهد الحماية.

جدول :توزيع السكان الحضريين بالعدوتين حسب الديانة سنة1931 م

جدول أعده كينت براون" أهل سلا ص 28"

المـــدن	مجموع السكان	المسلمـــون	اليهـــود	الأوروبيون
ســـلا	26000	22145 بنسبة ٪84.5	2387 (٪ 9.2)	1408 (5.4)
الرباط	55348	27986 بنسبة ٪ 50.6	4218 (٪ 7.6)	23744 (٪41.8)

وبباقي المدن المغربية نجد نسبة الأوروبيين مثلا بالقنيطرة٪ 36.4، وبفاس٪12.7 ، وبالجديدة٪10.2 ، مكناس و٪22.4 ، وبالتالي تبقى سلا أقل عددا ونسبة من كل المدن المغربية.

خاتمـــة :

ما حدث بسلا وأحوازها في ميدان العقار لم يكن سوى مقدمة لتجربة استعمارية كبرى جعلت من فرض الحماية مجرد تطبيع لواقع كان يفرض نفسه، أدى في النهاية إلى خلخلة البنية العقارية بالمغرب، وجعلها تندمج في السوق العالمية الرأسمالية على حساب الفئات المغفلة أو المستضعفة. أما أهل سلا فقد تبنوا سياسة المقاومة الصامتة للإحتلال، وفضلوا الهجرة الرمزية الهادفة إلى طرح البذيل والبحث عن وسائل متطورة لمواجهة تحديات الاحتلال، وخلق قاعدة سياسية تكون مؤهلة للتغيير، وهذا ما يمكن اعتباره جذورا اجتماعية للحركة الثقافية والسياسية التي شكلت قاعدة لميلاد وانطلاق نواة الحركة الوطنية بسلا، والتي برزت بشكل ملفت للنظر داخل الحركة الوطنية المغربية، أطرت كفاح الشعب المغربي من أجل الانعتاق والحرية المنشودة .

* * *

هوامش :

1. أنظر نص هذه الدراسة بمجلة "المناهل" تصدرها وزارة الثقافة المغربية، العدد87 ، ص "141.159" يناير 2010.
2. ذ .عبد الوهاب بنمنصور "مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد 1880م" المطبعة الملكية، سنة 1977 م
3. وثائق الخزانة العلمية الصبيحية بسلا رقم 2514 ، عدد 18 سلسلة I حرف "أ"سنة 1912 م .
4. وثائق الخزانة العلمية الصبيحية بسلا رقم الوثيقة 3944 ، محفظة 29، السلسلةقق، حرف (هاء)، بتاريخ 29 ذي الحجة 1280 هـ 5 /يونيو1864 م.
5. الأستاذ مصطفى بوشعراء "الاستيطان والحماية بالمغرب" في عدة أجزاء، ج 2 ص 770،
6. خ.ع .ص .سلا رقم 796 مح، 6 ، س I حرف أ، بتاريخ 09 دجنبر1908 م.
7. حسب ما جاء في رسائل متبادلة بين الوزير عبد الكريم بنسليمان والأمين عبد السلام التازي مع عامل سلا ابن سعيد، رسائل منشورة في مؤلف" التعريف ببني سعيد السلويين، وبنذة عن وثائقهم "جزءين أعده الأستاذ مصطفى بوشعراء ، ج 1 ص .267 بتاريخ 28 شتنبر1904 ، وج 2 ص 253 بتاريخ 26 يونيو1898 م، الرباط 1991.
8. اعتمد م .بوشعراء في جمعها على ما نشره المؤرخ ابن زيدان والباحث جان لوي مييج، إضافة إلى تصفحه لوثائق محافظ الدول الأوروبية ودار النيابة السابقة بطنجة الموجودة بأرشيف مديرية الوثائق الملكية والخزانة الملكية بالرباط.
9. م .بوشعراء :م . س .ج 2 ص 795 ـ 731.
10. م .بوشعراء، م.س ج1 ، ص 148.
11. الوثائق الدبلوماسية الموجودة بالخزانة العلمية الصبيحية بسلا، مغمورة ونادرة لكونها أصيلة ومكتوبة بخط الكتاب الملحقين بقنصليات الرباط أو طنجة، بلغة عربية سليمة أو رديئة تقترب من الدارجة المغربية، وذات طابع محلي توجه مباشرة إلى عامل أو قاضي سلا، كتبت معظمها على استعجال وتتناول قضايا طارئة حسب الظروف والأحوال.
12. أنظر تفاصيل هذه الوثائق المتعلقة بقوائم الاستيطان والحماية القنصلية بسلا، في الأطروحة التي أنجزناها لنيل الدكتوراه في التاريخ عنوانها" : مدينة سلا بين نهاية القرصنة وبداية الحماية من1851 م إلى1912 م "مرقونة بخزانة كلية الآداب بالرباط سنة .2004 الفصل الثاني من الباب الثاني.
13. "الاستقصا ..." في نهاية الجزء الأخير رقم 9 ، أبدى كبير استغرابه من بقاء الوفود الأوروبية التي حضرت لتهنئة السلطان مولاي عبد العزيز على توليته الملك، أزيد من أربعة أشهر بفاس، تتجسس الأخبار وتطلع على العورات ونقط الضعف حتى يظهر لها منفذ تمكنها الفرصة ...ج 9 ص.207
14. خ.ح.الرباط كناشة" بيان أملاك المخزن بسلا "سنة 1323 هـ/رقم270
15. خ.ع.ص.بسلا كناشة" أملاك المخزن بسلا "رقم 356 بتاريخ فاتح محرم1324 هـ وحقق وقوبل بالمعاينة من قبل محمد بن أبي بكر عواد في 18 محرم1331 هـ

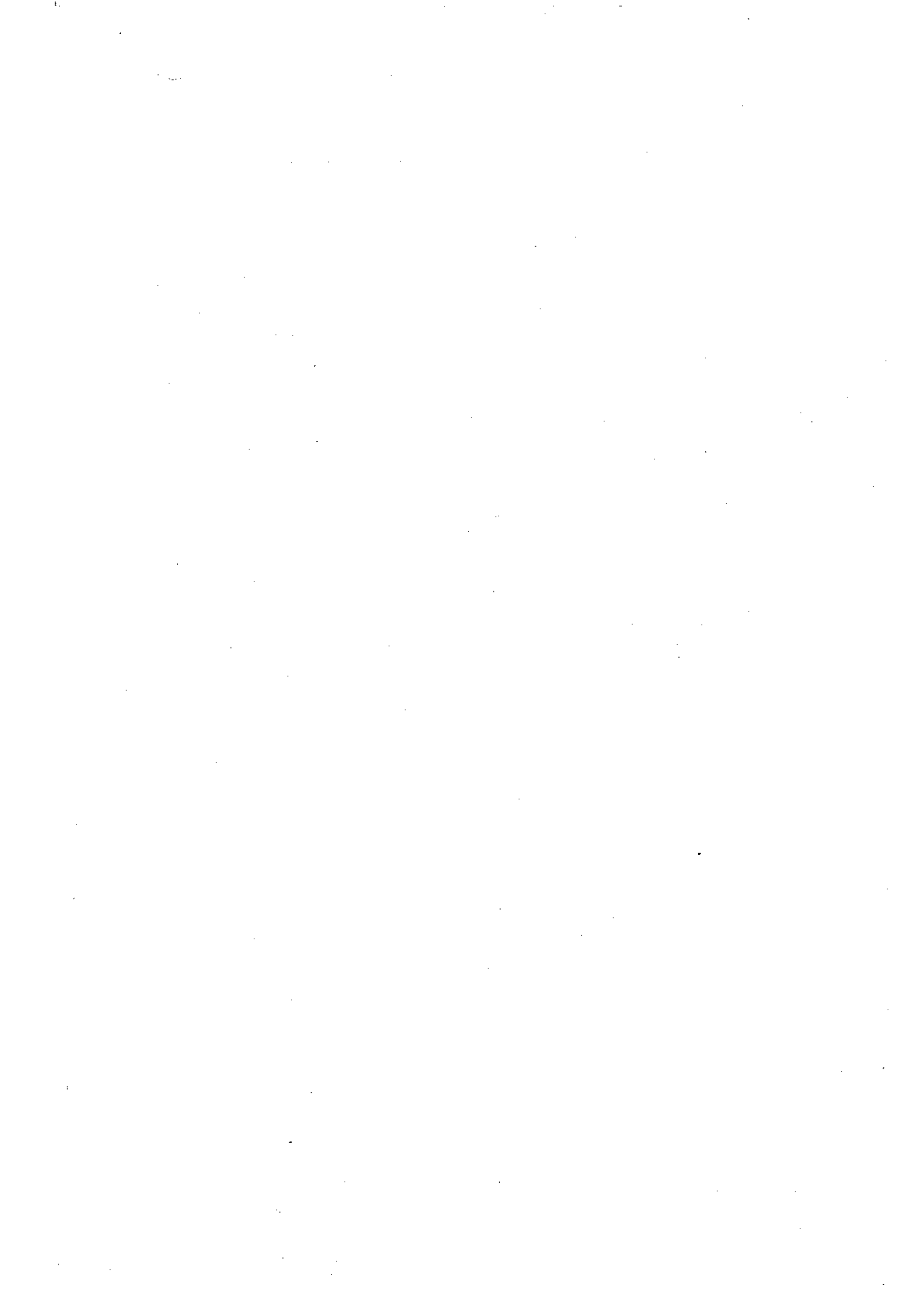
16. أنظر دراسة ايدموند بورك " زظنمود العلماء المغاربة في "1912-1860 تعريب امحمد بن عبود وعبد العزيز سعود، مجلة البحث العلمي العدد 31 سنة 16 أكتوبر1980 م ص117 و 140.
17. خ.ع.ص . بسلا رقم 7673 مح 54س" III "و" بتاريخ 23 جمادى الثانية 1300هـ 1/مارس 1883م.
18. خ.ع.ص . بسلا رقم 606 مح 5 س I "أ" بتاريخ 3 دجنبر1907 م 24/ذي القعدة 1325
19. خ.ع.ص . بسلا رقم 1114 مح 9 س I "أ" بتاريخ 3 أكتوبر1909 م، وكذلك الوثائق التالية 1109 و1111و 1112بنفس المحفظة والسلسلة ، و رقم 1803 و 1814 مح 13
20. خ.ع.ص . بسلا رقم 1337 مح 10 س I "أ" بتاريخ 1 ربيع الأول 1328 هـ 13 /مارس1910م
21. خ.ع.ص . بسلا رقم 1573 مح 12 س I"أ" بتاريخ 30 شعبان1328 هـ 6 /شتنمر1910 م
22. خ.ع.ص . بسلا رقم 5903 مح 41 س I "ب" بتاريخ 7 ذي القعدة 1329 هـ 1/اكتوبر1911م
23. خ.ع.ص . بسلا رقم 5962 مح 41 سI "ب" بتاريخ 20 ربيع الأول1329 هـ 21 /مارس1911 م
24. خ.ع.ص . بسلا رقم 3455 بتاريخ 18 جمادى الثانية 1329 هـ 16/يونيو1911 م.
25. خ.ع.ص. بسلا رقم 3551 مح 26 س II "د" بتاريخ 15 جمادى الأولى1329هـ 14/ماي1911 م.
26. خ.ع.ص. بسلا رقم 5903 مح 41 س I "ب" بتاريخ 7 ذي القعدة 1329 هـ 30/أكتوبر1911 م.
27. خ.ع.ص . بسلا رقم 2086 مح 15 س I "أ " بتاريخ 20 شوال1329 هـ 14/أكتوبر1911.
28. خ.ع.ص . بسلا رقم 2091 مح 15 س"Iأ "بتاريخ 21 شوال1329 هـ 15 /أكتوبر1911 .
29. خ.ع.ص . بسلا نفس المحفظة والسلسلة رقم 2094 بتاريخ 28 شوال1329 هـ 23 /أكتوبر1911 م .
30. خ.ع.ص . بسلا نفسها، وكذلك رقم 2118 و 2185 من نفس المحفظة.
31. ا :خ.ع.ص . بسلا رقم 2073 مح 15 سI "أ "بتاريخ 9 شوال1329 هـ 3/أكتوبر. 1911
32. خ.ع.ص . بسلا أنظر الأرقام التالية 556 :و558 و 564و 565 و 596و 600 و 615 و696 مح 5 و 6 س I "أ" بتاريخ غشت1907
33. خ.ع.ص . بسلا نفس المحفظة والسلسة رقم 2119 بتاريخ 9 نونبر1911 م 30/ذي القعدة 1330 هـ
34. خ.ع.ص . بسلا رقم 1300 مح 10 س I "أ" 15 صفر1328 هـ/وكذلك1301 و.1319
35. خ.ع.ص . بسلا رقم 2133 مح 15 س I"أ "بتاريخ 7 ذي الحجة 1329 هـ 29/نوفمبر1911 م .سي العربي بن قاسم العيادي نائب القاضي وسي بوسلهام بالحاج النسب وسي المعطي بن عبد السلام البرهوني وسي إبراهيم بن سعيد النسب "
36. نفسها.
37. خ.ع.ص . بسلا رقم 2206 مح 16 س I "أ " بتاريخ 9 يناير1912 م19/ محرم1330 هـ

38. خ.ع.ص . بسلا رقم 2218 مح 16 س I "أ " بتاريخ 18 يناير1912 م 28/ محرم1330هـ
39. ا خ.ع.ص . بسلا رقم 2219 نفس المحفظة والتاريخ
40. خ.ع.ص . بسلا رقم 2288 مح 16 س I "أ" بتاريخ 11 ربيع الثاني1330 هـ 30 /مارس1912 م.
41. خ.ع.ص . بسلا رقم 2323 مح 17 س I "أ" بتاريخ 11 ماي1912 م 24 /جمادى الأولى1330 هـ.
42. خ.ع.ص . بسلا نفس الوثيقة.
43. خ.ع.ص . بسلا رقم 2221 مح 16 س I "أ" بتاريخ 23 يناير1912 م 3 /صفر1330 هـ
44. خ.ع.ص . بسلا رقم 2146 مح 15 س I "أ" بتاريخ 28 دجنبر 7 /1911 محرم 1330 هـ
45. خ.ع.ص . بسلا رقم 5844 مح 40 س I "أ" بتاريخ 25 رجب 1329 هـ 22/يوليوز1911م.
46. خ.ع.ص . بسلا رقم 2169 مح 16 س I "أ" بتاريخ 14 ديسمبر1911 م 22 /ذي الحجة 1329 هـ.
47. خ.ع.ص . بسلا رقم 2245 مح 15 س I "ب" بتاريخ 14 يناير1912 م 24 /محرم 1330هـ
48. الجدول مستنتج من نص وثيقة توجد في الخزانة العلمية الصبيحية بسلا .بعض الجنانات كانت موقوفة على أحباس المسجد الأعظم وضريحي سيدي بنعاشر وعبد الله بن حسون
49. خ.ع.ص . بسلا رقم 2242 مح 15 سII "ب" بتاريخ 6 شعبان1329 هـ 2/غشت1911 م.
50. خ.ع.ص . بسلا رقم 1975 مح 14 س I "أ" بتاريخ 16 شعبان1329 هـ 12 /غشت1911 م .أنظر " المعلمة " م.س .ج 3 ص 776 و ج 11 ص3637
51. Ar .A.E.F.MAROC N.S 302 P67.20 Dec 1911.

أنظر دراسة عبد الجليل حليم" الوضع العقاري بالمغرب من خلال بعض وثائق وزارة الخارجية الفرنسية"منشورات كلية الآداب بالرباط رقم 77 "البادية المغربية عبر التاريخ " ص .159-149

52. خ.ع.ص . بسلا رقم 4596 مح 34 س II "هـ" بتاريخ 23 سفر1330 هـ 12/فبراير1912م.
53. خ.ع.ص . بسلا نفسها.
54. خ.ع.ص . بسلا الوثيقة رقم 2242 السابقة .
55. خ.ع.ص . بسلا رقم 2247 مح 15 سII "ب" بتاريخ 16 صفر1330 هـ 12/فبراير1912م.
56. للمزيد من التفاصيل في قضايا العقار بسلا يمكن الرجوع إلى الوثائق التالية:
2056،1988،1908،1894،1889،1814،1803،1769،1753،1719،1714،1590 ،2277،2157،2156،2555،2153، وغيرها كثير توجد ب مح من 12إلى19، سI "أ" ما بين سنوات 1328 هـ و1331هـ.

* * *



إعلان الحماية على مدينة آزمور

جان دوتوي
ترجمة: عبد اللطيف عوام*

تمهيـــد:

النص المترجم هنا هو الفصل الأخير من كتاب جان دوتوي J.Dutheil بعنوان "آزمور" والذي يتكون من حوالي 70 صفحة، من القطع الصغير، وكان صدر حوالي سنة 1927، مشتملا على مقدمة وخمسة فصول، أولها يتناول آزمور ما قبل الإسلام، والثاني ينكب على آزمور منذ الفتح العربي l'invasion arabe ، وذلك حتى مجيء البرتغال، ويتوقف الثالث بالضبط عند الاحتلال البرتغالي، بينما يدرس الفصل الرابع آزمور منذ إخلائها من قبل البرتغال إلى حدود 1908 سنة دخول الحماية الفرنسية إلى هذه المدينة، ويأتي في الأخير الفصل الخامس في الصفحات من 55 إلى 68، وهو بعنوان: آزمور من سنة 1908 إلى الحماية الفرنسية، وهو المترجم أسفله.

والنص يدخل في نطاق النظرة الكولونيالية إلى التاريخ الوطني، ويأخذ على عاتقه أن يتناول بكثير من الاختصار والاختزال - ولما لا نقول السطحية كذلك - الأحداث التي سبقت ومهدت وواكبت الإحتلال الفرنسي لمدينة آزمور، الواقعة جنوب الدار البيضاء بحوالي 80 كلم، وهو يتتبع بكثير من الدقة تنقلات القواد القرنسيين والإنزال العسكري على مقربة من آزمور، ويعطي المعلومات التاريخية والجغرافية حول الحقول والتربة والمياه والمواد الغذائية والمواقع، ويتعرف على الوادي بجميع مكوناته المورفولوجية، دون أن يغض النظر عن تهديدات السكان بالقنبلة العسكرية. ويفصل في الأحداث

* بـــاحث، آزمــــور

بطريقة كرونولوجية تحترم التسلسل الزمني، وما لابس ذلك من الوقائع والظروف التي كانت حادثة الشاوية (غشت 1907) الدافع إليها، وخاصة موالاة مدينة آزمور للحركة الحفيظية والمقاومة التي ساندتها ودافعت عنها بقيادة القايد محمد التريعي.. وسوف يتم احتلال آزمور في يوليوز1908، وذلك بعد مرور حوالي سنة على حادثة الشاوية ، والقواد أنفسهم الذين قادوا العمليات العسكرية مثل "موانيي" و"بيلتيي" و"مانجان" سوف يتوجهون إلى فاس - عبر منطقة زعير -لإخضاعها، وبعد أربع سنوات من ذلك الاحتلال سوف يتم إخضاع باقي المناطق وبسط النفوذ الفرنسي على المغرب كله، وإعلان الحماية في سنة 1912.

وندع القارئ يتعرف على هذا النص الوثيقة، وبعد ذلك في الدراسة المصاحبة نتوسع في الظروف والملابسات التي رافقت احتلال مدينة آزمور وإعلان الحماية على المغرب.وللإشارة فقد حافظنا على النص دون تدخل، وأن جميع نقط الحذف موجودة في الأصل.

أولا : النص

إن دخول البعثة العسكرية الفرنسية إلى الشاوية والتوسع السريع في المنطقة، كان عليه أن يضع مدينة آزمور سريعا على مشهد العمليات، وذلك لأهميتها وباعتبار موقعها على وادي أم الربيع الذي كان قد تقرر بمثابة حدود جنوبية للتقدم الفرنسي.

«وقد ارتأى الجنرال داماد أن يضع الفرقة الثانية الراكنة للراحة في المنطقة الجنوبية الغربية للدارالبيضاء.صوكانت المنطقة الساحلية الواقعة بين البيضاء و آزمور تدخل ضمن هذه الغاية، لكن لم يكن هناك تعرف مسبق لاختيار الموقع المناسب من حيث الموارد المتعلقة بالماء والحطب، في حال الموافقة على الإقامة المريحة والمناسبة للوضعية العسكرية.ص»ص

ومن جهة أخرى فإن إقليم السوالم، الشياظمة و شتوكة، لم يكن بعد قد جابته طوابيرنا، وتقريب القوة العتيدة التي هي الفرقة الثانية سوف يوحي بتأملات حول السلام لسلطات آزمور التي تجعلها المواجهة العدوانية لنا تؤخر الإنزال الهادئ لقواتنا في هذه المناطق. وقد كانت آزمور التابعة للسلطان مولاي عبد الحفيظ تحت إمرة القائد حسي احد إخوان الباشا الكلاوي.وتلك الترتيبات السيئة تجاه الفرنسيين لم تتوقف عن الظهور طيلة شهر يونيو 1908.

وفي يوم 5 يونيو أعلنت مصلحة المعلومات في برشيد بان الباشا - وهي التسمية التي يتجمل بها - يأخذ الضرائب من شتوكة وما حولها، وذلك بموافقة وتواطؤ قائد هذه القبيلة ذات الولاء الحفيظي.

وفي يوم 7 يونيو تخوفت مازاغان من جولة عسكرية قام بها القائد حسي الكلاوي بدعوى انه يقوم بزيارة لزاوية مولاي عبد الله أمغار الواقعة في الجنوب الغربي، وهذا الموظف كان يسهل غارات القائد التريعي، الذي هو قرصان حقيقي لم تكن اختلاساته تذخر وسعا في الهجوم على ضفة الوادي والخاضعة لنفوذنا، وكان يشبع موظف البريد شتما، ويبتهج أمام العموم بكل الحوادث التي تكون عاقبتها في غير مصلحتنا.

والحال أن ساكنة آزمور كانت تكره الحفيظيين بسبب قسوتهم وابتزازهم. وأيضا كان على الجنرال - كي يتفادى كل احتمالية - أن يقرر بشكل ملائم إنذار البحرية وقواد المركز بجميع التحركات في اتجاه آزمور. والتعليمات التالية التي أعطيت من الجنرال الى العقيد "موانيي Moinier" وهو قائد من الدرجة الثانية، تحدد موضوع البحرية :

أولا : - التواجد على الضفة اليمنى لوادي أم الربيع قبالة آزمور والتأكد من أن لا شيء يهدد النظام العام في هذا الجزء من الشاوية ، ويجب على العقيد "موانيي" أن يكون على اتصال بقنصل فرنسا في مازاغان، وذلك

بواسطة الرقاص .ويتوجب عليه الوثوق بأن جميع التسهيلات تتوفر من أجل التواصل بين مازغان والبيضاء، بما في ذلك الأمن الذي إذا لم يكن متوفرا بالتمام فعليه أن يقيمه ولو بكسر كل عائق يعترضه.

إن مكانة آزمور الخارجية في الشاوية لا يمكن أن تحتل إلا بناء على إشارة من قنصل فرنسا في مازغان.

ثانيا :الاعتراف بموضع معين كمحطة للراحة للفرقة الثانية، وذلك في شعاع من 15 كلم عن آزمور، وإذا أمكن بجوار الساحل وفي ظروف مرضية لقواتنا، وقريبا من الماء الصالح للشرب ووسائل الرفاهية.

....

خامسا : جعل الطريق الرابطة بين محطة الراحة والقاعدة العسكرية سالكة في وجه العربات.

....

وقد انطلق الطابور من الدار البيضاء يوم 27 يونيو متخذا له دربا يسير في اتجاه الغرب، الجنوب الغربي. وفي هذه المناطق نجد الشاطئ يمتد باتجاه يكاد يكون مستقيما، وهو يتكون من سلسلة من الشواطئ الجميلة، التي تنقطع فقط بسبب بعض العتبات الصخرية. وعلى جانب الساحل تتوالى مجموعة من التلال المرتفعة قليلا والتي تواجه رياح المتسع وتحمي المزروعات التي تنمو حتى القدم .وباستثناء المنطقة المعشوشبة للسوالم فإن الخاصية الموجودة في نقط أخرى من الشاوية هي انعدام الخصوبة، فهذه المنطقة مزروعة جيدا وحقول الذرة الغنية تتناوب مع مغروسات الحناء والتبار والبطاطا، وذلك إلى جوار البيوت والمساكن .وهذا النوع من المغروسات وغيرها يظل هو نفسه مثل طبيعة الأرض، وذلك منذ العبور من أولاد جرار إلى آزمور. وهناك كثير من المؤشرات التي تشهد على أن هذه البقعة لم تصب بالقلاقل التي تعيث فسادا في الجانب الأخر من الشاوية،

بحيث إن المساكن الميسورة لم تتعرض للخراب رغم كثرتها، والفقراء أنفسهم لا يسكنون الخيام إلا نادرا ولكنهم يستقرون في النوالات، وأيضا في دور من الحجر مغطاة بالقش مما يتماثل مع بيوت فلاحينا، ونواعير الماء (السواني) كثيرة مع صهريج لكل واحدة في حال جيدة، وهي تدور في حركة محورية عن طريق الحمير، الثيران أو الجمال.

هذا وفرشة الماء غزيرة لأنه يمكن العثور عليه على عمق ضئيل، على الاقل في الأراضي السفلى المجاورة للساحل. وعلى امتداد الطريق كان رؤساء الأقسام يأتون لتحية الجنرال، بينما كان القائد يمده بالحماية خلال الاجتياز التام لقبيلته.

وقد وصل الجنرال يوم 29 يونيو على مقربة ثلاثين كلم من آزمور، وكان يعتقد أنه يجب - عن طريق أحد أعوانه - إخبار قنصلنا في مازغان، وقد أرسلت الرسالة في نسختين عن طريق اثنين من الرقاصة، أحدهما عبورا من آزمور، والأخر عن طريق أول معبر مرتفع .

وكان الانطلاق في الغداة : قواد الشياظمة وشتوكة يرافقون الطابور والجنرال الذي تحميه فرقة لم تلبث أثناء الطريق أن تضاعف حجمها بجماعة من الفرسان المتسارعين إلى تحيته والاقتراب من الفرنسيين، عما قليل سوف يغرق الوفد في سيل من 300 إلى 500 مغربي، وكانت هذه الجموع تشكل مشهدا شديد الإثارة.

وحوالي الثامنة كانت الصوامع في آزمور تلمع بياضا في الأفق، والدرب يجري في نُهَيْر واسع كان منحدره الأيمن يخفي رؤية البحر. بينما خيط وحيد من الدخان الأسود يصعد إلى السماء الهادئة، يُفشي حضور الطرادة المبتلة هناك في مصب الوادي .وقد حصل الاتصال منذ ليلة أمس مع طابور للتعزيز والمساعدة، وكان يقوده على الأيسر قائد السلاح في برشيد، مقدم الكتيبة "بيلتيي" Peltier.

وعلم الجنرال بأن الرقاصين اللذين انطلقا بالأمس، كان أحدهما قد قُبض عليه من جانب القائد التريعي، والآخر شوهد ممنوعا من العبور في آزَمور نظرا لأن أبواب المدينة كانت مغلقة، ووسائل الاجتياز تراجعت إلى الضفة اليسرى. وفي الصباح سُمع قصف بالمدفعية وتراشق خفيف بالرصاص على الضفة الأخرى للمدينة، ولكن الأهالي لم يعرفوا كيف يفسرون ذلك.

أمام هذه الأدلة حول عدوانية المدينة فكر الجنرال أن يصل بالاعتراف حتى آزمور. وحين كان الطابور يهيئ المعسكر ويتوقف للراحة على بعد خمسة كلم من المدينة (تماما عند نقطة سيدي بوبكر مول المدفع) كانت فرقة الفرسان تتوجه إلى الأمام في كتلتين :الكتلة الأولى إلى اليسار بمساعدة فرقة المشاة لعبور أول معبر مرتفع واحتلال الضفة اليسرى قصد تسهيل عبور الفرق الأخرى عند الاقتضاء؛ والكتلة الثانية إلى اليمين متوجهة قبالة المدينة بحثا عن وسائل للعبور.

وانتهت الاستراحة الطويلة حوالي الحادية عشرة، وقد كان على فرقة المشاة أن تستأنف سيرها تاركة في المعسكر الحراسة المعتادة .وعند منتصف النهار وعشرين دقيقة تقدم الجنرال بشخصه ليواجه الجدران والسطوح التي تشرف على الوادي .أنه يتواجد في الجهة الشمالية الشرقية لآزمور ، وهو نهر واسع بحوالي مئة وخمسين مترا (150م)، وهذا الاتساع يختلف قليلا - بحكم صلابة الحافات - مع المد والجزر. واذا كان العمق بالغ الأهمية والأمواج في اهتياج، زيادة على تحركات الرياح اللامنتظمة لهذه المناطق البحرية، فإن كل هذا يجعل من عبوره أمرا عسيرا .وكانت الدروب المنحدرة عند الحافة، على يسار المدينة) جنوبا (تؤشر على موضع رصيف الشحن، حيث فضلا عن ذلك تتواجد الزوارق مجتمعة .

وعلى الضفة الأخرى للوادي هناك بابان مفتوحان : أحدهما مهم وهو قبالة الملاّح (حي اليهود)، وثانيهما باب صغير يسمى باب الواد، قريبا من السكنى الفاخرة للباشا. وتلك الدروب التي تتجه إلى رصيف الشحن تتطابق

بالتأكيد مع مخرج مهم نحو الواجهة الجنوبية الشرقية، ولكن هذا المخرج لم يكن مرئيا من أية نقطة في الضفة اليمنى، وسوف يتم التحقق فيما بعد بأنه - أي المخرج - يوجد مهيئا في مدخل أحد الأسوار متواريا خلف برج كبير.

وفي المدينة كان يسود نوع من الحيوية، بينما على الجوانب تسابق بعض الفضوليين نحو الزوارق، وتحديدا إلى اليمين من جهة الملاّح حيث على الجدران والسطوح جماعات من النسوة مرتدية أثوابا بشتى الألوان الصارخة، تتوالى متمايزة بين البرانس البيضاء عربية الأصل، وبين ملابس اليهود السوداء ... ولم يكن في المكان أي تواجد لأية فرقة عسكرية.

وعلى الأبراج البرتغالية القديمة تسهر العديد من اللقالق إلى جوار أعشاشها. غير أن جماعة من المشاة التابعة للفرقة الثانية و لمفرزة "بيلتيي" كانت تنتشر على ضفة الوادي، وقد أخذ رجال المدفعية يقرعون الطبول علانية، وينتصب مدفع تماما قبالة الباب الخفي للملاّح. وحوالي الساعة الواحدة تقدم رئيس مصلحة الاستعلامات ومعه وفد من الأعيان، كان قد وجد صعوبة كبيرة في إقناعهم بالعبور، واحتج هؤلاء القادمون بالنوايا الطيبة للسكان، وتقدموا يسألوننا : ما هي اقتراحاتنا ؟ فأجابهم الجنرال بأنه "يلح على أن تفتح أبواب المدينة بعد ساعة ويجب أن تنتقل كل الزوارق إلى الضفة اليمنى"، ثم انسحب وفد الأعيان.

ولم تكن ساعة الاقتضاء قد مضت حين تقدم نائب باعتباره خليفة للعامل، وأخذ يدعي في غطرسة بأن الغرباء يحتلون المدينة، وهم يرغبون في مغادرتها قبل أن ندخلها نحن، ومتعجلا في القول من هم هؤلاء الغرباء، أعلن بأنهم سي حسي الكلاوي ورجاله ، وهم يحتاجون إلى مهلة كافية من أجل استعدادات الذهاب الخ...

وبدا للجنرال أن المغاربة يبحثون عن ربح الوقت، تبعا للطريقة المعتادة في بلدهم، عندئذ أشار الجنرال بحركة بليغة إلى الطرادة المرابطة عند مصب الوادي، "إن مدافعنا مصوبة بدقة، وقناصتنا ينتشرون عند الحافة"، ثم قال:

"إن سي حسي الكلاوي وجماعته يمكنهم أن يغادروا آزمور بحرية، ويمكنني أن أزودهم بجواز مرور حتى لا يتعرضوا للهجوم أثناء انصرافهم، لكن في مقابل ذلك عليهم حالا أن يفتحوا الأبواب ويأتوا بالزوارق إلى الضفة اليمنى، اجعلوهم يعرفون شروطي كتابة، وابعثوا بهذه المراسلة عن طريق واحد من خدمكم، إنني احتفظ بكم رهينة".

بضع دقائق بعد تسلم هذه الرسالة أخذت الزوارق تغادر الضفة اليسرى وعلى ظهرها الأعيان، بينما على طريق مراكش كان سي حسي الكلاوي وفرسانه يبتعدون بسرعة، على حين كانت نساء المدينة من أولها إلى أخرها ترفع العقيرة بالزغاريد تحية لتحرير مدينة آزمور .وكان على الجنرال أن يقترح على الأعيان وهم يمتثلون بأن يجعلوا في آزمور مجلسا بلديا مستقلا وذلك تحت سلطة واحد من بينهم، وكان على الوفد أن يختار في الحال السيد الجيلالي ولد الحاج الوعدودي، الذي انضافت إليه جماعة من ثلاثة عشر فردا.

وكان أن بدأت الفرقة العسكرية تجتاز الوادي مصحوبة في كل زورق بأربعة من الأعيان الذين كانوا بمثابة مرشدين، وعند الحاجة يصبحون رهائن .وهكذا سرعان ما احتُلت الأبواب والأسوار وتزخرفت على جنباتها ، وقد اتُخذت الإحتياطات حتى لا تنفلت الأمور في المدينة .وكان على الجنرال أن يخبَر القنصل الفرنسي في مازغان بهذه الوقائع، وأن يطلب منه إرسال قسم من البوليس أو قوة شريفية رسمية، وذلك في أقرب وقت ممكن من أجل المحافظة على الأمن في المدينة، وسوف يذهب الجنرال نفسه يعسكر في سيْدي بوبكر حيث يظل هناك مع قوات كافية، احتياطا من الفوضى إلى أن يتلوها ترتيب الأمور والنظام الذي أخذ يعم.

وفي الخامسة والنصف سوف يعبر الجنرال بذاته إلى آزمور حيث كانت تنتظره الجماعة في استقبال خفيف. وبعد أن اجتمع إلى العامل الجديد بعض اللحظات، كان عليه أن يعود إلى معسكره في الضفة اليمنى .وخلال متابعة المناقشات من أجل استسلام آزمور ، كانت فرقة الفرسان تحت أوامر رئيس السرية "برتران" Bertrand تجتاز الوادي من مجاز بولعروة، وذلك على بعد 12 كلم من مرتفع المدينة .ومنذ الساعة الحادية عشر كان على المقدم"برتران" أن يأخذ في الحسبان اجتيازه، وأن يعلن حضوره على مقربة من الجماعات المسلحة المهمة، ذات النوايا المجهولة.

وكان الأهالي في الضفة اليسرى يتوسلون الى الجنرال أن لا يتابع مسيرته خلال آزمور مع فرقة على هذا الضعف، وبمجرد توصله بهذه المعلومات كتب الجنرال يخبر الفرقة الخامسة بان تُوَجَه كتيبة إلى مجاز بولعروة. وفي انتظار هذا التعزيز، كانت فرقة الفرسان تراقب الجنبات عند نقطة العبور، وإذا فرقة من الفرسان من حوالي 600 فارس تتقدم آنذاك في نظام، ويعسكرون عند مرتفع على حوالي ألفي متر من المجاز استعدادا للمعركة.

لكن العدد الضعيف الذي كان لدينا في بولعروة لم يسمح بأخذ مبادرة الهجوم ضد تجمع من تلك الأهمية، فماذا كانت بالأحرى مشاعر هؤلاء القادمين الجدد ؟ وفي خضم هذه الشكوك كان على العقيد "شارلي" Charlet، قائد الفرقة الأولى لل؟وم الجزائري الحديثة الإنزال، أن يتصرف بشجاعة مرفوقا بواحد من هؤلاء ال؟وم إلى ملاقاة المغاربة وأن يقنعهم بأن لا يؤاخذوننا في شيء، وأكثر من ذلك أن قائد أولاد فرج الجيلالي بن المعطي، كان يتقدم إلى المقدم لتأكيد اعترافه بفرنسا.

وفي الساعة الثالثة وأربعين دقيقة وصلت كتيبة التعزيز إلى الصفوف في بولعروة، وقد اجتازت الوادي بصعوبة بالغة، لأنه كان امتلأ بفعل المد و بلغ ارتفاع المياه حوالي مترين. ومع السادسة وأربعين دقيقة كان الطابور

يدخل آزمور مرفوقا ب 36 : فارسا من أولاد فرج الذين كانوا يعسكرون في السوق إلى جوار فرقنا، ويشكلون دروبهم بانضباط الجنود المحنكين.

وغداة فاتح يوليوز اعتبر الجنرال أن العلاقات المتكررة مع الضفة اليسرى هي التي كانت جلبت حتما أحداث الليلة السالفة، تلك الأحداث التي تبرر إقامة المعسكرات قريبا من المدينة، ووفقا لذلك أعطى الجنرال أمره إلى الفرقة الثانية أن تقيم معسكرها في سيدي علي، تماما قبالة آزمور، فحيث كان على مفرزة العقيد "بيلتيي" أن تتوقف في بولعروة. وكان التواجد على ربوة سيدي علي، يوفر - علاوة على ذلك - كل القواعد المرغوب فيها من أجل إقامة طويلة، فالماء متوفر وطيب والهواء جيد، والمنظر حيوي ويحيط بكل شيء.

في تلك الصبيحة من فاتح يوليوز، كانت وصلت من مازغان المفرزة التي تتكون من 35 رجل أمن مغربي، ذلك أنه لم يكن ممكنا اقتطاع فرقة ذات أهمية من طابور القبطان "بوليلي" Bolelli نظرا لعدده القليل، وكان من الحذر الاحتفاظ في آزمور - ولو مؤقتا - بفرقة من القناصة تحت الأوامر العليا للعقيد" موانيي"، إلى أن يتم تنظيم فرقة البوليس المحلي من قبل الحماية الفرنسية. وبفضل هكذا إجراءات كانت الطمأنينة الشاملة تعم المدينة، والسكان - الذين ينعتون غالبا بالعداوة تجاه الأوربيين - يبرهنون جهرا على غبطتهم بكونهم تخلصوا من الاغتصاب والعنف الممارس عليهم من أسيادهم القدامى، ممثلو السلطان مولاي عبد الحفيظ.

ومباشرة غداة دخولنا إلى آزمور، كان هناك العديد من الضباط ممن تم الترخيص لهم بالذهاب حتى مازغان، وقد كانوا يذهبون بدون حماية ولا يجدون على طريقهم سوى علامات التعاطف، والحركة المضادة التي حصلت في اليوم الأول حين فُرض القانون، الذي عن طريقه تمت إزالة الأداءات الظالمة التي كان يستخَلصها منهم القائد التريعي ورجاله.وبعد ذلك أخذ الأهالي والأوربيون يتنقلون بحيوية بين المدينتين (آزمور ومازغان).

غير أن دخول الفرنسيين إلى آزمور، هذه المدينة الواقعة خارج الحدود المتفق عليها للشاوية، كان قد أثار بعض الانفعالات في أوروبا، فما كان على وزير الحرب إلا أن يصدر تعليماته بسحب فرقنا منها لأنها لم تكن واردة ضمن المدن المذكورة في ميثاق الجزيرة الخضراء، خاصة فيما يتعلق بتنظيم الأمن. والمفرزة المرسلة من مازغان لا يمكنها المكوث هناك، وقد تم تعويضها بعد بضعة أيام ب 200 عسكري من محلة مازغان نفسها.

ومن جهة أخرى، وبعد أحداث الأيام الأخيرة، كان هناك عدد من أهالي الشاوية والشياظمة وشتوكة لهم في آزمور جزء من ممتلكاتهم وعائلاتهم، والحرية الضرورية للتواصل بين البيضاء ومازغان تقتضي بأن يكون عبور وادي أم الربيع آمنا، ثم إنه لم يعد بمقدور الجنرال أن يترك الساكنة التي منحت نفسها لنا عرضة للثأر العنيف.

ولحماية هذه المصالح المادية والمعنوية اقترح الجنرال أن ينشأ على مقربة من آزمور مركز للإستمرارية، يكون على علاقة مع برشيد، وقد تم له ذلك. وقد وافق قائد الفرقة "بيلتيي" على موضع هذا المركز المتواجد على قمة روابي سيدي بوبكر على مشهد من البحر. وخلال الأيام القليلة التي ما يزال يقضيها الجنرال قريبا من آزمور جعل يتعرف على المكان من وجهة النظر الهجومية والدفاعية، وكذلك على الجريان المنخفض للوادي الذي كان يمتد أمام المدينة واسعا وعميقا يمنح للملاحة مرفأ آمنا ورحبا، ومما يؤسف له ذلك المدخل الموصود بحاجز ليس في المقدور إزاحته إلا بعد أشغال مكَلّفة. وعلى مستوى رصيف الركوب كان الفريق الهندسي قد شرع في تشيَيد الرصيف العائم من أجل تسهيل حمولة الزوارق.

هذا وقد تُبُودلَت الزيارات بين معسكر سيدي علي والسلطات الشريفية في مازغان، بينما تم إيجاد مركز سيدي بوبكر في 7 يوليوز1908، من أجل تأمين العلاقة بين البيضاء ومزاغان والمتمثلة في إقرار الهدوء بين قبائل شياظمة وشتوكة، وحماية هذه القبائل ضد غارات لصوص الضفة اليسرى

للوادي، والحفاظ على المنافع الأساسية التي تمتلكها القبائل المذكورة في آزمور.

ولعل الانشغال بعدم المكوث بالقرب، وفي احتكاك مع هذه المدينة، هو الذي أدى إلى إقامة مركز حقيقي على بعد 5 كلم من الوادي فوق ربوة سيدي بوبكر، إلا أن الضرورة العسكرية فرضت عليه أن يكتمل عن طريق مركز سيدي علي، الموجود على جانب الوادي ذاته وذلك قبالة مجاز العبور إلى آزمور .

وكانت الحامية تتكون من : - سريتان للمشاة.
- فصيلة من الفرسان.
- فرقة من 75 عسكريا.
- بعثة صغيرة من المهندسين والمصالح المناسبة.

وهناك نطاق ممتد لحماية المعسكر من المفاجآت، بالإضافة إلى تجمع مركزي مجهز.

وقد كان الموعد المتأخر لمؤسسة سيدي بوبكر وبعض الشكوك حول إقامة المركز في الموضع المختار مبدئيا، يمنع من تحريك العتاد العسكري أبعد ما يكون إلى مراكز أخرى في الشاوية .وكانت مواد البناء في النواحي في حالة نقص فظيع، مما يعرقل إتمام البنايات التي لم توجد بعد، وهكذا ظلت الفرَق تعسكر الشتاء بكامله داخل الخيم .وكانت بعض البنايات المتواضعَة وحدها تصلح لإيواء المطابخ ومكاتب بعض المصالح.

وتمنح النواعير (السواني)الكثيرة والمقامة في ضواحي المركز، مياها وافرة وبجودة طيبة. إن البلاد غنية بالمواد الغذائية من مختلف الأنواع، والوادي يمنح كميات من الأسماك الجيدة (الشابل). ونجد العديد من الدروب تؤدي إلى البيضاء ولكنها مملوءة بالمداخل الحجرية وتحتوي على

مناطق رملية مما يجعل جر السيارات عملية متعبة .بينما هناك طرق جيدة تسمح بالذهاب إلى برشيد والى أولاد سعيد.

ويربط البيضاء بسيدي بوبكر خط تيلغرافي يمتد إلى سيدي علي. وهذا الموقع يتواصل أيضا بالمشاهدة مع بيت القنصل في مازغان في الأجواء الصحوة، وهو الشيء الذي نادرا ما يحصل. والسفينة الخافرة في مازغان، بما أنها على اتصال مع الخط التيلغرافي في البيضاء(T.S.F)، فإنه يترتب عليه أن مركز سيدي بوبكر يمكنه عند الاقتضاء استعمال اتصال تيلغرافي مزدوج في القاعدة.

وقد كان على الجنرال الذي عُين لتمثيل حكومة الجمهورية الفرنسية خلال الاحتفالات بعيد 15 يوليوز أن يغادر مركز سيدي علي يوم 10 يوليوز، ويلتحق بالبيضاء خلال احتفالاتها الكبرى ... وفي يوم 16 يوليوز نجد الفرقة الثانية تقيم في سيدي بوبكر مع فرع للتغطية التدريجية في سيدي علي.

وهكذا، وبعد الحملة على آزمور، فإن العمليات العسكرية الخالصة تكون قد انتهت.

* * *

وللنهوض بالأشغال العمومية فإن الفريق الهندسي لم يبق عاطلا من دون عمل ، ولهذا فقد تم ترصيف الطريق الساحلي إلى غاية سيدي بوبكر، وذلك من أجل تسهيل العلاقات بين هذا المركز والآخر في سيدي علي، وكان يجب أيضا التفكير في تهيئة كيفية عبور الوادي الذي يصل عرضه إلى ما بين 150 متر/200م، واختلافات المد والجزر تتسبب في تنوع مستوى المياه من متر و 60 سنتم إلى مترين و 75 سنتم ، كما أن جريان المياه يصبح صاعدا خلال المد ويصل صبيبه إلى 0.80 متر في الثانية، بينما خلال الجزر يكون

جريان المياه نازلا وسرعة الصبيب تتجاوز المترين، أحيانا. والرياح التي تعصف على العموم في الاتجاه المعاكس كانت تثير الأمواج مما يجعل عبور الزوارق شاقا وخطيرا.

ويوجد على الضفة اليسرى شُوَيْطِئ طبيعي من مساحة 50 مترا يصلح رصيفا للركوب، ولا يربطه بطريق مازغان سوى منحدرٍ حجري، ميل انحداره إلى 30 في المئة. وكانت الضفة اليمنى مستوية، لكن حين يتراجع مد المياه يكشف عليها شريط من الوحل الأسود اللزج، تحركه باستمرار أقدام المارة عند الذهاب والإياب .ثم إن جريان الماء يعمل غالبا على تحريك الزوارق أكثر من مئتي متر، ومن أجل الوصول إلى النقطة الوحيدة الممكنة في الضفة اليسرى فإن أصحاب الزوارق كانوا يصعدون بمشقة إلى جانب الضفة اليمنى حيث الجريان يُحَس أقل.

ولتفادي هذه الصعوبات فإن الفريق الهندسي عمل على تشييد أرصفة عائمة على ضفتي الوادي معا، ولم تكن هذه الأشغال ـ خلال الاحتلال القصير للمدينة ـ سوى مخططات أولية، فقد كان عليها أن تتوقف في شهري يوليوز وغشت، وكانت تسمح للزوارق في كل وقت أن تدنوَ من هذا الرصيف على الضفة اليسرى أو من هذا المنحدر الممتد في الضفة اليمنى، حيث يمكن أخذ حمولتها.

وفي شتنبر اكتملت الأشغال وذلك بإقامة حواجز خماسية معدنية، على امتدادها يمكن جر المراكب .وكان المنحدر الطويل حوالي 120 مترا والمسموح به للسيارات قد نُحتَ في جانب الربوة، وذلك من أجل الربط بين طريق مازغان والزوارق في الَضفة اليسرى .وأخيرا اكتمل تهييئ أجهزة للعبور وسُلمت إلى مركز سيدي علي. وللرفع من أهمية الوادي سوف يعمل على تشييدَ جسر فوق مجموعة من الأوتاد التي يقوم عليها البناء في الماء، يماثل الجسر على وادي انفيفيخ، والمكان المعين لذلك يوفر مسالك في متناول السيارات وهو لا يبعد سوى بضع مئات من الأمتار عن نقطة العبور

الحالية .ولعل تنفيذ مجموع هذه الأشغال الذي هو أكثر نفعا للأهالي مما هو لفرَقِنا نفسها، يساهم في تصحيح النظرة وتقدير كل الخير من احتلالنا.

* * *

وهكذا تنتهي آخر مرحلة من التهدئة في الشاوية التي تدخل - بدءا من هذا التاريخ - عهدا من السلام والرفاهية. ولكن - مرة أخرى - فإن آزمور سوف تكون مفترقا للطرق حيث تلتقي الفوضى بالسلام، ولقد كانت وهي عتبة "للسيبة" مراقبة من سيدي علي، بيد أن الاتفاقيات الدبلوماسية كانت تحظر علينا التدخل هناك.وإلى حدود استقرار الحماية الفرنسية سوف تكون آزمور نقطة يصعب التحكم بها سياسيا، حيث يكون نشاط الضباط الفرنسيين مطلوبا منه أن يجهد نفسه اكثر.

وقد حوفظ على العداوة ضد الفرنسيين هناك على الضفة اليسرى للوادي داخل آزمور وذلك في شخص القائد السابق محمد ولد التريعي المعروف عادة بالتريعي. وأنه يمتلك بيتا واسعا على شكل قصبة فوق تل في قلب بادية الحوزية، ومنه كان يسيطر على الناحية إلى غاية آزمور ومازغان، و يملك أيضا بيتا في آزمور حيث يؤجج الكراهية ضد الفرنسيين الذين يحاولون جلب النظام والسلام معهم.وكان التريعي قد حضر إلى المدينة من أجل أخذ ممتلكاته، وقد حاول ذلك في الوقت الذي انسحبت فيه الفرق الفرنسية من آزمور، لكنه لم يقدر أن يفعل.

ومنذ ذلك الوقت وهو يخوض معنا معركة بلا هوادة ، مستنزفا ،شيئا فشيئا، مستخدميه القدامى الآتون إلى آزمور لازدراء الفرنسيين المقيمين في سيدي علي، ودافعا بالجرأة إلى حد إرسال رجاله إلى الضفة اليمنى للقيام بغزواتهم.ثم إن سطوته أخذت تظهر على القائد الجديد مما اضطر السلطات الفرنسية للتدخل لدى السلطان، فما كان من هذا الأخير إلا أن بعث بإنذار إلى العامل على آزمور والى القائد التريعي نفسه "من أجل إنهاء تحركاته

التي كانت سببا في التحريض والاضطراب في منطقة دكالة المجاورة لمركزنا في سيدي بويكرص»ص، وهذا الإنذار لم يكن كافيا كي يلتزم باشا آزمور الهدوء، ولهذا تم عزله وتعويضه بالقائد بوعلي بن إدريس من أولاد فرج .لكن التريعي لم يستمر طويلا في تحركاته، وهكذا فإنه حصل لقاء بآزمور في 23 أكتوبر سنة 1909 عبارة عن "اجتماع هام بين قواد دكالة مصحوبين بما مجموعه 400 فارس، وقد أقيمت الحفلات وألعاب الفروسية قصد التمتع بالإنتصارات الشريفية، وأيضا، كما يبدو، من أجل تأكيد قوة وتأثير التريعي الذي كان يعظُم في أعين من يجاوره من السكان في الشاوية مثلما في أعين رجال المخزن".

غير أنه في شهر مارس 1910 حصلت إشارة إلى تغيير في الموقف لغاية هذا اليوم الصعب في حياة التريعي.لقد بدا أنه اتخذ إجراءات للمصالحة تجاه من هم في عداد مساعديه، والذين، هروبا من أعماله، كانوا جاؤوا في شتنبر 1908 بحثا عن ملجأ في الشاوية .وأيضا ظهر للباشا بوعلي بن إدريس أن يرجع في هذه الفترة إلى المشاعر الطيبة حين مرور وزير فرنسا السيد "رينو" Regnault "بمركز سيدي علي يوم 17 ماي 1910، وقد استغل هذه الظروف لتأكيد نيته في تحسين علاقات الجوار القائمة مع الهيئة التابعة للإنزال العسكري.

وقد بدا هذا كله مبشرا بالخير، وفي يوم 26 يوليوز كان ضباط مركز سيدي علي مدعوين للاحتفال بآزمور حيث كانوا موضوعا للتحذيرات الملاطفة والودية، ولكن ذلك لم يكن سوى خديعة، فقد كانت آزمور تحاول التمرد ضد الباشا، وكانت تحركات التريعي تأخذ أبعاد اللصوصية والعدوانية إلى درجة خطيرة .وسوف يؤدي هذا من جديد إلى عزل الباشا وتعويضه بالقائد الفشار الذي أنجز مهمته برضى الجميع .وقد قام التريعي بتمهيدات أخرى للعلاقة مع السلطات الفرنسية ولكنه في هذه المرة سوف يُمْلَى عليه ما يجب أن يفعل. وفي يوم 24 يونيو 1912 تلقى مقدم المركز الغربي هذا الأمر :

برقية رسمية، 24 يونيو 1912

من منطقة الشاوية إلى مركز الغرب بسيدي علي

«3/..................

"أمان سوف يمنح إلى التريعي شريطة أن يتقدم هو نفسه إليكم من أجل الاعتراف جهارا مع التوقيع المشروط المحدد ، وأيضا لتسوية الشكاوي المرفوعة من ساكنة الشاوية أو من الخارج ممن يستندون إلى حمايتنا ، وعليه أخيرا أن يتعهد كتابة بان لا يزعج أمن الضواحي في الشاوية، وإذا ما أراد التريعي التقدم بشكوى ضد بعض الأحداث، يتوجب عليه أن يتقدم باعتراضه إلى قيادة مركز الغرب في سيدي علي أو إلى قنصل فرنسا في مازغان سواء تعلق الأمر بالشاوية أو بدكالة.

"4/ سوف يُحتفظ بأبناء التريعي كرهائن إلى أن يتم تسوية المتنازع عليه.

"إن السفير المقيم يكلفني بان أحذركم، لأنه منحني السلطة التامة لإصلاح هذه المسألة، أرجوكم أن تسووها على القواعد السالفة، وان تبعثوا عند الحاجة كل الاقتراحات التي تعتقدون أنها ذات فائدة".

إن التريعي لا زال لم يخضع بعد، وسوف يحاول المطالبة بالحماية الإسبانية، وهو ما قد يهدد بالصمود ، وكان على الجنرال ليوطي الذي عُين مجددا مفوضا مقيما عاما ، أن يتحمل مسؤولية هذه القضية، بالإضافة إلى أنه في هذا التاريخ كان هناك عامل للتنفيذ من الدرجة الأولى وهو حضور العقيد "مانجان" Mangin إلى آزمور كمقيم عام.

وكان على المقيم العام أن ينظم مسالة طلب الحماية هذا ويبعث الرسالة التالية :

فاس ، 12 يوليوز1912

من المقيم العام الجنرال ليوطي
إلى الجنرال "موانيي"، مقدم الدارالبيضاء.
وسلمت منها نسخة الى العقيد مونجان - آزمور.

إن القبطان "ايفار" Yvart مقدم دائرة الغرب / سيدي علي أشار في شهر ماي للعقيد "ريديي" مزضرزؤ بان قنصل اسبانيا في مازغان قد منح للقائد التريعي الحماية الإسبانية، و بهذا الخصوص كنت استشرت السيد "دوبيلي" de Billy الذي جعلني أعرف بان هذا الشخص قد تم الاعتراف به كذلك في شهر ابريل، ويضيف من جهة أخرى بان ممثل السلطان في طنجة لم يتوان عن الاحتجاج ضد هذه الحماية، ولم يكن القائد التريعي عزل - في الواقع - إلا قبل أيام ، وهو مجبر على تصفية الحساب تجاه المخزن.

وفي ظل هذه الشروط لا داعي للتمسك بهذه الحماية.

التوقيع :الجنرال ليوطي.

منذ هذا الأوان عاشت آزمور في الهدوء.

وكان العقيد "مانجان" يتلقى من باشا المدينة أحسن الاستقبال .إن حضور هذا الضابط السامي مزود بكل السلطات الضرورية. وإلى مركز سيدي علي بآزمور، ومعسكر سيدي إبراهيم وصلت أربعة فيالق وفرقة واحدة من القناصة ، مما يسمح بعودة الهدوء إلى دكالة بكاملها.

ص« وفي يوم 5 غشت احتُلَت واقعيا قصبة القائد التريعي الموجودة على بعد 10 كلم جنوب آزمور، حصل ذلك من طرف بعثة مهمة ذات ثلاثة أسلحة، والموضوعة تحت القيادة المباشرة للعقيد "مانجان"، وتمَّ محو القصبة تماما.

لقد كانت الأسوار البيضاء لقصبة التريعي تُشاهد من آزمور و من مازغان، من 20 كلم على الأقل في الجنوب. واختفاء أي اثر يدل على التريعي سوف يكون له صدى هائلا في البلاد.ص»

للأسف أن التريعي نفسه، وقد حذره خلصاؤه، كان وجد الوقت للفرار، ولا يمكن القبض عليه .ومنذ ذلك الوقت والهدوء يعم من جديد، والحماية تنشر جنوبا "السلام الفرنسي". ومدينة آزمور منذ الآن فصاعدا، مثل كل مدينة مسرورة، لم يعد لها من تاريخ آخر سوى تنظيمها كمدينة آمنة تحت رئاسة قيادة - أخيرا - قوية ثابتة وخيرة.

ثانيا : التعليق على النص:

ظروف وملابسات إعلان الحماية على آزمور

1 ـ تقديـم عـام:

لا نريد أن نتوقف عند هذا النص الوثيقة بالتحليل قصد توضيح ثغراته وما يتبطنه من توجه كولونيالي، يعمل جاهدا أن يتحيز بشكل مكشوف، واقعيا وفعليا، في خانة الاديولوجية الاستعمارية (هنا الحماية الفرنسية) والدفاع عنها باستماتة، وادعاءاتها أنها جاءت لجلب "النظام والسلام والأمن" إلى آزمور وساكنته .وليس المهم كذلك التوقف بالتفصيل عند حادثة الشاوية وما إليها من الأحداث فهناك العديد من الدراسات في الموضوع (وبعضها وارد ضمن المراجع)، ولكن ما نحاوله في هذه الدراسة، هو الاهتداء إلى الصورة التي كان التاريخ الكولونيالي يعمل على ترسيخها لدى المتلقي، ولعلها تتوضح بالقراءة العميقة للنص والوقوف عند كيفية قراءة المؤرخ للأحداث والوقائع، وكيفية تأويلها من منظور الاستعمار الفرنسي. ونسعى كذلك إلى توضيح الظروف العامة التي اكتنفت حادثة الشاوية وما تلاها من سياقات خاصة، حصل فيها احتلال آزمور ودفعت به

أن يتصدر الواجهة في بداية القرن العشرين، والمغرب على عتبة الحماية الفرنسية.

2 ـ الأزمة السياسية التي مهدت لحادثة الشاوية :

لقد كانت الحماية الفرنسية جلبت طوابيرها العسكرية لاحتلال منطقة الشاوية (1907)، وتلك الحادثة مثلت "عصرا ذهبيا" لا للتحضر والنظام والغنى ..بل للغش وتفريخ عناصر الفساد والمضاربة واستغلال الناس[1]، حيث كانت قبائل الشاوية تتسارع لاقتحام المعارك مع القوات الأجنبية خلال أيام البيضاء الدامية 5 و 6 و7 غشت من السنة نفسها، ولم يَرُدّها عن القيام بواجبها الوطني لا القصف المدفعي المركز والشديد من البواخر الفرنسية والإسبانية، ولا الطلقات النارية الكثيفة لقوات الإنزال المختلطة[2] وبعدها أخذت فرنسا تدفع بفيالقها لغزو منطقة دكالة والاستيلاء على عدة مواقع هناك، أهمها – طبعا بعد البيضاء – مدينة آزمور، هذه المدينة التي لا تَخفى مكانتها في التاريخ القديم والوسيط وعلى أيام الاستعمار البرتغالي، فلاحيا وتجاريا وعلميا، علاوة على أهمية موقعها الاستراتيجي في دكالة، وقد كانت على رأس المدن ـ وضمنها مراكش ـ التي تمردت على عامل السلطان محمد الرابع[3].

إذن فما هي الظروف والملابسات التي كانت وراء حادثة الشاوية عموما، وكيف حصل احتلال آزمور، ولماذا ؟؟

لقد تعهدت فرنسا لانجلترا بإطلاق يدها في مصر، ولإيطاليا بالحق في احتلال طرابلس الغرب، ولإسبانيا بشمال المغرب. وظلت تعمل جاهدة على استبعاد ألمانيا كمنافس لها في المنطقة، خاصة أن السلطان عبد العزيز كان قد استقبل الوزير الألماني في سنة 1905، وكانت ألمانيا ـ منذ أكثر من عقدين من الزمن ـ أخذت تتبوأ مكانة هامة في الاقتصاد المغربي، وقد وجدت صناعتها وتجارتها الأبواب مفتوحة أمامها، وأصبح مسموحا

لبواخرها بالملاحة الحرة من ميناء لآخر شأن البواخر المغربية .وهذا ما عرقل المشروع الفرنسي "للإصلاحات"وجعله بدون أية قيمة، كما يؤكد على ذلك علال الخديمي.

وفي هذه الظروف جاء الطلب المغربي بعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء الذي حاول حسم القضايا الكبرى للتنافس الاستعماري حول المغرب، وإرساء الهيكلة القانونية لإخضاعه للوصاية الأجنبية[4] . وكان هذا في عرف القوى الاستعمارية إعلانا بالتدويل، وكما عبر عنه شعار الاحتكار الأجنبي - حسب اوجين ايتيين " - من ملوية إلى المحيط، ومن طنجة إلى الصحراء"[5]. وعلى هذا الأساس أمكن اعتبار المؤتمر خطوة حاسمة على طريق السيطرة الكولونيالية، فما كان إلا أن ازدادت القدرة على التحكم بالكامل في مصير البلاد، وذلك من خلال ترسيخ أسس اقتصاد تبعي[6]. وإذا بالتوقيع على هذا الميثاق يؤدي إلى قطيعة بين الشعب والمخزن، ويكون الإقرار بذلك على لسان وزير الخارجية المغربي عبد الكريم بن سليمان "بموت المغرب المستقل"[7].

وإذا بالأزمة السياسية تنفجر في المغرب، بين السلطان عبد العزيز وأخيه السلطان عبد الحفيظ ، تلك الأزمة التي يصفها عبد الله العروي بأنها أصبحت "سخرية" في عهد السلطان عبد العزيز[8] الذي "أحس بميل الشاوية إلى أخيه في مراكش المولى عبد الحفيظ، الذي كانت أمه من الشاوية، وكان في خلاف دائم مع السلطان، وقد تبلور هذا الخلاف بعد احد عشر يوما من أحداث الدار البيضاء، في شكل انقلاب أودى بسقوط سلطة عبد العزيز ومبايعة أهل مراكش ثم فاس فيما بعد للسلطان عبد الحفيظ[9] "...ورغم محاولة هذا الأخير الخروج من شرنقة هذه الأزمة فإنه ظل رهين الديون الخارجية ولم ينفعه تقربه من الألمان والاستنجاد بهم، حين أرسل بعض الممثلين عنه إلى ألمانيا، فقد كان عليه أن يعتدل في مواقفه تجاه فرنسا، مما جعل القبائل تستاء منه وأخذت تتطلع إلى تجاوزه[10]، ولعله، منذ سنة 1902 والمخزن يقترض ..وجاء قرض 1904 الذي أعطى فرنسا حق الإشراف

على مداخيل الجمارك واحتكار المال، وكان- كما قال دوسانت اولير - "تعميدا للحماية"، وبالتالي ازداد النفوذ الفرنسي على الحدود الشرقية للمغرب[11]. وفي هذا السياق يمكننا تبرير الرسالة التي كتبها السلطان عبد الحفيظ إلى الدول الأوربية يقبل فيها أداء الديون المتبقية على سلفه، ويلتزم بتطبيق بنود ميثاق الجزيرة وتأدية الغرامات المترتبة على التدخلات العسكرية في وجدة والشاوية[12].

وهنا نشهد مختلف القوى وهي تتسابق لتحقيق مصالحها وفرض التبعية السياسية والاقتصادية على المغرب[13]، وقد صرح "تايلانديي" Taillandier معبرا عن النزعة الاستعمارية بوضوح بأن "مصالح بنوكنا تميل اليوم إلى التداخل مع مصالح سياستنا"[14]. وذلك لأن المغرب حينها كان غارقا في خضم القروض وقد تنوعت مصادرها من اسبانيا ومن انجلترا، مما وضع سياسة النظام برمته في قبضة الاحتكارات الخارجية[15]، وإذا بنا نجد أن كبريات بنوك باريس تتصدر الهيمنة على الخزينة العامة، وأصبحت ذات خطورة كبيرة على النظام الجديد[16]، نظام السلطان عبد الحفيظ. وهذا بالتحديد ما كان وراء سقوطه في يد الاحتكارات التي قوامها الشركات الرأسمالية الكبرى المعنية بشؤون المغرب والمنفذة للسياسة الاستعمارية ، ومن تم جاء ذلك السقوط مفجعا في يد الحماية[17]. وهذه التغيرات الفجائية التي سرعت بسقوط المجتمع المغربي بين عامي 1912- 1894، لم ترفع أحدا لا أصحاب البنوك الذين يجذبون الخيوط وراء الستار، ولا الدبلوماسيين الذين يتآمرون ولا الحاكمين المرتابين والطيعين[18].

وحين كان وزير خارجية المغرب يتسلم مذكرة من مفوض فرنسا يعبر فيها بان المغرب لم يعمل على تطبيق ميثاق الجزيرة ، وأنه يتباطأ في تنفيذ "الإصلاحات" ، إذا بفرنسا تقرر احتلال مدينة وجدة، ذلك الاحتلال الحاصل في 23 مارس 1907 ، والذي كان يخطط له منذ فترة الجنرال ليوطي المتواجد عند الحدود المغربية الجزائرية. وهذا ما سوف يتسبب في ثورة ساكنة مراكش والقيام بقتل الطبيب الفرنسي"موشان" في 19 ماي1907 ، لاعتقادهم بأنه من

جواسيس فرنسا في المغرب . وبعد ذلك حدث في الدار البيضاء اشتباك عنيف بين العمال نجم عنه مقتل 9 من الأجانب كانوا يشتغلون في الميناء في 31 يوليوز 1907[19].

ولم يكن الفرنسيون ينتظرون سوى مثل هذه المناسبة للمزيد من الضغوط على المخزن، من أجل تبرير تدخلهم وتمرير الامتيازات الحاصلة في مؤتمر الجزيرة .ذلك أن حوادث القتل الفردية والجماعية السالفة لم تكن إلا تعلة[20]، لأنه على إثر ذلك مباشرة سوف يحصل احتلال الدار البيضاء وقنبلتها وقصفها من أجل حماية الشركات الكبرى، ولتحقيق الغاية البعيدة للمجموعات البنكية والصناعية الفرنسية[21]. وقد وقعت هذه الأحداث بعد حوالي سنة من انعقاد مؤتمر الجزيرة الخضراء.. وكانت النتائج السلبية له تتلخص في حصول المغرب – الذي كان يأمل في المعونة والمساعدة وحرية العمل –على القليل من المال والكثير من التدخل، في فترة اشتد فيها تكتل قوى الاستعمار، واتسعت دائرة تآمرها من أجل غزو إفريقيا وآسيا بحثا عن المواد الخام وعن الأسواق الجديدة، والأيدي العاملة الرخيصة[22]. وهذا من منطلق أنها تمثل الرأسمالية النشيطة والتوسعية، كما يؤكد على ذلك عبد القادر الشاوي[23]. ومتى أحكم الاستعمار القبضة على منطقة الشاوية، أخذ قادته وعلى رأسهم "موانيي" و"مانجان" يعملون على تطبيق خطتهم في الاستيلاء على البلاد بدءا من الرباط وصعودا إلى منطقة زعير، وبعدها وصولا إلى فاس، حيث تم بسط نفوذ الحماية على المغرب كله .

3 ـ الإنزال العسكري بالدار البيضاء واحتلال آزمور:

وقد جاءت حادثة الشاوية بمثابة رد فعل من فرنسا التي جلبت طَوابيرها العسكرية لمحاولة "إقرار السلام" على طريقتها، وهو ما نلاحظه بشكل واضح في النص المترجم. وبعد محاصرة شرق وغرب وشمال المنطقة ، كان عليها الالتفات إلى الجنوب، إلى مدينة آزمور حيث يجري وادي أم الربيع، الذي كان منذ العصر الوسيط حدا فاصلا بين مملكتي فاس ومراكش ، وهو

اليوم الحد الطبيعي بين منطقتي الشاوية ودكالة .وكانت الغاية من وراء ذلك الالتفات إلى هذه المدينة التاريخية، هو إخضاعها وبالتالي إحكام حصار الشاوية من الجهات الأربع ليكون بمثابة سياج أمني، وأيضا لمراقبة تحركات القبائل[24].

وقد أوكلت هذه المهمة إلى الجنرال "داماد" D'Amad بدلا عن الجنرال "درود" الذي فَشل في رد قبائل الشاوية عن مقاومتها، وخاصة منها قبائل المذاكرة والزيايدة وأولاد احريز، التي كانت كبدت القوات الفرنسية خسائر بشرية ومادية كبيرة[25]، وكان على الجنرال "داماد" أن ينتهج - لمواجهة القبائل المذكورة -سياسة الحديد والنار، ولهذه الغاية حضر إلى الدار البيضاء في 5 يناير1908، وتحت قيادته أخذت القوات الفرنسية تتقدم لمحاصرة المنطقة بكاملها12 (كلم مربع)، وكانت تلك القوات - على تضارب في الأقوال - حوالي 10 آلاف إلى 15 ألف جندي، وظلت تحافظ على قوة تعدادها ستة آلاف جندي موزعين في ربوع الشاوية تحت إمرة الجنرال "موانيي"[26]، وكان عليها أن تنتشر بدرجة واسعة في محاولة منها لابتلاع منطقة فلاحية هامة وللسيطرة على مينائها المتقدم[27].

وكان ذلك خلال فترة الحكم الحاصلة بين السلطان عبد العزيز الذي بويع من طرف الحماية في فاس، والسلطان عبد الحفيظ الذي كان مبايعا في مراكش وحظي بمبايعة أعيان مدينة آزمور في غشت1907، ومع أن الحفيظيين كانوا قد استولوا على المدينة وولوا الباشا حسي الكلاوي، فإن سكان آزمور احتفظوا فيها بالقايد الوعدودي، عامل السلطان عبد العزيز[28].

وكل هذا يوضح أن المدينة أصبحت خطرا يجب التخلص منه من أجل حماية المصالح الفرنسية في الشاوية[29]، وبذلك تكون آزمور قد انخرطت في الانقلاب السياسي الحفيظي للإطاحة بالسلطان عبد العزيز، كما تعبأت لمواجهة التدخل الأجنبي[30]. ومن خلال هذه المعطيات نلاحظ كيف اندلع الصراع على أشده بين الحفيظيين والقوات الفرنسية، مما سوف يسمح

بالدفع بالمدينة إلى واجهة الإحداث الوطنية والدولية ، ويجعلها في تماس مباشر مع قوات الاحتلال الفرنسي وذلك على طول وادي ام الربيع[31].

وانطلاقا من النص المترجم أعلاه، نجد أن الجنرال" داماد "تحرك في طابور عسكري يوم 27 يونيو1908 ، وكان عليه أن يتعزز بقوات إضافية من برشيد وأن يجلب إلى صفوفه بعض القياد من أولاد فرج ، وقبل الوصول الى عين المكان كان الجنرال اضطر للتوقف عند مركز سيدي بوبكر مول المدفع) قريبا من دوار أولاد سيدي فارس شمال آزمور، بحوالي 5 كلم(، والذي أصبح محطة لإقامة المعسكر الفرنسي ، وبعد ذلك سوف يتخذ من ربوة سيدي علي - المطلة والمشرفة على المدينة عند مدخل البيضاء -محطة أخرى للإقامة، يلتقي فيها الجنرال بعساكره للمشاورة وبأعيان المدينة للتفاوض حول احتلال المدينة ، وأيضا لمراقبة المنطقة كما سلف القول.

وقد عمل الجنرال على حصار المدينة حتى يَشُلَّ حركة الصمود والمقاومة فيها، والتي كانت بقيادة محمد التريعي الموالي للحفيظيين، وجاء الحصار على شكل قطع الطريق المؤدية إلى المدينة، والدفع بالسكان إلى إغلاق الأبواب، والتقوقع وراء الأسوار خائفين ومبعدين قواربهم حتى لا تعبر قوات الاحتلال الوادي وتستولي على المدينة والممتلكات.ولكن ذلك بالتحديد ما سوف يحدث، وهذه المرة بالمكر والخديعة والتهديد بالمدفعية. فقد كان الفرنسيون جربوا في الشاوية العمل السياسي والعسكري والإداري بالخداع والكذب لمواجهة السلطة الشرعية ومقاومة الشعب[32].

لقد كان على القوات الفرنسية لإضفاء طابع هادئ على احتلالها لآزمور والسيطرة عليها في 30 يوليوز 1908، أن تراهن على المحلة العسكرية العزيزية المرابطة في مازغان[33]، لكن ما راهنت عليه لم يتحقق. وهذا ما دفع بها إلى التدخل المباشر واحتلال المدينة دون مقاومة تذكر !!وكانت المفاوضات بين الجنرال "داماد" والأعيان، قد مهدت لذلك لأنها تمت تحت التهديد بالقصف المدفعي للنزول تحت أوامر الاحتلال وترحيل الباشا حسي

الكلاوي ومعاونيه من الحفيظيين، وحينها يخلو الطريق للعبور إلى المدينة. والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح ما هي مبررات هذا الإنزال العسكري والتدخل العنيف بالتهديد والقنبلة في مدينة آزمور ؟

لقد سبقت الإشارة إلى بعض عناصر الجواب على ذلك، زيادة على الأهمية التاريخية لموقع آزمور الجغرافي والاستراتيجي ، وعلاقة المدينة مع الشاوية من جهة، ومع دكالة من جهة أخرى .ومن هنا كان التدخل عسكريا على تلك الشاكلة يستهدف عدة غايات ، يمكن أن نذكر أهمها :

-مساعدة المخزن العزيزي على استعادة المدينة.
-تأمين الاتصالات والمبادلات بين الجديدة والبيضاء.
-حماية المصالح الأجنبية ومنها مصالح المحميين المغاربة.

-محاربة تجارة تهريب الأسلحة من طرف الألمان لصالح المقاومة والحركة الحفيظية[34].

إن هذا الاحتلال للمدينة كان لابد له أن يثير احتجاج ألمانيا ، من موقع كونه احتلالا عسكريا ولأنه خرق مقتضيات ميثاق الجزيرة الخضراء، وخاصة ما يتعلق بتنظيم شرطة الموانئ[35]، وكل ذلك كان سببا وراء انزعاج ألمانيا التي فقدت ثقتها في حليفة الأمس فرنسا[36]، لأنها عملت على الإخلال بالاتفاقية القائمة بينهما على بذل الجهود للاستغلال المشترك للمغرب.ذلك أن ألمانيا لم تكن ترفض أن تبسط فرنسا حمايتها على المغرب، وإنما كانت تريد حقها من الغنيمة، لقد طالبت على الدوام بحماية مصالحها الاقتصادية وأبدت استعدادها للتخلي عن منافسة فرنسا في المغرب إذا هي حصلت على تعويض ملائم[37]، أي حقها في الاستغلال الرأسمالي والدفع بشركاتها إلى أخذ مواقعها في ذلك الاستغلال، ولم يكن يُخفى ما كانت تضمره ألمانيا من أطماع في المنطقة، لأنها هي بدورها كانت تراقب عن كثب ما يقع من أحداث، وتنتظر متى يتسنى لها التدخل للاستيلاء على حصتها من الأراضي[38]، وذلك من منطلق التنافس

الكولونيالي بين القوى العظمى المذكورة أعلاه، وحول مناطق النفوذ وبحثا عن الموارد الأولية في المواقع الإستراتيجية في الدول المستهدفة من طرف الاستعمار .

تحت مجموع هذه الضغوط ، وبعد أسبوع من الاحتلال الفرنسي لآزمور، أي في 6 يوليوز، سوف يتراجع الجنرال "داماد" بقواته مكتفيا بالعسكرة على الضفة اليمنى لأم الربيع، وذلك بمركز سيدي علي9، والواقع أن الجنرال لم يعمل على الانسحاب من المدينة إلا بعد أن تم له تطويق الشاوية[40]، وبعبارة أوضح فإن الجنرال كان قد استكمل المهمة التي نذرته لها فرنسا، ومن موقعه بمركز سيدي علي عمل على الإشراف على تعيين جماعة من الأعيان، قوامها ثلاثة عشر فردا، تحت رئاسة الجيلالي ولد القايد الوعدودي ؟ وكان القايد الوعدودي/الأب، سبق له أن عمل مع الاستعمار الفرنسي – مُكوِّنا بذلك أول مجلس بلدي في المغرب، كما سوف يسمى فيما بعد، وسوف يعتبر "سابقة" في نظر البعض، بينما سوف يعتبر" خيانة "في نظر البعض الآخر. وكان الجنرال قد جاء بمحلة عسكرية مخزنية من الرباط قوامها 400 عسكري[41]، ومن هنا كانت إشادة" وسجربر Weisgerber "بالجنرال قائلا" : لقد أدى "داماد" أروع الأدوار في صفحة تاريخنا الكولونيالي"، وإليه ـ أي إلى"وسجربر" ـ سوف يصرح السلطان عبد الحفيظ " إن رغبتي تتمثل في السير مع فرنسا يدا في يد"[42]، وهذا ما سوف يتحقق في بداية سنة 1909 حين يلتحق الوزير الفرنسي" رينو "بفاس، وذلك بطلب من السلطان لتصفية المشاكل القائمة في منطقة الشاوية، وأيضا وخاصة لإحكام المزيد من السيطرة[43].

4 ـ مكانة القايد التريعي في تاريخ المنطقة:

والملاحظ أنه إذا كان الاحتلال الفرنسي استطاع استبعاد الحركة الحفيظية، فإنه عمل كذلك على إشعال شرارة المقاومة الشعبية على يد القايد التريعي.وكانت فرنسا هددت باحتلال الجديدة في صيف1907 ، لكن

الحفيظيين تمكنوا من السيطرة على آزمور بمساعدة التريعي نفسه، ونظموا عملية تهريب الأسلحة إلى مجاهدي الشاوية عبر آزمور والجديدة[44]، ونضيف بأن ذلك كان بمساعدة الألمان الذين كانوا يعارضون احتلال الشاوية وقنبلة الدار البيضاء، وذبح رجال القبائل وسكان المدينة - حسب ما كتبت جريدة ألمانية -وكان ذلك إجراما، بل يمكن اعتباره عملا تخريبيا ومسخرة دموية[45]، واستمرت الصحافة الألمانية تداوم على فضح تصرفات القوات الفرنسية في الشاوية، واستمر الألمان يهربون الأسلحة للمجاهدين عبر الجديدة[46]، وكان هؤلاء المجاهدون المطرودون من الشاوية ذاتها يعودون إليها تحت الحماية الألمانية مثل الجيلالي بن الرغاي قايد ولاد سيدي بنداود[47]. هذا علاوة على أن السلطان عبد الحفيظ كان قد اعتُرف به دوليا من طرف الألمان أنفسهم، وكان قد أرسل مبعوثين عنه إلى ألمانَيا للتشاور والاستنجاد - كما توضح سابقا.

فما هي الصورة التي يقدمها المؤرخ "دوتوي"، والكتابة الكولونيالية عموما، عن القايد التريعي، هذا القايد الذي أضحى شوكة في حلق الاستعمار الأجنبي بآزمور؟

إن الجواب على ذلك معلوم من خلال المواجهة العنيفة التي عُومل بها القايد التريعي من جانب فرنسا ، والنص المترجم يقدم وثيقة مهمة تنَضاف إلى مجموع الوثائق على قلتها التي تعاملت معه ـ كما يصفه "دوتوي ـ " باعتباره قرصانا حقيقيا، وكانت تحركاته في نظر فرنسا تأخذ طابع اللصوصية والعدوانية !! إنه الرجل الذي أذكي العداوة على الضفة اليسرى، وعمل على تأجيج الكراهية ضد الفرنسيين، وكان يقوم بالغارات عليهم ويسلبهم ما تحت أيديهم ويبتهج حين تسير الأمور في غير صالحهم، ولا يتق في ادعاء فرنسا أنها جاءت تجلب "السلام والنظام" للمنطقة !! وكان التريعي يملك بيتا على شكل قصبة في الحوزية ، مما جعله يسيطر على الناحية بين آزمور ومازغان، واستطاع أن يخوض مع الاحتلال الفرنسي معركة بلا هوادة وكان رجاله يزدرون الفرنسيين المقيمين في مركز سيدي

علي، ويذهبون إلى الضفة اليمنى للقيام بغاراتهم تجاه الجنود الفرنسيين ، وبأمر من فرنسا بعث السلطان عبد العزيز إلى عامله على آزمور كي يعمل على إنهاء تحركات التريعي في المنطقة ، لكن تأثيره كان يعظم في أعين السكان مثلما في أعين المخزن ، وقد أُعطي له أمان كاذب إذا هو عمل على تسليم نفسه للسلطات الفرنسية، وأرسلتَ رسالة احتجاج من فرنسا إلى اسبانيا التي منحته الحماية، وهي موقعَة من قبل الجنرال" ليوطي "المقيم العام في فاس آنذاك والمؤرخة في 12 يوليوز.1912

إن أقل ما يقال حول هذه الصورة الواردة في النص أنها مغرضة وتعمل على تشويه الأعمال الجهادية التي كان يقوم بها القايد محمد التريعي ، هذا القايد ـ كما تذهب المصادر التي بين أيدينا ـ كان طالبا حافظا للقرآن، واشتهر بالصرامة والنفور من الأجانب، وكان خاض جهادا طويلا ضد الاحتلال الفرنسي[48]، وقد حاول الاعتراض على فرنسا في بداياتها حتى لا تدخل إلى آزمور ، لكنه تراجع[49]، وكان يقوم بعمله كقائد معين من طرف السلطان الحسن الأول، ثم ألقي عليه القبض مع آخرين وأودع السجن إلى حين وفاة الصدر الأعظم احمد بن موسى سنة 1900، وحينها عاد إلى قيادته[50]، لكن حين احتل الفرنسيون آزمور عزلوه وولوا غيره .وبمجرد أن تراجع الفرنسيون مع احتجاج المنتظم الدولي، حاول أن يعود إلى قيادته ويعمل على التنكيل والانتقام بالمتعاونين مع فرنسا[51]، وعلى رأسهم القائد المُعَين من قبل الاحتلال، وهنا استطاع أن يحصل على ظهير حفيظي بالتولية[52]، وكانت لديه المقدرة على فرض وصايته غير المباشرة على القياد الثلاثة الذين عُينُوا بين سنتي[53] 1912-1908.

وكان قبل ذلك شارك في معركة الجهاد ضد فرنسا في المْذَاكرة مع بطلها الأحمر بن منصور[54]، وكانت علاقته سيئة مع فرنسا إلى حدود سنة 1911، وازدادت بعد ذلك سوءا[55]، وأخذت تحركاته تتوالى خاصة بين الحوزية والجديدة، حيث نفوذ فرنسا والقناصل الأجنبية في دكالة. وروقب مراقبة صارمة لأنه رفض وضع يده في يد فرنسا[56]، لأنه صمم على معارضة

أهدافهم الاستعمارية، ومن هنا جاء انضمامه إلى الحركة الحفيظية وأصبح من زعمائها في أحواز آزمور، وبذلك اختار طريق الجهاد ضد التدخل الفرنسي العسكري بالمغرب[57]، وقد كيلت له التهم بالقتل وغيرها وكان الفرنسيون يتهمونه بالتعسف والقسوة[58]، وذلك بعد احتلال آزمور وتراجع القوات الفرنسية عنها، ومراقبة الأوضاع من على ربوة سيدي علي وإنشاء ما دُعِي بالمَجلس البلدي آنذاك.

من هذا المنظور، واتساقا مع ما سبق، نستطيع القول بان التريعي غدا رمزا للمقاومة الشعبية التي " كانت تموج بها منطقة الشاوية منذ 1904، ولم تأخذ بعدا مقاوما ظاهرا إلا في سنة 1907 مع بدء الأشغال العمومية في ميناء الدارالبيضاء، وقد استمرت هذه الحركة في تصاعدها التدريجي، فاكتسبت مع "ثورة" عبد الحفيظ قوة كبيرة. إلا أن القوات الفرنسية- انطلاقا من الموقع الاقتصادي الاستراتيجي الذي احتلته المنطقة في برنامجها الكولونيالي - دفعت بثقلها الكبير هناك لتضع تلك المقاومة في مأزق حرج بعد سنة 1908 على وجه الخصوص"[59].

ومجموع هذه الاعتبارات هو ما سوف يجعل من آزمور قاعدة عسكرية فرنسية هدفها عملية تصفية القايد التريعي[60] ذلك القايد الذي يمكن اعتباره الخطر الحقيقي الماثل أمام فرنسا في تلك السنوات . ولعله لم يلجأ إلى الحماية الإسبانية في الجديدة إلا حينما أصبح مهددا في حياته، مما دفع بفرنسا أن تستصدر قرارا بعزله[61]، ومحاولة القبض عليه في غشت 1912. وكانت قد فرضت حمايتها على المغرب في مارس من السنة نفسها، واستمرت مدينة آزمور في لعب دور المركز العسكري طيلة فترة الحماية تلك[62].

وقد احتُلت مدينة آزمور في 23 يوليو من جانب الكولونيل "مانجان Mangin" الذي جعلها مركزا لعملياته بدكالة، وكان بمثابة مشرف سياسي مكلف بتهدئة المنطقة، بمعنى آخر مكلفا بالقضاء على كل نفوذ معارض

للاحتلال الفرنسي للقبائل الدكالية[63]، وكان قائدا للبعثة العسكرية الفرنسية الذي سوف يطلب منه السلطان عبد الحفيظ مراعاة تنظيم الجيش المغربي[64]، وقد دعا إلى إقامة نظام تشكل به القبائل شريطا من الحماية ضد الهجومات التي تأتي من الجنوب، وذلك بمشاركة القواد الكبار في قبائل الأطلس بين الحوز وسوس[65]، واليه - أي الكولونيل "مانجان"- سوف توكل مهمة القضاء على نفوذ القايد التريعي باتخاذه قرار قنبلة بيته، القصبة الواقعة على بعد 10 كلم جنوب آزمور، وإلقاء القبض عليه في فجر يوم 4 غشت 1912. لكن التريعي الذي كان على علم بالأمر - لأنه منذ فترة أخذ يحتاط لنفسه - التجأ إلى دار المحمي الإسباني قريبا من الجديدة، وسوف يعمل قنصل فرنسا على محاصرتها بمساعدة طابور من البوليس[66]، هذا الطابور سوف يتعزز بالمزيد من القوات الفرنسية. وجاءت فرقة من الرماة لتشديد الحراسة حول الدار خوفا من خروج التريعي وهروبه. وفي المساء حدث تبادل لإطلاق النار بين من في الدار وبين القوات المحاصرة لها، وقد تسلح أفراد الجالية الفرنسية بالجديدة هم بدورهم وباتوا يقومون بأعمال الدورية بضواحي المدينة[67]، هذه المدينة التي كان خيم عليها حينذاك جو منذر بالسوء وكانت جميع المصالح مغلقة والانفجار وشيك الوقوع[68].

ورغم الحصار استطاع القائد التريعي – حسب بعض الأقوال –الفرار صبيحة يوم 6 غشت 1912 ليختفي في بادية دكالة، واستطاع بعد ذلك الانضمام إلى المجاهدين - على اختلاف في الروايات - بالأطلس المتوسط حيث أمكنه المشاركة في الجهاد إلى جوار موحا اوحمو الزياني، وفي الصحراء مع احمد الهيبة[69]. وهكذا يتضح أن تصفية القايد التريعي والمقاومة التابعة له، كانت هي الغاية المستهدفة للحماية الفرنسية كما يتبين من النص، وذلك من أجل صرف الأنظار عما قامت به فرنسا من خروقات تجاه ميثاق الجزيرة الخضراء، ومن تعسفات تجاه الساكنة والمقاومة المسلحة .كل هذا يتم من زاوية المؤرخ التابع للحماية والناطق باسمها والمدافع عن ايديولوجيتها، مما يصنف ضمن التاريخ الكولونيالي.

وهكذا لم يكن أمام مدينة آزمور سوى الاستسلام الطوعي والخضوع طيلة فترة الحماية، وبذلك تبوأت دور المركز العسكري للاستعمار الفرنسي، من على ربوة سيدي علي المطلة على الوادي، والتي تلعب دور المراقبة على محور الدار البيضاء مازغان من جهة، وعلى منطقة الشاوية دكالة من جهة أخرى.

5 - ملاحظات ختامية:

وفي الختام لا بد من التوقف لإبداء بعض الملاحظات الشكلية، و لعله ليس من مهمة الباحث في الموضوع تعداد مثالب الاستعمار الفرنسي أو الوقوف إلى جانب المدافعين عن أطروحته بأنه كانت تقتضيه ضرورة المرحلة وهذا موضوع إشكالي نتركه جانبا ونحاول رصد الصورة التي يقدمها المؤلف شأن كثير من المؤرخين التابعين للحماية والمدافعين عن مشروعها الاستعماري، وهي الصورة التي تُنُوولت في كثير من الخطابات، والمتعلقة بصورة الأخر عنا أو صورتنا نحن عند الآخر .بطبيعة الحال هناك نوع من انعدام التجانس واللاتكافؤ بحكم ما كان يطبع المغرب - كما يذهب عبد الله العروي -من عدم الوحدة وعدم الاستقرار .إلا أن "دوتوي" يقدم لنا هنا رؤية الآخر عنا / عن النحن، بمعنى أنه يعطي صورة عن المغرب من خلال عيون الأوربي، وهي صورة جاءت متحيزة في عموم الكتابات لأنها تقرأ ما تريد وتسكت عما تريد .وإذا كان المغاربة لديهم صورة ضمنية عن أنفسهم، فإن الآخر ينقلها كما هي ويجعلها تمر عبر المصفاة الكولونيالية مدعيا - كما يفعل معظم مؤرخي الإستعمار - بأن المغرب قبل الحماية كان عبارة عن قبائل متناثرة، من أجل تكريس التفرقة الاستعمارية السائدة آنذاك بين المغرب النافع والمغرب غير النافع، وهي ذاتها التفرقة المخزنية بين بلاد المخزن وبلاد السيبة.

وعلى هذا الأساس فإن المغرب لم يكن آنذاك على أية درجة من التحضر، وأنه كان عبارة عن أناس في حال من البدائية والتصارع الوحشي،

كما يتجلى ذلك في سيادة التقليدانية و في غياب المؤسسات و البنيات التحتية من الطرق والقناطر وما إليها ..وهكذا نجدهم يبررون ضرورة مجيئهم لأجل توحيده وإدخاله في مجال الحضارة والمدنية، وليس لنهب خيراته وثرواته والبحث عن الأسواق لترويج خدماتهم وتجارتهم ! ولم يذخر الجهاز الاستعماري جهدا في نشر أفكاره حول رسالته الحضارية عن "السلام والأمن" نحو المغاربة - كما يفعل "دوتوي" على امتداد النص نفسه - لأن كل الحملات المنطلقة من ادعاءات التمسك بتلك" الرسالة "تنتهي إلى تخريب أولئك الشعوب، وذلك بعملية استنزاف الخيرات والطاقات والقيام بفظاعات تتعدى الوحشية تجاه من اعتبروهم أجناسا همجية[70]. وهكذا نجد في طرف المغاربة كشعب يغرق في الفوضى والتأخر والفقر، وفي الطرف الآخر الاستعمار الأوربي الذي يرى أن التدخل في شؤون البلاد "ضرورة حضارية !" ولهذا ينبغي مدح القائمين بها وليس اعتبارهم مستعمرين متسلطين[71]!، والسؤال هنا هل لهذه الأسباب كانت تسعى فرنسا لإفهام المغاربة بأن حرمانهم والتضييق عليهم يرجع أساسا إلى كونهم يقاومون الاستعمار؟ وهناك الكثير من المؤرخين الذين يوضحون بأن هدف العملية الاستعمارية الحاصلة في مغرب 1907 كانت تدخل في نطاق الاستغلال وليس في نطاق تقديم خدمات حضارية[72].

والنص الذي بين أيدينا عبارة عن خطاب كولونيالي، وهو في مجمله سرد كرونولوجي للوقائع العسكرية والتطورات الحاصلة في الميدان، وذلك عن طريق توثيق السنة والشهر واليوم والساعة والدقيقة، وبالدقة البالغة.ثم هناك وصف لبعض المواقع المشتملة على الموارد الأساسية كالحطب والماء والأماكن، ويتحدث عن زغاريد النساء فرحا بتحرير آزمور من الباشا حسي، ودخول الاستعمار الفرنسيص !والكاتب يعود في مرات متعددة للوقوف عند وصف وادي أم الربيع وصفا دقيقا بالطول والعرض ومستوى المياه عند المد والجزر والجريان، غالبا لتصحيح الفكرة حول هذا الوادي وأهميته بين وديان المغرب، ولإبراز المكانة التي يحتلها في المنطقة ، ويشير بافتخار إلى

الأشغال التي سوف يقوم بها الفريق الهندسي الفرنسي، من القنطرة العائمة إلى القنطرة الثابتة التي نجد تفاصيلها عند "ميشو بيلير" بالتدقيق في كتابه "آزمور وضواحيها". وتلك نظرة كولونيالية تركز على مثل هذه الأعمال من أجل التغطية على أعمالها الاستغلالية الأخرى. وللتأكيد على إنشاء الخط التيلغرافي ع.إ.ىء ، نجد نصا لإحدى البرقيات وأيضا رسالة من الجنرال ليوطي وغير ذلك من النصوص كما يشير وضعها بين مزدوجتين، دون أن يذكر كلمة واحدة عن الأعمال العسكرية العنيفة التي قام بها الاستعمار.

وفيما يتعلق بلغة النص، فالغالب عليها المصطلحات التي تنتمي إلى الحقل العسكري، وهي لغة مغلفة بالانحياز الظاهر والخفي، والكاتب يموه تارة بأنه ينقل الواقع، وأخرى يمرر المواقف الكولونيالية، خاصة حين الحديث عما اصطلح عليه ب "السلام الفرنسي" ويسكت عن كثير من الأمور أهمها كما سلف القول ، قنبلة قصبة القايد التريعي والاستيلاء على الوثائق التي كانت هناك، ومحاصرة مدينة الجديدة والاستعانة بالقوات الاحتياطية وبالجالية الفرنسية وبتسليحها وقيامها بأعمال النهب والسلب !! كل هذا لا كلمة عنه، شأن ما فعل أيضا "ميشو بيلير" وهو يتناول قبيلة الحوزية في كتابه المذكور قبل قليل، وكذلك حين تناوله لسلسلة القواد المتعاقبين على مدينة آزمور بين 1910-1820 ، فإنه لم يقل كلمة واحدة عن القايد التريعي! وهي نظرة عامة نجدها عند غيرهما من المؤرخين الفرنسيين ذوي التوجه المنحاز أو المتعاطف مع الاحتلال الفرنسي .

ونلاحظ خلال التقسيم المتبع في النص أن هناك تفريعا وتناولا للقضايا والإشكالات التي تدعم ذلك النوع من الخطاب الذي يبرر المشروع الاستعماري ويدافع عنه، مما قد يطوله من النعوت السلبية أو ما يعترض عليه بكونه يقف في وجه المقاومة الشعبية، حتى تحقيق الغاية التي هي بسط الحماية وانتهاء التدخل وتهدئة مدينة آزمور.

يحدث هذا بعد مرور أكثر من عقد ونصف العقد على فرض الحماية على البلاد أي سنة تأليف الكتاب (1927)، وذلك في محاولة من المؤلف لتبرير الصورة السيئة للاستعمار لدى المواطنين ولدى المنتظم الدولي ، وقد وردت إشارة عند الباحث الخديمي إلى أن المرء يجد نفسه أمام مفارقة بارزة، بين الواقع في عين المكان وبين الخطاب الاستعماري، لأن هدف الاستعمار هو تحقيق اكبر ربح ممكن من العملية الاستعمارية مهما كانت الوسائل[73]. ولكي يعمل المؤلف على تناول الموضوع والكتابة فيه في ذلك الحين، أي بعد مرور تلك الفترة الزمنية وجد نفسه أمام ضرورة الدفاع عن الحماية الفرنسية وتبرئة ذمتها من الأعمال المشينة التي يكشف عنها الستار غير واحد من المؤرخين الفرنسيين المنصفين[74].

تلك بعض القضايا التي يثيرها هذا النص، حاولنا أن نتلمسها على قدر المستطاع، أي حسب ما سمح به الجهد والوقت، وما على الباحثين إلا إغناءها بتطوير ما قد تطرح من الإشكالات والتساؤلات .

* * *

هوامش :

1. علال الخديمي ، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية ، إفريقيا الشرق،1996 ، ص.136
2. أحمد زيادي، انتفاضة الشاوية(سنة)1907 ، عيون المقالات، البيضاء،1986 ، ص.26
3. الناصري ، الاستقصاء، ج 9 ، وراجع أيضا جواد ارويحن ، آزمور على عتبة الحماية (1912-1907) ضمن أعمال ندوة ، آزمور حاضرة دكالة، جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب، الجديدة2007 ، ص115.
4. جواد ارويحن، نفسه، 116.
5. عبد القادر الشاوي، السلفية والوطنية، مؤسسة الأبحاث ، بيروت،1985، ص 35.
6. نفسه ، ص.45
7. نفسه ، ص35
8. عبد الله العروي ، تاريخ المغرب، ت ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية، بيروت،1977، ص.321

9. أحمد زيادي، مصدر مذكور، ص.13
10. الشاوي ، م.م ، ص.28
11. أحمد زيادي، م.م ، ص. 13
12. الشاوي، م.م، ص38
13. نفسه، ص.32
14. نفسه ، ص33
15. نفسه ، ص34
16. نفسه ، ص38
17. نفسه ، ص36
18. العروي ، م.م ، ص321
19. حول حادثة الشاوية ، أسبابها ونتائجها ، من بين ما يمكن الرجوع إليه:
-علال الخديمي ، التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، إفريقيا الشرق،(1991). وحول دوافع ونتائج مقتل الطبيب موشان يمكن الرجوع إلى الصفحة 92 من هذا المرجع).
-علال الخديمي ، المغرب في مواجهة التحديات الخارجية ، م.م.
-روبير لوطان loutan (1922-2008)ج(1907-1908) te de la Chaouia
20 `الشاوي ، م.م ، ص.46
21 `جورج اوفيد، اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية (1905-1955) ت، محمد الشركي ومن معه ، ج 1 ، دار توبقال،1987 ، ص.60
22. أحمد زيادي، م.م، ص 5 وأيضا.13
23. الشاوي م.م، ص24
24. بديعة الهيزور ، موقف فرنسا من احتلال داماد لآزمور ، ضمن أعمال ندوة ، آزمور حاضرة دكالة، م.م ،ص.123
25. نفسه، ص124
26. الشاوي ، م.م ، ص.46
27. نفس المرجع والصفحة.
28. الهيزور ، م.م ، ص.125
29. نفسه ، ص126
30. اورويحن ، م.م ، ص.116
31. نفس المرجع والصفحة.
32. الخديمي ، التحديات ، م.م ، ص.142
33. اورويحن، م.م ، ص117

34. نفسه، ص 118، وللمزيد يمكن الرجوع إلى الخديمي في التحديات وخاصة مقال : فوائد احتلال الشاوية.
35. ارويحن، نفس المعطيات السابقة، وقارن مع دوتوي في النص المترجم أعلاه.
36. الهيزور، م.م ، ص127 ، وللمزيد اوفيد في اليسار الفرنسي...
37. الخديمي ، التحديات، م.م ، ص.107
38. اوفيد ، م.م ، ص23
39. ارويحن ، م.م ، ص.118
40. الهيزور، م.م، ص.128
41. ارويحن ، م.م ، ص119 ، من بين أسماء الأعيان المشاركة في المجلس البلدي لآزمور آنذاك يمكن أن نذكر بالاضافة الى الجيلالي بن الوعدودي ؟ :محمد بن الحاج الطيبي ؟ الحاج بوعزة ولد الفقيه بن دحو ؟ الحاج محمد الشوفاني ؟ احمد الشوفاني ؟إبراهيم الهنتاتي ؟ المختار بن الشرقي ؟ الحاج ابراهيم القرموشي ؟ الحاج محمد العبار ؟إدريس بن قاسم ؟ محمد بن بوشعيب العبدي ؟ محمد اللبار ؟ أحمد واجو -احمد المريقي... -
42. الشاوي ، م.م ، ص.48
43. نفسه ، ص.47
44. الخديمي ، معلمة المغرب ، مادة / التريعي ، ص.2348
45. الخديمي ، التحديات ، م.م ، ص.100
46. نفسه ، ص.105
47. نفسه ، ص.106
48. الخديمي ، مقاومة الأطماع الفرنسية بدكالة في بداية ق20 ، ضمن أعمال ندوة ، دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين ،1994 ، ص 209 و.210
49. ارويحن ، م.م ، ص.119
50. الخديمي ، المعلمة ، ص.2347
51. الخديمي ، المقاومة ، م.م ، ص.211
52. الخديمي ، المعلمة ، ص.2348
53. ارويحن ، م.م ، ص.119
54. الخديمي ، المعلمة ، ص.2348
55. نفس المرجع والصفحة.
56. نفس المرجع والصفحة.
57. الخديمي ، المقاومة ، م.م ، ص.211
58. نفسه، وأيضا المعلمة ، ص.2348

59الشاوي، م.م ، ص.53
60.ارويحن، م.م ، ص.121
61. الخديمي، المعلمة ، ص2348 ، وأيضا المقاومة ، ص.212
62. ارويحن، م.م، ص. 121
63. الخديمي ، المعلمة ، ص2348 ، وأيضا المقاومة ، ص.212
64. الشاوي، م.م، ص.48
65. نفسه، ص.25
66الخديمي، المقاومة ، ص.213
67. الخديمي، المعلمة ، ص.2349
68. الخديمي، نفسه ، وأيضا المقاومة ، ص.213
69. الخديمي، المقاومة ، ص.214
70. اوفيد، م.م، ص.15
71. الخديمي، التحديات ، م.م ، ص.135
72. نفسه، ص.138
73. الخديمي ، نفسه ، ص.136
74. يمكن الرجوع إلى جورج اوفيد ، و شارل اندري جوليان وغيرهما كثير...

* * *

السياسة الجهوية بالمغرب خلال فترة الحماية

صالح شكاك*

تمهيـــد

وضعت إدارة الحماية منظورا متكاملا لكافة تدخلاتها بالمغرب بما يخدم مصالحها من حيث الأمن والاستغلال. وكان التسيير الإداري أحد أهم ركائز الوجود الاستعماري بالمغرب، شكلت فيه السياسة الجهوية قطب الرحى. ورامت هذه السياسة تحقيق عدة أهداف وغايات معتمدة في ذلك على نظريات وتجارب. فلم يكن لدى الفرنسيين والإسبان على السواء النية في تحقيق ثورة في هذا المجال بحكم نظرتهم المسبقة إلى المشروع الاستعماري في كليته وبحكم ما توفر لديهم من وسائل وأساليب ولو أنهم لم ينطلقوا من فراغ في هذا الباب.

السياسة الجهوية :أسس ومقاصد

اعتمدت سياسة الحماية في الشأن الجهوي بالمغرب على عدة أسس، منها:

استأنست أولا بالموروث المغربي في هذا المجال، وخاصة بالتجربة الإصلاحية للسلطان المولى الحسن .فقد تبنى هذا الأخير تجربة القيادات الصغرى بدلا من القيادات الكبرى بغية تحطيم تطلعات وتجاوزات القواد

* أستاذ باحث، الربـــاط.

الكبار وبغية الإبقاء على سلطة الجماعات كقوة اقتراحية وإلزامية على مستوى التسيير المحلي والجهوي من حيث اقتراح أسماء القواد وتنظيم المجال بين المجموعات البشرية وإدارة شؤون أراضي الجموع وتوزيع الكلف...أي ما عبرت عنه المراسلات الرسمية ب "تمهيد المصالح ودرء المفاسد".

وانطلقت منهجية الحماية في سياستها الجهوية على تجاربها السابقة في هذا الشأن فيما تحت نفوذها من مستعمرات، وخاصة على تجاربها في كل من تونس والجزائر بغية تتبع نقط التشابه والاختلاف وبهدف تجاوز الثغرات السابقة واقتباس مكامن القوة وتحقيق أفضل استمرارية بأقل خسارة وجهد ممكنين.

وعملت إدارة الحماية على استمالة كبار الفاعلين في الشأن المحلي والجهوي، وذلك بإعطاء الأسبقية للعمل السياسي ممثلا في خلاصات أنشطة ضباط الاستعلامات والشؤون الأهلية الذين عملوا على تحييد البعض واستقطاب البعض الآخر، وخصوصا أولئك الذين يتوفرون على نفوذ والذين أبانوا عن تعاون واستعداد للانخراط في مشروع الحماية .وبذلك تكون الحماية قد نجحت في ربط مصالح هؤلاء بمصالحها، وفي هذا الصدد يفهم العمل الدءوب الذي قام به هؤلاء الضباط في جمع المعلومات من مضانها وفي وضع بطاقات القبائل وبطاقات المعلومات الخاصة بالأعيان من قواد وشيوخ وملاكين كبار وعلماء وقضاة وشيوخ زوايا...وعليه، لم يكن غريبا على الحماية أن تبقي على الجهاز المخزني المركزي والجهوي مبدعة بذلك نهجا في التسيير المشترك المبني على ازدواجية أحسنت الحماية لعبتها وإدارتها وخصوصا في أوقات الأزمات.

وتم الاستئناس بالأعمال التنظيرية والأبحاث الميدانية التي عملت في هذا الاتجاه. وخصوصا الدراسات التي اشتغلت على المجتمع من منوغرافيات قبلية أو جهوية ومن دراسات همت شؤون التسيير في صعوباته وتطلعات العامة، ومن ذلك كتابات الرحالة أمثال شارل دو فوكو وأعمال البعثة العلمية وأبحاث جاك بيرك وروبير مونتاني وميشو بيلير وغيرهم من المنظرين بما في ذلك المشتغلين على الجوانب الإدارية المحضة. وهي أعمال لم تهمل أدق التفاصيل من حيث المكونات القبلية وتركيباتها ومن حيث تنظيم المجال والسلطة وأنظمة اللفوف والعلاقات القبلية القبلية في أوجه التعارض والتساكن والعلاقات القبلية المخزنية ودور الزوايا والطرق والأسواق وتوزع الكلف والجبايات ومن حيث التقاليد والعادات والأعراف...

وأولت الدوائر الاستعمارية للسياسة الأهلية مكانة خاصة ضمن النسيج الاستعماري بحكم الأسبقية التي كان يعطيها المقيم العام ليوطي للعمل السياسي على العمل العسكري ولو أن ذلك لم يمنع في الكثير من الجبهات من استعمال القوة في مواجهة عنف وضراوة المقاومة المغربية .وكان الهدف المسطر من وراء ذلك معرفة الناس من أجل التأثير عليهم بتفضيل الإقناع على التخويف[1].واعتمدت الإدارة الاستعمارية في تسيير شؤون الجهات والأقاليم على ما اصطلح عليه بالسياسة الأهلية، أي الاهتمام بكل تفاصيل الحياة اليومية : "معرفة الناس وكسب ودهم لتوجيههم نحو التطور وإقناعهم بالحضارة الفرنسية بعيدا عن كل عنف أو إجبار، فسيدي الحاكم, المراقب[2] المدني هوالأخ الأكبر، هوالمرشد، هو مخاطب الناس والمستمع لشكاياتهم". وكان من مقومات هذه السياسة الحفاظ على هيكل السلطة ، يقول ميشو بيلير : "فالحديث عن القواد يعني الحديث عن سياسة قبلية ترتكز على من يحكمها وليس على ما تمثله من قاعدة بشرية"[3]. ونظرا لأهمية هذه السياسة

في التسيير، أوصى ليوطي بأن تظل هي روح الحماية داعيا إلى التمسك بها بحكم مقصد غزو العقول والقلوب بسلطة الذكاء والروح[4]، أي توظيف المغاربة كآلية من آليات الغزو والاستغلال لصالح الرموز الاستعمارية العاملة في المغرب.

وعليه، فقد بلغ عدد مكاتب الاستعلامات إلى غاية 1913، أربعة وستون مكتبا، سبعة وأربعون منها في غرب المغرب، سبعة عشرة في المغرب الشرقي، عمل فيها حوالي 194 ضابطا، وانتقل العدد في سنة 1917، إلى 113 مكتبا و273 ضابطا في يوليوز1925[5].

ونصت معاهدة الحماية الموقعة بفاس في 30 مارس من سنة 1912، على تأسيس نظام جديد يشتمل على عدة إصلاحات كتلك التي تمس الجانب الإداري والتي ترى الدولة الحامية إدخالها نافعا بالبلاد، أي إحداث التنظيمات المسيرة للشأن الإداري حتى تكون ذات صبغة عصرية .ففي عهد المقيم العام ليوطي الذي كان مقتنعا بفكرة التسيير غير المباشر، ظلت الازدواجية في التشريع والتسيير قائمة بين الجهاز المخزني وجهاز الحماية وفي ذلك يقول ليوطي : "نمارس الحماية لا الإدارة المباشرة، ينبغي ألا نطمس الأطر التقليدية، بل نستعملها، وألا نقاوم أعضاء المخزن، بل نسخرهم في إدارة البلاد ً... ,ولا يتعدى عملنا المراقبة والإرشاد"[6].

وبالموازاة مع المركزية الإدارية التي فرضتها ظروف التهدئة وطابع المقاومة والإصلاحات الإدارية وضرورات الاستغلال ...سارت إدارة الحماية في سياسة اللامركزية ببطء شديد .بحيث شملت أولا المراكز الحضرية وأعطيت صلاحيات واسعة لرؤساء الجهات باعتبارها إطارا للقيادة العسكرية والمراقبة المدنية دون أن تتحول إلى إطار لتدبير الشؤون المحلية

بكل حرية وبمراعاة الخصوصيات الجهوية للمناطق .وقد عبر ليوطي عن توجهاته السياسية فيما يخص السياسة الجهوية بقوله:

"ينبغي ألا يغفل عن أنني أهتم، قبل كل شيء، بتنظيم الإدارة المحلية كلما اتسعت المنطقة التي نحتلها، وذلك بوضع الولاة المغاربة تحت مراقبة الولاة الفرنسيين.

أما في المناطق العسكرية، فإن مكاتب الاستعلامات هي التي تقوم بالمراقبة العسكرية، بإدارة قواد الدوائر، وتحت السلطة العليا لقواد النواحي، وعلى رئيس المكتب أن يراقب إدارة القواد المغاربة مراقبة مدققة"[7].

ففي المجال الحضري اعتمد نظام الباشوية والمجالس البلدية .فقد شكل ظهير فاتح أبريل 1913، قاعدة تشريعية للتنظيم البلدي للموانئ، ونظمت البلديات اعتمادا على ظهير 8 أبريل 1917 وما لحق به من قرارات. وانطلاقا من الظهير الأول، أحدثت اللجان البلدية لعدة مدن، يذكر منها على سبيل المثال : الدار البيضاء (18 أبريل 1913، 25 مارس 1914)، الرباط (ظهير 18 أبريل 1913 ، 3 يوليو 1914)، مكناس (19 يوليو)، الصويرة (5 يوليو)، تازة (5 يوليو 1916)... أما في البوادي، فقد ظلت السلطة بيد القواد ومن يدور في فلكهم من شيوخ على الفرق ومقدمين على الدواوير. وبالموازاة مع التنظيم البلدي بالمدن، طبقت نصوص تشريعية لتنظيم جماعات القبائل، فبظهير 21 نونبر 1916[8]، تم إحداث هذه الجماعات، وعلى ضوء هذا الظهير صدر قرار وزيري يزيد في مدة انتداب أعضاء الجماعات[9]. إلا أن هذه التشريعات لم تخدم في الواقع سوى مبدأ إفراغ الجماعات من

محتواها السابق ففقدت ما كانت تتمتع به من قوة اقتراحية ولم تعد سوى هيئة استشارية تصادق دون اعتراض .فبتوجيه من ليوطي نفسه، تم العمل على كسب ثقة النخب التقليدية للبلاد بإنشاء هذه المجالس إضافة إلى مجالس التجارة والصناعة والفلاحة والمجلس الأعلى للأحباس...

السياسة الجهوية : حصيلة وإكراهات

كان ضباط الشؤون الأهلية يسيرون المناطق العسكرية وينتدبون بواسطة وزير الحربية باقتراح من المقيم العام .أما المراقبون المدنيون، فأحدثت مناصبهم بمرسوم 13 يوليو 1913، فحسب المادتين الثانية والثالثة من هذا المرسوم كانوا يعينون أو يقالون بمرسوم من رئيس الجمهورية الفرنسية باقتراح من وزير الشؤون الخارجية، ويخضعون لسلطة المفوض المقيم العام[10]. وبحكم مسؤولياتهم الواسعة في المراقبة وإدارة الشؤون العامة في الأمن والقضاء والرعي والسقي والمعادن والتموين وسير المؤسسات ...كان عليهم متابعة أعمال القواد والباشوات من جهة وإخبار رؤساء الجهات بكل الحيثيات والتفاصيل. وكان رؤساء الجهات والدوائر أكثر قوة باعتبارهم يستمدون سلطتهم من الإقامة العامة مباشرة .فقد كانوا بمثابة نواب للمقيم العام على الجهات، يرأسون المراقبين المدنيين وضباط الشؤون الأهلية والمصالح الشريفية .في حين غابت أي سلطة مخزنية على المستوى الجهوي .فرغم وجود نواب للسلطان على فاس ومراكش وتيزنيت، فلم يكونوا في الواقع سوى ممثلين للسلطان لا سلطات إدارية أو سياسية لهم مقارنة مع رؤساء الجهات الذين مارسوا السلطتين معا[11].

ولم يعرف التنظيم الجهوي بالمغرب ثباتا سواء على مستوى المجال الترابي أو على المستوى البشري أو من حيث آليات الاشتغال والتسيير

الإداري والاقتصادي أو من حيث التدبير السياسي...فقد تحكمت في هذا التنظيم مواقف واعتبارات، وخاصة تلك المتعلقة بنوع الحكم الممارس وطبيعة السلطات الممنوحة وتقدم العمليات العسكرية ودرجة حضور آليات الاستغلال الاقتصادي...فقد أعيد تنظيم الجهات وما لحق بها من دوائر ومكاتب للمراقبة المدنية وملحقات وقيادات...مرات عديدة .ويمكن تتبع مراحل هذه المتغيرات على الشكل التالي[12]:

ـ 1912-1921 شملت المراقبة المدنية الدار البيضاء والشاوية، دكالة، الجديدة، عبدة، أسفي، فاس، الرباط وأحوازها، سلا والغرب.

ـ 1922-1928: شملت الجهات المدنية جهة الدار البيضاء والرباط باستثناء ناحية وزان، فاس، مكناس وضاحيتها، جهة وجدة، مراكش، دكالة، عبدة ومراقبة الصويرة. فتطبيقا للبند الخامس من المرسوم الصادر عن رئيس الجمهورية الفرنسية بتاريخ 3 أكتوبر 1926، صدر عن الإقامة العامة قرار يعيد تنظيم المغرب ترابيا .وتبعا لهذا التنظيم الجديد، قسم المغرب إلى أربع جهات مدنية وأربع دوائر مراقبة مدنية مستقلة وأربع جهات عسكرية.

ـ 1929-1931: شملت المنظومة المدنية سهل مراكش :الرحامنة، السراغنة زمران، شيشاوة، فاس والضواحي وجزء من جبال الأطلس المتوسط (الحاجب).

ـ 1933-1934: وهمت الجزء الجبلي من صفرو، قرية تيسة شمال فاس، تازة، كَرسيف، أي معظم المناطق الفاصلة بين المغرب الغربي والمغرب الشرقي.

وفي سنة 1935، أصدر المقيم العام قرارا يعيد بموجبه التنظيم الترابي للمغرب، فتم إحداث جهة الدار البيضاء وذلك بإلحاق المراقبة المدنية

المستقلة لوادي زم بالشاوية، وتم إحداث ناحية القنيطرة وناحية الجديدة وناحية أسفي التي أصبحت تضم مراقبتي أسفي والصويرة فناحية مدينة فاس ثم مراكش. وبتجميع المراقبات المدنية الأربع لفاس والأربع لمراكش، ونواحي القنيطرة والجديدة وأسفي على شكل جهات تابعة مباشرة للمقيم العام[13].

وحتى تأخذ مسألة التنسيق ما تستحق في مباشرة العمل الإداري، أصدر الجنرال نوكَيس بتاريخ 22 نونبر 1937 دورية إلى رؤساء الجهات والنواحي وإلى مديري إدارات الحماية، يحث فيها السلطات الجهوية والمحلية بأن تكون على علم كاف بالمشاريع والقرارات الصادرة عن المصالح التقنية وخاصة فيما يتعلق بدراسة الميزانيات ومشاريع الأشغال مع المتابعة وإعلام السلطات المركزية بذلك[14].

وإلى غاية نهاية الحرب العالمية الثانية، كان نظام الجهات المدنية قد شمل ٪70 من السكان. أما بعد 1947 ، فقد شمل جميع جهة مراكش إيمنتانوت، أيت أورير باستثناء ناحية وارزازات. وبعد 1950 شمل جهة أكَادير : دائرة إنزكَان ودمنات.

أما في المنطقة الخليفية، فبعد الاتفاقية الفرنسية الإسبانية في 27 نونبر 1912 بشأن تقسيم مناطق النفوذ بين الدولتين الحاميتين، أصدرت الحكومة الإسبانية مرسوما ملكيا بتاريخ 17 فبراير 1913 يتضمن أهم التعليمات التنظيمية للتدخل الإسباني بالمغرب. ونص هذا المرسوم على أن يعين الحاكم العسكري العام لمدينة سبتة مقيما عاما بالمنطقة الخليفية.

وفي 24 أبريل من نفس السنة أصدرت مرسوما ملكيا يحدد الاختصاصات المدنية والعسكرية للمقيم العام.

وأقامت سلطات الحماية الإسبانية نظاما إداريا شبيها في جوهره بنظام الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب الخاضع للحماية الفرنسية وإن اختلفت الأسماء. فاتخذت من تطوان عاصمة لسلطتها وأنشأت إقامة عامة (Alta Comisaria) كنظام إداري يسهر على مراقبة وتسيير كافة المصالح والمؤسسات المغربية والإسبانية في شمال المغرب وجنوبه الموصوف بمناطق نفوذها بموجب اتفاقية 27 نونبر 1912 والمصادق عليه بظهير شريف صادر عن السلطان المولى يوسف في 6 جمادى الثانية 1331 هـ - 14 ماي 1913[15].

وعين المقيم العام الجنرال دون داماصو برنكير إي فوسطي في الوقت الذي كانت فيه الحكومة الإسبانية قد أصدرت مرسومين ملكيين بتاريخ 25 يناير 1919، ويقضي الأول بوضع مناطق السيادة الإسبانية بالمغرب تحت مسؤولية المقيم العام حيث أصبح هذا الأخير يمثل الحكومة الإسبانية في منطقة الحماية وفيما كانت تعتبره ضمن سيادتها كمدينتي سبتة ومليلية والجزر المتوسطية ومقاطعات سيدي إفني والساقية الحمراء ووادي الذهب ، والثاني يرقي المقيم العام إلى رتبة وزير الدولة في الحكومة .وفي ٢ مارس من نفس السنة، صدر مرسوم آخر يخص النظام الداخلي للإقامة العامة والمصالح التابعة لها كما صدر مرسوم 15 غشت حدد فيه الاختصاصات العسكرية والمدنية للمقيم العام.

أما على مستوى الإدارة الجهوية والمحلية، فقد قامت الإقامة العامة منذ شروعها في العمل بوضع تصور للكيفية التي يجب أن تباشر بها الإدارة

المحلية شؤونها التدبيرية والتسييرية،مرتكزة في ذلك على رأي المخزن الخليفي المركزي، ومراعية للأعراف الجاري بها العمل في هذا المضمار دون إغفال أهدافها الأمنية وغاياتها الاستغلالية .فأقدمت على وضع مخطط إداري يرتكز على نظام المقاطعات أو النواحي الخاضعة لرئيس والمقسمة بدورها إلى مراقبات مدنية أو عسكرية تخضع للمراقبين الذين يرأسون مجموعة من القواد الذين يشرفون على عدد من الخلفاء والشيوخ والمقدمون بمراعاة التقسيمات القبلية ومكوناتها الاجتماعية. إلا أن هذا التصور لم يكن ثابتا بحكم المقاومة المستميتة للقبائل، لذلك ظل الأمر متعثرا ومتأثرا بتقدم عمليات الغزو وبدرجة نجاعة السياسة الأهلية في استمالة كبار الأعيان والفاعلين بالمنطقة.

فمنذ السنة الأولى من الاحتلال الاسباني، صدر قرار ملكي في 27 فبراير 1913، والمتمم بقرار 24 أبريل من نفس السنة، قسم المناطق الخاضعة إلى ثلاث جهات عسكرية مستقلة، وهي :العرائش وسبتة ومليلية إضافة إلى تعيين وزيرين إسبانيين مكلفين بالقضايا المغربية السياسية والعسكرية والإدارية. وقسمت جهة العرائش بدورها إلى ثلاث مناطق، وهي : منطقة العرائش ومنطقة القصر الكبير ومنطقة أصيلا، وعين على رأس هذه الجهة رئيس عسكري من رتبة جنرال، أشرف على حامية عسكرية ومكتب للشؤون الأهلية تحت رقابة رئيس طابور الشرطة .وبموجب هذا المرسوم، أحدث وظيف المندوب السامي(المقيم العام)واتصل عمله في الأمور السياسية بوزارة الدولة الإسبانية وفي الأمور العسكرية بوزارتي الحربية والبحرية، وساعده في مهامه ثلاثة من كبار الموظفين على رأس ثلاث إدارات سامية أو نيابات، وهي:

- نيابة الأمور الوطنية : وتقوم بأدوار وزارة الداخلية
- نيابة المالية : وتقوم بتدبير الشؤون المالية والاقتصادية
- نيابة المنافع : وتنظر في الأشغال العامة والمعادن

وأسندت الأمور العسكرية لولاية عامة كان مقرها بمدينة مليلية وأخرى بسبتة ثم ثالثة بمدينة العرائش.

ولما احتل المقيم العام الجنرال دون داماسو برنكير فوسطي مدينة شفشاون سنة 1919، أسس بها إدارة مخزنية تحت عمالة الشريف الوافي بن أحمد البقالي وإدارة الحماية تحت مراقبة مراقب مدني...

وقسمت إدارة الحماية الإسبانية المنطقة الخليفية الشمالية إلى خمس نواحي، وهي[16]:

- الناحية الجبلية أو ناحية جبالة وتضم مدينة تطوان
- الناحية الغربية أو ناحية لكوس، وتضم مدن،العرائش و القصر الكبير وأصيلا
- الناحية الغمارية أو ناحية غمارة، وتضم مدينة شفشاون
- الناحية الريفية أو ناحية الريف، وتضم مدينة الحسيمة
- ناحية الكرت، وتضم مينة الناضور

وقسمت هذه النواحي إلى عدة مقاطعات ، كل مقاطعة خضعت لمراقب الناحية التابع لمندوبية الأمور الأهلية، وكانت كل مقاطعة تضم عدة قبائل خاضعة لعدد من القواد المشرفين على عدد من الشيوخ والمقدمين، في حين كان القواد بالقبائل والباشوات بالمدن خاضعين لسلطة المراقب المحلي.

وهكذا قسمت المقاطعات والقبائل على الشكل التالي[17]:

- مقاطعة جبالـــة 3.038 : كلم مربع، عاصمتها تطوان،11 قبيلة
- مقاطعة اللكوس 3.114 : كلم مربع، عاصمتها العرائش، 13 قبيلة
- مقاطعــة غمـارة 3.912 : كلم مربع، عاصمتها شفشاون، 14 قبيلة
- مقاطعــة الريـف 3.475 : كلم مربع، عاصمتها الحسيمة، 18 قبيلة
- مقاطعــة الكرت 6.117 : كلم مربع، عاصمتها الناظور، 14 قبيلة

وظلت الأقاليم الصحراوية تابعة للسيادة المغربية مجسدة في التبعية القانونية للخليفة السلطاني بتطوان. وتمثلت هذه التبعية على مستويات عديدة كمسؤولية الخليفة في إصدار الظهائر المعينة للنائب والقواد والقضاة...ومتابعته للقضايا الاقتصادية والاجتماعية للمنطقة .وظلت وفود الأعيان الصحراويين لا تنقطع عن زيارة العاصمة الخليفية في زيارات لتجديد الولاء وتقديم التهاني واخذ الاستشارات وفي المناسبات الدينية والوطنية وفي غيرها من التظاهرات والمهرجانات[18]...

وهكذا قام كل من الخليفة مولاي المهدي والخليفة مولاي الحسن بإصدار عدة ظهائر تمنح المشروعية في تعيين القواد والقضاة .فقد جاء في ظهير تعيين السالك ابن عبد الله مندوبا على الأقاليم الجنوبية[19]:

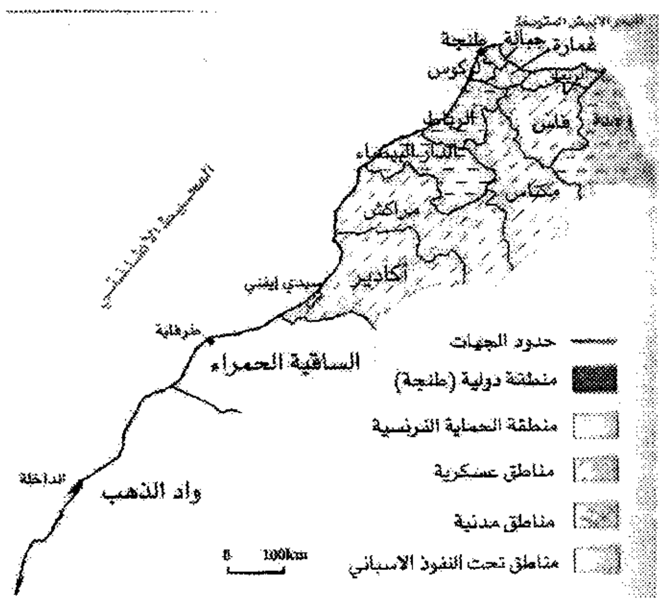
"الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

يعلم من كتابنا هذا رفع الله قدره ومقداره وجعل على مركز النجاح سداده أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته رشحنا [...] السالك ابن عبد الله مندوبا من جنابنا العالي بالله بالجهة الجنوبية من منطقة الحماية الاسبانية بالمغرب الأقصا ,[كذا] على أن تكون له مكافأة سنوية قدرها ألفان وخمسمائة بسيطة سكة اسبنيولية توخذ من القسم الثاني والباب الأول والفصل الثاني من ميزانية المخزن الجاري بها العمل الآن فنامره أن يقوم بما

طوقناه قيام كفء نبيه ويبدي من الاقتدار قوة عارف نزيه والواقف عليه من كافة ولاة الأمور أن يعلمه ويعمل به ولا يحيد عن شريف مذهبه. والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله في 7 ربيع الأول عام 1336 هـ موافق 22 دجنبر سنة 1917.

وفوقه الطابع الخليفي وبداخله المهدي بن اسماعيل بن محمد وفقه الله".

وعلى العموم كان الإطار العام للجهوية بالمغرب يتمحور حول الخارطة التالية[20] :



إن ما قررته الحماية من مخططات للإصلاح والتنمية، لم يتعد المقدمات والنيات، بحيث ظلت كالرصاص المعرقل لسير الآلة المشغلة. فقد ظل القواد يدركون أن القبائل هي أقل سذاجة من الحماية نفسها، لذلك اهتموا بتنمية مصالحهم الشخصية. أما الشكايات الفردية والجماعية فكثيرا ما كانت تذوب أمام أبواب القيادات ومكاتب المراقبة. وكأن هذا النظام كان يكتفي بشرح العدالة وفق تصوره دون السهر على تطبيقها على أرض الواقع.

وإذا كانت المطالب الإصلاحية للحركة الوطنية الناشئة قد ركزت على إلغاء الحكم المباشر وتوحيد النظامين الإداري والقضائي وتقديم المغاربة للعمل في الإدارات وإحداث مجالس تمثيلية... فإن الإقامة العامة ظلت تحصر مسألة الإصلاح في الحد من التدخل المركزي في تسيير شؤون الجهات والتخفيف من الضغط الإداري بتبسيط المساطر والتقليل من التضخم البشري، خاصة وأن أعداد المراقبين المدنيين وضباط الشؤون الأهلية كان مبالغا فيه مقارنة مع المثيل في الجزائر وتونس[21]. والواقع أن المراقبين المدنيين لم يكونوا يقومون بالمراقبة بالفعل، وإنما كانوا غارقين في أعمال إدارية جافة بكل تعقيداتها وركامات أوراقها. وكان مرد ذلك إلى توجيه الإدارة المركزية التي كانت تتدخل في أدق التفاصيل والحيثيات[22].

خاتمـــة

استمدت السياسة الجهوية بالمغرب خلال فترة الحماية مقوماتها من سياسة إدارية عامة رامت تحقيق هدفين استراتيجيين، وهما : الأمن والاستغلال. وحققت هذه السياسة تراكما مهما بالنسبة للتجربة المغربية فيما بعد بالنظر إلى تطورها في الزمان والمكان وبالنظر إلى تطور أساليبها ووسائلها وغاياتها... وبالنظر إلى ما أحدثته من من تشريعات ومصالح واختصاصات، إلا أنها في المقابل لم تكن في نظر عموم المغاربة سوى تقطيعات ترابية خدمت بالأساس مصالح الرأسمالية ومن يدور في فلكها من معمرين وشركات...أما المغاربة فقد انضافت على كاهلهم أثقالا جديدة ولم تمنحهم الفرصة في الاستفادة أو المشاركة في تسيير شؤونهم المحلية والجهوية بما يخدم مصالحهم وخصوصياتهم الذاتية والموضوعية.

ففي ظل السياسة الإدارية الجهوية والمحلية الجديدة، لم يعد المغاربة خاضعون كما السابق إلى سلطة القائد والجماعة... بل أأضيف إلى أحمالهم أعباء إضافية، فأصبحوا خاضعين لمتابعة المراقبين المدنيين وضباط الشؤون الأهلية ومراقبي الترتيب وحراس الغابات وقابضي رسوم الأسواق....

* * *

هوامش :

1- André, Adam, Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc, Alger, 1972, p.27.

2- Daniel, Rivet, Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, Ed. Denoël, Paris, 1999, p.305.

3- Edouard, Michaux- Bellaire, Lapolitique indigène, Archives Marocaines : XXVII, 1927, pp.261-262.

4 - علي، الطرابلسي، سمط اللئالي، في سياسة المشير ليوطي نحو الأهالي، المطبعة الرسمية، 1925، ص 184.

5- Daniel, Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc 1912-1925, L'Harmattan, Paris, 1988, pp.46-47.

6 - مذكرات من التراث المغربي، ج 5، ص 95.

7 - نفسه، ص.96.

8- B.O, n°217,18 décembre 1916, p.1170.

9- Ibid., n°312,14 octobre1918, p.947.

10 - ألبير، عياش،المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونر الدين سعودي، دار الخطابي، الدار البيضاء، 1985، ص.108.

11- Anonyme, Le régionalisme, Fédération, n°4, 1954, pp.301-302.

12- Gruner, Roger, Du Maroc traditionnel au Maroc moderne, le contrôle civile au Maroc,1912-1956,Nouvelles éditions latines, Paris,1984,pp.234-235.

13- Dépêche Coloniale, 12 octobre 1935.

14- Anonyme, Pouvoirs et attribution des autorités régionales au Maroc, Bulletin d'Information et de Documentation, décembre 1937, pp.3-4.

15 ـ محمد،داود، تاريخ تطوان، مراجعة وتنقيح المختصر، حسناء داود، 2008.
ص ص 350 -362.

16 ـ كناش رقم، 411، الخزانة الداودية ، تطوان.

17 ـ ضابط حول تنظيم وسير أعمال اللجان القروية لفرق وجماعات المنطقة، المندوبية السامية لاسبانيا في المغرب، نيابة الأمور الأهلية، مطبعة المخزن، تطوان، 1953، ص ص 39-104

18 ـ حمداني، شبيهنا ماء العينين، كتاب قبائل الصحراء المغربية، المطبعة الملكية، 1998، ص ص 204-206

19 ـ أورده، عبد الرحيم برادة، الجمهورية الاسبانية بين واقع المقاومة الصحراوية واحتلال الصحراء المغربية، ندوة،جهاد الصحراء،المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، 1998، ص.120.

20- Atlas du Maroc, J.A, 2002.

21- Anonyme, Les besoins d'une réforme administrative au Maroc, n°B33, Bibliothèque nationale de Royaume du Maroc.

22- René, Lanzer, La réorganisation administrative de la région de Chaouia, 11 octobre 1935.

* * *

صــورة الاستعمــار



ملاحظات أولية حول علاقة شيوخ الزوايا
بالاستعمار الفرنسي في الخمسينيات من خلال صحيفة " الوداد"

المصطفى الريس*

لقد أصبح من غير الممكن اليوم أن ينكر المرء ما تمثله الصحافة من حيث هي مصدر غني بالمعلومات، ينضاف إلى أرصدة المصادر الأخرى التي يتحتم على الباحث سبر أغوارها لتسليط مزيد من الضوء على محطات التاريخ المغربي المعاصر، وذلك لاعتباريين أساسيين:

* **أولا** : انخراط البحث التاريخي الأكاديمي بالمغرب ضمن صيرورة الدعوة إلى تجديد حقول المعرفة التاريخية، عبر الكشف عن توظيف آليات جديدة وبناء منظور جديد يقوم على أساس إعطاء تعريف جديد لمدلول الوثيقة التاريخية[1]، وإفراز أسلوب جديد في طرح الإشكالية التي تؤطر الإطار النظري الذي يعتمده المؤرخ لاستنطاق الوثائق وفهمها[2] ، بما يقتضيه الأمر من انفتاح على باقي العلوم الإنسانية الرديفة والاستفادة من أدواتها وآلياتها المنهجية[3].

* **ثانيا** : عرفت الدراسات والأبحاث عن تاريخ الحماية بالمغرب خلال العقدين الأخيرين قفزة نوعية، ساهمت في ملء جوانب من البياض الواسع الذي يطبع تاريخ المغرب المعاصر .لكن الملاحظ على معظم هذه الدراسات

* باحث، الدارالبيضاء.

أنها استقت معلوماتها من الأرشيف الفرنسي والأرشيف المغربي والوثائق الخاصة والسير الذاتية والمذكرات والشهادات والروايات الشفوية[4]، ولم توظف إلا عرضا أو بشكل انتقائي جدا المصادر الصحفية.والحال أن دراسة تاريخ الحماية "يمكن أن تبتدئ من فحص وسائل التواصل الجماهيري من صحف ومجلات ومنشورات دورية وظرفية، بما فيها أشرطة الإذاعة داخل المغرب وخارجه. ثم لا مناص من فحص الجرائد الرسمية ، سواء منها التي كانت تصدر في المنطقتين السلطانية والخليفية أو التي كانت تصدر في عاصمتي الدولتين الحاميتين باريس ومدريد[5]".

انطلاقا من هذين الاعتبارين، يرمي هذا المقال المتواضع إلى الوقوف عند المنظومة الصوفية في مغرب الحماية من خلال الصحافة، وبالتحديد من خلال جريدة "الوداد" آخذين بعين الاعتبار مدى أهمية توظيف المتن الصحفي كآلية وظيفية في كتابة تاريخ المغرب المعاصر من جهة، وما شكله التيار الصوفي من حضور قوي على المستوى التنظيمي وداخل الوعي الفردي والجماعي من جهة أخرى.

1ـ صحيفة الوداد

ظهرت جريدة الوداد في أول الأمر سنة 1927 كنشرة خطية سرية، قام بتحرير أعمدتها ثلة من الشباب الوطنيين السلاويين أمثال محمد اشماعوومحمد اليزيدي وسعيد حجي. وتزامن ظهور الوداد مع ظهور منشورات خطية أخرى مثل "السيف القاطع" و"اللواء" و"الإسلام" و"أم البنين"... بهدف تقوية الشعور الوطني والتعبير عن إحساس محرريها بالحرمان من حرية التعبير نظرا للترسانة القانونية التي أحاطت بها إدارة

الاحتلال ميدان الصحافة، خاصة ظهير 27 أبريل 1914 الذي كان يمنع المغاربة من حق إصدار صحف باللغة العربية. ظلت جريدة الوداد تصدر بدورية أسبوعية أكثر من أربع سنوات، وساهمت في تشكيل جبهة مغربية مناهضة للاستعمار الفرنسي والسيطرة المسيحية على البلاد الإسلامية[6].

وأثناء صعود الجبهة الشعبية إلى الحكم بفرنسا ، وتعيين الجنرال نوكس مقيما عاما، حدث بالمغرب نوع من الانفراج السياسي كان من أبرز تجلياته منح موافقته للصدر الأعظم لاستقبال طلبات المغاربة الراغبين في إصدار صحف باللسان العربي. وفي هذا الإطار تقدم كل من محمد اشماعو وأحمد بن غبريط بطلب الترخيص لتأسيس جريدة الوداد بتاريخ 18 يناير1937، وفي 20 يناير صدر قرار الصدر الأعظم الذي أشر عليه المقيم العام يوم 21 من نفس الشهر، وفي اليوم الموالي صدر قرار الترخيص بالجريدة الرسمية[7].

أ – الوداد في غمرة تأسيس الجرائد الوطنية

الوداد جريدة سياسية ثقافية إخبارية أسبوعية، صدر العدد الأول منها يوم الخميس 24 يونيو 1937 في أربع صفحات، وأشرف على إدارتها محمد اشماعو، وكان الشعار الذي يتصدر يمين الصفحة الأولى يختزل الخط التحريري للوداد باعتبارها "لسان القومية والدين. الوداد نضال يرضي المحق ولا يشفيه ويكف المبطل ولا يغريه.الوداد دفاع عن المصالح العامة ونبراس مضيء يكشف قناع الجهالة عن حقائق الأمور"[8] وأن جريدة الوداد ـ على نحو ماأكده مديرها اشماعو ـ كانت "تحمل في أوائل أعدادها إزاء اسمها" لسان الحركة القومية "شعار الحركة القومية التي تملصت من التورط باسم الوطنية الضيقة في اتجاه جنوني لايبقي ولا يذر...وتأسفت لكون إدارة الاحتلال لا

تأخذ في الاعتبار مرونة مواقف الوداد ودعوتها الدائمة إلى التفاهم والوئام بين الفرنسيين، فيصيبها، بين الحين والآخر غضب الحكومة[9]. هل يعني ذلك أن الخط التحريري للوداد لم يكن يجاري توجهات الجرائد الوطنية مثل الأطلس والمغرب والتقدم والدفاع ...التي أخذت على عاتقها الدفاع عن الهوية المغربية والتنديد بالسياسة الاستعمارية الفرنسية؟

في هذا الصدد يجيب محمد اشماعو أن الوداد كانت نشرة سرية ناطقة باسم كتلة العمل الوطني قبل أن ينفصل عنها نتيجة الخلاف بينه وبين قادتها حول تقييم ظروف المرحلة، وتحديد الموقف من المقيم العام الجيد نوكيس القادم من تونس إلى المغرب وفي حقيبته جملة من الإصلاحات، ينوي تحقيقها بالمغرب،حيث طلب اشماعو من رفاقه في الكتلة منح المقيم العام مهلة من الوقت لإثبات نواياه. لكن يقول أشماعو : "غاضني انصراف هؤلاء الرفاق إلى انتهاز الفرصة لإشباع رغبتهم في حب الظهور أمام الجماهير والتضحية بالمصلحة المحققة للشعب على حساب الهتافات"[10]. لذا حاول أحمد اشماعو بذل المزيد من الجهود، رغم قلة الإمكانيات المالية، لتحويل الوداد إلى منبر إعلامي يدافع عن فرنسا في بسط نفوذها في المغرب، وإبراز ما سيجنيه هذا البلد من الاحتلال من فرص التقدم والتطور والرقي ومؤيدا في الوقت ذاته سياسة فرنسا في البلدان الخاضعة لاحتلالها ومناوئا لكل من يناوئها،وكان كله أمل أن تحصل الوداد على نصيب مما كانت تغدقه إدارة الاحتلال من المال على الصحافة الموالية لها[11].

وبالرغم من الدور الذي لعبته الوداد في تعزيز المشهد الإعلامي في مغرب أواخر الثلاثينيات وعقد الأربعينيات، فإن انتشارها ظل محدودا حيث

لم تتعد نسخ العدد الواحد 5000 نسخة، وهو عدد قليل إذا ما قيس بعدد نسخ الجرائد الصادرة بالمنطقة السلطانية[12]. كما أن خطها التحريري المعتدل قيد من حرية طاقمها الصحفي ومنعه من إثارة قضايا ساخنة كانت تسترعي اهتمام القراء، لذا لم تستمر الوداد مدة طويلة، وتوقف صدورها في حدود العدد 179 الصادر بتاريخ 05 شتنبر من سنة 1943، نظرا لاستحالة النهوض بأمرها من قبل أفراد تعوزهم الإمكانيات المادية الضرورية في ظروف سياسية عصيبة.

ب - الوداد في فترة الخمسينيات

عادت جريدة الوداد إلى الصدور سنة 1952 بعد عشر سنوات من التوقف، وجاء إحياء صدور الوداد في سياق رغبة المقيم العام "جوان" في خلق صحف منافسة لجرائد الحركة الوطنية، وتدعى التحدث باسم المغاربة، وحتى تكون هذه الصحف شاهدة عن كتب على التحولات المزمع القيام بها من لدن إدارة الاحتلال خلال فترة الخمسينيات[13]، ولكن بتوجيه الإقامة العامة. وبتاريخ 15 شتنبر 1952 بدأ صدور الوداد بشكل يومي في ثمان صفحات ، واعتبرها القائمون على أمرها "خطوة جريئة في ميدان الصحافة"[14]، وأنها بذلك "تودع عهدا حافلا بالتضحيات الجسيمة وكفاح دام زهاء ربع قرن لتستقبل عهدا جديدا كله أمل في أن تؤدي مهمتها كما يفرضه الواجب المقدس"[15]، وان الشعب المغربي كان في أشد الحاجة إلى منابر إعلامية مثل جريدة الوداد، وهو الذي "ابتلي بهذه الشرذمة من التقدميين الذين شدوا عليه الخناق واستطاعوا أن يغلطوا الرأي العام العالمي بادعائهم الزعامة في تمثيله والتكلم باسمه"[16]. وفي الوقت ذاته وطدت الوداد علاقتها السياسية والفكرية والإعلامية مع عناصر نافذة في إدارة المخزن ومنافحة عن أطروحات سلطات الحماية، ومن هؤلاء عبد الرحمن الحجوي مدير التشريفات

السلطانية، الذي أوكلت له مهمة مدير جريدة الوداد ابتداء من شهر أبريل 1953[17]، ومحمد المختار التمسماني المستشار الإعلامي في الإدارة المخزنية، فيما تكلف السيد "سوريل" الفرنسي الجنسية بشؤونها المالية[18].

خلال الخمسينيات من القرن العشرين نصبت الوداد نفسها منبرا إعلاميا ناطقا باسم تيار داخل المجتمع، يجب أن تكون له الكلمة فيما تخطط له فرنسا حول مستقبل المغرب، ويتكون هذا التيار من "الطائفة التي تزن أمورها بميزان العقل، هي الهيآت المعتدلة والطوائف التي تعترف بفضل فرنسا والتي يدعوها المتطرفون بالمتعاونين ونسميها نحن - ونحن منها وإليها - بالمعتدلين، وهي نخبة تضم رجال الفكر والعلماء وذوي الجاه والمال والسلطان والشرف والإخلاص"[19]. وهذه الطائفة "إذا قالت عن حضور فرنسا بالمغرب ضروري مثلا فقد قالت ذلك بعد تخمين وتفكير، لأنها اطلعت على تاريخ بلادنا وعلى الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها بالبلاد، وعلى كون الرجل يخرج من بيته في وجه النهار فلا يعود لذويه إلا جثة هامدة، سلبت أموالها قبل أن تسلب أموالها وربما سلبت لأنها تحمل خمسين أو مائة ريال[20]. وهكذا دشنت الوداد عدة معارك كلامية ضد المعارضين لسياسة فرنسا في المغرب، في الوقت الذي أشادت بمنجزات الاحتلال الفرنسي عبر ترصد أخبار أطر الإقامة العامة، ونشر تحقيقات صحفية من إعداد مصالح الاستخبارات الفرنسية عما تحقق في المغرب من منجزات في مختلف الميادين الصناعية والفلاحية والتجارية والعمرانية والبنيات التحتية. كما دأبت الوداد على متابعة نشاط الحركة الوطنية واتهام زعمائها بالإرهابيين، ونشرت على أعمدتها أنشطة أجهزة إدارة الاحتلال ضد الفدائيين، وناصبت العداء للأحزاب الوطنية، خاصة حزب الاستقلال[21].

ولم تلتزم الوداد الحياد تجاه توتر العلاقات بين الإقامة العامة والسلطان محمد بن يوسف في مطلع الخمسينات، ولم تبد مظاهر الولاء والاحترام للسلطان على غرار ما دأبت معظم الصحف على إتباعه ، حيث شددت من لهجتها خاصة عندما طالب السلطان بإعادة النظر في فصول معاهدة الحماية وتقربه من زعماء الحركة الوطنية ومساندته لمواقفهم الاستقلالية والتحررية، ورفضه التوقيع على الظهائر التي تمس مصالح الأمة، واعتبرت هذه الإجراءات. السلطانية تتعارض وتطبيق الإصلاحات المقترحة من لدن فرنسا ، وتهدد استمرار الوجود الفرنسي بالمغرب. واستغلت الوداد القطيعة التي ميزت علاقة السلطان بباشا مراكش التهامي الكلاوي لتنشر على أعمدتها تصريحا لهذا الأخير أكد فيه على ضرورة خلع السلطان محمد بن يوسف وتنصيب محله محمد بن عرفة مجددا ، ووضع الثقة في فرنسا لتسوية وضعية العرش وعدم الاعتراف بالباشوات والقياد الذين يعارضون خلع السلطان[22].
وواكبت عبر أعمدتها تفاصيل عزل السلطان محمد بن يوسف وتعيين محمد بن عرفة خلفا له، ونعتت عهد هذا الأخير ب "العهد الجديد" ، وأبدت مواقف واضحة بخصوص مسألة العرش. ففي العدد 591 الصادر بتاريخ 26 غشت 1954 نشرت الوداد مقالا بعنوان "عدم التدخل في قضية العرش ووضع حد للاضطرابات وتبيين الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بالمغرب"، وعززته بتصريحين الأول لرئيس الوزراء الفرنسي "مانديس فرنسوا" الذي صرح بأنه" يمكن أن نتصور تحسين أحوال السلطان السابق، ولكن لا نتصور عودته إلى العرش، "والثاني لوزير الشؤون المغربية التونسية الذي أكد بأنه" لا يتصور إعادة النظر في مسألة العرش بعد أن تربع عليه السلطان سيدي محمد بن مولاي عرفة بصفة شرعية"[23]. كما روجت الوداد ودافعت عن الأفكار الداعية إلى دخول المغرب في الاتحاد الفرنسي

معتبرة أن قضية الاستقلال مجرد أمنية مؤقتة ولذة تعقبها مسؤوليات كبرى ومحاسبات عسيرة، وأن المغرب لم يبلغ درجة النضج التي تؤهله ليدير شؤونه بنفسه بدليل التباين في الوعي بين الجهات.

ولما كان الخط التحريري لجريدة الوداد في الخمسينيات دأب إلى تبرير توجهات ومواقف اليمين الفرنسي المتطرف الذي جعل من المنابر الإعلامية الموالية أبواقا تردد كل ما يصدره من تبريرات للوجود الاستعماري الفرنسي في المغرب، عمدت الوداد إلى التعامل مع طواقمها الصحفية والإدارية والتقنية كجنود مجهولين، وظلت حريصة على عدم الكشف عن أسماء صحفييها والتعريف بهم ،فإذا ما استثنينا مقالات أحمد اشماعو وعبد الرحمن الحجوي والمختار التمسماني، فإن أغلب المقالات كانت توقع بأسماء مستعارة أو تنشر من دون توقيع، سيما مقالات الرأي والتحاليل السياسية والتعاليق على الأحداث، علما أن معظم المواد الصحفية التي كانت الوداد تنشرها على أعمدتها مصدره تقارير مديرية الشؤون الأهلية والاستعلامات العامة .ولعل تكتم الوداد عن أسماء صحفييها مرده بالأساس إلى حمايتهم من ردود أفعال الوطنيين والفدائيين الذين وضعوا لائحة لأسماء الصحفيين الموالين للإقامة العامة بهدف تصفيتهم جسديا أمثال الطبيب "إيرو" مدير جريدة "لافيجي ماروكين" الذي اغتيل بتاريخ 12يوليوز1954، والشريف الإدريسي بن عبد العالي مدير جريدة "الحرية" الذي اغتيل رميا بالرصاص بالقرب من منزله بتاريخ فاتح مارس 1953، مع الإشارة إلى نجاة كل من أحمد اشماعو وإدريس الجماني التونسي الجنسية مدير جريدة "العزيمة"[24].

وبحلول ثاني نونبر من سنة 1955، بدأ العد العكسي لجريدة الوداد، فتحولت من جريدة يومية إلى جريدة أسبوعية ابتداء من اليوم الموالي، بينما صدر العدد الأخير من الوداد الأسبوعية في 19 نونبر 1955 الذي تضمن نبذة عن السلطان محمد بن يوسف ومسار حياته.

3 ـ علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار الفرنسي أواخر عهد الحماية

تجدر الإشارة إلى أن رغبة الإقامة العامة في إحياء الطرق الصوفية والزوايا وتجديد الاهتمام بشيوخها في مطلع الخمسينيات جاء في سياق مستجدات دولية وأخرى محلية : لقد تراجعت مكانة وسمعة فرنسا على المستوى الدولي بعد الخرب العالمية الثانية، وأصبح العالم يعيش على إيقاع حروب باردة ونظام دولي قائم على توازن الرعب والسباق نحو التسلح بين معسكرين متناقضين، فضلا عما عاشته المستعمرات من اجتياح لحركات التحرر المدعومة بمبادئ "الميثاق الأطلسي" الذي أقر بحق الشعوب في تقرير مصيرها. أما المستجدات المحلية فقد تميزت بتوتر العلاقة بين الإقامة العامة والسلطان محمد بن يوسف، عندما رفض هذا الأخير تبني البرنامج الذي كانت إدارة الاحتلال تزمع القيام به، معتبرا أن هذه الإصلاحات تستهدف النيل من سلطته وشرعيته الرمزية، وبين الإقامة والحركة الوطنية التي تشبثت بمطلب الاستقلال. لذا جددت فرنسا الاهتمام بالطرقية والزوايا والحرص على إحياء أدوارها واستقطاب شيوخها للتدخل في الشؤون السياسة بهدف "شرعنة" الوجود الفرنسي والحد من نفوذ الحركة الوطنية واستهداف السلطة الروحية للسلطان، وهو ما رصدته صحيفة "الوداد" من خلال العديد من المقالات المنشورة على أعمدتها ما بين 1952 ـ 1955.

ظلت العلاقة بين شيوخ الطرق وأرباب الزوايا وسلطات الاحتلال في المنطقة السلطانية في فترة الخمسينيات، قائمة على تبادل المصالح ورعايتها ثم حمايتها. لقد قدم شيوخ الزوايا على اختلاف مشاربهم الصوفية[25] للإقامة العامة خدمات كثيرة، تجلت أساسا في إضفاء طابع المشروعية على الوجود الاستعماري بالمغرب، ذلك أن الكثير من شيوخ الزوايا اعتبروا فرنسا بلدا غير محتل للمغرب، وإنما هي مكلفة فقط بإدخال الإصلاحات الضرورية وحماية النظام كما هو منصوص عليه ضمن معاهدة الحماية. وفي هذا الصدد قال الشيخ محمد بن مولاي المهدي الدرقاوي رئيس جامعة الطرق والزوايا بمراكش في حوار أجرته معه الوداد : "نعم فرنسا التي رأت أمراضنا فأخذت تعالجنا بحكمة البصير وروح الخبير، ومقدرة المطلع ولقيت مصاعب ومتاعب في استتباب الأمن والعدل، وضاعفت المجهودات في كل الميادين لرفع مستوانا ومهدت لنا كثيرا من السبل كي يظل روح التفاهم ساريا بين العنصرين الفرنسي والمغربي"[26]، ويضيف الشيخ نفسه : "نحب دولة فرنسا لأنها قلبت وضعية المغرب من سيئ إلى حسن، ومن خمول إلى نهضة ، ومن فقر إلى غنى ، ومن جهل إلى علم ، حتى أصبح مغربنا يعد أحسن تقريبا من بعض الدويلات التي قامت الدنيا وأقعدتها لهرجها"[27]. وجاء الموقف نفسه على لسان مقدم الزاوية الكتانية بمنطقة الفقيه بن صالح : "منذ أن جاءت الحماية وهي تسعى في ترقية تلك البلاد القاحلة الصحراوية التي أصبحت كلها بساتين ومزارع ومدارس تدل دلالة واضحة كالشمس في رابعة النهار على نهضة المغرب الجديدة التي نحن نتمتع في رفاهيتها وخيراتها ولا أستطيع أن أحصي تعدادا مزايا فرنسا الخالدة في بلادنا"[28]. فشيوخ الطرق الصوفية والزوايا" رجال أوفياء - يقول الشيخ محمد بن عبد الله السكراتي الإدريسي - ودأبهم الاقتداء بالشريعة

المحمدية واحترام العهود ، وحيث أن فرنسا بطبعها تحترم الدين فإن الصداقة الفرنسية الإسلامية هي عمدتنا وحرصنا المتين"[29]، وبالتالي "فليس هناك ماهو أحسن من أن يشتغل الإنسان بما يعنيه ، حتى الآن فإن فرنسا العظيمة لم تعمل إلا مافيه مصلحتنا أولا"[30] على حد تعبير مولاي الطيب بن سيدي الزوين شيخ الزاوية الناصرية بناحية مراكش.

إن المواقف الصريحة والواضحة التي أبداها شيوخ الزوايا إزاء الاحتلال الفرنسي، ليست وليدة لحظة عابرة على نحو ما أكده الشريف الحسين القادري شيخ الزاوية القادرية بالمغرب الشرقي والمفتش العام لجامعة الطرق الدينية[31]، وإنما كانت "الطرق والطرقيين قديما يؤيدون الحماية الفرنسية مبدئيا. أما اليوم فهم يضعون فيها ثقتهم الكاملة ولم يكتفوا بهذا وحسب بل سيدافعون عنها متى رأوا ذلك مفيدا[32]، طالما أن فرنسا، يقول الشيخ عبد الحي الكتاني، مخاطبا حاكم فاس الجنرال "لابارا" "دولة ديمقراطية عالمية حبيبة إلى الإسلام والمسلمين"[33]، وطالما أن ألوان "الراية الفرنسية العتيدة هي التي تدل على عمل فرنسا الشريف وإنسانيتها الخالدة وعدالتها العظيمة ومساواتها المجيدة ، إننا نعترف بجميل فرنسا وعمل فرنسا وإنسانية فرنسا وعدالة فرنسا ومساواة فرنسا"[34].

بالمقابل أسدت سلطات الحماية الفرنسية خدمات كبرى لشيوخ الطرق الصوفية والزوايا، من قبيل الاعتراف بشرعية وجودهم كقوة دينية فاعلة ومتجذرة في المجتمع، حيث دأبت الأطر المدنية والعسكرية لإدارة الحماية على حضور ومباركة المهرجانات والمواسم الدينية، وتوفير كافة الإمكانيات المادية لإنجاحها. وأشاد حاكم ناحية فاس الجنرال "لابارا" بأشغال مؤتمر

اتحاد جامعة الطرق الدينية المنعقد بالزاوية الكتانية بفاس أيام 4-5-6 أبريل 1935[35] قائلا : "أنا فرحان جدا بهذا الجمع الذي يضم خيرة رجال الدين ، وسمعتكم أغنى من أن تشهر، وحين رأيت رجال الدين هنا بهذه المناسبة فأنا مشتاق لأن أرى كل يوم شبيه هذه الاحتفالات"[36]، والإشادة نفسها جاءت على لسان "ساركو" حاكم ناحية وجدة أثناء حضوره لموسم الزاوية الدرقاوية الهبرية حيث قال : "وبما أن رجال الحكومة الفرنسية جبلوا على حب رجال الدين من قديم ، فقد أبوا إلا أن يشاركوا بدورهم في هذا الموسم"[37]. كما أشرف المراقبون المدنيون وضباط الشؤون الأهلية على تأسيس اتحادات وجمعيات الطرق الصوفية في كل من نواحي وجدة ومراكش وسوس والأطلس[38]. ولم يتوقف دعم إدارة الاحتلال لشيوخ الزوايا عند هذا الحد، بل شجعت " الحركات الدينية الإسلامية في طول البلاد وعرضها، وقدست الشعائر الدينية وأعانت على نشرها في الأصقاع ، وأعانت رجالها على أداء مهمتهم الدينية. وبذلك استطاع رجال الدين أن يتغلبوا على شرذمة الهدامين الأفاكين من الذين تناولت زندقتهم وطيشهم حتى الطعن في الكتاب الكريم"[39]. هذا فضلا عمّا" سنته فرنسا لنفسها من تقديم مساعدتها للضعيف ورجال الدين والزوايا وتعظيمهم والقيام بواجبهم من شعورهم الديني كتهيئة بواخر لأداء الحج وبناء المدارس والمساجد[40]. وتشييد الزوايا وترميم[41] وتعبيد الطرق المؤدية لها[42].

إن المتأمل في علاقة شيوخ الزوايا والطرق بالسلطات الاستعمارية الفرنسية من خلال مانشرته صحيفة "الوداد" على أعمدتها ، يخرج بخلاصة مفادها أن تواطؤ شيوخ الزوايا مع إدارة الاحتلال يجد مبرراته في مصلحتهم الشخصية التي كثيرا ما تبدو المحرك الأساسي لمواقفهم من الوجود

الاستعماري الفرنسي، والخلاصة نفسها انتهت إليها بعض الأبحاث التي تناولت علاقة شيوخ الطرق الصوفية بالمستعمر، والتي ذهبت إلى حد اتهام هؤلاء الشيوخ بالتواطؤ المكشوف مع المستعمر الفرنسي، وتكوين جبهة مضادة للمشروع الوطني الداعي إلى الاستقلال. بيد أن مثل هذه الأحكام الجاهزة والمسبقة تحتاج إلى مراجعة، إذا أخذنا بعين الاعتبار الحيثيات التالية :

أولا : إن الأبحاث التي اتهمت شيوخ الزوايا والطرق الصوفية بالخيانة وبالتواطؤ مع الاستعمار تجد مسوغاتها فيما ألفه زعماء الحركة الوطنية من كتابات حول الاستعمار والطرقية ، ذلك أن مواقف هؤلاء الزعماء إزاء الوجود الاستعماري كانت مناقضة للمواقف التي أعلن عنها شيوخ الزوايا . فالحماية من منظور محمد بلحسن الوزاني "ليست صيغة تستخدم لإخفاء الحقيقة عن الشعب المقهور وعن العالم الخارجي ... كما أنها ليست سوى حيلة لتقديم القبح الاستعماري في صورة مزيفة لكي يصدقها شعب يوجد بلده وثرواته محط الأطماع، ليست سوى تغطية وتزوير وإساءة مقنعة"[43]، فيما يرى علال الفاسي أن الحماية "أصبحت حكما مباشرا وتحكما مباشرا من طرف ولاة المراقبة الذين يسيرون البلاد نحو سياسة المحو والإدماج عن طريق الإفقار والتجهيل والاحتقار"[44]، وأن إدارة الحماية على نحو ما يؤكده عبد الكريم غلاب "سلبت من الدولة المغربية سلطتها التشريعية والإدارية والتنفيذية ولم تعد الدولة ذات كيان خاص وذلك لمحاولة تسخير كل ممتلكات البلاد للجالية الأجنبية ولإبقاء الشعب المغربي على غرار ما بقيت الدولة المغربية على هامش الحياة في بلاده"[45]. هل كانت مواقف زعماء الحركة الوطنية اتجاه الاستعمار مجرد تبريرات للهجوم على كل متعاون مع سلطات الاحتلال باعتباره خائنا للوطن؟ وهل من أشاد بمنجزات الاستعمار يعد متواطئا وليس

وطنيا ـ ماذا سيقول البعض من الزعماء الوطنيين عن أنفسهم باعتبارهم خادمين لفرنسا، ألم يتقلد كل من محمد بلعربي العلوي وأبي شعيب الدكالي والمختار السوسي مناصب وزارية في ظل نظام الحماية؟ لما لم ينعت هؤلاء بخونة الوطن وبخدام الاستعمار مثلما نعت به عبد الحي الكتاني والحسين الدرقاوي وعبد الرحمن القندوسي والشريف بن عبد العالي الإدريسي؟

الظاهر أن استجلاء مواقف زعماء الحركة الوطنية اتجاه الاستعمار من خلال مؤلفاتهم، يطرح صعوبات منهجية تفرض على المتعامل معها نوعا من الحذر ، سيما وان تلك المؤلفات تتميز بطابعها السردي وتحكمها هواجس الصراعات القديمة ، فضلا عن الفارق الزمني بين الزمن الواقعي المحكي عنه وزمن الكتابة[46]. فالذي "يحكي عن ذاته ـ يقول الباحث نور الدين الزاهي ـ ينفي عنها بشكل خفي لا شعورها وماضيها الأسري البعيد وعلاقات الصراع الحاصلة في المجتمع ثم مصلحة الذات في هذه الصراعات، ويعوض الكل بإعلانه الحياد اتجاه الذات وماضيها، مما يورط القارئ ضمن مغالطة كبرى هي أساس مغالطة الذات لذاتها وماضيها، ومغالطة الذات للقارئ الحالي والمستقبلي"[47] وبالتالي فإن الذات "الساردة لمواقفها وممارستها تحمل ضمنيا وهما خطيرا يتجسد في أنها ذات صانعة لحياتها، وخطورة هذا الوهم تتمثل في طريقة الحكي اليقينية وكأن الذات لم تخطئ لا في المواقف ولا في الممارسة ، بل كانت دائما تتخذ المواقف أو السلوك المناسب في الوقت المناسب"[48].

ثانيا : إن الارتكاز على كتابات زعماء الحركة الوطنية في إصدار أحكام جاهزة بخصوص علاقة شيوخ الزوايا بالاستعمار يغفل عنصرا أساسا في تفسير هذه العلاقة، ويتمثل في كون كتابات الحركة الوطنية عكست تمثلات

النخبة اتجاه مؤسسات الإقامة العامة والسلطان والزوايا، وغيبت الواقعي في التمثلي والموضوعي في الذاتي، وغلفت ذلك بمبررات لم تكن مقنعة لفهم الواقع التاريخي الملتبس لفترة الحماية، حيث عزز زعماء الحركة الوطنية موقفهم المتشدد من الزوايا مبررات على شاكلة ما يقدمه قدور الورطاسي من "كون الزوايا أصبحت بعيدة عن تأدية رسالتها التي كانت تؤديها من قبل في سبيل خدمة الإسلام والمسلمين فاعتراها ما اعترى الميادين الأخرى من حياة الشعب المغربي من تدهور وانحلال وابتعادها عن الخطة التي رسمها لها الأولون، فلقد غشتها الخرافات وضلالات حادت بها عن الصراط المستقيم، ولم يقف بعض منها عند حدود تلك الخرافات والضلالات الناشئة إما عن جهل رؤسائها وإما لغرض استغلال للمصالح الشخصية"[49]. التبريرات نفسها وردت في كتابات علال الفاسي وبلحسن الوزاني وعبد الكريم غلاب وغيرهم على اعتبار أن الزوايا قوة نابذة وعاملا معيقا لكل تجديد، وهي بالإضافة إلى ذلك منافقة وخادعة وماكرة ومشعوذة، توظف الدين في الأغراض الشخصية[50]، ومروجة لأجوبة استسلامية وبدع وخرافات تتنافى وجوهر الإسلام الصحيح[51]، ومتواطئة مع المستعمر[52]. وقد أسس زعماء الحركة الوطنية موقفهم اتجاه الزوايا على إطارين مرجعيين : الفكر السلفي الذي يربط بشكل علني بين الطرقية والاستعمار على اعتبار أن الطرقية هي علة التخلف الديني، وهذا الأخير هو علة وجود الاستعمار[53]، ثم الإرث السلطاني في مواجهة الزوايا من خلال إعادة نشر رسالة المولى سليمان الداعية إلى تحريم طقوس الزوايا ومواسمها، والتأكيد على موقف المولى عبد الحفيظ من التجانيين والكتانيين ، والوقوف عند ظهير السلطان محمد بن يوسف القاضي بمنع تأسيس الزوايا إلا بإذنه[54].

ثالثا : على عكس زعماء الحركة الوطنية، لم يترك شيوخ الزوايا تراثا مكتوبا بإمكانه أن يسعف الباحث في استجلاء مواقفهم إزاء القضايا السياسة التي كانت تشغل بال المغاربة في زمن الحماية، باستثناء مجموعة من التصريحات والاستجوابات المنشورة في جريدة الوداد والقيامة والعزيمة والسعادة. ففي استجواب أجرته معه جريدة "الوداد" يكشف عبد الحي الكتاني رئيس اتحاد جامعة الطرق الدينية بشمال إفريقيا عن الإطار الإيديولوجي الذي أطر موقف الزوايا تجاه الحركة الوطنية في قوله "لما رأينا الأحزاب المتطرفة بالغت في التهجم علينا والتنكيل ضدنا يبثون شعوذتهم حتى لدى صغار التجار ويأمرونهم بالتمرد على النظام القائم الذي نحبذه لأنه فيه السلامة وهناء الإنسانية ويأمرونهم بإقفال الدكاكين يوم الجمعة ويلقنونهم المبادئ الهدامة الرذيلة ونواديهم كلها فسق وفجور ونميمة ومهاترة ومخازي تدجين الإنسانية وتركوا بيوت الله خالية والزوايا فارغة واشتغلوا بما لا يرضي الله، وجدوا أعوانهم من خياطين وجزارين وخضارين وضعفاء العقول والبسطاء والعوام واستغلوا سذاجتهم. رأينا من الواجب تكوين جبهة دينية تحارب اللادنيين وتكون نهضة دينية تتماشى مع تعاليم الإسلام"[55]. أما لماذا هاجم شيوخ الزوايا الأحزاب الوطنية فيجيب عنه محمد العلمي مراسل اتحاد جامعة الطرق الدينية : "إن حفنة من المصابين بداء الهستيريا الذين ضاقت بهم سبل العيش ووسوس لهم شيطانهم اللعين وجعل في قلوبهم غشاوة وأضلهم سواء السبيل فأصبحوا يطمحون إلى الزعامة يتقون إلى الرئاسة ولكنهم تزعموا فكرة الهدم والتخريب والقضاء على مقومات المدنية الحديثة التي أدخلت على هذا القطر السعيد وفق الشريعة الإسلامية والسنة النبوية . غير أنهم لنشر أفكارهم الفاسدة صنعوا صنائع وأبواق للدعاية وسماسرة لنهب أموال الأمة باسم الدين تارة وباسم الوطنية

تارة أخرى حتى تمكنوا من الاستيلاء على النفوس بالأكاذيب والخزعبلات فلعبوا بأموال الأمة كما لعبوا بأرواحها ومصالحها ... لقد ترك العهد العلالي، نسبة إلى علال الفاسي، تدهورا اجتماعيا وانحلالا خلقيا"[56]. وبما أن الوطنيين على نحو ما يشير إليه محمد بن مولاي المهدي الدرقاوي "اتخذوا من كلمة حماية الوطن أحبولة لمنافعهم الخاصة الشخصية ومصالحهم الذاتية"[57]، فإن الهدف من وراء الهجوم والتحامل على الوطنيين وأحزابهم من منظور شيوخ الزوايا هو "الوصول بهذه الأمة إلى التحرر من الخرافات العلالية والأوهام الشيوعية التي لازالت عالقة بأذهان بعض المخبولين"[58] ومواجهة "سيف الحزبية الذي يقطع العشرات من الرؤوس يوميا"[59]، والقضاء على "الشعوذة الممقوتة التي زرعتها الحزبية البغيضة"[60] والتصدي "للإلحاد والفسق والضلال والنهب والرشوة"[61]، وتحطيم "ثالوث الاستبداد والزيغان والظلم"[62].

من خلال ما سبق ، يمكن أن نستنتج بأن اتهام زعماء الحركة الوطنية لشيوخ الزوايا بالتواطؤ مع المستعمر وخيانة الوطن من جهة، واتهام شيوخ الزوايا الوطنيين ب "اللادنيين والملاحدة والشيوعيين والمبدعين" من جهة ثانية، تبقى مجرد تبريرات لإخفاء حقيقة الصراع بين قوتين متجاذبتين، والذي لم يكن في جوهره دينيا وإنما كان صراعا سياسيا. ذلك أن الحركة الوطنية كانت ترى في إقصاء الزوايا وتهميش أدوارها مدخلا أساسيا للعمل السياسي، واختارت لهذا الإقصاء خطابا دينيا ودعما قويا من لدن السلطان، الذي كان هو الآخر يعتبر أن أي تطاول على اختصاصاته الدينية هو مس بشرعية إمارة المؤمنين، فيما اعتبرت الزوايا أن الحفاظ على إرثها التنظيمي وتجذرها الاجتماعي، وعلى قدرتها في صنع الوقائع والأحداث يتم

عبر الولوج إلى العمل السياسي من زاوية الحقل الديني، ففرض عليها ذلك التصادم مع الحركة الوطنية، فاختارت هي الأخرى نهج الإقصاء من بوابة التحالف مع المستعمر.

لقد تجسد الصراع بين الحركة الوطنية والزوايا في شكل منافسة متعددة المستويات تنظيمية وفكرية واجتماعية، وأنتج قاموسا خاصا به : المتواطئون والخائنون والدجالون والمشعوذون والخرافيون مقابل المتطرفين واللادينيين والملاحدة والمبدعة والفاسدين، وأفرز ردود فعل قوية وعنيفة وصلت إلى حد التصفية الجسدية كاغتيال شيخ الطريقة العالية الشريف الإدريسي بن عبد العالي[63] ومقدم الزاوية الكتانية بفضالة الحسين بن محمد بن مبارك الشنقيطي[64] ومقدم الزاوية الكتانية بالدار البيضاء احمد بن الحسن الكتاني العمراني رميا بالرصاص[65]. كما وجدت الصحافة نفسها منخرطة في ذلك الصراع ، حيث خصصت العديد من الصحف بعض صفحاتها "للتراشق الإعلامي" بين القوتين المتصارعتين[66].

* * *

هوامش :

1. في هذا الإطار يقول : LUCIEN FEBVRE
" لا شك أن التاريخ يكتب اعتمادا على كل ما يستطيع الباحث بمهارته وحذقه أن يستنبطه من أي مصدر : من المفردات والرموز والمناظر الطبيعية ومن تراكيب الآجر ، ومن أشكال النباتات الطفيلية، زمن خسوف القمر ومن مقارن الثيران ومن فحوص العالم الجيولوجي للأحجار ومن تحليلات الكيمائي للسيوف الحديدية" Combat pour Histoire,Paris ,1965, p 428
أنظر كذلك جاك لوغوف " التاريخ الجديد " ضمن كتاب التاريخ الجديد ، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2007، ص 83.

2 ـ محمد وقيدي، "التاريخ بين العلم والمنهج "، ضمن مجلة أمل، العدد 21 ، السنة 2000، ص23.

3-George Duby. Histoire sociale et idiologies des sociétés. in faire de histoire. nouveaux problèmes. sous la direction de Jacque le Goff et Pierre Nora. Paris. Gallimard. 1968. p. 203.

4 ـ عن الوثائق المعتمدة في كتابة تاريخ الحماية بالمغرب ، انظر وثائق عهد الحماية رصد أولي ، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي ، تنسيق إبراهيم بوطالب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،الطبعة الأولى، 1996.

5 ـ وثائق عهد الحماية رصد أولي ، مرجع سابق ، ص 10 .

6 ـ محمد الفقير ، الوداد ، معلمة المغرب ، الجزء 22، 2005، ص ص7564-7565.

7- arrêté viziriel du 20 janvier 1937 (7 kaada 1355) B.O.N. 1265 du 22 janvier 1937 p. 117

8 ـ جريدة الوداد ، العدد الأول ،24 يونيو 1937.

9 ـ http : //www.terrevie.net.أحمد تافسكا : الوداد ، جريدة سياسية، ثقافية إخبارية، موقع

10 ـ أحمد تافسكا : الوداد ، جريدة سياسية، ثقافية إخبارية، مرجع سابق

11 ـ المرجع نفسه.

12- Tayeb Boutbouqualt : La politique d'information du protectorat français au Maroc 1912-1956, opcit, p. 440.

13 ـ جامع بيضا" دور الصحافة في النضال السياسي للحركة الوطنية المغربية من نهاية الحرب العالمية حتى الإعلان عن الاستقلال " ضمن كتاب المقاومة المغربية ضد الاستعمار1904-1955، الجذور والتجليات ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، أكادير ،1977، ص 281.

14 ـ أحمد تافسكا : الوداد ، جريدة سياسية ، ثقافية إخبارية ، مرجع سابق.

15 ـ المرجع نفسه ،

16 ـ المرجع نفسه .

17 ـ جريدة الوداد ، العدد 206، 26/27-04-1953

18 ـ جريدة الوداد ، العدد نفسه

19 ـ أحمد تافسكا : الوداد ، جريدة سياسية ، ثقافية إخبارية ، مرجع سابق.

20 ـ المرجع نفسه.

21 ـ نشرت جريدة الوداد في العدد 306 الصادر بتاريخ 20 غشت 1953 مقالا تحت عنوان " يكفينا من الاستغلال بكلمة" الاستقلال ""هاجمت فيه زعماء حزب الاستقلال المنحل وقالت في حقهم " إذا تتبعنا أعمالهم منذ سنة 1944 ، حينما كانت فرنسا تعمل لمساعدتنا في بناء المستقبل المنشود على أسس متينة، ماديا وأدبيا واقتصاديا وحتى سياسيا ، وطالبت بخاطر نفسها هدا ، من الاستقلاليين والاستغلاليين على حد سواء ، أن يلجوا الميادين التي يرونها ضرورية لحياة الشعب، والتي لا تمس بالسيادتين المتعاونتين، وأعرضوا عن هذه المساعدة بالجلاء التام والاستقلال الكامل مع أن مدعي الزعامة يفهمون جيدا أن ليس في استطاعتهم أن يستقلوا حتى على أنفسهم وان لا يسيروا حتى ضروريات منازلهم، فضلا أن ينظموا شؤون دولة مازالت غريزة الإقطاعة مستحكمة في قلوب أبنائها، ومازال التناحر القبائلي يغلي بين جنبات أفرادها ، ولولا خوفهم من يد العدالة التي لا تنام ولا تغيب عن أعينهم لتأججت نار هذه البراكين ولما استطاع طالبو هذا الجلاء، أن يخرجوا من بيوتهم".

22 ـ جريدة الوداد ، العدد 301، 15 غشت 1953
23 ـ جريدة الوداد ، العدد591 ، 26 غشت 1954
24 ـ جريدة السعادة ، العدد8856 ، 10 شتنبر1953
25. من الطرق الصوفية تعاملت مع سلطات الاحتلال من خلال ما نشرته الوداد : الكتانية والدرقاوية والناصرية والبوشيخية والقندوسية والهبرية والقادرية والبوتشيشية والتيجانية أن العدد 1953-01-22/125 والعدد 1953/04/06-05/188 والعدد 1953-04-07/189
26 ـ جريدة الوداد ، العدد 323-09-09-1953.
27 ـ جريدة الوداد ، العدد نفسه.
28 ـ جريدة الوداد ، العدد263، 02-07-1953.
29 ـ جريدة الوداد ، العدد نفسه.
30 ـ جريدة الوداد ، العدد301، 15-08-1953
31 ـ جريدة الوداد :العدد 183،31-03-1953
32 ـ جريدة الوداد : العدد نفسه.
33 ـ جريدة الوداد : العدد333، 20-09-1953
34 ـ جريدة الوداد :العدد 216، 13/12-04-1953
35 ـ غطت جريدة الوداد أشغال هذا المؤتمر أنظر العدد 139/11-04-1953
36 ـ جريدة الوداد :العدد 216،13/12-04-1953
37 ـ جريدة الوداد :العدد288،31-07-1953
38 ـ جريدة الوداد :العدد191،09-04-1953
39 ـ جريدة الوداد ، العدد323، 09-09-1953
40 ـ جريدة الوداد :العدد409، 18-12-1953
41 ـ أنظر الأعداد التالية من جريدة الوداد :العدد 216،07-05-1953 والعدد 280، 22-07-1953 والعدد 283، 25-07-1953
42 ـ جريدة الوداد ، العدد301،15-08-1953
43 ـ محمد الحسن الوزاني، الحماية جناية على الأمة ، ترجمة أحمد بن جلون مؤسسة محمد الحسن الوزاني، فاس 1994،17
44- علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ،مرجع سابق، ص433
45 ـ عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال، مرجع سابق، ص 116.
46 ـ نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، مرجع سابق، ص33-35

47 ـ المرجع نفسه ، ص36
48 ـ المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.
49 ـ قدور الورطاسي: بنو يزناسن عبر الكفاح الوطني ، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1976، ص251
50 ـ محمد الحسن الوزاني :مذكرات وجهاد ، التاريخ السياسي للحركة الوطنية، مؤسسة محمد الحسن الوزاني، فاس ،1984 ن ج 6، ص339-343
51 ـ عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى إعلان الاستقلال، مرجع سابق، ص116
52 ـ علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ،مرجع سابق، ص139
53 ـ نور الدين الزاهي، الزاوية والحزب، الإسلام والسياسة في المجتمع المغربي، مرجع سابق، ص 64
54 ـ نشرت جريدة العلم هذا الظهير في عددها 21 الصادر بتاريخ 05 أكتوبر1946 ،فيما عرقلت الإقامة العامة صدور الظهير في الجريدة الرسمية . أنظر في هذا الصدد -علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، مرجع سابق، ص359
55 ـ جريدة الوداد ، العدد177، 24-03-1953
56 ـ جريدة الوداد ، العدد365، 28-10-1953
58 ـ جريدة الوداد ، العدد323، 09-10-1953
59ـ جريدة الوداد ، العدد365، 28-10-1953
60ـ جريدة الوداد ، العدد183، 31-03-1953
61ـ جريدة الوداد ، العدد348، 08-10-1953
62ـ جريدة الوداد ، العدد366، 29-10-1953
63 ـ جريدة السعادة، العدد 9308، 2 19مارس 1955 ، Le petit Marocai n°11730,02-03
64ـ جريدة الوداد ، العدد 469، 26-02-1953
65ـ جريدة الوداد ، العدد 482، 13-03-1953
66 ـ أزرت Le cri du Marocain و la voix nationale والعلم والرأي العام الحركة الوطنية، فيما ساندت جرائد الوداد والعزيمة والقيامة والسعادة شيوخ الزوايا.

* * *



قراءة في خطاب المقيم العام الفرنسي نوجس بالمغرب إبان الحماية*

حسن الصادقي**

اعتبرت فرنسا من خلال ممثلها المقيم العام الفرنسي بالمغرب أن الحماية هي من الأشياء الإيجابية، وان الوجود الفرنسي العسكري والمدني هو وجود لا غبار عليه ويجب التصفيق له والدفاع عنه وحث المغاربة على قبوله، لما جلبه من مصلحة للمغرب وفرنسا حسب نظرها، وهذا ما نستشفه من خلال قراءتنا لخطاب المقيم العام "الجنرال نوجيس" الذي قدم عرضا للسياسة الفرنسية في المغرب، أمام القسم المغربي لمجلس شورى الحكومة، بحضور الصدر الأعظم محمد المقري والوزير المفوض المعتمد بالإقامة العامة والنواب المغاربة، أكثر من 60 عضوا من بينهم باشوات ومحتسبون وأعضاء المجالس البلدية ورؤساء الغرف التجارية والفلاحية ورؤساء جمعيات قدماء تلاميذ المدارس الثانوية ومدارس الأعيان.

وسبق للمقيم العام الجنرال نوجيس أن قدم نفس العرض أمام القسم الفرنسي لمجلس شورى الحكومة وأذيع في الراديو ونشر في الصحافة.

وقد شرح الجنرال نوجيس في خطابه سياسة فرنسا في المغرب في الستة أشهر الأخيرة من سنة 1938 وتناول النقط التالية التي اعتبرها انجازات مهمة لفائدة المغرب والمغاربة:

---

* نشر الخطاب ضمن كتاب بيان مفصل عن السيلسة المغربية الفرنسية لحكومة الحماية 1938، المطبعة الرسمية بالرباط.

** أستاذ باحث، معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس،، السويسي، الرباط.

1 ـ مقاومة البؤس والوباء:

تحدث المقيم العام عن هاته الآفة التي نتجت بعد المسغبة التي عرفها جنوب المغرب أواخر

سنة 1937 نظرا لإنحباس المطر وأدى ذلك إلى انتشار وباء التيفوس بسبب الفقر وانعدام النظافة، وقد ظهر الوباء في بوادي مراكش وانتقل إلى السكان واجتاح الشاوية والدارالبيضاء ومناطق أخرى من المغرب.

وشرعت سلطات الحماية في معالجة هاته المشاكل للقضاء عليها في أوائل فصل الشتاء سنة 1938 وذلك بإتباع السياسة التالية:

تطويق وباء التيفوس، حيث تم تلقيح السكان وبلغ عدد الملقحين 900 ألف نسمة منذ فاتح يناير.

القضاء على المجاعة موازاة مع تطويق الوباء، وذلك بتقديم المساعدات الغذائية للمغاربة ومنها تقديم 50 ألف قنطار من الحبوب والأرز إلى الملاجئ الخيرية ومراكز توزيع المؤن ،بالإضافة إلى تخصيص مبلغ مالي قدره مليوني فرنك وزعت في مدن الدارالبيضاء ،فاس ،مراكش ،وجدة وآسفي للوقاية من الأمراض وإصلاح الملاجئ.

وكذا رصد مبلغ مالي قدره 6 ملايين فرنك لشراء 50 ألف قنطار من الشعير. وبناء سقايات المياه العمومية، وبناء بيوت لغسل الثياب في الأحياء ورشاشات وحمامات كبريتية يستفيد منها السكان ،مع العمل على عزل المرضى.

2 ـ الصحة والوقاية من الأمراض:

ذكر المقيم العام أن الدولة الفرنسية اهتمت بالجانب الصحي وقامت ببناء مجموعة من المستشفيات والمستوصفات ومراكز العلاج منها:

- بناء مستشفى بمراكش ومستوصف المدينة الجديدة بالدارالبيضاء.
- تجديد بناء مستشفى أبي الجعد وتوسيع مستشفى ميناء اليوطي (القنيطرة حاليا)بزيادة جناحين والإقامة.
- توسعة بناية مستشفى مورا بالعاصمة الإدريسية وبناء مستوصف اللمطيين بفاس.
- بناء دار مقاومة الملاريا بالحاجب ومستوصف بميدلت.
- الشروع في انجاز مستوصف بحي ابن مسيك بالدارالبيضاء، ومستوصف بمكناس والمستشفى المختلط بآسفي.
- الشروع في بناء مستوصفين أحدهما عام والآخر لعلاج داء السل بالرباط.
- الشروع في بناء مستشفى أهلي بالدارالبيضاء يضم 400 سرير، ومستوصف ببني ملال.
- الشروع في إنشاء قاعتين للعناية الطبية الأولى بمركز علال التازي والثانية بسوق اثنين الغرب.

3ـ أعمال البر والإحسان :

كانت هاته الأعمال من بين الأولويات التي دخلت في السياسة الفرنسية لتلميع صورتها الإنسانية، وهكذا تحدث المقيم العام عن تخصيص اعتماد مبلغ مالي قدره مليون و187ألف فرنك لتشييد بنايات جديدة من طرف المجلس الأعلى للإسعاف، منها:

- مبلغ 400 ألف فرنك لبناء ملجأ العجزة بالرباط.
- مبلغ 300ألف فرنك لبناء ملجأ بمراكش.
- مبلغ 287 ألف فرنك ببناء ميتم وملجأ للعجزة المسلمين بوجدة.
-مبلغ 50 ألف فرنك لتوسيع ملجأ العجزة المسلمين بابن أحمد.
-مبلغ 150 ألف فرنك لتتميم الميتم الإسلامي وملجأ العجزة المسلمين بالرباط.

4 . سكنى الأهالي :

ويقصد بهم السكان المغاربة ، إذ اهتمت الإقامة العامة بالتهيئة و تعمير المدن المغربية ، وحسب ماجاء في بيان المقيم العام فإنه تم رصد مبلغ مالي لهذا الشأن حدد في 5 ملايين و400 ألف فرنك و الغرض منه:

- بناء مساكن جديدة لقاطني دوار الدباغ بالرباط ،حيث شرع في بناء 465 نوالة و 100منزل تكرى بملغ منخفض من 7 إلى 12 فرنك.

وهناك مشاريع سكنية في الدارالبيضاء تمثلت في بناء 800 منزل للسكنى ودكاكين تجارية، ومشاريع أخرى في فضالة والقنيطرة.

5 . الفلاحة والفلاح :

اهتم بيان المقيم العام بالعالم القروي وهو جانب حيوي مهم بالنسبة لفرنسا ، وأولاه العناية الكبرى لذا تطرق إلى ضرورة الاعتناء بالفلاحين وذلك بتشجيعهم على **الإستقرار في أراضيهم ومنع الأجانب من شراء أراضي المغاربة.**

وقد تطلب هذا التشجيع ،العمل على إصدار ظهير شريف لتوزيع أراضي الجماعات على الفلاحين للتصرف فيها مدى الحياة وتوريثها لأبنائهم مع منع تفويتها ، و إحداث صندوق للقرض الفلاحي رأس ماله 3 ملايين فرنك ونصف للنهوض بأراضي الجماعات.

تعميم الري الفلاحي في البادية:

وقد شرع في تطبيق سقي الأراضي الزراعية في عدة مناطق تستدعي السقي لإقرار الفلاحين في أراضيهم في نواحي وجدة، تازة ،الدار البيضاء، الجديدة،آسفي، الصويرة، مراكش، سوس، ورززات والتخوم. هذا بالإضافة الى مراقبة الأراضي ذات الملكية الخاصة.

اليد العاملة :

أشار المقيم العام إلى أن الدولة حددت أجور العمال في 6 فرنكات نظرا لإرتفاع المعيشة.

هجرة العمال المغاربة إلى الخارج :

تحدث المقيم العام عن تنظيم حركة هجرة العمال إلى فرنسا. وكذلك الترخيص ل 20 ألف عامل فلاحي مغربي بالسفر إلى الجزائر للعمل في القطاع الفلاحي.ويظهر بذلك أن سلطات الحماية استفادت من اليد العاملة المغربية داخل المغرب وفي فرنسا وفي مستعمرتها الجزائر للعمل في المجال الفلاحي والنهوض به لصالح السياسة الفرنسية.

الإقتصاد القروي:

نهجت فرنسا سياسة دعم الإقتصاد في البادية المغربية، وتحسين أثمان المنتجات وأنواعها.

كما عملت على إنشاء تعاونيات تمثلت في تكوين شركة الحطابين وشركة الفحامين وشركة الكسابين.

الصناعة والصناع في المدن :تحدث المقيم العام عن الإعتناء بالصناعة الحضرية ومن ذلك إحياء نظام الحناطي وإنشاء صناديق للقرض الصناعي وتوسيع منافذ تسويق المنتجات وصناديق السلف الأهلي وإحداث **مكتب صناعي مغربي للتصدير.**

6. **التعليم العربي الفرنسي** : وتجلت مظاهر الاهتمام بالتعليم في:

- فتح مدرسة للبنات في مدينة تازة.
- نقل مدرسة الأعيان بالدارالبيضاء إلى بناية جديدة وإحداث مدرسة جديدة بالدارالبيضاء.
- فتح قسم مدرسي في ميتم الجمعية الخيرية الإسلامية بالرباط.
- فتح 9 مدارس في كل من ظهر السوق واكنول وايموزار مرموشة وكلميمة والريساني والقصيبة وبولمان وتونفيت وتاسينت الفلالية.
- تنظيم مدرسة فلاحية ببني ملال.
- الشروع في بناء مدرسة البنات بفاس وأخرى بحومة البليدة من فاس.
- تنظيم مباراة للحصول على منح دراسية للمغاربة.

الوظيفة العمومية ومعادلة الشهادات:

ومن جهة أخرى تقرر إشراك المغاربة في الوظائف العمومية،وخصصت بعض النسب لتوظيفهم، ومعادلة الشهادات المدرسية المسلمة من مدارس التعليم العربي الفرنسي بمثيلاتها في المدارس الفرنسية المحضة.

7. **التعليم الإسلامي** : وجهت العناية إلى هذا الجانب أسوة بالتعليم العصري المستحدث، وتم في هذا الإطار ترميم المدارس المغربية العتيقة وبناء مدارس جديدة.

تحويل مدرسة ابن يوسف بمراكش إلى معهد للتعليم الثانوي الإسلامي، وفوض تعيين أساتذته للمخزن المغربي.كما تم بناء خزانة القرويين، وخزانة بلدية فاس.

8 ـ العدلية الشريفة :

حظيت خطة العدالة المغربية هي الأخرى بالإصلاح والإهتمام ، ومن ذلك:

-ترتيب درجات القضاة وتنظيم دفع أجورهم.
-تعديل نظام استخلاص الأداءات العدلية.
-ووضع ضوابط لتوظيف القضاة وعزلهم وطرق زجرهم من طرف لجنة بدار المخزن .

ومن جهة ثانية هناك الإعتناء بالبنايات:

- مثل بناء محكمة باشوية الرباط، وبناء محكمة باشوية الدارالبيضاء.
- بناء وإصلاح بعض المحاكم المغربية.

نرى من خلال هاته القراءة السريعة لخطاب المقيم العام الفرنسي في

سنة 1939، والذي يمثل الحماية الفرنسية بالمغرب أن فرنسا لها منظور آخر للحماية فهي تهدئة واستتباب أمن للمغرب وأبنائه وإصلاحات مست جميع المناحي الثقافية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية، وليست الحماية احتلالا عسكريا ومدنيا واستغلالا لطاقات المغرب البشرية، ونهبا لثرواته المعدنية وخيراته الفلاحية حسب منظور المقيم العام الفرنسي.

لذا تطرق الخطاب إلى جميع النواحي الإيجابية التي تهم المغاربة وتلمع صورة الحماية الفرنسية ولم يشر إلى الحملات العسكرية ضد المغاربة.

وقد وظفت فرنسا جميع الإمكانيات للدفاع عن نظام حمايتها للمغرب ومن ذلك خطابات المقيمين العامين بالمغرب، وما كانت تكتبه بعض الجرائد التي صدرت إبان الحماية مثل جريدة السعادة كما سار في ركبانهم بعض المغاربة والمشارقة الذين مدحوا الإقامة العامة وممثليها وسياساتهم.

فهناك مثلا كتاب حول ليوطي وسياسته بعنوان سمط اللآلي في سياسة المشير ليوطي نحو الأهالي لعلي الطرابلسي به ترجمة لليوطي ومدحه، وسياسته في المغرب والخطب التي ألقاها ليوطي.

وهناك كتاب بيان مفصل عن السياسة الفرنسية المغربية سنة 1938، وكذا خطاب المقيم العام بيو كابرييل بمجلس شورى الحكومة سنة 1945، وكتاب برنامج الإصلاحات المغربية لسنة 1945، وغير ذلك من الخطب والمصنفات التي دافعت فيها فرنسا عن سياستها الإستعمارية التي طبقتها في المغرب والتي حاذت عن شروط الحماية مما أدى إلى تذمر المغاربة والإنتقال من المطالبة بالإصلاح إلى المطالبة بالإستقلال.

* * *

رحلة الطب والتحليل النفسي إلى المغرب



الوضع الطبي بالمغرب في بداية فترة الحماية من خلال" تاريخ الطب العربي بالمغرب" لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني (توفي1359 هـ / 1940م)

البضاوية بلكامل*

عمل الإنسان منذ العصور الغميسة على تدبير أحواله الصحية والتخلص من الأمراض التي تلم به بشتى الطرق والوسائل، سواء كانت سحرية أم عقلانية، وبذلك اعتبرت المداواة سابقة في وجودها للأطباء، والأطباء بدورهم سبقوا في وجودهم المؤسسات الطبية، ولذا ارتبط الطب وتاريخه بالإنسان وحده من دون سائر الكائنات الحية، فكان تطورهما نابع من تقدم الإنسان ورفاهيته، وانحطاطهما مرتبط بما يصيب المجتمع من نكبات[1]. كيف كان الوضع الطبي بالمغرب في بداية فترة الحماية من خلال"تاريخ الطب العربي بالمغرب "لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني المعاصر لهذه المرحلة؟

يعد الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني[2]، أحد أبرز أعلام المغرب خلال العقود الثلاثة لفترة الحماية بالمغرب[3] (توفي1940م). فلم يكن الفقيه" مجرد جماع للمادة التاريخية والإخبارية، ولم يكن يشتغل بدون منهج، "فهو ينتمي لجيل أستعمل أساليب منهجية في البحث التاريخي كما ذكر ذلك الفقيه المنوني[4]. وتكشف قصة الكانوني[5] مع ضريح أبي الذهب عن سعيه للبحث عن الحقيقة كاملة، وعن منهجه الرصين في التمحيص والتحقق، قال: "قد اختلف الناس في إثباته ونفيه (البحث في وجود شخص أبي

* أستاذة باحثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس، الرباط.

الذهب)، وقد بالغت في البحث والتنقيب، فلم أجد من أشار إليه ولو أدنى إشارة... ولما سنحت لي الفرصة عند الهدم (هدم ضريح أبي الذهب سنة 1348 بعد أن أصبح خرابا) لم أتركها تمر دون أن نبحث في نفس الضريح... ولو استرسلت في البحث (يعني البحث في مواقع أخرى للتحقق) لكان العدد أكثر والأمر أفظع ،فإن ذلك دليل على ضعف الوازع الديني". فهو مؤرخ فذ، وهو أيضا الفقيه المدقق. فلا ينسى الدور المنوط به في إبداء النصح والموعظة، ولذا يدعو للتعليم والإرشاد من أجل "الخروج. من الهوية السحيقة والمفازة المهلكة التي أوقعنا فيها الجهل بديننا" كما يقول[6].

ألف الفقيه الكانوني في حقول معرفية مختلفة[7]، و منها الحقل الطبي بما في ذلك التدبير الصحي، واشتهرت من مؤلفاته في هذا الباب أعماله التالية[8]:

- **طرفة النجباء بدليل المنع عن أرضي الطاعون والوباء** : وهو مخطوط من 16 صفحة اعتنى فيه الكانوني بقضية الحجر الصحي.ويوجد المخطوط في حوزة جمعية آسفي للبحث والتوثيق[9]..

-**كتاب الرياضة في الإسلام**[10] : وقد دعا في هذا الكتاب إلى العناية بالصحة باستعمال مختلف أنواع الرياضات البدنية كالمشي والعدو والسباق والمصارعة والسباحة وركوب الخيل وما إلى ذلك من الرياضات التي تحفظها وتكسبها قوة، بل وتدفع عنها الأمراض الفتاكة .وربط حفظ الصحة بالقدرة على العمل الجيد ، قال : "فمن لم يحافظ على أسباب حفظ الصحة، ولم يبادر لترميم ذاته بالرياضات التي تكسبها قوة، وتدفع عنها الأمراض، فإنه بالطبع لا يتهيأ له الركوض في الميدان الحيوي، ولا يتيسر له البروز على مسرح العمل والظهور فيه بمظهر العاملين المقتدرين". وقد يعتبر

الرياضة من أقدس المقدسات . طبع هذا المؤلف سنة 1354هـ /1936م، في خضم الصراع المغربي مع الدخلاء الأجانب.

- تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى[10] : شهد هذا المخطوط عدة تطورات في عنونته إلى أن استقر في اسم "تاريخ الطب العربي بالمغرب" بالنسخة التي بين أيدينا .لقد ألفه الكانوني عندما كان بمراكش سنة 1356 هـ 1939/م، ولا زال المؤلف ينتظر النشر،إذ توجد نسخ منه مختلفة، ومنها النسخة التي تمتلكها جمعية آسفي.واهتممنا بمحتوياته من خلال المبيضة التي سلمنا إياها الفقيه المرحوم المنوني خلال بداية التسعينات. لقد استخرجها هو بدوره من المبيضة الموجودة بالخزانة الأحمدية بفاس لصديقه المؤرخ المشهور أبو خليل عبد السلام بن سودة، إذ أعارها له كما ذكر "ليلة الجمعة 24 جمادى الثانية عام1371 هـ موافق 21 مارس1952"[11] وتتكون المبيضة التي بين يدينا من جزأين :

-جزء الأول : يتكون هذا الجزء من أربعة وتسعين صفحة، وهو تام ،مرقم من 1 إلى 94، إضافة إلى تقديم للفقيه المرحوم المنوني من صفحة واحدة غير مرقمة .

-الجزء الثاني : يحتوي على حوالي عشر صفحات تابعة للجزء الأول، مرقمة من صفحة 1 إلى صفحة 10. وتنقص منه الصفحتان 11 و12 ، ولحقت به قوائم بمخطوطات طبية، ومقتطفات من أرجوزات ومنظومات في الطب، وأيضا تعارف بأعلام في الطب والتصوف. وما سميناه ملحقا هو فصل متنوع يضم 71 صفحة، مرقمة من صفحة 13 إلى 84 ولا انقطاع فيها. لم نقارن المبيضة بعد بالنسخة التي تتوفر عليها جمعية آسفي للبحث والتوثيق

والتي تقع في جزأين من حوالي 208 صفحة، ولا بميكروفيلم المكتبة الوطنية الذي لم نطلع بعد على محتوياته. وقد اعتمد على مصادر مختلفة مشرقية وأندلسية ومغربية وأيضا أجنبية لتوثيق مؤلفه حول "تاريخ الطب العربي بالمغرب". وميز ضمن مؤلفه بين الكتاب والمؤرخين الغربيين الذين يعتمدون على أسباب خيالية في كتاباتهم لطمس الحقيقة، وبين النزهاء الذين يسعون لإرضاء ضمائرهم 11. وقدا تبع الفقيه الكانوني، فيسرد معلماته حول الطب وأعلامه ومؤسساته على " التسلسل الكرونولوجي، وحدد المراحل التاريخية الكبرى للطب في أربعة أدوار أساسية، وهي[12].

1 ـ دور التكوين في القرون الأربعة الإسلامية الأولى.

2. دور الازدهار في القرنين الخامس والسادس أي عصر الدولتين المرابطية والموحدية.

3 ـ دور الوقوف والركود في القرنين السابع والثامن خلال عصر الدولة السرينية.

4 ـ دور الانحطاط في القرن التاسع فما بعد.

وتندرج المرحلة التي تعنينا، أي فترة الحماية، ضمن الدور الأخير المميز عند الفقيه الكانوني بانحطاط الطب خلاله .لقد خصص للفترة حوالي 19 صفحة من المبيضة، منها 9 صفحات بالجزء الأول، و10 صفحات بالجزء الثاني. وتحدث بمقدمة مقتضبة عن الظرفية العامة التي حكمت خلالها الدولة العلوية الشريفة، ومما جاء فيها : "هذه الدولة تملكت المغرب أواخر القرن الحادي عشر الهجري إلى الآن. وقد وجدت المغرب يعاني من ضروب الكوارث المتنوعة ألوانا، ومن التفرق والشقاق صروفا، فجمعت كلمته

ووحدت وجهته وشجعت العلوم والمعارف بتشييد المدارس وإغداق الأرزاق والجرايات على أهل العلم.وكانت لهم عناية خاصة بالأطباء وخصوصا المولى إسماعيل، فقد كان له عدة أطباء يلازمونه"[13].

فرغم اشتهار مرحلة النشأة بالحروب والصراعات، لم تمنع هذه الظرفية العامة الدولة العلوية الشريفة من أن يظهر فيها أعلام في العلوم الطبية منذ نشأتها، وخاصة خلال العهدين الإسماعيلي والحسني، ومن جهة ثانية شكل الأطباء الأجانب أهم شبكة للاستقطاب وإنجاح الخطط التوسعية الاستعمارية بطرق سلمية [14].

هل معنى ذلك أنه كان لطلاب البعثة الحسنية تأثير على العلوم والمؤسسات الطبية بما أن بعضهم كان مخضرما بتقديمه لخدماته الطبية خلال نهاية القرن 19 وبداية فترة الحماية؟ ما هي خصوصيات مرحلة الحماية من خلال مخطوط الكانوني؟

يستوجب للإجابة عن هذين السؤالين عرض ومناقشة أفكار الكانوني في الموضوع، وأيضا محاولة التعرف على أدوار الأطباء المغاربة خلال الفترة التي عايشها المؤلف، وإبراز أيضا أوضاع البيمارستانات القديمة التي قدمت خدماتها العلاجية والتعليمية لعدة قرون خلت[15]. وقبل ذلك نقدم أسماء أطباء العصر العلوي الذين مارسوا الطب قبل المرحلة المقصودة بالدراسة،ونشير كذلك بأن عدد الأطباء بالمغرب من الفتح الإسلامي إلى عصر المؤلف بلغ أكثر من[15]. علما في الطب والصيدلة من المغرب والأندلس[16]. وتحتوي النسخة التي بين أيدينا على حوالي 131 طبيبا فحسب، يتوزعون وفق الدول والعصور على النحو التالي:

17 -طبيبا من العصر المرابطي

51 -طبيبا من العصر الموحدي

16 -طبيبا من العصر المريني

21 -طبيبا من العصر السعدي

26 -طبيبا من العصر العلوي

نستشف باعتماد لغة الأرقام بأن عدد الأطباء الذين خدموا الدولة العلوية من النشأة إلى العقود الثلاثة من فترة الحماية هام، بلغ حوالي 26 طبيبا ، مقارنة مع أطباء العصور المرابطية (17 طبيبا) ،والمرينية نفسها 16 (طبيبا) ، وكذلك العصر السعدي (21طبيبا) . لقد قرب المولى إسماعيل أغلب الأطباء منه، وشكلوا أطباء بلاطه ،وكان عددهم كبيرا خلال فترة حكمه. وتلقى معظمهم الدروس الطبية بداخل الوسط الأسري، بل توارثوا المهنة بينهم وورثوها لأبنائهم من بعدهم، كالعائلة الدراقية، والأندلسية المراكشية، والفاسية الفهرية ،وبعضهم درس الطب خارج الوطن على عهد السلطان المولى الحسن الأول كما بين ذلك الكانوني نفسه في ترجمته للطبيب عبد السلام بن محمد بن أحمد العلمي الفاسي، قال :"17 بعثه السلطان المولى الحسن على نفقته لمصر ، فأتم دروسه بالقاهرة على أطبائها المتخرجين من أوروبا ، فأخذ علم الجراحة علما وعملا" . وفي ترجمته للطبيب أحمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي، قال[18] : "تعلم الطب بأوروبا ، إذ كان أحد أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها المولى الحسن إلى بلاد أوربا ، فنجح صاحبنا في الطب وتحوز على الشهادة الطبية من أساتذته".

ينتمي معظم أطباء المرحلة للحواضر الكبرى كفاس ومراكش ومكناس، ولمناطق مغربية هامة كالسوس الأقصى وتافيلالت، إذ استمرت بعض

البيمارستانات تقدم خدماتها للمرضى، وأساسا المعتوهين منهم بشكل أقل توهجا مما كان عليه الأمر في السابق[19]، وظل جامع القرويين يتكلف بالتعليم بمختلف أصنافه ،ومنه التعليم الطبي[20]. ونرتب أطباء العصر العلوي كرونولوجيا على المنوال التالي[21] :

1. **أبو عبدالله محمد أدراق** : وهو من أطباء السوس الأقصى، وكان أحد أطباء البلاط الإسماعيلي ، توفي سنة 1009هـ :(المبيضة، ج 1.، ص 86-87).

2. **أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي**: من السلالة الفاسية الفهرية التي نبغت في علوم شتى ، ومنها العلوم الطبية .اشتهر بمؤلفه الأقنوم الذي حصر فيه أزيد من ثلاثمائة فن طبي،توفي عام 1096هـ ، (المبيضة، ج 2.، ص1-2).

3 . **عبد الواحد بن محمد غريط الأندلسي:** هو الطبيب الحاج، من أطباء السلطان مولاي إسماعيل،أصدر له ظهيرا بالتعظيم والاحترام والتنويه بتاريخ 12 حجة عام 1101 ـ ينم الظهير عن المكانة العالية التي كان يتمتع بها الطبيب المذكور في دولة مولاي إسماعيل :المبيضة ،ج2.، ص5).

4 . **أبو محمد عبد السلام بن الحاج عبد الواحد غريط** : ولد الطبيب غريط، وهو أيضا من أطباء السلطان المذكور،أصدر في شأنه ظهيرا بالتعظيم والاحترام والتنويه، بتاريخ فاتح جمادى الثانية عام 1126هـ،شمل كذلك أبناءه السيد محمد العربي والسيد عبد الواحد المدعو الكبير، والطبيب السيد محمد وعمر، (المبيضة، ج 2.،ص 5-6).

5 . **الطبيب السيد محمد** : هو أحد أبناء الطبيب أبا محمد عبد السلام بن الحاج عبد الواحد غريط، وهو الوحيد الذي نعته الكانوني بالطبيب من غير سائر إخوانه الثلاثة عند ترجمته لحياة والدهم الحاج غريط،(المبيضة، ج 2، ص 6).

6. أبـو العباس أحمد المسيحي الإسباني ثم الإسلامي : من أطباء المولى إسماعيـل . كان يسمى قبل إسلامه لوريانو،(المبيضة ، ج 1،ص 91-92) .

7. أبو إسحاق بن إبراهيم أبن الطبيب القائد علي المراكشي : هو أخ الطبيب أبا مروان وأحد أطباء المولى إسماعيل. فضلا عن ذلك اتخذ دكانا خاصا به بمكناسة ، إذ كان أيضا عارفا بالصيدلة،(المبيضة، ج 1. ، ص 94) .

8. أبو العباس أحمد بن إبراهيم العطار الأندلسي المراكشي: من أطباء الحاضرة مراكش، توفي عام 1005 هـ، (المبيضة ، ج1. ، ص93-94) .

9. أبو مروان عبد الملك بن الطبيب القائد علي المراكشي: طبيب السلطان المولى إسماعيل، توفي عام 1109 هـ ،(المبيضة ، ج 1، ص94) .

10. عبد الوهاب أدراق: من العائلة الدراقية السوسية الأصل المشهورة. كان كوالده طبيب المولى إسماعيل، واستمر بالبلاط العلوي عهد المولى عبد الله وأخيه المولى علي، والمولى محمد بن عبد الله. توفي عن عمر ناهز ثمانين سنة، كان ذلك عام 1109هـ، (المبيضة، ج 1، ص87-89) .

11. أبو عبد الله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن زاكور الفاسي: عارف بالطب، توفي بالحاضرة فاس عام 1120هـ، (المبيضة، ج 1، ص 93) .

12. عبد القادر بن العربي بن محمد بن يوسف بن علي المنبهي المد غري، المدعو ابن شقرون: كان حيا عام 1140هـ، (المبيضة ج1. ،ص89-91) .

13. أبو العباس احمد بن صالح بن ابراهيم بن عبد المومن الدرعي الكتاوي: طبيب ماهر، انحدر من عائلـة اشتهـرت بالعلم والطـب، تـوفـي1147 هـ، (المبيضة ، ج2، ص3-4).

14. أبو عبد الله محمد العياشي بن علي الدكالي أو الرحماني أو الحميري: اشتهر بمجرباته الطبية، توفي بمصر بعد حجه سنة 1149هـ/ 1728م، (المبيضة ، ج2، ص2).

15. أبو محمد عبد المجيد بن علي بن محمد بن علي المنالي الفاسي الشهير بالزبادي : طبيب من السلالة الإدريسية الحسنية، توفي عام 1163هـ ، (المبيضة ، ج1، ص92).

16 ـ أبو العباس أحمد أدراق: من أفراد العائلة الدراقية، كان طبيبا خاصا بالسلطان سيدي محمد بن عبد الله، كان حيا عام 1186هـ، (المبيضة،ج1، ص93).

17 ـ محمد بن عزوز المراكشي المدعو سيدي بلا : من أعلام الطب أواخر القرن 12 للهجرة،كان عارفا بالمفردات والمركبات، وهو أيضا فيلسوف وصوفي، (المبيضة ، الجزء2، ص 3 -2).

18 ـ أبو الربيع سليمان بن أحمد الفشتالي الفاسي : كان عارفا بالطب وبعلوم أخرى، توفي 1208 هـ، (المبيضة ، ج 1، ص 92).

19 ـ محمد بن يحيى بن الحسن بن محمد الشبي السوسي الحامدي: مولده يوم الثلاثاء 18 صفر 1102 هـ - توفي1164 هـ، (المبيضة، ج 2 ،ص5).

20 ـ الطبيب السيد محمد بن عبد الهادي غريط الأندلسي الاشبيلي : طبيب السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام الخاص،توفي بمراكش عام1271ه. ، (المبيضة،ج 2. ،ص6).

21 ـ الحكيم قدور العلج : أوليته كان إسبانيا مسيحيا فأسلم،تعلم الطب بمكناس، ثم بفاس، توفي حوالي سنة 1280 ه، (المبيضة، ج 2 ،ص6).

22. علال بن الحكيم قدور : كان أحد أطباء المولى الحسن، له تجاريب

طبية، (المبيضة، ج 2.ص 7-6).

23ـ أحمد بن محمد بن عبد القادر الكردودي : كان عارفا بالطب ومولعا بالادب والتاريخ ، وتقلد عدة خطط مغربية ، توفي بفاس عام1318 ه. (المبيضة ، ج2، ص15) .

24ـ مولاي عبد الله بن هاشم العلوي البلغيثي :درس الطب على عمه بتافيلالت ثم نزل فاسا وتعاطى بها مهنته هذه، توفي في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، (المبيضة، ج 2.ص.7).

25ـ عبد السلام بن محمد بن أحمد العلمي الفاسي : أحد أطباء البعثة العلمية الحسنية بمصر، وطبيب المولى الحسن الخاص.عاصر العقود الأولى للحمايــة، (المبيضة ، ج2، ص9-7).

26ـ أحمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي : أحد أطباء البعثة العلمية الحسنية لأوربا . استقر بعد عودته من الدراسة بفاس، وكان يأتيه الأعيان وغيرهم للمداواة.عاصر بدوره العقود الأولى للحماية،توفي1347هـ (المبيضة، ج2، ص.1-9).

إذن ،لا يتجاوز عدد الأطباء المغاربة الذين عاصروا الفترة الممتدة من بداية القرن العشرين إلى العقد الثالث من الحماية والذي يوافق وفاة الفقيه الكانوني طبيبان، وهما علمان مشهوران سبق ذكرهما، ونعني بهما:

1 ـ عبد السلام بن محمد بن أحمد العلمي الفاسي
2 ـ أحمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي.

ولم يتحدث الكانوني عن باقي أطباء البعثة الحسنية، ومنهم الطبيب محمد فرج ، أحد طلبة البعثة الحسنية إلى فرنسا ،فهو أول طبيب مغربي يلتحق بالحاضرة مراكش ويمارس العلاج بها، وهو أيضا صاحب البحث

المشهور حول الطب بالمغرب والأندلس. إلا أننا لم نعثر على التأليف بالمكتبات الوطنية التي ترددنا عليها.

ما هي أصول الطبيبين المذكورين عند الكانوني - ما هي أبرز أعمالهما الطبية - وهل كان لهما أي دور ما قبيل فترة الحماية و خلالها ؟

1. عبد السلام بن محمد بن أحمد العلمي الفاسي (توفي1323هـ)[22].

هو عبد السلام بن محمد بن أحمد بن العربي بن أحمد بن احمد بن عمر بن عبد القادر بن أحمد بن عمر بن عيسى بن عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن عبد الوهاب بنعبد الكريم بن محمد القطب مولانا عبد السلام بن مشيش من أعلام فاس. قرأ العربية والعلوم المتعارف عليها بالقرويين، ووجهه المولى الحسن الأول على نفقته لمصر لتعاطي المعارف الطبية والتشريحية والتوقيت وتخطيط الساعات الشمسية المعروفة بالمزوال، ينعته الكانوني ب"الطبيب الحكيم الشريف السيد عبد السلام بن محمد بن احمد العلمي الفاسي. "حدد مولده" عام نيف وخمسين ومائتين وألف. "اعتبره من بين نبغاء المغرب في العلوم الطبية. لقد درس العلمي بالقاهرة على يد أطباء متخرجين من أوربا، إذ أخذ علم الجراحة" علما وعملا "عن الطبيبين محمد علي باشا رئيس مستشفى القصر العيني، وولده محمد بك. ولقنه الطبيب محمد فوزي طرق عمل الجراحة اليدوية ،واستقى علم الأمراض الباطنة" علما وعملا "من سالم بك سالم رئيس أطباء ،واستفاد من الأطباء القطاري، وابراهيم افندي، وعيسى، ومحمد أفندي شكري، في علم الأمراض الباطنة "عملا على أسرة المرضى"، وأفاده عبد الرحمن في معرفة أمراض الزهري. ودرسه محمود بك افندي مصطفى علم التشريح

الهيكلي والعضلي والمفصلي علما وعملا. استفاد كذلك من خبرة محمد افندي في علم التشريح العصبي والعروق، و تعلم على يد محمود أفندي ندى المصري علم المواليد الثلاثة الحيوان والمعدن والنبات المعروف بالتاريخ الطبيعي. واستفاد من دروس الكيمياء لكسنتيل الفرنسي الذي كان مشرفا على المختبر الكيماوي في علم الكيمياء الطبية بفضل ترجمة محمود افندي السابق. قرأ علم "الاقرباذين" علما وعملا "على يد افندي رياض، وعلم الرمد على يد حسين بك عوف، و أمراض الجلد على يد افندي رضوان. عاين كذلك الحيوانات المصبرة وأحجار المعادن البرية والبحرية بتأطير الطبيب زهران افندي لمشاهداته.وتمكن من تشخيص أمراض النساء والأطفال في مستشفى أمراض النساء بفضل الطبيب الجرايجي.

ولما رجع العلمي من رحلته الدراسية أواخر القرن الماضي، اتخذه السلطان المولى الحسن طبيبه الخاص فكان "يقيم ويظعن معه" حسب عبارة الكانوني. وورد بمقدمة النسخة المنشورة للنبراس لسنة 1986، معلومات أخرى، ومما جاء فيها : "وجلب من مصر كتبا غريبة المنحى لم تكن معروفة بالمغرب في سائر العلوم العقلية والطبيعية والجغرافية وغيرها. وكان فتح دكانا لاستقبال المرضى ووصف الأمراض والعلاج بناحية السلسلة الموالية للحجام بالنجارين، وكان يتردد إليه طلبة فاس لقراءة ما يحسن من تلك العلوم الرياضية الميقاتية، منهم الشيخ محمد بن علي الغزاوي، ومنهم السيد عبد الكريم بن العربي بنيس مصحح طبع ضياء النبراس المذكور أصيب رحمه الله بفالج في نصفه الأسفل، فلزم داره من سنة 1304 إلى أن أدركه أجله سنة 1323 هـ "أي حوالي1904 م، وذلك قبيل فرض الحماية على المغرب، ولكن فكره ظل ساري المفعول بالحاضرة فاس ممثلا في تآلفه الهامة التي اشتهر منها :

-كتاب "ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس"، وكان الفراغ من تبييضه أواسط رجب من عام 1302 ه /حوالي1893 م.. وطبع بفاس طبعة حجرية سنة 1318هـ، في أوج التسابق الاستعماري على التراب المغربي. أعيد طبعه سنة 1986 من طرف مكتبة دار التراث بالرباط.يشرح العلمي أسباب تأليفه للنبراس ، يقول : "لما توجهت بالإذن الشريف لمصر القاهرة بقصد المزيد لما يخصني من علوم الطب الجديد ووجدته مطلمسا باصطلاحات غامضة وأسماء غريبة متنافرة شرعت في مؤلف خاص ببيان تلك الاصطلاحات وكاشف لرموز تلك الأسماء والعبارات وهو مؤلفنا المسمى بالأسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة". ولما كان هذا المشروع يستلزم جهودا كبرى عدل عنه إلى وضع كتاب مختصر بحل الألفاظ القديمة الواردة في الطب القديم يكون محاذيا لتذكرة الشيخ داوود الأنطاكي.

وفعلا، بين العلمي بهذا الكتاب فعل الأدوية بالبنية كتنقيص دورة الدم وضربان القلب والرتبة الخاصة لكل مفرد ككونه مقويا أو منبها أوكلاهما أو قابضا أوضارا أو معرقا أو مخدرا أو مقيئا أو مرخيا وله تأثير خاص على المجموع العصبي أو على أعضاء التناسل أو طاردا للديدان أو مسهلا أو معدلا... وقد ذيله ب 76 فائدة لمجرباته مع أشياخه بالقاهرة. تأثر في كتابته بكتب المفردات الطبية، وعلى رأسها تذكرة داود الأنطاكي 1008ه))التي استمر أثرها إلى زمن المؤلف ، بل إلى يومنا هذا ، كما يدل على ذلك مؤلفه النبراس نفسه، وأيضا كتابه التالي" :التبصرة في سهولة الانتفاع بمجربات التذكرة :"وهو كتاب خاص بطرق العلاج،رتب فيه تذكرة الأنطاكي على الأمراض بدلا من الحروف 28. لقد أشار في الضياء إلى أنه كامل في مبيضته ويطلب من الله الإعانة على إخراجه منها. وله مؤلفات أخرى، منها:

-كتاب "الأسرار المحكمة في حل رموز الكتب المترجمة" :كان قد شرع في كتابته، إذ و عد في آخر "النبراس" بأنه إن مد الله في عمره يبسط الكلام فيه بطريقة عصرية يورد فيه اكتشافات العصر الحاضر الطبية والكيماوية. ويظهر بأنه لم يكمله.

-منظومة رجزية تحمل اسم" مفتاح التشريح :"طبعت بآخر ضياء النبراس إلا أنها لم تلحق بالنسخة المنشورة للنبراس سنة 1986.

- كتاب"البدر المنير في علاج البواسير: "طبع بهوامش ضياء النبراس، بالطبعة الحجرية سنة 1318 ه.

2 . الطبيب احمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي

يعرفه الكانوني على النحو التالي[23] : "كان طبيبا ماهرا حاذقا في صناعة الطب منتصبا لمداواة الناس فيأتيه الأعيان وغيرهم للتداوي تعلم الطب بأوربا، إذ كان أحد أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها المولى الحسن إلى بلاد أوربا فنجح صاحبنا في الطب، وتحوز على الشهادة الطبية من أساتذته. ورد ذكره حسب الفقيه المنوني في كتاب بيوتات فاس للكتاني في حرف التاء، وقال إنه توفي في جمادى الآخرة عام 13647 ه ، أي ما يوافق 1928 م..

بذلك، يعد الطبيب أحمد التمتماني الطنجي ثم الفاسي من أبرز الأطباء خلال المرحلة التي تعنينا ، استفادت الحاضرة فاس من علاجاته، وكان حاذقا في الصناعة الطبية في مرحلة الأزمة، وخدم بعلمه الخاص والعام. وتبعا

للمنطق العام لعله عالج مرضاه بمنزله، أو بدكانه لأن الدكاكين ومنازل الأطباء لعبت أدوارا هامة في تحضير الأدوية أوصالمعالجة والتعليم.264ولا شك أنه كغيره من أطباء المرحلة،وخصوصا منهم أطباء البعثة الحسنية ،مارسوا الطب النظري، وأيضا العملي منه نظرا لتكوينهم الحديث بأوربا، بالديار الفرنسية والاسبانية وأيضا بمصر[25].

وظل الأطباء المغاربة أوفياء كذلك للكتب الطبية التراثية، هذه الكتب التي استمر تداولها طيلة عصور وأزمان،بل بقي استعمالها موصولا خلال بداية فرض الحماية على المغرب كما تسمح بقوله النتف النصية المحدودة، و تراجم أعلام الطب المنتمون لأواخر القرن 19 وبداية القرن 20، ومنهم الطبيب مولاي عبد الله بن هاشم العلوي البلغيثي المتوفى أوائل القرن الرابع عشر[25]، الذي اصطلح على تسمية مصادره ب "الكتب الصحيحة"، ومنها تذكرة الشيخ داود الأنطاكي ونزهته، وكيمياء السعادة لابن عمرو، وشرح قاسم بن محمد الوزير الغساني على نظم أبي موسى هارون الإسرائيلي وكلامه في الحميات، وكتاب الرحمة لابن الهندي وشارح الأسباب، والإمام الطبري في الطبيعة وبعض العلاجات، ومنها تآليف احمد بن الدهماني التونسي، ومختصر تذكرة السويدي للشواني، وكتب الشيخ بن بلا المراكشي في بعض الخواص والعلاجات، والمنافع البينة في علم الطبيعة لمحمد بن علي، وأبو الفضل العجلاني في بعض التراكيب والأشربة.

وفي مقابل الأطباء المغاربة استمر توافد الأطباء الأجانب على أرضه، وصل عددهم خلال بداية القرن الماضي إلى 642 طبيبا أوربيا ،تسعة عشر منهم كانوا حاصلين على شهادات رسمية[26]. وكانت خلال الفترة نفسها

بعض الطبيبات 28 عول عليهن المستعمر الأوربي لفتح أبواب البيوت الموصدة واشتهرت بينهن اوكلي بمراكش، ودولانوى بالجديدة ولافوركاد بتافيلالت، واختيرت الممرضات من الراهبات الفرانسيسكانيات اللواتي أوكلت لهن مهمة التقرب من الناس وكسب قلوبهم[29]. ولم يشر الكانوني في مؤلفه الطبي لأعمال الأطباء الأجانب ولا لأعمال النساء في الطب سواء كنا مغربيات أو أجنبيات. لقد خصص مؤلفا للنساء المغربيات- أسلفنا ذكره - عنونه "شهيرات المغرب"، خصص ثلثه لنساء العصر العلوي، إلا أنه لم يذكر اسم أية طبيبة مغربية كما يفيد بمعرفة ذلك مقال المنوني في الموضوع[30].

يمكننا إدراج كتاب تاريخ الطب العربي بالمغرب للكانوني ضمن الكتب التراثية النضالية، فهو رسالة ضمنية لاستنهاض همم المغاربة من أجل الإنكباب على العلوم والمعارف، ومنها العلوم الطبية للوصول إلى أعلى المدارج. ويؤكد وصفه لمآل المؤسسات الطبية الممثلة في البيمارستانات وجهة نظرنا ، قال[31] : "مصير المستشفيات (يعني البيمارستانات) مرتبط بمصير الدول، ففي رفاهيتها رفاهية المستشفيات. "عم هذه المؤسسات الطبية الأصيلة الخراب منذ أواخر القرن التاسع عشر، لأن الظرفية الصعبة التي سادت منذ هذه المرحلة المذكورة والمتمثلة في تهافت الأمبرياليات الكبرى على السيطرة على التراب المغربي تشرح أسباب التراجع.أضحت المفارقات بين عصور الأمجاد الطبية لهذه المعالم ومراحل الانحطاط واضحة، ويبرر الكانوني الأمر قائلا[32] : "المؤسسات الإنسانية تابعة في نظامها ورقيها لانتظام أحوال الدولة ورفاهية الأمة وسيرها في طريق الرقي والنجاح". ذكر الكانوني بأن البيمارستان السعدي ـ بناه عبد الله الغالب بالحاضرة مراكش -استمر إلى سنة 1330هـ /1913م، ثم تحول إلى مأوى

للمجانين، وأخيرا إلى سجن للنساء، وهجر تماما عقب الحماية فطاله الخراب[33]. تألم الكانوني لمآل هذا البيمارستان لما زاره في التاريخ السالف الذكر.حل نفس المصير ببيمارستان سيدي أحمد بن عاشر ،أضحى ملجأ للمعتوهين،وفقدت بعض هذه المؤسسات الطبية أدوارها قبل ذلك[34].

لقد صدعا الكانوني لأن يتخذ البيمارستان السعدي أنموذجا يحتذى حذوه لأن الإغفال والإهمال ستجعله أثرا بعد عين، قال :"أما حالته، فحقا أنها تثير الدهشة والاستغراب لعدم الالتفات إلى هذا الأثر النفيس عنوان العناية بالإنسانية والحضارة العربية، بلغت الحالة به أن سقط الأعلى على الأسفل فصار أكداسا من حجارة وتراب وبعض البيوت والحيطان لا تزال ماثلة للعيان تبكي صروف الدهر وحوادثه وتندب حالة هذه البائسة التي بلغ بها الإهمال لمثل هذه المعالم التي تفخر بها الأمم الحية وتتنافس فيها الأمم الراقية... وأضاف قائلا كم لهذا من نظير في مغربنا، فلقد انطمست محاسن وهوت معالم يفخر بها الإسلام وتقر بها أعين الأنام[35]".

لم تمنع هذه الظرفية الحرجة من أن يستمر الأطباء المغاربة في ممارسة طبهم سواء التقليدي منه أو الحديث، ولذا لا تعتبر الفترة ـ صفي نظرناص ـ عصر انحطاط كلي للطب. فمن أعلامها الذين مارسوا الطب في ظل الأزمة ممن ذكرناهم ، ومن مؤلفي تاريخه الفقيه الألمعي الكانوني، وبذلك فالفترة ـ بالرغم من مرارتها – هي بالنسبة للحقل الطبي انعطاف نحو الطب الحديث العصري.

* * *

هوامش :

1.انظر ما ذكرناه بالمقال التالي:

2- Belkamel B. Histoire de la médecine au Maroc antique", Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans, imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1995, p. 37-45.

2. تنتمي أسرة الكانوني للولي سيدي مبارك، يوجد ضريحه شرق مدينة آسفي، .للمزيد :محمد السعيدي الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية آسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش،2000.

3 . ولد المؤلف برباط أبي زكريا بنفس الإقليم سنة 1310 هـ 1893/م وصتوفي بمدينة الدار البيضاء سنة 1357 هـ (1938)1940م،1940 حسب ما جاء في الترجمة التي أعدها محمد السعيدي الرجراجي في المؤلف الخاص بالعلم وأعماله ، في حين يرجع المنوني تاريخ الوفاة إلى1357 هـ/ 1938م. يمكن رصد مختلف أعمال الكانوني، ومنها مخطوطاته التي تجاوزت الثلاثين مخطوطا من خلال المؤلف التالي :محمد السعيدي الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية آسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش،2000.

4. محمد المنوني ، معطيات مدرسة أبي محمد صالح : نموذج تأسيس ركب الحاج المغربي ،... ، ص196. وللإشارة ، فالفقيه المنوني هو من أعلام المغرب المعاصر، وهو أشهر من أن يعرف لنبوغه الفكري وريادته في ميدان المخطوطات والنبش عنها ودراستهاص .ولد العلامة محمد المنوني في 4 شتنبرص 1915 بمكناس، و توفي يوم 28 غشت 1999أنصف الفقيه المنوني الفقيه الكانوني، وقال في حقه " :لو لم يكن له من الأعمال إلا هذه الكتب الثلاثة، لكفاه فضلا، ولو أن هذه الكتب الثلاثة نشرت بتمامها لقدمت صورة عن البحث ويعني بذلك الكتب التالية : أسفي وما إليه، وشهيرات المغرب، وتاريخ الطب في عصور وصدول المغرب الأقصى.

5. الكانوني ، جواهر الكمال في تراجم الرجال... ، ص.134-137.

6. الكانوني ، جواهر الكمال في تراجم الرجال... ، ص.137-138.

7. استحضر محمد السعيدي الرجراجي، من جمعية آسفي للبحث والتوثيق ،مختلف أعمال الفقيه بالمؤلف التالي : محمد السعيدي الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية آسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش،. 2000 وقد سلمنا الزميل علال ركوك نسخة من الكتاب مشكورا.

8 . يشرح الكانوني دوافع الكتابة في تاريخ الطب المغربي التي تتمثل في الرغبة في الكشف "عن مدنية زاهرة ، وحضارة راقية، كانت لسلفه (يعني المغربي) بالمغرب". بل تعتبر مساهمة الفقيه الكانوني بمقال نشر سنة 1935 بالعدد 5 ، من مجلة المغرب هي الحافز لتعميق بحثه، وإنجاز

مؤلف في موضوع تاريخ الطب العربي بالمغرب ، للمزيد، انظر : محمد السعيدي الرجراجي، نفس المرجع، ص190،145.

9. ذكر المخطوط محمد السعيدي الرجراجي، نفس المرجع، ص190 ،145.

10. طبع هذا المؤلف سنة 1354هـ/ 1936 ممن طرف المطبعة الاقتصادية لصاحبها مصطفى بن عبد الله، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالرباط.

11. الكانوني، المبيضة،ج1، ص 56.

12. الكانوني، المبيضة،ج1، ص 1 .يشرح دوافع الكتابة التي تتمثل في الرغبة في الكشف "عن مدنية زاهرة ، وحضارة راقية ، كانت لسلفه (يعني المغربي) بالمغرب" .بل تعتبر مساهمة الفقيه الكانوني بمقال نشر سنة 1635 بالعدد 5 ، من مجلة المغرب هي الحافز لتعميق بحثه، وإنجاز مؤلف في موضوع تاريخ الطب العربي بالمغرب ، للمزيد، انظر :محمد السعيدي الرجراجي، نفس المرجع، ص190، 145 للإشارة ، أخرج ابن سودة الكتاب من أصله الخطي، وسلم نسخا لمراجعتها للعديد من الباحثين، منهم محمد بشريفة، ومحمد المنوني الذي سمح لنا باستنساخ المبيضة، وحفزنا على نشرها

13. الكانوني، المبيضة،ج 1، ص.86.

14. رشيد عزيوز، الأطباء الأجانب في مغرب القرن التاسع عشر، د كتوراه وطنية، تحت إشراف محمد الأمين البزاز، الرباط ،2004-2005، ص.26-37.

15. الكانوني، المبيضة ، ص26-27،62-69،87-79

16. الكانوني، المبيضة ، ج1،ص.1.

17. الكانوني، المبيضة ،ج2، ص.9-8.

18. الكانوني، المبيضة ، ج 2، ص. 10-9.

19. الكانوني، المبيضة ،ج1، ص 78-79.

20. رشيد عزيوز ، الأطباء الأجانب في مغرب القرن التاسع عشر ، دو، تحت إشراف محمد أمين البزاز، الرباط،2004-2005، ص.26-37.

21. استعرض الكانوني أسماءهم بالمبيضة بدون ترتيب بالصفحات 68-94 من الجزء الأول ، والصفحات 1 إلى 10 من الجزء الثاني.

22. الكانوني، المبيضة ،ج2، ص 9-7 ،وأيضا :ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس مكتبة دار التراث، الرباط. ،ص3-160،151،6-161.

23. الكانوني ، المبيضة ،ج2، ص10- 9.

24. أنظر مثلا ما قيل عن معاصره العلمي : العلمي ،ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس مكتبة دار التراث ،الرباط،ص.4-.3.

25. الكانوني ، المبيضة ،ج2، ص10-7، عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية، 1960 ،ص.86.

26. الكانوني ، المبيضة ،ج2.ص.7 كما أن أعمال العلمي تؤكد الأمر، فهي تدور في فلك الكتب التراثية، ومنها تذكرة الأنطاكي الذي عمد لتبسيط مفرداتها من أجل تسهيل تداولها.أنظر في نفس الموضوع، رشيد عزيوز، الأطباء الأجانب في مغرب القرن التاسع عشر، دكتوراه وطنية، تحت إشراف محمد أمين البزاز، الرباط،2004-2005 ،ص.26-31.لوكليرك يذكر بمؤلفه حول الطب العربي (بالفرنسية)بأن الطب انقرض بالقرويين قبل ذلك.وفي الأمر نظر.

27. عبد العزيز بنعبد الله، نفس المرجع ، ص.92-93.

28. رويان بوجمعة،الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب،1912-1945، دد، تحت إشراف؟ براهيم بوطالب، الرباط،2003-2004، ص 343، البضاوية بلكامل ، نساء طبيبات عبر تاريخ المغرب (قيد النشر).

29. الكانوني، المبيضة ،ج2.، ص 9-7، وأيضا :ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس مكتبة دار التراث، الرباط، ص 3-160،151،6-161

30. المنوني، معطيات مدرسة أبي صالح...، دعوة الحق؟ ص. 191-193.

31. الكانوني ، المبيضة ،ج1، ص63.

- 32. الكانوني، نفس الإحالة.

33 . الكانوني ، المبيضة ،ج1، ص 48-79، وأيضا :البضاوية بلكامل "الوضع الطبي خلال العصر السعدي من خلال مؤلف" تاريخ الطب العربي بالمغرب" لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني، مائدة مستديرة في موضوع المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، مؤسسة عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء أيام 18-21 دجنبر، (2008 قيد النشر).

34. الكانوني ، المبيضة ،ج1.، ص.64، وأيضا : البضاوية بلكامل، "إشكالية بيمارستان القصر الكبيرمنشورات بمجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، سلسلة الندوات 2000، ص143-154،البضاوية بلكامل"، البيمارستانات وأدوارها الطبية والتعليمية ، بيمارستانات الرباط نموذجا ،أعمال ندوة تكريم محمد بنشقرون ، الرباط،1998، ص.267-287.

35. الكانوني، البيضة،ج1 ،ص64.

* * *

- بيبليوغرافيا :

-العلمي عبد السلام بن محمد العلمي الحسني (توفي 1323هـ)، ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس، مكتبة دار التراث ،الرباط 1986.

-الكانوني (محمد بن أحمد الكانوني العبدي (توفي1357/ 1938/1938، تاريخ الطب العربي بالمغرب، (مبيضة للفقيه المنوني استخرجها من مخطوط بتاريخ 264 جمادى الأولى 1371/مارس1952).

-البضاوية بلكامل، " الوضع الطبي خلال العصر السعدي من خلال مؤلف" تاريخ الطب العربي بالمغرب" لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني، مائدة مستديرة في موضوع المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب، مؤسسة عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء أيام 21-18 دجنبر، (2008 قيد النشر).

-البضاوية بلكامل، "نساء طبيبات عبر تاريخ المغرب، (قيد النشر)

-البضاوية بلكامل، "إشكالية بيمارستان القصر الكبير

-البضاوية بلكامل، "االبيمارستانات وأدوارها الطبية والتعليمية، بيمارستانات الرباط نموذجا ،أعمال ندوة تكريم محمد بنشقرون، الرباط، 1998، ص287-287.

-عبد العزيز بنعبد الله، الطب والأطباء بالمغرب، المطبعة الاقتصادية 1960.

- بوجمعة رويان ، الطب الاستعماري الفرنسي في المغرب، 1912-1945 دكتوراه الدولة، تحت إشراف ،إبراهيم بوطالب، الرباط،2003-2004، جزآن.

-محمد السعيدي الرجراجي، الفقيه محمد بن أحمد العبدي الكانوني، حياته وفكره ومؤلفاته، منشورات جمعية آسفي للبحث والتوثيق، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش، 2000.

-رشيد عزيوز، الأطباء الأجانب في مغرب القرن التاسع عشر ، كتوراه وطنية ، تحت إشراف محمد الأمين البزاز، الرباط، 2004-2005.

- بول غليونجي، قطوف من تاريخ الطب، دار المعارف، مصر، 1986

- جان شارل سورنيا، تاريخ الطب، ترجمة إبراهيم البجلاتي، عالم المعرفة281، الكويت،2002.

- أحمد شوكت الشطي، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مطبعة طربية، 1386 هـ/ 1967م.
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية ، لعبد العزيز بنعبد الله، 1976، الجزء 3.

1. Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans, Imprimerie Najah El Jadida, Casablanca, 1995, p.Å37-45.
2. Leclerc L., Histoire de la médecine arabe, Paris 1876, réédité, Rabat 1986, 2 tomes.

* * *

رحلة التحليل النفسي إلى المغرب

جليل بناني
ترجمة: إبراهيم الخطيب*

يشكل إدخال التحليل النفسي إلى المغرب من طرف أحد رواد حركة التحليل النفسي الفرنسية وهو روني لافورگ René Laforgue، مثالا ناطقا عن رحلة النظرية.

لقد وصل الرجل إلى المغرب سنة 1948، حيث اصطفاه مكانا لمنفاه، فكان هذا السفر سفرا جغرافيا، وسفرا تخييليا، وسفرا للنظرية في آن واحد. تندرج هذه النظرية في سياق تاريخي محدد، هو سياق الاستعمار، وهو السياق الذي وسم النظرية بميسمه.

رافق لافورگ عدد من المحللين، وكانوا أصدقاء له ومتعاطفين معه. وكان هو قد صاغ لنفسه نظريات بعد أن جعل من مهمته إدخال التحليل النفسي إلى فرنسا. ولكونه لم يتمكن من مواصلة العمل في بلاده، فقد اختار الخارج لمتابعة تأملاته، مقتنعا بأن آراءه كانت صائبة وأنها ستنتصر في نهاية المطاف. لقد مكنه هذا المتاع العلمي من لقاء مزدوج بممارسين فرنسيين كانوا موجودين بالمغرب وبقلة قليلة من المرضى. أما البلد الذي حل به، فيمكن التساؤل إلى أي حد يكون قد التقاه.

ولأن النظريات التي أراد لافورگ تطبيقها في المغرب صيغت في الأصل في مكان آخر، ولكونها لم تعتمد على مفهوم العيادة وعلى التقاليد

* أستاذ باحث ومترجم، كلية علوم التربية، جامعة محمد الخامس، السويسي، الرباط

المغربية، فقد واجهت عدة مقاومات. أما تلامذته فكانت حالتهم مختلفة لكونهم كانوا منغرسين بقوة في مؤسسات التحليل النفسي ومتشبعين أكثر بثقافة البلد. في هذه الحالة يمكن للنظريات ادعاء صفة الكونية بعيدا عن كافة المقاومات، وذلك ماسنراه. أليست كل نظرية، وقبل كل شيء، جسما أجنبيا، مستوردا، قبل أن يتم رفضه أو يقع امتلاكه؟ هكذا يتجلى الاصغاء إلى المقاومات أمرا جوهريا، لكونه يتكفل بإبراز «حقيقة» الآخر، سواء في ذاتيته أو في خصوصياته النوعية.

إنني أصبو، خلال هذه المداخلة، إلى البرهنة على أن التحويرات التي تدخل على النظرية تتصل اتصالا وثيقا بالناس، وبالسياق الجغرافي، والسياسي، والاقتصادي والثقافي.

النظريات المستوردة وآثارها[1]

الأنا الأعلى

استعمل لافودگ، أثناء ممارساته في المغرب، مفهومين مركزيين هما مفهوما «الأنا الأعلى الفردي» و«الأنا الأعلى الجماعي». الأول «يتشكل من جماع المؤثرات التربوية التي تمارس على الطفل في الوسط العائلي» باعتبارها سلطة معنوية متوارثة عن الحضارة والعائلة، وهي سلطة «تتواصل حية في الحاضر بغية تشكيل المستقبل»[2]. أما المفهوم الثاني فتندرج فيه كافة المؤثرات التربوية، فضلا عن كل مَالَهُ علاقة بالديانات، والعقليات الوطنية، واللُغات، والمناخ، وظروف العيش، والعادات والأعراف. إنه يميز مختلف الأنوات العليا الجماعية باعتبارها «قوى من المفترض أن يكون فعلها (...) قد أوجد عائلات إنسانية مختلف بعضها عن بعض، ليس فقط

بحسب نمط العيش، أو الدين واللغة، وإنما بحسب الفكر والسلالة»[3]. هكذا يفترض لافورگ وجود فارق جذري، وبنيوي، بين الشعوب، والاثنيات، والأديان، والسلالات. يقول: «لكل ثقافة، ولكل سلالة، بنية متميزه لأنا الفرد»، ثم يضيف: «إن تكون التوترات النفسية مختلف لدى الأوروبي عنه لدى العربي (.....) فالانفعال لايتم التعبير عنه [لديهما] بنفس الآليات أو بنفس التعابير اللغوية»[4]. وحين قيامه بانتقاد النزعة العلموية لدى ورثة الوضعانية، يدرج لافودگ التاريخ العائلي والثقافي، وذلك بغية مقاربة التوترات النفسية لدى الفرد داخل جماعته أو إثنيته أو سلالته. إنه بإمكاننا التأكيد، دون المجازفة بالوقوع في الخطأ، بأن مثل هذه النظريات نظريات تمييزية، تعرض نفسها للنقد العنصري.

آثار هذه النظريات عند التأويل

هناك عدة أمثلة مستخلصة من التأويلات التي أنجزها لافورگ على الأفراد والجماعات والتي تبرز آثار تنظير اته. سأستشهد هنا بأبرزها:

* اعتمادا على ارنست رينان Ernest Renan الذي قابل بين الساميين والآريين ولاحظ بأن الأوائل لديهم مفهوم للزمن بالغ الالتباس، أكد لافورگ من جانبه على أن العرب لايتوفرون بتاتا على مفهوم للزمن، مستشهدا. كمثل على ذلك، بأسطورة «الطفل الراقد». فحسب هذه الأسطورة، يمكن للطفل أن يمكث غافيا في رحم أمه سنين عددا، ثم يخرج عندما يكون الوقت مناسبا أو حين ترغب الأم في ذلك. لكن لافورگ، وعوض تأويل غنى هذه الأسطورة، عمل إلى تقليصها إلى بعد الزمن الواقعي متناسيا بذلك بعدها الرمزي.

* يفترض لافورگ بأن العربي له أفكار متسلطة يقول: "وليس لديه بالمطلق فكرتان في نفس الوقت[5] »)، مقارنا إياه، في حالته العادية، بالمرضى الغربيين.

* فيما يتعلق بالدين، يعتقد لافورگ بأن سلوك كافة العرب متشابه، متجاهلا بذلك فروق البنيات الفردية.

* يعتقد أيضا بأن المرأة العربية لاتملك سلوكا أموميا : فهي أم سيئة، تنتقم في شخص ابنها من ظروفها البائسة، وتحمله على كاهلها ثم تمضي لقضاء مآربها المادية؛ من شأن هذه الظروف التربوية أن توجد «إحباطا عاطفيا» فتقترب بذلك من ظروف «الذهاني الهذياني» (Paranoiaque) أو تطابقها. في هذا الصدد، يغدو تحليل لافورگ اختزاليا بصورة ملحوظة، حيث يخلط مابين البؤس العاطفي والبؤس المادي.

* لاشيء يفلت من الأنا الأعلى: هكذا تغدو عيشة قنديشة «صورة للأنا الأعلى لأسلاف رجال الصحراء، و[صورة] للأم القضيبية المطاردة»، ويتعين افتراضا وجود «أجيال عديدة تم تكوينهم على الطريقة الأوروبية» لمحو الماضي الذي ترمز له هذه الجنية[6].

تلامذة لافورگ

سأكتفي هنا بمثال واحد فقط، وهو ايجرت Igert، نظرا لكونه كان تلميذا وفيا للافورك، ولكن أيضا لأن حضوره، الأكثر قدما والأقوى رسوخا في المغرب، أتاح له مجالا أفضل للبحث، ومكنه من إصغاء جيد ولاشك. بهذا يكون الرجل، حسب اعتباري، قد تجاوز أستاذه فكان من أدخل العلاج النفسي المغربي حقا.

نلاحظ بادئ ذي بدء لدى هذا الطيب السريري تباعدا بين الخطاب الاجتماعوي (حول نظام الأبوة، والوضعية الدونية للمرأة، ومفهوم القدر) والخطاب التأويلي الذي يعتمد العيادة. هكذا كتب إيجرت يقول : «في المغرب(...) النساء هن من يمتلكن الرقى السحرية. وخلافا للرجل، لاتخضع المرأة بتاتا لقانون القدر». ويضرب مثلا على ذلك ب «التقاف» وهي كلمة تعني العجز الجنسي المحدث لدى الرجل (أو المرأة) بغاية سجنه وعزله وإخضاعه لمشيئة المرأة[7]. بإمكاننا أن نستشهد هنا بخلع «التقاف» الذي تقوم به امرأة خدمة لاتكتفي فقط بدور الوسيط وإنما توفر التأويل الذي يحرر المريض. يستشهد إيجرت أيضا ب «عيشة قنديشة» حيث يتم الاعلاء من شأن المرأة باعتبار قلة خضوعها، وتمردها وانفتاحها الكبير على العالم.

سألخص هنا إحدى أندر المساهمات التي ظهرت في تلك الفترة وتم نشرها. يروي إيجرت حالة المدعو بن عيسى[8] الذي كان خطيب عيشة. ذات مساء أرغمته المرأة على مضاجعتها فاكتشف أنها لم تكن بكرا، وبذلك تحول حبه لها إلى حقدو كراهية. عقب مرور أسبوع، أدرك أن الجنية عيشة قنديشة هي من تلبس وجه خطيبته. طاردته الجنية شهورا وجعلته يعاني من ضربها إياه لكونه لم يكن يود الاقتران بها. التحق بالجيش، لكنها واصلت محاصرته إلى درجة أن رفاقه شاهدوا حوادث من ذلك القبيل. دخل بن عيسى المستشفى رغبة منه، فأخضع لعلاج «الصدمات الكهربائية» ول «علاج نفسي ردعي» «وضعا للتوحدا لمطاردات عيشة قنديشة».

إن التأويل الأول الذي خطر ببال إيجرت هو أن هذا المريض كان يقوم بتوجيه الضربات إلى نفسه، فتحدث عن «آلية العقاب الذاتي» المرتبط ب»

انتهاك المحرمات التقليدية»، ولاحظ «حدة التحول العصابي بواسطة أداة رمزية استقاها هذا التحول من الوسط الاجتماعي». شدد إيجرت على دور المحيط العائلي، حيث تساءل عما إذا كان الأمر يتعلق ب «حيلة» أو ب «الجنون». لم يشر بتاتا إلى زيارة المريض لأحد الأولياء، ولذا تكون الصفات المحمولة التي أسبغها على المحيط قد أحدثت خلطا بين الرفاق والولي، هذا المكان الذي لاتغدو فيه المعتقدات أمورا متقاسمة فقط، وإنما تتحول إلى طقوس وإلى عقيدة جماعية. وشأنه شأن لافورگ، أقام إيجرت تفرقة بين الفردي والجماعي، وميز بين السوي والمرضي، متجاهلا المسعى الفردي لشخص عزف عن الجماعة وقرر القدوم للعيادة قصد الاستشارة. وبما أن محيط المريض كأن يشد من أزره ويشارك في هذيانه، فقد اعتبر إيجرت ذلك علامة على أن المجتمع في ذاته ذو خاصية مرضية. إن التفرقة بين السوي والمرضي تستمد جذورها هنا من التمييز القائم، على مستوى اللاوعي، بين الفرد والجماعة.

هناك ملاحظة تفرض نفسها علينا: ماجدوى الشفاء في هذه الحالة، علما بأننا لانعرف شيئا عن مصير المريض العاجل أو الآجل، ولا عن الأعراض التي تمت إزالتها بواسطة وسائل ردعية وجاهزة؟

يمكننا هنا، ولاشك، قياس المسافة الفاصلة بين الأستاذ والتلميذ، لافورگ وإيجرت. لقد كان الأول بعيدا عن المرضى، مستمسكا بانزلاقات من خطاب اجتماعوي إلى خطاب تحليلي - نفسي يدين بشدة لطب الأمراض العقلية ولمعاييره.أما الثاني فكان أكثر إصغاء للمرضى، يحاول تفسير أعراضهم المرضية بواسطة شبكة نظرية ينأى عنها كلما انغمس في الممارسة.

مع ذلك، فما كان ينقص إيجرت هو تأويل يقدم للمريض، تأويل من المفترض أن يراعي النظرية وفضاء التقاليد الذي تقوم لغة بالتعبير عن نفسها في كنفه. إنه من المحتمل، حينئذ، أن يعيد المريض صياغة تلك اللغة بهدف الوعي بفردانيته التي تندرج داخل شبكة أو مجموع له انسجامه الخاص.

أصل هنا إلى مفهوم أساسي تماما من مفاهيم التحيل النفسي والذي كان قيد الاشتغال في ممارسة رواده الأوائل : أعني مفهوم المقاومة.

المقاومـــات

يمكننا فهم المقاومة على أنها كل مايقف عائقا دون عمل العلاج، وكل مايعرقل بلوغ الشخص مرحلة تعيينه اللاواعي لذاته.

ويرى فرويد أن المقاومة آلية دفاع تحيل على الأنا، أي على مستوى الوعي ولكن كذلك على مستوى اللاوعي، حيث تمارس النماذج البدائية اللاواعية جاذبية على المسارات المكبوتة.

لاشك في أنني، ، أنا محاط بثلة من الفلاسفة، لم أتمالك نفسي من الوقوع في أسر فتنة فيلسوف انشغل خاصة بهذه المسألة : يتعلق الأمر بجاك دريدا.

مواكبة منه لفرويد، عرف دريدا «مقاومة التحليل» باعتبارها «تحفظ من لايقبل حلك المقترح». «إنه من شأن ذلك القانون (...) أن يعيد موضعة التحليل في إطار علاقة القوى، وكل تأويل في سياق سياسة پوليموس وإيروس، وضمن فتنة (...) پوليروس متعذرة الاختزال»[9]. لقد استرعت هذه الصياغة الأخيرة انتباهي: أفليست «السياسة» التي تشير إليها هي السياسة

التي كانت سائدة إبان السياق الاستعماري، حيث كانت نظرية الآخر حصريا، في ذلك الزمن، هي التي تفرض فرضا باعتبارها الحقيقة. فهل كان مثيرا للاستغراب حينئذ أن يقدم رفض الآخر خدمة للمقاومات؟ يشتغل التحويل le transfert إذ ذاك بكافة قدراته كمقاومة (على مستوى المرض، وعلى مستوى الممارسين فيما بعد)، وكمكان تكرر الذات فيه مايشكل عائقا بالنسبة لها. سيتشكل هذا العائق من رفض التأويل، بل حتى من رفض استشارة الطبيب أو الهروب منها بواسطة المراوحة جيئة وذهابا بين هذا المكان وغيره: كالأولياء، والمعزمين، والسحر، مثلما نعاين ذلك حتى اليوم. بحثا عما ذا؟ عن حقيقة أخرى تنتمي إلى نظام خطاب ومعنى مختلف.

سأستشهد مجددا بدريدا: «لكن، شأنها شأن المقاومة التي نلاقيها في التحليل، فإن علاقة القوى هذه هي علاقة ذات معنى. وذات حقيقة. وبتجاوز المقاومات، نتمكن في بلوغ تشكيلات حلمية طافحة بالمعنى (...) إن التقدم مقاربة، ودنو من هذا المعنى (...) وتتوفر المقاومة على قدر من المعنى يعادل ما تعارضه، فهي أيضا حاملة معنى، وبالتالي قابلة للتأويل شأنها في ذلك شأن ماتلبسُه القناع أو تحرف موضعه :إنها تتوفر على نفس المعنى حقا، لكن بصورة جدلية وسجالية مخالفة، لو شئنا القول»[10].فإذا كانت المقاومة حاملة للحقيقة، فيجب البحث عن هذه الحقيقة في الخصوصيات الثقافية التي يتعين الإصغاء إليها بهدف تجاوز المقاومات.

خصوصيات ثقافية

لمحاولة الذهاب أبعد في الإصغاء للمقاومات من خلال خطاب المرضى مع الأخذ بعين الاعتبار المعطيات الثقافية واللسانية، سأقدم شخصيا بعض الملاحظات المتصلة بأمثلة على الممارسة التحليلية سبق ذكرها هنا :

* تتعلق الأولى بملاحظة إيجرت المتصلة بالعلاقة القائمة بين الأم المتسلطة والمخصية وبين الجنية. هذه العلاقة يمكن تبينها على صعيد الإسم : فالجنية تحمل نفس الإسم الشخصي الذي تحمله الخطيبة، فضلا عن أن اسم عيشة، من الناحية الصوتية، يعتبر قريبا من عيسى، وبن عيسى تعني ابن عيشة.

* فيما يتصل ب "التقاف" أو العجز الجنسي :من المؤكد أن التقاليد لها أسرارها التي تفرض من خلالها هذا العجز أو تخلص منه، لكن الممارسة تبرهن لنا على أنها لاتتمكن من ذلك في جميع الأحوال. سأذكر هنا حالة امرأة شابة جاءت إلي عندما عجز أهلها عن تخليصها من "الثقاف". لقد تم إخضاعها لهذه العملية من طرف أحد "المعزمين"، وذلك بطلب من أمها حينما كانت المرأة في الثامنة من عمرها .وكان هدف الأم من ذلك منع ابنتها من الوقوع في غواية العلاقات الجنسية قبل الزواج .وحين تم زواجها، شرع في البحث عن تخليصها من "الثقاف"، لكن شيئا من ذلك لم يتم، وهكذا ظلت عازفة عن العلاقة الجنسية، وتشعر حيالها بخوف كبير. أثناء عملية التحليل النفسي تمكنت المرأة من النطق بالكلمات التي رافقت الخوف الذي فرض عليها بخصوص العلاقة المفترضة بالرجال، وبالآثار التي خلفتها تلك الكلمات فيها. ولكي تتخلص من أسر هذه الكلمات، شرعت تدريجيا في التطرق إلى مواضيع مختلفة لها صلة بجسدها، وحالتها الجنسية، حيث تمكنت على هذا النحو، وببطء، من وضع مسافة بينها وبين ذلك الماضي، مجترحة مسلكا فرديا للقبول برغبتها الذاتية.

* ويستحق مثل آخر تعليقات طويلة :أغني المثل المتعلق بالحلم.حدثتني مريضة عن مواهبها التنبؤية التي تتحقق خاصة أثناء أحلامها.هكذا روت لي

كيف علمت بأنها سوف تضع بنتا،إذ ظهرلها في المنام ما ينبئ عن هذه الولادة المقبلة:فقد وضعت امرأة متوفاة ساعة من فضة بين ملابسها."الحلم هبة من الله" ويقال بأن الاتصال الأساسي بين الإنسان والله يتم، في الإسلام، عبر الحلم. هكذا إنخرطت المرأة مرات عديدة فيما كانت تعتبره هبة من الله، وهو رؤية أحلام منبئة.إن الحلم يمكن أن يندرج في إطار تقاليد عائلية،مثلما هو حال هذه المريضة.وتوفر التقاليد أجوبة للحالم :إذ يعتبر الميت بشارة إذا أعطى، ونذيرا إذا نزع. وبإنخراطها في هذه التقاليد، تتمكن المرأة من القبول بوجود رغبتها في الحصول على بنت، وبوجود علاقة بين الحلم وبين رغبتها العميقة، وحينها تستحضر حساسيتها الكبيرة وفرادتها.

بإمكاننا أن نضاعف الأمثلة، لكن ماسلف يكفي، ولاشك، للبرهنة على أن الإصغاء إلى الخصوصيات يسمح بتجاوز المقاومات، وأن نظرية ما، في هذه الحالات وحسب هذا الشرط، يمكن ألا يتم رفضها، بل بالعكس يمكن امتلاكها بعد القيام ب "تفكيكها"[11] حسب مصطلح عزيز على دريدا.

خلاصـــة

يمكننا القول، في حالة المغرب، بأن التفكيك يتم انطلاقا من تقليد مزدوج(فرويد نفسه عمل انطلاقا من تقليد : هو مفهوم التحليل .)التقليد الأول هو الماضي الاستعماري :فالمحلل النفسي، شأنه شأن الطبيب النفسي، يعمل انطلاقا من الماضي الذي هو ماضي التقاليد الطبية، أفلا يكون مناسبا حينها تفكيك الاستعمار كمعرفة؟ أما التقليد الثاني فهو التقاليد العربية الاسلامية وتقاليد السحر. وباندراج التحليل في اللغة، واعتماده على

الكلام، فإن المحلل النفسي، أكثر من الطبيب، هو من يفترض فيه مساءلة ذلك التقليد الآخر.

لقد تم إدخال التحليل النفسي إلى المغرب عبر تضافر محددات استعمارية: أليس كل تحليل نفسي مستوردا؟ ثم، ألا يمكننا في حالة المغرب التأكيد على أنه مستورد بصورة مضاعفة؟ أليست كل ثقافة استعمارية، دائما، استيرادا مكرها وهيمنة تفرضها جماعة على أخرى؟

ونظرا لعدم اعتماده على التقاليد، ولكونه أدخل في غفلة من الرواد أنفسهم، فإن إيصال ونقل هذا المذهب [مذهب التحليل النفسي] إلى المغرب ما كان له أن يتم، خاصة وأن لافورگ لم يكن له تلامذة مغاربة.

ورغم هذه المقاومة المرتبطة بتضافر المحددات الاستعمارية، يمكننا القول بأنه كان هناك، حسب تعبير دريدا، " انفتاح للخطابات الهمينية (12) "بفضل منفى رجل، وهجرة نظرية.

* * *

هوامش :

1 ـ لمزيد من التفاصيل حول هذا القسم، يمكن الرجوع إلى كتابي: "التحليل النفسي في بلد الأولياء" (بالفرنسية). منشورات الفنك، الدار البيضاء.1996

2 ـ ر. لافورگ : "الأنا الأعلى الفردي والجماعي". مجلة، Psyché) عدد88، فبراير 1954. وأعيد نشره ضمن كتاب" ماوراء النزعة العلموية "منشورات Mont-Blanc ، جنيف 1963 ص.38.

3. نفس المصدر السابق ص 45.

4. ر .لافورگ :"عن الطب النفسي الجسدي". (Maroc-Medical) ماي1955 . ص.620.
5. نفس المصدر السابق 49-48.
6. شيطان مؤنث.
7. هناك مساعي عديدة لبلوغ ذلك الهدف :إيماءات طقوسية، التهام أطعمة، النطق بعبارات معينة أو كتابتها قرب الضحية أو بعيدا عنها.
8. م إيجرت : "مدخل إلى المرض النفسي المغربي" مجلة (Maroc-Medical) عدد .365 أكتوبر.1955 ص.1327
9. جاك دريدا : "مقاومات". منشورات Galice، باريس 1966 ص22.
10. نفس المصدر ص 26.
11. "مانطلق عليه اسم التفكيك يلبي بكل تأكيد حاجة تحليلية، ونقدية تحليلية في آن واحد. إذ يتعلق الأمر دائما بفسخ، وفك الترسبات،وحلها، وتدمير الترسبات، والحوادث المصطنعة، والافتراضات القبلية، والمؤسسات (...)".

12. "لم يتطور التحليل النفسي فقط كتحليل للمقاومات النفسية الفردية، ولكن أيضا كتحليل عملي للمقاومات الثقافية والسياسية والاجتماعية التي تمثلها الخطابات الهيمنية ."راجع دريدا، المصدر السابق، ص34.

* نشرت هذه المداخلة ضمن كتاب "سفر النظريات" الصادر عن منشورات (الفنك) في إطار سلسلة "حوارات فلسفية" التي يشرف عليها علي بنمخلوف، سنة 1998.

* * *

إضـــــاءات



التجارة الغربية ببلاد المغرب
من منظور المؤرخين الفرنسيين
لويس دو ماس لاطري وأندري سايوس[1]

ميشال بلاغد
ترجمة : سلوى الزاهري*

لا مراء في أن تاريخ التدخل الأوربي ببلاد المغرب هو من المواضيع التي أثارت اهتمام عدد مهم من المؤرخين الفرنسيّين المتخصصّين في التاريخ الوسيط ،بغضّ النظر عن المؤسسة التي يرتبطون بها ،(الجامعة أو مدرسة الوثائق Ecole des Chartes أو مجلة الحوليات).

ويرجع هذا الاهتمام إلى أسباب تاريخية بيّنة مرتبطة بالتوسّع الاستعماري الأوربي في القرن التاسع عشر للميلاد، ومنها الرغبة الأكيدة لفهم حقائق جذور التوسع الأوربي وبداياته، وتبرير هذا التوسع وذلك بالبحث عن أمثلة للتعاون في ماضي العلاقات المغربية الفرنسية؛ كما أن الرغبة في فهم أصول الرأسمالية الأوربية توجد من بين دواعي ذاك الاهتمام كذلك.

والواقع أن الدراسات الفرنسية حول تاريخ المغرب الوسيط تكتسي أهمية بالغة ضمن الإستوغرافية الفرنسية، وتستحق أن نفحصها عن قرب قبل أن نحكم عليها سلبا أو إيجابا، خصوصا وأنه جرت العادة بنفي قيمتها تحت ذريعة البُعد الإيديولوجي الذي يحكمها، أو بانتفاء المنهج العلمي عن مؤلفيها.

* أستاذة باحثة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

ومن بين هذه الأعمال تبرز مؤلفات (لويس دو ماس لاطْري) الذي راح ينقّب في مختلف دور الأرشيفات بدول البحر الأبيض المتوسط لاستخراج نصوص المعاهدات التي أبرمتها القوى المسيحية مع الدول التي تعاقبت على حُكم بلاد المغرب في العصر الوسيط[2] وكذا دراسات (أنْدْري سايوسْ)، المؤرخ وعالم الاقتصاد، الذي حاول فهم آليات الرأسمالية الناشئة انطلاقا من نشاط التجار الغربيين بمدينة تونس[3]. وتروم هذه الدراسة تقديم مؤلفات المؤرخيْن الفرنسييْن وإبراز تطور بحثيْهما منذ الإمبراطورية الثانية إلى ما بين الحربيْن العالميتين.

وُلد لويس دو ماس لاطري سنة 1815 في أسرة عريقة من منطقة لانْكدوكْ، وقد شغف بتاريخ بلاد المغرب منذ تخرّجه من مدرسة الوثائق. وقد حصل من وزير الحربية آنذاك على رخصة للبحث عن الوثائق الأرشيفية القمينة بإلقاء الضوء على علاقات فرنسا مع دول شمال إفريقيا في العصر الوسيط .لقد كان ذلك سنة 1840، أي عشر سنوات بعد سيطرة القوات الفرنسية على الجزائر، وفي فترة شُرِع فيها بغزو المناطق الداخلية من الجزائر. وقد عثر الباحث الشاب على عدة وثائق في أرشيفات غرفة التجارة بمرسيليا، وقدم تقريراً سينشره المارشال صولتْ Soult ملحقا لـ "صورة لوضعية المؤسسات الفرنسية بالجزائر" الذي قدمه للبرلمانيين سنة 1844[4]؛ أي أن أعمال هذا المؤرخ قد اكتستْ أهمية سياسية منذ وقت مبكر.

وبعد رحلة طويلة بالمشرق حيث جمع (ماس لاطري) الوثائق التي مكّنته من كتابة "تاريخ جزيرة قبرص"[5]، قام بعدة مَهام بحثيّة بالبندقية وبرشلونة وباليرمْو، من أجل العودة إلى موضوع أبحاثه الأولى وجعْل الإمبراطور نابوليون الثالث يهتمّ بها. كان يريد أن يبرهن، في الواقع، على أن

المسيحيين والمسلمين كانت تربطهم في الفترات القديمة علاقات مكثفة وحميمة، يمكنها أن تفتح الطريق أمام تفاهم جديد، على غرار الإمبراطورية العربية التي يحلم الإمبراطور بإقامتها. وقد تمكّن (سايوس) بالتالي من نشر كتاب "معاهدات السلم والتجارة" سنة 1866 مسبوقا بمقدمة تاريخية مطولة، أعاد نشرها لاحقاً سنة 1886 في كتاب مستقل.

إن عنوان الكتاب يؤشّر بنفسه على مغزى التركيب التاريخي الذي حاول المؤلف بناءه. فهو يريد البرهنة على أن "رؤساء ساحل إفريقيا يفضلون أكثر الحركة التجارية حتى أنهم ظلوا غرباء عن الحروب الدينية للصليبيين في المشرق، وأنهم ربطوا، منذ القرن الثاني عشر، علاقات سياسية وتجارية مع المدن المسيحية للساحل المتوسطي، وخاصة مع مرسيليا، وبرشلونة، وجنوة، وبيزة، وغاييطي، ونابولي، والبندقية". وهكذا فمسلمو بلاد المغرب كانوا منعزلين عن إخوانهم المشارقة، فهم يفهمون أهمية المبادلات مع مسيحيي الغرب، بينما المسلمون المشارقة يواجهونهم في إطار الحروب الصليبية. ودون الوقوف على هذا التمييز المصطنع، يمكننا ملاحظة النظرة الاعتبارية الإيجابية التي ينظر بها (ماس لاطري) للعرب الذين كان "فتحُهم ذكيا ومتوازنا للبلدان التي أرادوا الاحتفاظ بها"، وإلى "إدارتهم المتوازنة للبلدان الخاضعة لهم"[6]. ويؤكد المؤلف مطولا على الموقف المختلف بين سلاطين الشرق والغرب : "في الوقت الذي اشتعلت فيه الحروب الصليبية بالشام ومصر نجد أن أمراء بلاد المغرب قد استقلوا تماماً بمصالحهم السياسية عن مصالح عرب المشرق، بل على العكس تماماً برزت حركة بالغرب مبنية على العلاقات التجارية"[7]. وهذه الحركة أسست على تعامل متبادل وعلى "مبادئ أكثر توازناً من تلك التي كانت تحكم أوربا الفيودالية نفسها"[8].

فمن أين جاء إذن ذلك التناقض الذي أسفر عن التدخل الفرنسي بالجزائر سنة 1830 ؟ لقد أتى أساسا من السيطرة العثمانية التي حملت معها سيادة الظلم والبربرية، والقضاء على الديانة المسيحية، التي كان العرب – على النقيض من ذلك –يحترمونها : "إن مهمة وخجل النظام التركي البائد هو تشجيعه ميل ساكنة بلاد المغرب للقرصنة، عوض أن يقمعه، وجعل القرصنة مؤسسة دائمة . . .بينما كان سلاطين السلالات العربية السابقة لا يقفون عند حدود الأعمال الزجرية، وإنما يعوضون غالبا الخسائر حينما كانوا يعجزون عن تفاديها"[9]. "إن أسوء فترات بلاد المغرب المتسمة بالبربرية وسوء الضيافة ترجع فقط إلى القرن السادس عشر وإقامة حكم الأتراك بها"[10]. باختصار، في مقابل فترة العدالة وعدم التحيز والتسامح الذي ميز الأسر العربية الحاكمة، نجد زمن الفوضى والقرصنة وعدم التسامح على عهد السيطرة العثمانية. وبذلك نرى جيدا كيف تتشكل قناعة المؤلف السياسية: إنه يطمح إلى أن يجمع تحت سقف واحد وتحت رعاية فرنسا، أمتيْن وديانتيْن، ويقترح على ساكنة بلاد المغرب المثال القديم للعلاقات السلمية والمنسجمة التي نسجها العرب والمسيحيون في العصر الوسيط.

ويبرز (ماس لاطري) هذا المثال من خلال نصوص الاتفاقيات الدبلوماسية التي عثر عليها في مختلف دور الأرشيفات بعالم حوض البحر الأبيض المتوسط، والتي رتّبها حسب البلدان في الجزء الثاني من كتابه : المعاهدات المبرمة مع الفاتكان، ومع جمهورية بيزة، ومع مملكة فرنسا، ومع جمهورية جنوة، ومع جمهورية صقلية، ومع مملكة ميورقة، ومع جمهورية البندقية، ومع مملكة أرغون، ومع فلورنسا، ومع بيومبينو، ومع جزيرة الإيبرو .بحيث يمكن القول إن جميع بلدان الحوض الغربي للبحر المتوسط قد ساهمت خلال

العصر الوسيط في هذه المبادلات مع إفريقيا الشمالية .وقد أبرز المؤلف ذلك في المقدمة التاريخية المستفيضة التي تشكل الجزء الأول من مؤلفه الذي يرتكز على ذلك الكمّ الهائل من الوثائق التي جمعها ، ومن خلال حركة ذهاب وإياب مستمرة بين نصوص المعاهدات وتعليقات المؤلف .إن التنقيب عن الوثائق والتبحر في تحليلها ليس هدفا في حد ذاته، وإنما يسفر عن إعادة تركيب - موضوعية إجمالا - للأحداث والوقائع.

وينتظم هذا التركيب حسب تسلسل كرونولوجي، بيد أن المؤلف يلجأ أحيانا إلى قطع استمرارية السرد بإدخاله بعض التقييمات العامة حول تحليل نصوص المعاهدات، وذلك بإبرازه ـ على التوالي ـ الضمانات الحمائية للأشخاص وبضائع المسيحيين، ثم واجبات والتزامات التجار والحكومات. فتنظيم مؤسسات الأجانب التجارية (ما هو الفندق؟)وسير مؤسسة الديوانة، وخارطة المبادلات، وأخيرا الملاحظات العامة حول تحرير وترجمة نصوص المعاهدات الرسمية، تشكل بعض المواضيع التي تحتفظ حتى الوقت الراهن، بكامل أهميتها. يجب أن نضيف أنه في سياق السرد ، يهتم المؤلف بقضية اختفاء المسيحية المحلية الأهلية بعد الغزو/الفتح العربي، قبل أن يحتفي - كما يجب - بالولادة الجديدة للكنيسة القديمة بقرطاجة، برعاية الكاردينال لافيجيري Lavigerie

وكما نلاحظ، فإن الاهتمامات السائدة آنذاك (تنمية إفريقية الشمالية التي احتُلتْ للتو، وتعايش المعمرين والسكان الأصليين، وإعادة إحياء المسيحية) لم تكن غريبة عن كتابات (ماس لاطري).

إن إيمانه في عمل فرنسا وعبقريتها قد تثير السخرية، مثلها مثل اعتقاده بأن محاسن فرنسا وحضارتها ستنتشر في كل مكان، بفضل "رعاية الرب

لفرنسا". لكن بتدقيق النظر في الأمر، فإن مثل هذه الدعوات التي لا يمكن لأحد الدفاع عنها في الوقت الحالي - لا يتم التعبير عنها إلا في مقدمات أو في خلاصات مؤلفات (ماس لاطري)؛ أما المحتوى العام للكتاب فيظل بعيدا عن تلك الدعوات. فالسلسة الجيدة لنصوص المعاهدات الديبلوماسية التي نشرها تحتفظ بكامل قيمتها بالنسبة للمؤرخ في الوقت الراهن، مهما تكن الإضافات والتكملات التي أضيف إليها لاحقا .إن النقد ينبغي أن يتوجه إلى تعليقات المؤلف، ذلك أن التاريخ الاقتصادي للعالم المتوسطي في العصر الوسيط لا يمكن أن يُكتب دون اللجوء إلى النصوص الملموسة، أي إلى وثائق الموثقين minutiers notariaux الدقيقة التي تغص بها دور الأرشيفات الإيطالية والبروفانسية والقطلانية، والتي لم يكن(ماس لاطري) يجهلها، لكنه استصغر أهميتها .من دون شك، كان ذلك من تقاليد زمنئذ، ومؤشر على رفض هيمنة التاريخ الاقتصادي كعنصر لتفسير التاريخ، وهو رفض غير مفهوم حين يأتي من مؤرخ فهم أهمية الدور الذي لعبته الجمهوريات البحرية الإيطالية في تاريخ بلاد المغرب طيلة العصر الوسيط وحتى القرن السابع عشر، وهو الذي خصص دراسة خاصة للشركة التجارية" معقل فرنسا"[11] Bastion de France.

لقد تأكدت غلبة العامل الاقتصادي بقوة مع(أندري سايوس .)لم يكن هذا الأخير مؤرخا محترفا، ولو أنه ينحدر من أسرة كانت تولي أهمية كبيرة للتاريخ. لقد تابع دراسته القانونية والاقتصادية بكلية الحقوق بباريس، وتوجه إلى برلين سنة 1896 ليحضر بها أطروحة الدكتوراة في القانون حول بورصات التجارة الألمانية. وهناك تأثر برجل قانون يسمى (ليفين غولدسميث) Levin Goldschmidt مؤلف كتاب "التاريخ العام للقانون

التجاري"[12] Universalgeschichte des Handelsrecht والذي كان كذلك أستاذا لـ (ماكس فيبر) ولـ (وارنير سومبارت). لكن (سايوس) المتشبع بفكرة كون الرأسمالية كانت متطورة منذ العصر الوسيط، ما لبث أن افترق عن زملائه، الذين كان يعيب عليهم ضعف الأساس الوثائقي لأعمالهم .فهو يقول : "إن سومبرات يوظف وثائق من الدرجة الثانية، إن لم تكن من الدرجة الثالثة أو الرابعة لكي يصيغ فرضيات خلابة، لكنها جريئة، غالبا ما تفنّدها المعطيات المؤكدة"[13]. أما (ماكس فيبر) فلم ينج بدوره من انتقادات (سايوس) الذي يفند التأثير الحسم للكالفينية calvinisme على تطور الرأسمالية. بالنسبة لسايوس تبدو الأمور واضحة : إن بذور الاقتصاد التجاريص للعالم الحديث ينبغي البحث عنها في العصر الوسيط، في مدن عالم البحر المتوسط الكبرى التي اقتبست تقنياتهاص وطورتها لاحقا العواصم الاقتصادية لأوربا الحديثة، مثل جنيف ولندن وأمستردام.

ومن بين الفضاءات الجغرافية الأخرى نجد أن مراكز التجارة بإفريقيا الشمالية هي إحدى المختبرات لهذا الاقتصاد الرأسمالي التي درسه (سايوس) اعتمادا على وثائق الموثقين التي تجاهلها بالمرة (ماس لاطري). فالتقنيات التجارية تبرز لنا من خلال المقارنة بين مختلف هذه المراكز التجارية التي حُررت بها هذه الوثائق. وفي سنة 1929 نشر (سايوس) أول عمل شامل- على شكل مجموع من 184 صفحة -حول تجارة الأوربيين بتونس، من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر[14].

إن صيغة "عرض ووثائق" التي أثبتها (سايوس) في عنوان كتابه لها دلالة بحد ذاتها فيما يخص منهجية المؤرخ .فهو لا يقدم شيئا إلا ويسنده بوثائق ضمّنها في ملحق كتابه .ولتوضيح مبتغاه يصف (سايوس)أنشطة الجنويين

في بلاد المغرب بالاعتماد على نصوص عقود العدليْن (جيوفاني سكريبا) Giovani Scriba و(كوغلييلمو كاسينيسي) Guglielmo Cassinese. ويوضح أن رجال الأعمال الجنويين كانوا يشكلون الجالية الأجنبية الأهم في تونس. وقد استرعى انتباهه كثرة الإشارة إلى عقود الصّرف والقرض البحري، ولا يتردد في الكلام حتى عن الكمبيالات في فترة - منتصف القرن الثاني عشر - نعرف حاليا أنه كان من السابق لأوانه الحديث عنها .ويقارن تقنيات المسلمين وتقنيات التجار المسيحيين بإفريقية، فقد كان الأولون من دون شك أكثر تقدما عن الآخرين، رغم أنه يأخذ بعين الاعتبار الأساس الذي ينص عليه القرآن الكريم : تحريم الربا والقروض الجزافية .ألمْ يقتبس الأوربيون تقنيةً (الكومندا) commenda من شركائهم المسلمين[15]؟

يصف (سايوس) بعد ذلك السلع المصدرة والمستوردة، وتأثير الظرفية على المبادلات التجارية، وفي الختام يرسم لوحة للتجارة الأوربية بتونس في القرن السادس عشر، موليا اهتماما خاصا بآليات شراء الأسرى وبتقنيات التجارة المستعملة في هذه الفترة .

ولو أن (سايوس) نشر في ملحق من حوالي ثلاثين صفحة، مجموعة من الوثائق التي كانت لا تزال مخطوطة، فالملاحظ أن الرصيد الوثائقي يبقى متواضعا إن نحن قارناه بالرصيد الذي تستند عليه أعمال (جورج جيهال)[16] كما أن التعريفات المخصصة للتقنيات التجارية تظل غير دقيقة .لكن في تلك الفترة، كان استعمال مادة مصدرية طالما تجاهلها المؤرخون، للوصول إلى خلاصات ذات أهمية نظرية وعملية في أن واحد، يعتبر عملا رائدا. يتعلق الأمر بوثائق الموثقين.

وبالارتكاز على مثال تونس، ولكن كذلك على مثال جنوة وبرشلونة، كان (سايوس) يهدف في الواقع إلى تأسيس التاريخ الاقتصادي للعصر الوسيط

على قاعدة أوسع وأمتن، أي على رصيد وثائقي هام سواء على مستوى الكم أو على مستوى التجانس. ولا يمكن إلا أن نوافقه على هذا الأمر. ولكن ينبغي أن نلاحظ أنه في غيبة نشرات علمية رصينة، فإنه كان يلتجئ في غالب الأحيان إلى نشرات قام بها آخرون، لم يكن لهم لا الوقت ولا حتى العُدة العلمية الكافية في ميدان الباليوغرافية لفحص الكم الهائل من وثائق الموثقين، التي كان (سايوس) يتحسس أهميتها. إن مقاربته هي مقاربة عالم الاقتصاد الذي يستعمل المنهجية التاريخية لتقييم المعطيات الاقتصادية في حد ذاتها، ولتفسير أصولها وتتبعها في تطوراتها. وللقيام بذلك، فهم (سايوس) أن عليه الالتجاء إلى النصوص والقيام بملاحظات "ميكرو إقتصادية" على عينة محددة، ولكن كذلك على سلسلات متجانسة كلما أمكن ذلك .إنه يدلي بالملاحظات ويرفض كل تأويل إيديولوجي وكل فرضية مجازِفة.

مع أعمال (أندري سايوس) نظل بعيدين عن تمجيد ماض كان ينبغي له أن يصلح نموذجا للوقت الحاضر الذي يسِم أعمال (ماس لاطري). لقد تم الابتعاد بالمرة عن ذلك المجد الوطني الذي دافع عنه أصحاب مدرسة الوثائق في القرن التاسع عشر، ما يهم (سايوس) هو المعطى الكوني، والآليات الاقتصادية في أصولها وفي تطوراتها، ونموّ نوع من الرأسمالية التي لم تكن بلاد المغرب غريبة عنها، ونجاح هذه الجمهوريات البحرية الإيطالية والقطلانية التي كانت على وشك دخول المعاصرة. لكن (سايوس)يلتقي بـ (ماس لاطري) في الوفاء للنصوص، وفاء يملي نوع المقاربة التاريخية .لقد فهم الرجلان أنه لا يمكن كتابة تاريخ جيد دون نصوص جيدة : وهذا درس للتأمل حتى في الوقت الراهن.

* * *

هوامش :

1 ـ العنوان الأصلي للدراسة هو :

Michel Bamard, "Deux historiens du commerce occidental en Afrique du Nord : L. de Mas latrie et A; Sayous".

وقد نشرت في مجلة Cahiers de Tunisie (الكراسات التونسية)، عدد 169-170، سنة 1995 خاص بأعمال المؤتمر العالمي السادس لتاريخ المغرب وحضارته حول موضوع : "الحرب والسلم في تاريخ بلاد المغرب"، المنعقد بتونس في ديسمبر 1993.

2 - Mas-latrie (L.De), Traités de paix et de commerce concernant les relations des chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-age, 2 vol. Paris, 1866. Un volume de supplément 1973 : Introduction historique reprise sous le titre Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen Age, Paris, 1889.Anastatique par Burt Franklin; New-York, S.d.

3- A.Sayous, Le commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin de XVIe. Exposés et documents, Paris, 1929.

4- L. Heron De Villefosse, "Discours prononcé aux obsèques de M. le comte de Mas Latrie", dans bibliothèque de l'Ecole des Charles, L. LVII, 1896, p. 750-751.

5- Mas-Latrie (L.De), Histoire de l'ile de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan, 3 vol. Paris, 1852-1861. Complétés par ses Documents et mémoires servant de preuve à l'histoire de Chypre sous les Lusignans, 2 vol. Paris, 1852.

6- Id, Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen age, p. 3.

7- Id., Ibid., p. 83-84.

8- Id., Ibid., p. 115.

9- Id., Ibid., p. 236.

10- Id., Ibid., p.342.

11- Id. " Traité conclu à Alger le 1er janvier 1964 entre le dey d'Alger et la compagnie du Bastion de France", dans Mélanges historiques, Paris, 1877, pp. 679-731.

12- Levin Goldeschmidt, Universalgeshichte des Handelsrecht, Stuttgart, 19-891.

13- A; Sayous, Mélanges d'histoire économique remis par l'auteur à la Bibliothèque Nationale, Paris, 1941.

14- Id., Le commerce des Européens à Tunis depuis le XIIe siècle jusqu'à la fin du XVIe. Exposé et documents, Paris, 1929.

15- J. Pryor, "The Origins of the Commenda Contrat", dans Speculum, 1977, p. 5-37.

أبان أن المسألة أكثر تعقيدا مما يظن سايوس.

16- G. Jehel, Les Génois en Méditerranée occidentale, ébauche d'une stratégie pour un empire (fin XIe-début du XIVe siècle), Paris-Amiens, 1993.

* * *

توثيق التراث الثقافي المغربي في عهد الحماية
أعمال الأمريكي واتسون كينتنير
(1890-1979) Watson Kintner

المهدي بن محمد السعيدي*

مقدمـــة

يعد التراث الثقافي المتمثل في عادات المعيشة وتقاليد الاحتفال وأنماط اللباس والمعمار وطرق التعامل من أبرز مظاهرالثقافة والفكر عند الشعوب ذلك أنها مظاهر مادية لتجلي التراث الفكري والمعرفي، وتطبيق عملي للتصورات والعقائد، وقد لفت هذا التراث الثقافي اهتمام الدارسين الفرنسيين في مرحلة سيطرتهم على المغرب، وعملوا منذ وصول البعثة العلمية الفرنسية إلى مدينة طنجة في بدايات القرن العشرين، على العناية بها، ثم واكب المصورون الفرنسيون ذلك الاهتمام بتوثيق هذا التراث بالتصوير الشمسي بعد أن سجله أسلافهم في القرن التاسع عشر وما قبله بالرسم والتلوين.

غير أن أبرز منجزات هذا العصر هو التصوير السينمائي الذي مكن من تسجيل الصور المتحركة ثم الصوت، فصار من اليسير تسجيل لحظات الحياة وحفظها، وتوثيق مظاهر الفكر والثقافة الاجتماعية في أشرطة تسجيلية، وهو ما استغله الفرنسيون بدوافع مختلفة لعل من أبرزها دعم السياسة الاستعمارية ببراهين دالة على المنجزات الفرنسية في تطويرالمغرب وتأهيل سكانه للدخول لعهد الحضارة، وإبراز المنجز الحضاري الفرنسي مع

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أگادير.

التركيز على الغريب والعجيب في المجتمع المغربي، وهذا ما يعني أن السينما الفرنسية كانت تنطلق من أيديولوجية استعمارية ترمي إلى تسخير التقنية لتبرير التسلط على الشعوب ومصادرة حقوقها الوطنية[1].

غير أن المرحلة الاستعمارية لم تشهد سيطرة السينما التوثيقية الفرنسية على المغرب وحدها ؟ وإن كانت الغالبة -بل كان هناك غربيون آخرون حلوا بالمغرب لتصوير مظاهر الاجتماعية والبشرية والبيئية وتسجيلها، وصار من المعتاد أن يحمل السياح آلات التصوير لتوثيق رحلاتهم، وتسجيل مشاهداتهم، وكان بعض هؤلاء من هواة التصوير السينمائي فسجلوا أشرطة كثيرة حملوها معهم إلى بلدانهم تذكارا لزيارتهم للمغرب، وبقيت هذه الوثائق السينمائية بحوزتهم يعيدون مشاهدتها أو يعرضونها على أصدقائهم وأقاربهم في وسط مغلق، ولم تكتشف الأهمية التوثيقية لتلك التسجيلات إلا بعد مرور مدة طويلة جعلتها وثائق أساسية في التأريخ للمجتمعات وخصائصها الاجتماعية والإثنوغرافية، ومن نماذج هذه الانتاجات، أعمال المهندس الأمريكي واتسون كينتنير.

1.1. من هو واتسون كينتنير:

لا تتوفر معطيات كثيرة حول حياة هذا الرجل بالرغم من قرب عهده، ويشير بعض الدارسين المهتمين بأعماله في التصوير إلى أنه ظاهرة مرت خفية بين الناس دون أن يشعر بها أحد، وهو الآن منسي في موطنه بل بين أبناء عائلته الكبرى[2].

ولد واتسون كينتنر ببينتون تاون شيب ببنسلفانيا سنة في 22 أبريل 1890 م لوالده شارل كينتنير، ونشأ بمقاطعة لانكستر وعاش طفولة مستقرة

مع والديه وأخته الكبرى فلوي، وكان تلميذا نابها في تحصيله الدراسي، وحصل سنة 1916 على الباكلوريوس في الهندسة الكيميائية وعمره 26 سنة، ثم التحق بشركة الإذاعة الأمريكية RCA ، واشتغل بها حتى تقاعده سنة 1955. ومن أعظم إنجازات كينتنير كونه ضمن الفريق الرائد الذي طوّر الأنبوب المفرغ من الهواء الذي كان الجزء المهم في صناعة المذياع والتلفاز قبل اختراع الترانزستور.

مكّن هذا الاختراع كينتنير من جمع ثروة طائلة جعلته يعيش بقية حياته في غنى وترف، كما مكنته ؟ ضمن العشرة الأوائل في الولايات المتحدة الأمريكية –من اقتناء كاميرا التصوير السينمائي من نوع كوداك 16 ملم وكانت آنذاك من التقنيات المتطورة في مجال التصوير.

انتقل كينتنير بعد تقاعده سنة 1955 إلى متحف بنسلفانيا متفرغا لهوايته السياحية، وفي العقد الأخير من حياته (1979-1969) كف عن الترحال، وعاش حياة عادية كان خلالها يحضر ندوات في جامعة بنسلفانيا حول التصوير ودوره في دعم الإثنوغرافيا، كما كان يؤطر أحيانا بعض الدورات التكوينية حول التصوير السينمائي.

كان واتسون كينتنير مغرما بالتصوير، وقام على مدى 36 سنة من عمره (1969 -1933) بأسفار عديدة إلى أكثر من 30 بلدا، وعمل خلال تلك الأسفار الكثيرة على توثيق مشاهداته في تلك البلاد بواسطة التصوير السينمائي بدءا من المكسيك التي زارها سنة 1933 ثم زار جواتيمالا، وگويانا ، والإكوادور، والمغرب، وباكستان، والهند، واندونيسيا، ونيجيريا، وأستراليا وإيران، اثيوبيا ، والتايلاند وكمبوديا والنيبال واليابان وأفغانستان والنيجر

وتشاد وتونس وتركيا والأردن وقبرص وباناما والبيرو وزنجبار والإيكوادور وغويانا البريطانية وغينيا الجديدة.. والعديد من البلدان الأخرى.

تظهر في أعمال كينتنير موهبته العالية في التصوير، وكانت حصيلة أعماله أكثر من 400 بكرة من الأشرطة معظمها ملون .وقد سجل في أعماله مظاهر الحياة اليومية للبلدان التي زارها كما وثق مظاهر العيش والبيئة، وركز على الثقافات المحلية التقليدية والحرف اليدوية، والصناعات المنزلية، والمساكن وأماكن العبادة، كما سجل العادات والتقاليد، واللباس والزينة، والتقنيات الزراعية والمعدات، والتجارة المحلية، والممارسات والاحتفالات[3].

لم يهتم واتسون كينتنير بتحويل أشرطته إلى مادة وثائقية علمية بل أبقاها لديه كما هي في الأصل، ليستمتع بمشاهدتها وعرضها على أصدقائه، حتى أهداها لمتحف جامعة برينستون ببنسلفانيا الذي قام بجردها سنة 1971،[4] وضل كينتنير من المتعاملين النشيطين مع المتحف التابع لجامعة بنسلفانيا حتى وفاته في نونبر 1979[5].

2.2- أعمال الأمريكي واتسون كينتنير، وصف وتعريف:

خلّف كينتنير أزيد من 400 بكرة من الأشرطة التصويرية هي حصيلة هوايته خلال 36 سنة قضاها في الترحال والسياحة، ودأب فيها على تسجيل مشاهداته بلا كلل ولا ملل، وكانت حصيلة تلك الأعمال، كما يلي:

*1939 - 1933 المكسيك 15 (بكرة)

*1947، گواتيمالا 7 (بكرات)

*1948، گويانا البريطانية 8 (بكرات)

*1949، الإيكوادور 10 (بكرات)

*1950، البيرو 9 (بكرات)

*1951، المغرب 10 (بكرات)[6]

*1952، الموزمبيق 10 (بكرات)

*1953، باكستان 10 (بكرات)

*1955، إندونيسيا 6 (بكرات)

*1955، سيلان - سيريلانكا الحالية 5 (بكرات)

*1955، الهند 6 (بكرات)

*1955، النيبال 5 (بكرات)

*1957، التايلاند 10 (بكرات)

*1957، اللاوس كمبوديا 5 (بكرات)

*1957، استراليا ونيوغينيا 16 (بكرة)

*1959، الهند مرة أخرى 27 (بكرة)

*1959، نيجيريا 5 (بكرات)

*1961، شرق أفريقيا، الموزمبيق الحالية 35 (بكرات)

*1961، جنوب أفريقيا 19 (بكرة)

*1963، إيران 17 (بكرة)

*1965، اليابان 31 (بكرة)

*1965، أفغانستان 9 (بكرات)

*1967، النيجر 8 (بكرات)

*1967، تشاد 3 (بكرات)

*1967، تونس 23 (بكرات)

*1967، تركيا 18 (بكرات)

*1969، أثيوبيا 35 (بكرات)

*1969، لبنان والأردن 12 (بكرات)

*1969، قبرص وإستانبول 18 (بكرات)

وقد وثق كينتنير الوصلات السينمائية التي التقطها مسجلا باختصار موضوع كل لقطة في سجل ملاحظات كان يحمله معه، قصد منه تقييد ملاحظات شخصية تسعفه في تذكر مكان المقطع أو اللقطة، مما مكننا من معرفة المدن التي قصدها وتواريخ زيارتها، والمجالات التي صور فيها، كما نلاحظ أن كينتنير لم يضع عناوين خاصة للأشرطة التي قام بتصويرها، وإنما اكتفى بنسبتها إلى البلدان التي صورت بها .

وكما ذكرنا آنفا فإن تسجيلات كينتنير الكثيرة بقيت بحوزته بعد تحميضها وربما دون توضيب، ولم يشاهدها إلا القلة القليلة من الناس، ويرجع كولين هيلب (collin hilb)[7] قلة الاهتمام بها إلى صعوبة إعطاء أهمية ما أو قيمة لشيء حديث لم تكن له قيمة فيما مضى، والتصوير كله من المستجدات الحديثة آنذاك، لذلك بقيت تلك الأشرطة دون اهتمام[8].

ولم تعرف هذه الأشرطة على نطاق واسع إلا بعد إعادة تسجيلها بإشراف متحف جامعة بنسلفانيا، ونشرها في فبراير الماضي على الشبكة العالمية للمعلومات مادة مفتوحة المصدر (open source) باتفاق مع الموقع العالمي للتوثيق أرشيف (Archive.org)[9] حيث أنشئت صفحة خاصة بمتحف علم الآثار والأنثروبولوجيا University of Pennsylvania Museum of Archa.eology and Ant,y Films ليستضيف بعض مقتنيات المتحف السمعية البصرية، خاصة شرائط كينتنير مسجلة بصيغ مختلفة (Ogg Video ,mpeg2,mpeg4) مع إتاحة تنزيلها

ونسخها أو مشاهدتها مباشرة على الموقع نفسه[10].وقد لقيت هذه الأشرطة اهتماما كبيرا في البلدان التي زارها كينتنير[11] وفي معاهد الدراسات والمؤسسات الجامعية، وتجري الآن أبحاث كثيرة حول هذه الذخيرة الإثنوغرافية الثرية في مناطق مختلفة من العالم[12].

3. تسجيلات واتسون كينتنير بالمغرب:

حل واتسون بالمغرب أواخر شهر يونيو سنة 1951 ولبث به أزيد من 18 يوما حيث بدأ التصوير في اليوم 24 منه (موافق 19 رمضان 1370 هـ) وانتهى يوم 11 يوليوز (موافق 6 شوال)[13] وخلال هذه المدة تجول في الرباط والدار البيضاء والجديدة ومراكش ودمنات وورزازات وفاس ومكناس وزرهون وإفران وأزرو، وكانت حصيلة زياراته تعبئة بكرة واحدة لكل زيارة، أي ما مجموعه 10 بكرات وذلك وفق المعطيات التالية[14]:

رقم الشريط	رقم التصنيف	تاريخه	مكانه	مدته (دقيقة)
الأول	f16-0051-1951	24-25 يونيو	مراكش	18:01
الثاني	f16-0052-1951	26 -25 يونيو	مراكش ودمنات	17:47
الثالث	f16-0053-1951	26 يونيو	دمنات وورزازات	17:51
الرابع	f16-0054-1951	27-29 يونيو	ورزازات ومراكش	18:04
الخامس	f16-0055-1951	29-30 يونيو	تيزي نتيط ومراكش	18:02
السادس	f16-0056-1951	بدون 3-1 (يوليوز؟)	بدون	18:01
السابع	f16-0057-1951	3-4 يوليوز	فاس ومكناس وزرهون	18:00
الثامن	f16-0058-1951	4-6 يوليوز	بإفران وأزرو	17:40
التاسع	f16-0059-1951	6-9 يوليوز	بإفران ومزگان (الجديدة)	13:31
العاشر	f16-0060-1951	11 -9 يوليوز	الجديدة والدار البيضاء والرباط	17:07

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى جهلنا ؟ لحد الآن ؟ كل شيئ عن حيثيات حلول واتسون بالمغرب، فهو لم يكن يعرف سوى لغته الأنجليزية، فهل كان يستعين خلال تنقله بمرافق يسهل مهامه في التصوير؟ وهل كان حصوله على ترخيص التصوير أمر ميسرا؟ أم هل فرضت عليه شروط معينة لذلك؟ أم أنه كان حرا في تصوير ما يشاء؟ هذه أسئلة كثيرة لا نملك لها جوابا طالما أن أرشيف كينتنير الشخصي لم يفتح بعد أو لم توجد به معلومات ووثائق تشير إلى الإجراءات الإدارية التي اتخذها للتصوير بالمغرب.

4 ـ السمات الفنية :

تميزت أشرطة كينتنير بأنها أشرطة ملونة صامتة، اعتمد في تصويرها على تقنية الكاميرا المحمولة الأداة المثالية للاستطلاع المباشر الذي يطمح لعرض الواقع كما هو دون تدخل، حتى أن المشاهد لا يكاد يشعر بوجود الكاميرا، وهي التقنية التي تطورت بازدهار التلفاز والاهتمام المتزايد بالأخبار والمتابعات والاستطلاعات الإعلامية ..غير أن هذه التقنية وإن كانت ممتازة في متابعة المشاهد ومرونة التسجيل وإمكانية التصوير من زوايا متنوعة، فإن لها جانبا سلبيا يتمثل في الإطار المتذبذب الذي يعطي انطباعا بالحركية وانعدام الاستقرار مما يزعج المتفرج.

لم يحضر كينتنير ـ فيما يبدو -أي خطاطة أو سيناريو للتصوير، وإنما ترك الصدفة تقتنص، فكان يتجول في الشوارع والطرق والأسواق، ويقوم بالتقاط تسجيلات للمشاهد التي تثير انتباهه، لقد كان في هذا كله سينمائيا هاويا، تملص من صعوبات الأشرطة الوثائقية المتمثلة في التعليق ـ فمن المسلمات في هذا المجال أن الصورة لا تكفي للفهم ـ والتعليق من جهته

يحتاج إلى تحضير وإعداد واختيار لكيفية الربط المنطقي المتسلسل بين المقاطع، كل هذا لم يكن مطروحا بالنسبة لكينتنير لأن أشرطته كلها كانت دون صوت. ولعل لذلك جانبا إيجابيا يتمثل في ترك المتفرج يشاهد الأشرطة ويحاول فهمها بناء على تنظيمها الداخلي، بدل شغله بالتعليقات التي ترمي عادة إلى تجاوز القصور في الصورة[15]. دون أن نغفل أن انعدام الصوت حرم المشاهد من الأصوات الطبيعية للمناظر المصورة.

هكذا نكون عندما نشاهد أشرطة كينتنير أمام إطار للصورة يغيب عنه الصوت ليتركنا نتأمل ونستجلي المشاهد المتحركة وهي تمثل وجهة نظر المصور الذي عمل على تقديم الواقع كما هو لكنه مع ذلك يقدم لنا خياراته، وما رآه جديرا بالتصوير، ثم إن من الحقائق الثابتة في مجال العلوم الإنسانية - وهو ما يميزها عن العلوم البحثة - أن الملاحظ هو جزء من الواقع المُلاحظ[16]، ففي خلال يوم أو يومين يقدم لنا 14 إلى 18 دقيقة فقط، تمثل مختاراته التي اصطفاها من مشاهداته البصرية خلال تجواله بالمدن المغربية المزورة..وهذا الاختيار هو الذي يشكل مجال التصرف والإخراج عند المصور الاستطلاعي، فلا شك أنه ترك تصوير بعض المناظر عمدا أو انصرف عن تسجيل ما هو مألوف لديه في حياته اليومية بأمريكا، أو منع من تصوير مشاهد أخرى لسبب ما أو فاتته بعض اللقطات لسبب أو آخر.

إن كينتنير كان يسجل المشاهد التي رأى فيها غرابة أو تميزا عن المألوف الأمريكي في العقد السادس من القرن الماضي، فهو كان ينظر بفكره وعقله قبل أن يبصر بعينيه[17]، كان يسجل مظاهر مجتمع غريب عنه، مجتمع متميز بعاداته الخاصة وطرق عيشه وأساليب حياته التي تمثل القديم

والتقليدي (بالمغرب) في مقابل الحديث والعصري (بأمريكا)البلد الذي جاء منه كينتنير .كما نلاحظ أن تسجيلاته اهتمت بظاهر الأشياء دون أن تحاول الغوص في كنهها وأصلها، فهو مثلا لم يختر شخصية أساسية ليتتبعها ويحاول استجلاء عادات المجتمع أفراده من خلالها، ويوثق طرق عيشهم اليومية ويتابع أنشطتهم ليوم أو بعض يوم، كما اعتاد منتجو الأشرطة الإثنوغرافية فعله .بل ما تقدمه أشرطته هو مشاهدات سائح عابر ينظر من بعيد ليشاهد العالم الغريب من حوله، صحيح أنه لم يكن هناك حاجز مادي بين كينتنير وبين المجتمعات التي قام بتصويرها، ولكن كان هناك حاجز فكري وثقافي ومنهجي مرتبط بطريقة استخدام الكاميرا الصامتة، ولذلك نقول أن هذه الآلة بين يدي كينتنير لم تكن سوى عينه الثانية التي أبصر بها لا ليتعمق في الإدراك وليسائل ويستكشف أعماق الأشياء الظاهرية، وإنما ليسجل ويتذكر فيما بعد .فبقيت تسجيلاته مهتمة بالظاهر بالعلامات الرمزية البارزة، ولاشك أننا إذا نظرنا إلى ثقافته وفكره وخلفيته الفلسفية سنعرف أن التصورات التي صدر عنها وعبرت عنها تسجيلاته لم تسعفه لمزيد من النظر والتحليل والاعتبار، إضافة إلى أن الزيارة الأولى العابرة لا تمكن من الفهم، بل لابد من المعاشرة والمساكنة الطويلة الأمد، فهي التي تمكن الزائر القادم من ثقافة مخالفة من تأمل المجتمع الغريب الذي جاء لزيارته وفهم علاقاته وعاداته وتقاليده ثم إعادة تركيبها بناء على معرفة الخلفية الفكرية والعقدية التي أسس عليها ذلك المجتمع مفاهيم حياته الخاصة.

إضافة إلى ذلك فإن غياب الصوت يترك السلطة الكاملة للصورة وللملاحظة البصرية المهتمة بالثقافة المادية، فيتم الاهتمام بالحياة اليومية والصناعات والأعمال المعاشية من فلاحة وتجارة .. دون البحث عما وراء هذه المظاهر المادية من ثقافة معنوية وفكر وتراث وعقيدة دينية.

أما حقل التصوير (plan) فهو في الغالب حقل عميق لا تظهر فيه الوجوه والملامح بشكل واضح إلا في أحيان قليلة حينما يعرض كينتنير لقطات مقربة لملامح رجال ونساء يظهر من خلال التصوير أنه استوقفهم وطلب تصويرهم حتى تكون صورهم نموذجا للأجناس البشرية التي تسكن المغرب بملامحها وألبستها، وربما دفع مقابل ذلك مبالغ مالية لأنه ما من شيء يرغم المصوَّرين على الوقوف للتصوير إلا الإجبار أو المال.

ويظهر أن سبب غلبة الحقل العميق على أشرطة كينتنير انزعاج الناس من اللقطات المقربة، ولذلك عدة أسباب:

- الموقف المبدئي للنخبة المغربية العالمة من الغرب الأوربي ومخترعاته التقنية، وهو موقف مؤسس على العداوة التاريخية للغرب النصراني ومبادئه الدينية وتحفظ من كل ما يأتي منه من أدوات وآلات انطلاقا من سياسة الاحتراز المغربية منذ القرن الثامن عشر للميلاد، وقد برزت في أواسط القرن 14 هـ / بداية القرن 20 م مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموقف[18] كما صدرت فتاو عن بعض العلماء تحرم التصوير الشمسي قياسا على تحريم الإسلام التماثيل، يقول الأستاذ محمد المنوني : "لم يشتغل المغرب الإسلامي بالتصوير إلا قليلا، شأنه في ذلك شأن المسلمين العرب في هذا الصدد، تأثرا بموقف الدين بالنسبة لعدد من أنواع التصوير .وقد كان هذا من أسباب إهمال أكثر المصادر التاريخية لتسجيل هذه الظاهرة، حتى لا يكاد يعثر على نماذج من أخبارها إلا عرضا وعفوا وفي حالات قليلة"[19].

- نتج عن موقف العلماء وتحرزهم من الأجنبي" الكافر "ثم المستعمر شعور الناس بالحرج من تصوير الأوربيين النصارى لهم، وهو ما يعتبرونه

تدخلا في شؤونهم الخاصة، خاصة أن الأمر سيؤول إلى عرض صورهم في البلاد الأصلية للمصورين، وربما قر ذلك في الأذهان نتيجة كون الفرنسيين المستعمرين هم السباقين إلى استعمال التصوير بالمغرب، ولمّا كان المغاربة يعادون الاستعمار ويشعرون بحساسية مفرطة من كل تصرفاته فقد كانت موقفهم من التصوير حازما، ونقف في الأشرطة على لقطات تصوير توقفت وانقطعت بسبب ما يظهر أنه اعتراض من المارة أو الحرفيين أو التجار أو غيرهم، كما نشاهد مرارا أناسا يسترون وجوههم أو يولون ظهورهم للكاميرا أو يفرون من أمامها، وقد عانى كينتنير من هذه المواقف ولم يتمكن مثلا من تصوير الحلاقين بساحة جامع الفنا بمراكش أومحترفي غسل الزرابي والأفرشة في الدار البيضاء ومراكش بالرغم من محاولاته العديدة، فقد كانوا يولونه ظهورهم أو يستترون بالثياب أو يعمدون إلى الفرار من الكاميرا وحاملها[20].

- شعور عامة الناس أن تصويرهم يدر الأرباح الطائلة على المصورين الذين ينررون الأشرطة ليبيعوها لدور العرض، دون أن يحصل المصورون على أدنى تعويض، لذلك كان من العادي ملاحظة طلب الفئات التي تعاشر السياح - مثل حاملي القرب ومحترفي حلق الفرةة.. وغيرهم - مبالغ مالية منهم لقاء تصويرهم، ونلاحظ في أشرطة بعض اللقطات المشابهة مثل تصوير الگراب.. والمغنيين باامع الفنا.. ..

اما لقطات التصوير فمتنوعة لدى كنتنير، وتتمثل فيما يلي:

- اللقطة الجامدة المركزة على موضوع معين إما المارة في الشارع أو المتسوقين أو أشكال الزخرفة أو المعمار أو الثياب والأثاث..، فالكاميرا عند كينتنير لا تتحرك يمنة أو يسرة أو تتقدم أماما أو خلفا أو تقدم نظرة

بانورامية، وإنما تظل جامدة ممثلة المشاهدة البصرية لكينتنير وما رآه جديرا بالتسجيل.

- اللقطة المتحركة :وهي قليلة في هذه الأشرطة ويبدو أن كينتنير لا يلجأ إليها إلا مضطرا عند متابعة هدف متحرك يريد التدقيق في شكله أو مظهره، وغالبا ما يكون ذلك الهدف أحد المارة الراجلين أو الراكبين على البهائم او الدراجات ..في الشارع أو السوق، ويتم تحريك الكاميرا يمينا أو شمالا حسب اتجاه المار.

- اللقطة المقربة وتأتي بعد تصوير مشهد ما يظهر منظرا بعيدا لا تستطيع عين كينتنير إدراك مغزاه أو شكله أو ما يقوم به الناس في نشاط معين، فيعمد إلى الاقتراب لالتقاط مناظر قريبة واضحة تسجل التفاصيل، وتمكن من الفهم، فهم الشكل أو العمل.

ولا ننسى أن نشير إلى بعض الصعوبات التقنية التي عانى منها كينتنير في تصوير أشرطته منها، اعتماده على تقنية الكاميرا المحمولة مما جعل الصورة غير ثابتة، وغلبة العتمة على اللقطات المصورة في الأماكن القليلة الإضاءة مثل البناءات الأثرية أو الأسواق المغطات، فتصبح الصورة عبارة عن ظلمة طاغية تظهر منها بصعوبة شخوص الناس من المارة المتسوقين والتجار وأشكال الأشياء الموجودة في البيئة التي تحرك فيها كينتنير .

5 - المغرب في أعمال واتسون كينتنير:

يرى أحد المهتمين أن قيمة أعمال كينتنير تتمثل في قيامه في مرحلة مبكرة بالتجول في مناطق بعيدة عن اهتمام الإثنوغرافيين والأنتربولوجيين

الأمريكيين واكتشافه العالم البعيد عن الولايات المتحدة الأمريكية وتوثيقه قبل انتشار وسائل الإعلام ومتابعتها الكثيفة لكل ما يجري في العالم وفي البلاد الأخرى وكشفها عن غرائب القارات وعجائبها، لقد اكتشف كينتنير بواسطة أشرطته تلك البقاع وسجل مجريات حياة سكانها المحليين قبل أن يستطيع الناس مشاهدتها على الأشرطة الوثائقية التي سجلها باحثون وعلماء ، ويكفي أن نقدم نموذج تيموتي إيش Timothy Asch خريج المعاهد العليا للأنثروبولوجيا[21] وهو صاحب الفضل في نشر ثقافة السينما الإثنوغرافية في أمريكا باعتبارها أساس الدراسات الأنثربولوجية الجامعية، كما استطاع أن يجعل من هذا الشكل السينمائي نوعا خاصا متميزا.

بدأ إيش التصوير سنة 1963 في الوقت الذي كان فيه كينتنير ؟ المهندس الكيميائي - على وشك الانتهاء من إنجاز مجموعته، كما أن إيش أنجز 32 شريطا بدء من سنة 1963 وحتى سنة 1992 أي 29 سنة بينما استغرق كينتنير 36 سنة وشملت أعماله مجالا أوسع وأكثر اختلافا وتنوعا .

وإذا تتبعنا هذه الأشرطة سنجد أن كينتنير ركز على مجموعة من الموضوعات، تمثل مشاهداته خلال تجواله في المدن المغربية التي زارها، أو على الأقل المناظر التي ارتضى تصويرها، لأنها في نظره ذات أهمية أو ميزة تستحق التسجيل.

ومن الموضوعات التي ركز عليها، نذكر:

- المعمار :خص كينتنير في أشرطته المغربية العمارة باهتمامه، فصور المنازل والدور والقصور والأسواق والدكاكين ومحلات العمل الحرفي، كما

اهتم بالمآثر والقصور والمساجد وصوامعها، والأزقة والقناطر والأسوار وأبوابها، وكان خلال تصويره يتأمل أساليب البناء وطرق الزخرفة والتنميق في الجدران والزليج والزجاج، وأساليب النقش على الخشب أو الجبص، وكان يهتم بتسجيل لقطات مقربة لهذه الأشكال المعمارية لما تمثله في نظره من فرادة وتميز، فقد كان يتأمل بالكاميرا الزخارف والنقوش وأشكال البناء مبرزا ما فيها من جمالية وتناسق ..مما يدل على إنبهاره بها وإعجابه بتشكيلاتها اللونية والشكلية .ولا يغفل كينتنير كذلك عن تمثيل المعمار للثقافة والمستوى المادي والتفاوت الاجتماعي بين الميسورين والمحرومين، فقد صور القصور والدور الفخمة في المدن الكبيرة كما صور المنازل الطينية والأكواخ بل وحتى الكهوف في المناطق الجبلية النائية، واعتنى أيضا بإبراز التنوع المعماري خاصة بظهور أشكال العمارة الغربية بالمدن الكبرى.

- الحرف والصنائع :رحل كينتنير لزيارة المغرب في وقت كان فيه الولايات المتحدة الأمريكية قد قطعت شوطا عظيما في مجال التصنيع والمكننة وانتشار الآلات المتطورة في شتى مجالات الحياة، وعندما حل بالمغرب وجده بلدا معتمدا في تدبير أمور الحياة على الوسائل التقليدية الممثلة في الحرف والصناعات التقليدية المستندة إلى العمل اليدوي، وقد لفتت هذه الصناعات نظر كينتنير، فتتبعها في أشرطته فسجل ما يتعلق بكثير من الحرف المنتشرة بالمغرب آنذاك كالنسيج والخرازة وصناعة القصب والخياطة والحلاقة وصناعة الآنية الفخارية والمعدنية..وغيرها من الحرف الكثيرة، وقد اهتم بطرق اشتغال الحرفيين وتعاملهم مع المواد الأولية لتشكيلها لتصبح سلعة جاهزة للاستعمال، كما لفت انتباهه طرق استعمال

بعض الوسائل التقنية البسيطة الموجودة بالمغرب مثل نواعير المياه التي تدار بالبهائم كالبغال والجمال، وتدل طريقة تصويره أنه كان يسعى لفهم كيفية اشتغال الناعورة، فقام بتصويرها من عدة زوايا مركزا مثلا على محورها ودورانه لينقل المياه من النهر إلى مستوى أعلى أو من البئر إلى جداول السقي.

– الملابس :تعد أشكال اللباس من الأمور التي اهتم بها كينتنير في أشرطته التوثيقية المتعلقة بالمغرب، فقد أغرم بتتبع أنواع اللباس الموجودة بمختلف المدن التي زارها، فكان يتجول في الشوراع ليسجل هذا التنوع سواء كان الأمر يتعلق بألبسة النساء أو الرجال، فقد صور مشاهد كثيرة لنساء منقبات مشتملات بألبستهن الأصيلة من الحايك أو الجلباب ولفتيات صغيرات يرفلن في أكسية منوعة الأشكال والألوان، ولا ننسى أن كينتنير سجل دخول اللباس الأوربي النسوي إلى المغرب حيث كانت ترتديه نساء المعمرين الفرنسيين خاصة بالدار البيضاء والرباط .كما سجل تنوع لباس الرجال بين الجلابيب والسلاهيم والسراويل البلدية والأقمصة من ناحية والسراويل والبدلات الأوربية التي بدأت تنتشر بالمغرب في تلك المرحلة .واهتم كذلك بألبسة اليهود رجالا ونساء، سواء كانوا مارة في الشوارع والأزقة أو حرفيين مشتغلين في المحلات والأسواق[22].

– العادات والتقاليد :لم يتسن لكينتنير ؟ حسبما يبدو من أشرطته ؟ أن يخالط المغاربة في حياتهم الاجتماعية ويداخلهم ليوثق عاداتهم وتقاليدهم، فكان سائحا أجنبيا ينظر إلى المجتمع من الخارج دون أن يستطيع النفاد إلى دواخله الرمزية، فلم يوثق من الممارسات الاجتماعية سوى مظاهر قليلة، لأن

الفرصة لم تسنح له للاتصال بالناس ومخالطتهم، وهكذا نلاحظ أنه لم يسجل مظاهر اجتماعية كثيرة تمثل العادات وإنما اقتصر منها على ما صادفه مثل بعض الحفلات الاجتماعية التي يستعصي تحديد طبيعتها، ما خلا الاحتفال بعيد الفطر والذي شاهد كينتنير بعض مظاهره عند زيارته لمدينة إفران والمتمثلة في خروج النائب السلطاني برفقة حاشيته في موكب حافل لصلاة العيد وما رافق ذلك من مظاهر مخزنية، وقد استغل كينتنير فرصة انصراف المصلين لصلاتهم ليتجول بين الخيول ويوثق مظاهر عناية المغاربة بفن الفروسية من خلال عنايتهم بالسرج الأنيقة المنوعة الألوان والأشكال والتي يتم تجهيز الخيول بها في امثال هذه المناسبات الخاصة[23].

- وسائل النقل :من الوسائل التي استرعت انتباه كينتنير، وخصها بنصيب وافر من عنايته، التنوع في وسائل التنقل البشري او نقل السلع والبضائع وسائر الممتلكات، وكان أحيانا يقف على جوانب الطرقات أو في المحطات والشوارع ليشاهد وسائل النقل الموجودة بالمغرب سواء التقليدية من بهائم كالحمر والبغال والخيل والجمال، أوعربات مجرورة أو الدراجات الهوائية والنارية أو السيارات والحافلات، وكان يتأمل وسائل النقل والمواد المنقولة، ومن المناظر التي تجسد فضوله تصويره مشاهد لنقل أكياس على سطح حافلة نقل بمدينة الدار البيضاء، وتتبعه النسوة اللائي يحملن أطفالهن على ظهورهن أو أمتعتهن وأغراضهن على رؤوسهن.

ولاشك أن أشرطة كينتنير تستدعي وقفة أكثر طولا ودقة وعمقا، لما تمثله من تخليد كثير من مظاهر حياة مغرب ما قبل الاستقلال، وهي مظاهر

لم يهتم بها الاعلام الدعائي الاستعماري بل سعى لستر كثير منها لما تمثله من كشف للواقع الاجتماعي المغرب آنذاك، بما فيه من مظاهر التخلف والبؤس .كما تظهر قيمتها الفعلية في الدراسات التاريخية والإثنوغرافية والأنثربولوجية، حين تمكن من تجسيد ماض قريب إلا أنه مجهول، فهذه الأشرطة تمكننا من الوقوف على مقدار التحول الاجتماعي والمادي الذي لحق المغرب خلال سنوات الاستقلال، كما تبرز التأثر الشديد بالنمط الأوربي في الحياة والعادات والتقاليد، و تبرز اختفاء كثير من الممارسات والحرف والصنائع والعادات والتقاليد العتيقة.

6 ـ قيمة أعمال كينتنير:

لا نعرف نية كينتنير ولا قصده من تسجيل هذه الأشرطة، غبر أننا نظن أنه وثقها لتكون سجلا لذكرياته وليعيد مشاهدتها ويعرضها على أصدقائه المقربين، فهي لذلك تدخل في نطاق أشرطة الهواة الخاصة التي ترمي إلى حفظ الذكريات واستعراضها في مرحلة لاحقة والاستمتاع باسترجاعها، ولعل هدف كينتنير ـ الذي كان من المصورين الهواة الأوائل بأمريكا ـ كان الحفاظ على ذكرياته في البلاد التي زارها في سياحاته الطويلة والمتعددة، وممارسة هوايته في التصوير والاستمتاع بإنجاز أشرطة تسجيلية للبلاد الغريبة التي رحل إليها، وربما غلب جانب الشغف بالتصوير على مسألة الذكريات فنحن لا نجد لقطة واحدة لكينتنير في الـ 400 بكرة التي احتفظ بها، فلم يكن إذن قصده توثيق وجوده هو في تلك البلاد بقدر ما كان تسجيل مشاهداته فيها[24].

هكذا تصنف أعمال كينتنير ضمن السينما الهاوية التي تتأسس على محبة التصوير والاستمتاع باستعمال الكاميرا، في وقت كان امتلاك آلة تصوير شخصية – في ذلك العهد المبكر -أمرا نادرا جدا، إذ في الوقت الذي كانت حيازة آلة تصوير عادية ميزة وترفا، كان كنتنير يملك كاميرا كوداك احترافية ضمن العشرة الأوائل في الولايات المتحدة الأمريكية كلها، مما جعله يدخل مجالا جديدا هو مجال التصوير بما يستلزم من دربة ومران على استعمال تقنيات التصوير، وطرق تحريك الكاميرا واستعمالها، واختيار الأشرطة الخام وكيفية تحميضها للحصول على نتيجة أفضل والبحث عن المختبرات الأفضل للقيام بكل ذلك؟

كل هذه الخطوات فرضت على كينتنير اكتساب مهارات جديدة، هي تقنيات الصورة والسينما التي تحدد التسجيلات السليمة ـ بناء على أسس سينما الهواة ـ بأنها تصور على مهل دون اهتزاز وتعد التسجيلات السيئة تلك المتسمة بالاضطراب وغلبة الصورة البانورامية السريعة[25].

أما من ناحية المضامين فإن كينتنير سار على نهج المصورين الهواة في التركيز - غالبا - على موضوعات ترتبط بالنموذج المثالي، مثل الطبيعة البكر والمناظر الخلابة، بهدف إعادة تشكيل الفضاء في صورته الأولية، ليقترب في جماليته من البطاقة البريدية، والاهتمام في الأسفار بتصوير الغريب والبدائي والمثير في المناطق والبلدان المزورة[26].

غير أن قيمة أشرطة كينتنير تكمن في ما تحمله من مضامين وتوثيقها مظاهر الحياة اليومية في المغرب قبل أزيد من 50 سنة، مما يفسح المجال لتحليل ماضينا الثقافي والاجتماعي وقياس مدى التحول في المظاهر المادية وما تدل عليه من قيم فكرية ومعرفية.

خاتمــــة :

بقي أخيرا أن نتساءل : لماذا أبقى كينتنير أشرطته محفوظة لديه ولم يعمل على توضيبها وإعدادها لتكون أشريطة وثائقية للعرض العام؟ لا نعرف الجواب بالطبع، ويبدو أنه كان يقوم بتصوير هذه الأشرطة لمتعته الخاصة، ولمتعة أصدقائه الذين عرضت عليه في بيته، لقد كان كينتنير مصورا جعل من التصوير هوايته الثانية بعد السياحة، فكانت أشرطته قيد حياته معدة لتروج في دائرة مغلقة، مثل جميع أفلام الهواة، بل إن كينتنير ضيق تلك الدائرة كثيرا، فأفلام الهواة تنتج لتروج في محيط الهواة أنفسهم في انديتهم وجمعياتهم ولتقدم في مهرجانات لتشاهدها لجان التحكيم[27]، بينما اقتصر كينتنير في عرض أفلامه على محيطه القريب، فكان يشاهدها هو نفسه ويدعو أصدقاءه لمشاهدتها، ولم تخرج إلى العلن إلا بعد وفاته لتتم مشاهدتها على نطاق عالمي واسع، ويهتم بها الفضوليون والمتخصصون كل بأشرطة بلده.

ومن ناحية اخرى تمثل أشرطة كينتنير نموذجا جديدا لمادة اثنوغرافية وأنثربولوجية قام سياح غربيون بتسجيلها لأغراض توثيقية شخصية، غير أنها سرعان ما أصبحت ذات قيمة علمية نفيسة تفسح المجال أمام المثقفين والمهتمين في بلاد العالم الثالث ـ على وجه الخصوص ـ لدراسة مجتماعاتهم من خلالها، مما يعني استرداد أجزاء مهمة من تراثهم الفكري وذاكرتهم الثقافية، خاصة في المجال السينمائي الاثنوغرافي.

وهذا الاسترداد يتجاوز العوائق المادية والبشرية والسياسة التي كانت تحول دون الاستفادة من تلكم المواد الاثنوغرافية في مواطنها الأصلية،

بفضل انتشار الشبكة العالمية للمعلومات ويسر التواصل والاتصال بواسطتها وسهولة تبادل الملفات وإتاحة المحتويات عن طريقها باعتماد نظام المصادر المفتوحة في مراكز التوثيق وفي الجامعات والمتاحف الغربية على الخصوص، فصارت العوائق تضمحل لنتمكن من الوقوف على كنوز ثمينة من النصوص والصور والتسجيلات الصوتية والسينمائية والتلفزيونية لتاريخ مجتمعاتنا وبلداننا، مما يفتح آفاق جديدة للبحث التاريخي والاجتماعي، ويبدو أن هذه الثورة التقنية والثقافية العلمية التي ما زالت في بداياتها ستحمل كثيرا من المفاجآت وعددا هائلا من المكتشفات الجديدة ستساعد الشعوب على إعادة اكتشاف هويتها بالنظر إلى ماضيها القريب نظرة جديدة وتحليله وفهمه والاستفادة منه[28].

* * *

هوامش :

1- Le cinéma colonial : Histoire du cinéma au Maroc, Jaidi, Moulay Driss, Rabat ; ed Almajal 2001.

2 - عاش واتسون وحيدا ولم يخلف ورثة من صلبه يهتمون بتراثه من بعده، فهلته عائلته الكبرى كما خفي خبره عن كثير من المتخصصين من أبناء بلده، ومن أمثلة هل الأمركيين المعنيين به رسالة إلكترونية بعث بها إلي ألكسندر ماغون (Alexander B. Magoun Ph.D) المشرف على موقع ومكتبة دافيد سارنوف مدير شركة الإذاعة الأمركية سابقا، يبيب فيها عن طلبي بعض المعلومات عن كينتنير بتاريخ 28 ماي 2009 بقوله أنه لا يعرف أي صلة له بتلك الشركة؟؟

3 - أنظر مدونة الباحث الأمريكي كولين هيلب :

http ://colinhelb.com/projects/of-dust-and-vinegar-watson-kintners-travelogue-films

4 - التقرير السنوي لمتحف الجامعة بنسلفانيا، على الوصلة التالية:

http ://209.85.129.132/custo?q =cache :xOJKS6FyIEYJ ;www.
museum.upenn.edu/new/about/annual-report07.pdf+kintner&ed=1&hl=ar&et=clnk

5- http//oebb.museum/documents/publications/expedition/PDFs/18-2/Staff.pdf

6- ورد في دفتر ملاحظات كنتنير اسم المغرب الفرنسي Moroccan French

7 . باحث أمريكي من معهد إليزابيت تاون متخصص في النقد السينمائي ودراسات التواصل ووسائل الإعلام، تراع سيرته العلمية في مدونته على الوصلة التالية :
http ://colinhelb?com/cv

8- Of Dust and Vinegar : Waston Kintner's travelogue films, collin hilb in :
http// colinhelb.com/projects/of-dust-and-vinegar-wastson-kintners-travelogue-films

9- موقع أرشيف : مال ماني غير ربحي افتتح سنة 1996، ومقره بمدينة سان فرانسيسكو، وهدفه بناء مكتبة شبكية بالتعاون مع المنظمات والممعيات والمؤسسات والشركات المهتمة. تتيح للباحثين والجامعيين والمؤرخين الوصول إلى المجموعات الوثائقية التاريخية المحفوظة رقميا، ويضم الموقع معطيات نصية وصوتية وصورا متحركة وبرمجيات حاسوبية بلغ حجمها الآن أزيد من 100 تيرا بايت (100000 جيغا بايت) من المعطيات المنوعة، ضمنها أزيد من 600 مادة حول المغرب، انظر الصفحة التالية : www. archive.org/about/about.php
htt//

10. توجد جميع تسجيلات كينتنير على صفحة متحف جامعة بنسلفانيا بموقع أرشيف على العنوان التالي : http//www.archive.org/details/UPMAA

11 . تكفي الإشارة لبيان الاهتمام الشديد لهذه الأشرطة أن البحث عن اسم واتسون كينينتر. الذي كان قبل فبراير الماضي (تاريخ نشر الأشرطة) نكرة. في محرك البحث گوگل مثلا يعطي 18500 نتيجة مقترحة، (تاريخ البحث : 31 ماي 2009، وتم البحث بخيار التحديد، أي البحث عن الإسم واللقب معا واستثناء جميع من يحملون لقب كينينتر).

12 . بدأت تسجيلات كينينتر تظهر في مواقع ومدونات كثيرة انظر مثلا مدونة الآثار القرطاجنية على الوصلة التالية : http//www.carthaginois;com/taxonomy/term/13

كما نشير إلى أن الباحث الأمريكي كولين هيلب من معهد إلزابيت تاون يعمل على إعداد شريط وثائقي عن كينينتر وأعماله السينمائية حسبما أخبرني في رسالة إلكترونية بتاريخ 30 ماي 2009.

13 . توجد كل هذه التسجيلات جاهزا للتنزيل أو للعرض المباشر على موقع أرشيف، على الوصلة التالية : http//www.archive.org، ويمكن الوصول إلى جميع الأشرطة بالبحث في الموقع باستعمال كلمتي «franch morocoo».

14 .http://www.archive;org/tathreads/post-view.php?id=169684

15-Manière et matière du cinéma antrhopologique, Jean-paul collyen, cahier d'étude Africaines, 177-1990, p. 101.

16-La méthode comparative dans les sciences de l'homme, Guy Jucquois-p ; 45 Peeters Publishers, 1989.

17- Manière et matière du cinéma antrhopologique, Jean-paul collyen, cahier d'étude Africaines, 177-1990, p. 101.

18. أورد الأستاذ محمد المنوني طائفة من هذه المؤلفات في كتابه المصادر العربية لتاريخ المغرب.

19. التصوير بالمغرب الإسلامي في القديم، دعوة الحق، ع , 2-1 يناير 1971، ص 83

20 - وردت هذه اللقطات في الشريطين الأول والثاني، وهناك لقطات مماثلة في كل الأشرطة.
21 - أنظر حوله :

Timothy Asch and Ethnographic. Film, E; Douglas Lewis, Routledge, Kentucky 2004

22 - كما في الشريط الأول الذي تضمن مناظر لبعض اليهود المارين في أحد الشوارع ولآخرين خرازين في أحد الأسواق.
23 - الشريط الثامن المتضمن زيارة مدينتي إفران وأزرو.

24- la question de l'amateur dans trois espaces de réalisation et de diffusion, Roger Odin Communications, Année 1999, Volume 68, Numéro 68, p; 61.

25- ibid.

26- ibid, p. 62-63

27- ibid, 67.

28- qui suis-je? Les films des ethnologues au service des populations étudiées, Rosa Rut Thorisdottir, in : http // www. comite-film-ethno, net/pdf/ constructions identitaires/rosa-rut-thorisdottir.pdf.

* * *

تاريخ المجال ومجال التاريخ

قراءة في كتاب "بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار" لعبد الأحد السبتي

محمد حبيدة*

يندرج كتاب المؤرخ المغربي عبد الأحد السبتي، الذي هو في الأصل أطروحة دكتوراه الدولة نوقشت عام 2005 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط[1]، ضمن مشروع فكري ممتد على مدى أكثر من عقدين من الزمن. ويسعى هذا المشروع إلى البحث في تاريخ المغرب وتجديد فهمه بالاستناد إلى ثلاثة أمور رئيسية :

أولا، متابعة الإنتاج الإسطوغرافي المعاصر في الجامعات المغربية متابعة كمية وتحليلية في نفس الآن[2]، والإنتاج الإسطوغرافي التقليدي، الذي اشتغل عليه منذ بداية الثمانينيات من القرن الماضي في دراسة حول الأدبيات الجينيالوجية[3].

ثانيا، الاشتغال حول مدة زمنية طويلة، تمتد من الحقبة المسماة بالعصر الوسيط، إلى الزمن الراهن، مرورا بمرحلة ما قبل الاستعمار ومرحلة الحماية.

ثالثا، تتبع نتائج أبحاث العلوم الاجتماعية، وبالأخص الأنثروبولوجيا، وأيضا تتبع إبداعات الفاعلين في ميادين معرفية أخرى، وبالخصوص في ميدان الأدب.

* أستاذ باحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

ويلاحظ المتتبع لأعمال عبد الأحد السبتي، وهي كثيرة، أن همَّه المعرفي الرئيسي هو تفكيك الكتابة التاريخية المغربية وكشف مواطن الانحباس فيها، وإخراجها من الأنفاق الإسطوغرافية، نفق تقديس النصوص أو المقاربة الأرشيفية الصرفة، نفق الرد على الكتابات الاستعمارية، نفق الاقتصار على الأبحاث المرتبطة بالشهادات الجامعية.

وإذا سلطنا الضوء على هذه الإسطوغرافية، منذ أواسط السبعينيات من القرن الماضي على الأقل، نجدها تتوزع في اتجاهات كثيرة، ثلاثة منها تبقى محددة بصورة أساسية، وهي أولاً، التحقيق الذي التهم حصة كبيرة من أعمال الباحثين، سواء في إطار تحضير شهادات عليا، أو في إطار اهتمام خاص، إذ عادة ما كان الباحثون المبتدئون يدشنون مسارهم كمؤرخين بالاشتغال حول المخطوط. وثانيا، التاريخ العلائقي الذي شكل موضوع دراسة بالنسبة للكثير من الباحثين المغاربة منذ نهاية الثمانينيات، إذ ظهرت سلسلة من الأبحاث حول العلاقات بين المغرب من جهة، وأمم أخرى، غربية مثل فرنسا وبريطانيا والبرتغال، أو إسلامية مثل تركيا العثمانية. وثالثا، التاريخ المونوغرافي الذي حظي باهتمام واسع من طرف شريحة عريضة من الدارسين.

ولعل إدراك ما ابتكره عبد الأحد السبتي من أفكار ورؤية منهجية في كتابه هذا يقتضي منا تحليل تلك الأنفاق المذكورة المرتبطة في مجملها بالبحث المونوغرافي. فمنذ أواسط السبعينيات، كانت الأبحاث المونوغرافية قد انطلقت مع الجيل الثاني من المؤرخين المغاربة، بفضل دراستين رئيسيتين هما "إينولتان" لأحمد التوفيق (1976، و"تافيلالت

"للعربي مزين (1977)، اللتان أظهرتا قدرة كبيرة على تناول تاريخ المغرب وتفسيره انطلاقا من الملاحظة المجهرية، أي الانطلاق من إشكالية الإقليم لتحليل البنيات الاجتماعية والاقتصادية للمغرب قبل التدخل الاستعماري. وقد تأتى هذا الأمر باستعمال مكثف للأرشيف، واقتحام موضوعات جديدة، كانت فيما قبل حكرا على الجغرافيين والأنثربولوجيين وعلماء الاجتماع. ويتعلق الأمر بالمشاهد الزراعية والمزارعين والتقنيات والمحاصيل والتجمعات السكنية وأنماط السكن والتركيبات الاجتماعية وأشكال ممارسة السلطة والعلاقات مع الحكم المركزي، وغيرها من الموضوعات المرتبطة بالبنية الاجتماعية والاقتصادية، وأخيرا محاورة العلوم الاجتماعية، كما يظهر مع أحمد التوفيق الذي دخل في نقاش مع الباحثين الذين اهتموا ببنية المجتمع أمثال روبير مونتانيي وجاك بيرك وإرنست كَيلنر وغيرهم.

والجميع يعلم، في الوسط الجامعي المغربي، كيف وجه هذان الباحثان شبيبة المؤرخين نحو العمل المونوغرافي، فتعددت الدراسات حول القبائل والواحات والمدن والزوايا وموضوعات أخرى ذات سمة اجتماعية أو اقتصادية. لكن إذا كان جل الباحثين قد عالجوا موضوعاتهم بصرامة أرشيفية فائقة سيرا على هدى الأبحاث الأولى لدرجة أن أبحاثا كثيرة خصصت ملحقات لنصوص طويلة أحيانا، فإن النقاش حول القبيلة وتركيبتها وعلاقتها بالمخزن، ظل وفيا للنزعة الوطنية، وحبيسا لما تبوح به الوثائق، ولم تتجاوز الإطار الوصفي .وبصفة عامة، باستثناء بعض الدراسات، مثل تلك التي أنجزها عبد الرحمان المودن حول قبائل إيناون، حيث فتح حوارا مع نتائج العلوم الاجتماعية، على غرار أحمد التوفيق، واستثمر مفهوم المجال

لفهم بنية البوادي المغربية قبل الاستعمار، فإن معظم المونوغرافيات ظلت سجينة النصوص، وبسطت مقاربة التاريخ المونوغرافي، ولم تولد أفكارا تذكر.

وربما يعود هذا التقصير، كما يرى عبد الأحد السبتي، إلى "الإطار الإيديولوجي العام الذي تَحَكَّم في تناول القرن التاسع عشر"، من حيث "إعادة النظر في الصورة الموروثة عن الكتابة الاستعمارية" بالاستناد إلى كم هائل من الوثائق، المخزنية والأوربية، والانسياق في استعراض توتر العلاقة بين القبائل والمخزن مع "أجوبة جاهزة" تتمثل في "الدور الذي لعبه التدخل الأوربي في إضعاف الدولة وتفاقم تناقضاتها مع مختلف مكونات المجتمع". وبذلك يطرح هذا التناول "الجواب محل السؤال، ويتكلف بإعادة الاعتبار بدل التحليل، ويُحَمِّل التدخل الأوربي أكثر مما يتحمله لتفسير معضلات المغرب خلال القرن التاسع عشر" (ص21) وعليه، لم يرق أصحاب هذه المونوغرافيات إلى مقاربة تنظيرية، تركيبية، لا تنفصل فيها" إجرائية المصادر عن إجرائية الفرضيات والإشكاليات"[4].

نحو رؤية منهجية جديدة

يتموضع كتاب عبد الأحد السبتي في سياق تجاوز الإسطوغرافية الجامعية على النحو الذي تظهر به في الدراسات الأساسية من رسائل وأطروحات ذات البناء التقليدي، وإخراج البحث التاريخي من التناول المعطياتي، والتناول الأرشيفي، والتناول الوطني، وفتحه على التفسير، وذلك بالتنبه إلى قضية المجال كإشكالية رئيسية، واستثمار مفاهيم جغرافية وأنثروبولوجية لرصد بنيات المغرب قبل الاستعمار، أي تلك التي ورثها منذ

العصر الوسيط، على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وهذا التموضع يتخذ من التركيب إطارا للدراسة.

وفي واقع الأمر، إن عملية التركيب هذه هي التي مكنته من فتح أفق عريض من الوجهة المعرفية، وجعلت الكتاب، برأيي، يحتل مكانة أساسية، ليس فقط في حقل التاريخ، وإنما أيضا في حقول معرفية أخرى، وفي طليعتها الأنثروبولوجيا والجغرافيا .وفي هذا السياق نستحضر ما قاله المؤرخ الفرنسي مارك بلوك (Mare Bloch) عندما تحدث عن التركيب التاريخي، كونه يسدي خدمات أهم من الكثير من المونوغرافيات[5]، وأيضا كونه يمنح للتاريخ مكانة بارزة بين العلوم الاجتماعية. فإذا كانت المونوغرافيات تمنح إمكانية فهم القضايا المحلية، ومن ثم الأخذ بالأدوات الضرورية لفهم القضايا ذات البعد المجالي الأكثر سعة، فإن المنحى التركيبي يبقى ذا فائدة معرفية كبيرة لأنه يوسع منظار المؤرخ، ويحفزه على مراجعة المسلمات وصياغة الفرضيات وتغيير مسارات الفهم والتأويل، ومن ثم توجيه الدراسات.

ولعل التمفصل الرئيسي لهذا التركيب يتجلى في معالجة إشكالية التاريخ الاجتماعي للمغرب عبر موضوع تنجذب حوله قضايا كبرى، وتظهر فيه التقاطعات الاجتماعية والسياسية والثقافية. لقد ركز عبد الأحد السبتي على ظاهرة اجتماعية، هي "الزطاطة"، لكتابة تاريخ اجتماعي تنعكس فيه التمفصلات المهيكلة للبناء الاجتماعي: المعرفة والسلطة، والمادي والرمزي، والمركز والهامش، وحدد، في المنطلق، دلالاتها التاريخية والاجتماعية. فالزطاطة تعني في الأصل، إلى حدود التدخل الاستعماري في المغرب "ما يؤديه المسافر لمن يخفره ويحميه في الطرق غير الآمنة التي

يرتادها اللصوص والقطاع"، لكنها دلالة متغيرة في الزمن .فهي مؤسسة اجتماعية وسياسية ذات أساس تاريخي، وذات امتداد اجتماعي أيضا، من حيث الدلالة الاستعارية .فبعد الاستقلال، وبفضل "عملية استعارية تنتمي إلى معجم الرشوة" نجت الكلمة من الضياع، ودخلت في نسق معجمي يحيل إلى ممارسات يومية، إدارية - مخزنية بالدرجة الأولى، إلى ظاهرة اجتماعية، إلى سلوك ثقافي، أو يحيل إلى استعمال عامِّي يستند إلى" الخبرة العَمَلية، والقدرة على إيجاد المخرج المناسب في الظروف الصعبة"، وهذه الدلالات العامية قد نلتقي بها أحيانا حتى في الخطاب الصحفي والسياسي.

ومن خلال مفهوم "الظاهرة الاجتماعية الكلية"، الذي صاغه عالم الاجتماع الفرنسي مارسيل موس (Marcel Mauss) ، والقائمة على أساس تناسبٍ ثلاثي الأبعاد، سوسيولوجي تزامني، وتاريخي تعاقبي، وفيزيو-سيكولوجي، تناول عبد الأحد السبتي قضية الزطاطة هذه التي تعبئ في آن واحد كامل المجتمع ومؤسساته". فهي تكشف أساليب مختلف أنواع المؤسسات الدينية والقانونية والأخلاقية، وهي في آن واحد مؤسسات سياسية وعائلية. هذا إلى جانب المؤسسات الاقتصادية التي تفترض أشكالا خاصة من الإنتاج والاستهلاك، والظواهر الجمالية التي تنتجها هذه الوقائع والظواهر المورفولوجية التي تعبر عنها هذه المؤسسات"(ص237).

إن ما يترقبه قارئ التاريخ من المؤرخ، سواء كان هذا القارئ محترفا أو مستنيرا، هو تفكيك الماضي وإشراكه في فهم هذا الماضي عبر موضوعات تتقاطع فيها القضايا والأسئلة، وتتعدد فيها مستويات قراءة النصوص وتأويلها. وتشكل هذه الرؤية المنهجية محطة مركزية في الكتاب.

وتظهر مسألة تقاطع القضايا والمستويات والأسئلة في كتاب عبد الأحد السبتي من خلال التركيز على السياقات السياسية والاقتصادية والثقافية، وتوظيف أجناس مصدرية متعدد، رحلية، وإخبارية، ومناقبية، وفقهية. وتعدد السياق هذا هو الذي أخصب موضوع الزطاطة ومَوضَعَه في ملتقى متعدد المسالك، إذ تفرعت منه المظاهر والحالات والأسئلة، وجعلت عملية التحليل تنتقل من تصنيف النصوص إلى تصنيف القضايا التاريخية والاجتماعية والثقافية، ومن تِبيان شبكة المسالك والطرق إلى استجلاء لغة تمثل التراب، ومن الكشف عن سياق الأحداث والوقائع إلى إثارة إمكانيات المقارنة والتنظير.

ومن القضايا الأساسية التي خضعت للمراجعة في سياق التقاطع المذكور، نذكر على سبيل المثال ثنائية "بلاد المخزن" و"بلاد السيبة" التي تظهر في كتب الرحلة الاستكشافية التي جمعت بين الوصف الجغرافي والثقافة الإثنوغرافية، خاصة كتاب شارل دو فوكو المؤَلَّف في نهاية القرن التاسع عشر. فعندما يتناول عبد الأحد السبتي قضية الانتقال من المجال إلى التراب التي تعبر عنها أشكال تأمين الطرق، فإنه يكتشف "قدرا كبيرا من المرونة، وتمفصلا معقدا بين التدبير المحلي والتدبير المخزني"، وهي أمور لا يمكن فهمها إلا بالتنبه للتشكيلات المجالية التي تحيل إلى" خصوصية مفهوم التراب في النسق المغربي التقليدي"، وهي محطات المسالك الطرقية، وثنائية المجال (الغرب/الحوز)، وظاهرة الأطراف والتخوم، ومسألة الطرف القريب من المركز.

مجال للتاريخ :تاريخ المجال

فتح عبد الأحد السبتي، من خلال ظاهرة الزطاطة، مسلكا للبحث في تاريخ المجال. وفي واقع الأمر، انتقل بنا الباحث، عبر فصول الكتاب، ونصوصه، من تاريخ المجال إلى مجال التاريخ، ومن مجال التاريخ إلى تاريخ المجال. وبتعبير آخر، إذا كان صاحب الكتاب قد اتخذ من أمن الطرق قضية أساسية لتناول تاريخ المجال، تاريخ التراب الجغرافي بالمغرب في بعده الاقتصادي والاجتماعي والثقافي قبل دخول البنيات الاستعمارية الحديثة، فإنه جعل، من أمن الطرق، على نحو جدلي بيِّن، موضوعا خصبا للتاريخ، ونافذة واسعة لفهم هذا التاريخ.

ولا يفوتنا، ونحن نتحدث عن إشكالية الكتاب هذه، أن نشير إلى فكرة صاحب "مجلة التركيب التاريخي"، هنري بير (Henri Berr) وهو يقدم كتاب مؤسس الحوليات، المؤرخ لوسيان فيفر" (Lucien Febvre) الأرض والتطور البشري، مقدمة جغرافية للتاريخ "الصادر لأول مرة عام 1922، عندما قال أن موضوعا معقدا من هذا الطراز، يبحث في تاريخ المجال، يستلزم من الباحث أن" يكون جغرافيا مؤرخا، أو بالأحرى مؤرخا جغرافيا، بل وحتى عالم اجتماع، لأنه من دون شك، عندما يجعل المؤرخ من حقله المعرفي تصورا عريضا وعميقا، عندما يسعى إلى الجمع بين خيوط الفعل البشري، الخارجية والداخلية، مع الحفاظ على خصوصية دراسته، فإنه يرغب في توسيع عملية الفهم للوصول إلى فعالية كاملة. وتناول مثل هذا، على ندرته، من شأنه أن يجعل من العلاقات بين الإنسان والمجال إشكالية هامة جدا"[6].

إن المجال مفهوم جغرافي بالدرجة الأولى. لكن العلوم الاجتماعية والسياسية تناولته تناولا أساسيا لفهم بنيات المجتمع وأطره الثقافية والقانونية. وفي حقل التاريخ يظهر المجال كعنصر مُحَدِّد في عملية بناء الدولة من حيث التشكل الترابي وتغير عناصر هذا التشكل عبر الزمن. وتبقى قضية المسالك ومحاور مرور البشر، من تجار وحجاج وجند، ومشاكل حركة المرور هذه، من أهم العناصر المساهمة في بناء المجال، ومن ثم في بناء شكل السلطة. فالطرق كما يقول لوسيان فيفر" تُنشأ الدول أو تحافظ عليها"[7]. كما يمنح التاريخ، في مستواه التدويني، أفقا آخر لإدراك المجال من خلال مفهوم الهوية وارتباطاتها بالتكييفات السياسية والثقافية على النحو الذي تظهره الأدبيات الإسطوغرافية.

وبناءً على هذه الأفكار، يبرز المجال المغربي في علاقته بالفعل البشري، اجتماعيا وسياسيا وثقافيا، في المظاهر الآتية :

- وجود علاقة وطيدة بين نشأة الدولة المركزية من جهة، ومراقبة شبكات المسالك، من جهة ثانية، وهي علاقة تماثل بين طرق التجار وطرق الجند. ويتضح هذا الأمر منذ العصر الوسيط، وبالذات منذ الدولة المرابطية التي اتبعت في حركتها المحور التجاري المعروف ب "طريق اللمتوني" المنطلِق من الجنوب، مرورا بالدول التي تعاقبت على حكم المغرب فيما بعد، والتي تمحورت شبكات مسالكها في فاس التي التقت فيها الطرق الآتية من تلمسان وسجلماسة ومراكش، وفي مراكش التي التقت فيها الطرق الآتية من فاس وسجلماسة ورباط الفتح، وانتهاءً بالقرن التاسع عشر الذي استمر فيه موقع فاس ومراكش كقطبين رئيسيين، لكن مع "تغييرات واضحة في تفاصيل الشبكة الطرقية"، منها تزايد أهمية المسالك المحاذية للساحل الأطلسي.

-وجود تحولات مجالية، رصدها عبد الأحد السبتي في الزمن، مركزا على المرحلة المرينية ودورها في التشكل الترابي للمغرب، وذلك بإبراز مجموعة من العناصر التاريخية :الدينية (هوية دينية مختلفة عن إيديولوجية الخلافة المشرقية)، والسياسية (تكون كيان سياسي قريب من نموذج الدولة المركزية، بالعلاقة مع الانشطار الثلاثي للمغرب الكبير)، والإسطوغرافية (إعادة تركيب الماضي بالاستناد إلى اللحظة الإدريسية كمرحلة تأسيس للدولة المغربية).

-وجود ثنائية جغرافية ذات جذور تاريخية تعود إلى العصر الوسيط، وتتمثل في منطقة الغرب/الشمال، ومنطقة الحوز/الجنوب. الأولى تمتد من "أم الربيع إلى وجدة، مرورا بالسهول الأطلسية وسهل سايس، والثانية تمتد من "أم الربيع إلى أقصى سوس". وهذه الثنائية تبقى مُحَدِّدة على مستويات مختلفة، سياسية من حيث الصراع حول السلطة بين العصبيات أو بين الأمراء، وثقافية من حيث طقوس زيارة تهنئة السلطان التي كان يقوم بها العمال في المناسبات الكبرى .كما تظهر هذه الثنائية المجالية من حيث الممارسة السياسية على مستوى التقاطب بين مدينتي فاس ومراكش، كرستها "مؤسسة الأمير- الخليفة " في القرن التاسع عشر، إذ جرت العادة بين السلطان والأمير إذا كان الأول بمراكش نهض الثاني لتحمل المسؤولية بمكناس وفاس والعكس.

-وجود مفارقة جغرافية تتمثل في"ظاهرة الطرف القريب من المركز، والبعيد مجاليا عن موقع الهامش". وهي ظاهرة تهم مجموعة من القبائل، كما تهم عواصم البلاد المتعددة، أي عواصم الغرب : فاس ومكناس والرباط، وعاصمة الحوز : مراكش. ويتعلق الأمر، مثلا، بقبيلة

غياثة القريبة من فاس، وقبيلة بني مطير القريبة من فاس ومكناس، وقبائل زمور وزعير والسهول القريبة من الرباط وسلا، وقبيلة الرحامنة القريبة من مراكش .

وتكمن أهمية الجهد المنهجي لعبد الأحد السبتي في تقديم شبكة من النصوص، الرحلية والإخبارية والمناقبية والفقهية، كحلقة أساسية في البحث، بحيث استأثرت بأربعة فصول من أصل خمسة. وتظهر هذه النصوص التي تتقاطع فيما بينها كـ "أصوات تنتمي إلى بيئات وسياقات معينة، وتحركها رهانات وقيم وتصورات"، أطرت المجتمع ووجهت سلوكياته وممارساته، كـ "وسائط تنقل إلينا أصداء الأحداث والأفعال". وقد عمل عبد السبتي، الذي سبق له أن تناول موضوعات أخرى، مثل المدينة، والشاي، من زاوية الكتابة عبر شبكة من النصوص، على إعادة استشكال هذه الأخيرة، من حيث الترتيب والقراءة والتأويل. وهذا الاختيار المنهجي، لا يخلو من تعقيد بالنسبة للقارئ بالقياس إلى تعدد النصوص واختلاف مرجعياتها وتنوع زمنياتها .لكن القارئ المتأني يستكشف أن ما يقترحه صاحب الكتاب هو" إعادة تركيب الصورة باعتبارها جزءاً من الواقعة الاجتماعية"، لأن" الصورة والمخْيال يساهمان في تشكيل الظاهرة الاجتماعية ."وهذا ما حاول تبيانه من خلال موضوع "فعالية" الرموز (ص312).

وما أثار انتباهنا في شبكة النصوص المقترحة هي حوليات الدول والسلاطين التي جاءت في الفصل الثاني من الكتاب تحت عنوان" النظام والاختلال ."ويغوص هذا الفصل في تاريخ الإسلام مستثمرا الخطاب المعياري المتمثل في الآداب السلطانية والسياسة الشرعية، وكيفية حضور مقولات هذا الخطاب في كتب الأخبار المغربية، ورصد التمفصلات القائمة

بين الخطاب المعياري ومجريات الواقع، من خلال التركيز على حقبتين رئيسيتين في تاريخ المغرب، هما الحقبة الموحدية-المرينية والحقبة العلوية، خاصة عهد السلطان إسماعيل، وفترة القلاقل التي تلته، اللتان تتيحان إمكانية استكشاف صورة مركبة تحيل على ثنائية النظام والاختلال. وفي عملية الاستكشاف هذه اختار عبد الأحد السبتي نصوصا تتصل بلحظات معينة، بملابسات معينة، بانتقالات معينة :الانتقال من الصورة إلى ما وراء الصورة، وتتبع زواياها، بتعبير السينمائيين، من لقطة إخبارية إلى أخرى، من الممارسات إلى الحالات، من الكلمات إلى الدلالات، خاصة بالنسبة لعهد إسماعيل، وما تكشف عنه من سياقات، حدثية ومجالية ووظيفية. وأيضا الانتقال من تاريخ الحدث السياسي إلى تاريخ المخيال السياسي، من حيث "تكييف" الإخباريين لأخبار الدولة ومرجعيتها، كما يظهر مثلا من خلال "روض القرطاس" بالنسبة للتاريخ الوسيط.

وبالإضافة إلى قضية النصوص وما تفرزه من إمكانيات هائلة من حيث الفهم والتأويل، انصب اهتمام عبد الأحد السبتي، انطلاقا من مقاربة استرجاعية، على نقطتين رئيسيتين هما مراجعة طروحات المونوغرافيات، ومراجعة التحقيب.

بخصوص النقطة الأولى، يتبين أن تسليط الأضواء بطريقة استرجاعية على ما قبل القرن التاسع عشر، بالوصول حتى إلى الحقبة الموحدية-المرينية، مرورا بالحقبة العلوية، لاسيما حقبة السلطان إسماعيل، بالاستناد إلى كتب الأخبار، يُمَكِّن من إعادة النظر فيما جاءت به معظم المونوغرافيات التي غلب عليها هاجس الرد على الكتابة الاستعمارية، وغرقت في مقاربة

وطنية دفاعية ومعالجة أرشيفية صرفة، ومن ثم التأكيد على أن" أوضاع القرن التاسع عشر في ميدان تأمين الطرق، لم تكن فقط وليدة المستجدات التي أفرزها التسرب الأوربي، بل هي جزء من بنية سياسية-مجالية بعيدة المدى" (ص100) وبذلك تنقلب معادلة فهم تاريخ المغرب قبل الاستعمار، بالتعامل مع القرن التاسع عشر ليس على أساس رصد التحولات التي عرفها النسق الاجتماعي والسياسي التقليدي، من زاوية الفعل الأوربي، من حيث عمليات الضغط والتسرب والتدخل، وما أفرزته من أزمات واضطرابات واختلالات، لاسيما ما اتصل منها بتوتر العلاقة بين القبائل والمخزن، وإضعاف الدولة المركزية، وتزايد أعمال اللصوصية وقطع الطريق، ولكن بناءً على رصد هذا النسق، لرفع النقاب عن الظواهر والبنيات التي ورثها المجتمع المغربي على امتداد قرون عديدة.

أما النقطة الثانية المتصلة بالتحقيب، فتتمثل في مراجعة ما يعرف بالعصرين "الوسيط" و"الحديث"، والتعامل مع البعد الزمني بمقاربة استرجاعية تنطلق من القرن التاسع عشر كمحطة زمنية محورية، يتوزع منها التحليل ويلتقي عندها من جديد، بحيث تحفر الدراسة في الثوابت والمرجعيات الاجتماعية والثقافية التي تعود إلى العصر الوسيط .فرحلة" البحث عن نسق تقليدي مغربي، هي في نهاية المطاف رحلة تعود باستمرار إلى الوراء، بدون أن تؤدي إلى الإمساك بالنسق - المنطلق" (ص260) والجدير بالملاحظة أن عبد الأحد السبتي ينتقل بالقارئ من الموحدين إلى العلويين، من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، بحركة رياضية كبيرة، تنم بطبيعة الحال عن استيعاب قوي للزمن، ولكن أيضا عن "صنعة" نادرة في كتابة التاريخ.

لقد تمكن عبد الأحد السبتي من توسيع مجال اشتغال المؤرخ ليشمل" قطاعات متعددة من البحث التاريخي"، كما يقول إيمانويل لوروا لادوري (Emmanuel Le Roy Ladurie) في كتابه "ميدان المؤرخ"، وليشمل أيضا" مساحات متداخلة الاختصاصات، يحتك داخلها المؤرخ مع العلوم الاجتماعية، ويُفَعْفعُها في بعض الأحيان"[8]. إنه اقتحام لتاريخ اجتماعي شامل من خلال تاريخ المجال ومواطن تمفصل الممارسات الاجتماعية والسياسية والتصورات والأنساق الثقافية. وبرأيي فإن هذه المغامرة المنهجية قد تُخَلْخل المستويات السكونية من البحث التاريخي. فما تقدمه هذه الأطروحة من أدوات منهجية ورؤية للزمن وللمجتمع قد تحفز بعض الباحثين لتوسيع أفق البحث والسير باتجاه تاريخ مفتوح على تناول النصوص على نحو متعدد الأدوات، مفتوح على القضايا الكبرى، مفتوح على مقاربات مشبعة برصيد العلوم الاجتماعية.

* * *

هوامـــش :

1. مما يزيد من أهمية الكتاب، من حيث أدوات الفهم المرافقة للبحث، كونه يحتوي على 781 إحالة، الكثير منها ينطوي على تدقيقات وشروحات غنية جدا .كما يضم فهرسا للأعلام البشرية والجغرافية، وصل عددها 545 ، وفهرسا للمصطلحات والمؤسسات بلغ عددها 151. أما العناوين المعتمدة في هذه الدراسة، من مصادر ومراجع باللغة العربية واللغات الأجنبية، فقد بلغت في مجموعها 188 عنوان.
2. انظر على سبيل المثال عبد الأحد السبتي، "إصدارات تاريخية مغربية 2007-2006"، مجلة رباط الكتب، عدد2008،4 (www.ribatalkoutoub.ma)

3- Abdelahad Sebti, Aristocratie citadine, pouvoir et discours savant au Maroc précolonial : contribution à une relecture de la littérature généalogique fassie (XV^{e}- début XX^{e} siècle), thèse inédite, Université de Paris 7, 1984.

4 ـ عبد الأحد السبتي. " التاريخ الاجتماعي ومسألة المنهج"، ضمن البحث في تاريخ في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم، منشورات كلية الآداب والعلوم والإنسانية، الرباط، 1989، ص 57.

5- Marc Bloch, les caractères originaux de l'histoire rurale française, Paris, Armand Colin, 1952, p. VII.

6- Lucien Febvre, la terre et l'évolution humaine. Introduction géographique à l'histoire (1922), Paris, Albin Michel, 1949, p. 8.

7- Ibid, p; 399/

8- Emmanuel Le Roy Ladurie, Le territoire de l'historien, Paris, Gallimard, 1973, p. 7.

* * *

فهرس



فهرس

تقديـــم

مرحلة تحدي الاستعمار الفرنسي

أبعاد الحماية الإسبانية بين شمال المغرب وجنوبه

مدن مغربية في خط المواجهة

صـورة الاستعمـــار

رحلة الطب والتحليل النفسي إلى المغرب

إضاءات

من محاور المجلة في أعدادها القادمة

التصوف في الغرب الإسلامي
إصلاحيون في المغرب الحديث
القصبات والحصون في المغرب
نظرية الرواية العربية

